بسم الله الرحمن الرحيم

أيها القارئ الكريم : اقرأ سورة الفاتحة كلما قرأت في كتاب من كتبي ، واهدِ ثوابها إلى العلامة الشهير ، والعارف الكبير ، حامل لواء الحجة بالكتاب والسنة ، المفسّر والمحدث بالأسانيد المتصلة ، عن كبار المحدثين – في حلب ودمشق والمغرب وغيرها من البلاد الإسلامية – بإجازات عالية الأسانيد – محفوظة عندي – سيدي وشيخي والدي الكريم ، الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني ، رحمه الله تعالى ، وجزاه عن المسلمين خيراً ، إنه هو السميع العليم . آمين .

سيدنا

محمد رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

شمائله الحميدة ،

خصاله المجيدة

بقلم

عبد الله سراج الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم ، على سيدنا محمد ، إمام الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه والتابعين أجمعين .

وبعد ، فقد جمعت في هذا الكتاب فصولاً موجزة تُعبّر عن بعض الشمائل المحمدية ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، وتحكي بعض جوانب أخلاقه العليّة ، وسيرته السنيّة ، لعلها تذكّر العاقل ، وتنبّه الغافل ، وتعلّم الجاهل .

وإنه ليتحتم الأمر على كل عاقل مكلّف أن يتعرف إلى أوصاف هذا الرسول العظيم والنبي الكريم ، ليسير بنور سيرته ، وليتأسى بكمال أخلاقه صلى الله عليه وسلم .

وإذا كانت العقلاء تطمح إلى معرفة عظماء العالم وكبرائه ، فإن أحقّ ما يجب أن تطمح إليه وتطمع فيه هو التعرف إلى سيد السادات ، وفخر الكائنات ، الذي رفعه الله تعالى أعلى الدرجات ، ورقّاه فوق جميع أهل المراتب والمقامات صلى الله عليه وسلم ، وإن أحداً من الناس مهما علا فضله ، واتسع علمه ، وكمل عقله ، لا يستطيع أن يحيط بمحاسن هذا النبي الكريم ، ولا أن يستقصي أنواع كماله ، وألوان جماله صلى الله عليه وسلم ، بل كلُّهم عاجز عن التعبير عن تلك المعاني المحمدية ، والصفات المصطفوية :

وإن قميصاً خِيط من نسج تسعةٍ

وعشرين حرفاً عن معانيه قاصر

المقدمة في وجوب التعرف إلى جناب رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجوب الاطلاع على شمائله الشريفة وسجاياه اللطيفة .

قال الله تعالى : (واعلموا أنّ فيكم رسول الله ....) الآية .

وقال تعالى : (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ..) ؟! .

إن حقاً على جميع العقلاء المكلفين أن يتعرفوا إلى هذا الرسول الكريم وشمائله الحميدة وخصائِله المجيدة ، وذلك لوجوه متعددة :

الوجه الأول : أن الله تعالى أمر العباد أن يؤمنوا بهذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فقال : (آمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير)

والإيمان به صلى الله عليه وسلم يتطلب من العباد أن يعرفوا فضل هذا النبي الكريم ، ورفعة مستواه على غيره ، وما أسبغ الله تعالى عليه من الكمالات النفسية ، وما أدّبه من الآداب الكريمة الرضية ، وما وهبه من الخُلق العظيم والخَلق الحسن الكريم ، وما أبدع فيه سبحانه من المحاسن ، وجمع فيه مجامع الكمالات ، فجعل جوهره الكريم عالياً على سائر الأفراد والأجناس ، بحيث لا ينقاس بغيره من الناس .

وكيف يقاس بغيره ؟ وقد ميّزه الله تعالى بمميّزات الكمال ، وخصّه بأكرم الخصال ، وأعلاه ذروة الخُلق العظيم ، وجمّله في أحسن صورة وأبدع تقويم ، وخصّه سبحانه بأنواع الاختصاص : فرباه بعنايته ، ورعاه برعايته ، فقال سبحانه : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى)

وتولى سبحانه إقراءه وتعليمه ، في حين أنه صلى الله عليه وسلم نشأ أمّياً ، فقال له سبحانه : (اقرأ باسم ربك) أي : لا بدراستك ولا بثقافتك ، وقال :

(سنقرئك فلا تنسى) وقال : (وعلّمك ما لم تكن تعلم ،وكان فضل الله عليك عظيماً) . وإن مقام (يوحى إليّ) المذكور في قوله تعالى : (قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ) – يلفت الأنظار إلى موضع الاعتبار ، في شأن هذا الرسول المختار ، ويشير إلى خصائص هذا النبي الكريم ، الذي هيّأه الله تعالى وأهّله ، وأعدّه وأمدّه في روحه وجسمه ، وعقله وفهمه ، وسمعه وبصره ، وسائر مداركه وجوارحه ، وجوانحه ، وأعطاه قابلية الاختصاص لأن يتلقّى الوحي بجميع طرق الوحي من رب العالمين .

ومن ثمّ لما واصل صلى الله عليه وسلم الصيام ، واصل بعض أصحابه معه ، فنهاهم عن الوصال ، فقالوا : (نراك تواصل يا رسول الله) ؟ فقال : (إني لست مثلكم – وفي رواية : إني لست كهيئتكم – أبيت يطعمني ربي ويسقيني) كما جاء في الصحيحين .

فهو صلى الله عليه وسلم بشر لا كالبشر ، كما أن الياقوت حجر لا كالحجر .

الوجه الثاني : أن الله تعالى أمر العباد باتباع النبي صلى الله عليه وسلم فقال تعالى :

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فجعل سبحانه الدليل الصادق على محبته هو اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال تعالى : (واتبعوه لعلكم تهتدون) أي : إلى ما فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة

وهذا يتطلّب البحث عن أعماله صلى الله عليه وسلم ، وعن أقواله وأحواله ، ويتطلّب التعرّف إلى سجاياه الكريمة وأخلاقه العظيمة ، ليُتأسّى به ، وليُتّبع في ذلك اتباعاً كاملاً شاملاً ، إلا فيما خصّه الله تعالى به من الأحكام والأحوال .

ومن ثمّ كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يحرصون كل الحرص على تتبُّع أفعاله وأقواله ، وأحواله وآدابه وأخلاقه ، ليتّبعوه في ذلك ، بل كانوا يحرصون كل الحرص على تتبُّع عاداته صلى الله عليه وسلم ، لأنّ عادات السادات هي سادات العادات ، فكيف بعادات سيد السادات عليه أفضل الصلوات والتسليمات ؟!

قال العلاّمة السنوسي رحمه الله تعالى في شرح مقدّمته : وقد عُلم من دين الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ضرورة اتّباعه صلى الله عليه وسلم من غير توقُّف ولا نظر في جميع أقواله وأفعاله ، إلا ما قام عليه دليل اختصاصه به صلى الله عليه وسلم ، فقد خلعوا نعالهم لما خلع صلى الله عليه وسلم نعله ،

ونزعوا خواتيمهم الذهبية لما نزع صلى الله عليه وسلم خاتم الذهب ، وحسر أبو بكر وعمر في قصة جلوسهما على البئر كما فعل عليه السلام ، وكاد يقتلُ بعضهم بعضاً من شدة الازدحام على الحلاق عندما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم يحلق رأسه الشريف ، وحلّ من عمرته في قضية الحديبية – وكان الصحابة يبحثون البحث العظيم عن هيئات جلوسه صلى الله عليه وسلم ونومه ، وكيفية أكله وشربه ، وغير ذلك ليقتدوا به . اهـ .

بل كانوا يحبّون ما يحبُّه صلى الله عليه وسلم من الطعام [1] ويكرهون ما يكره [2].

وقد ذكرنا في كتابنا هذا جانباً من جوانب أخلاقه صلى الله عليه وسلم وآدابه وأعماله وأقواله ، وأذكاره وعباداته ، ليُقتدى به في ذلك صلى الله عليه وسلم .

الوجه الثالث : أن الله تعالى أوجب على المؤمنين أن يحبّوا النبي صلى الله عليه وسلم فوق محبة الآباء والأبناء ، والأزواج والعشيرة ، والتجارة والأموال ، وأوعد من تخلّف عن تحقيق ذلك بالعقاب ، فقال سبحانه : (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ

---

[1] كما روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه أن خياطاً دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لطعام صنعه ، قال أنس : فذهبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الطعام ، فقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبزاً من شعير ومرقاً فيه دباء – أي : قرع – فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتتبّع الدباء فلم أزل أحبّه من يومئذ .

[2] كما ورد في صحيح مسلم عن أبي أيوب رضي الله عنه لما صنع طعاماً للنبي صلى الله عليه وسلم وفيه ثوم ، فقيل لأبي أيوب : لم يأكل منه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : أحرام هو ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا ، ولكني أكرهه) قال أبو أيوب : فإني أكره ما تكره ... الحديث)

تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) .

ولا ريب أن أسباب المحبة ترجع إلى أنواع الجمال والكمال والنوال ، كما قرره الإمام الغزالي رضي الله عنه وغيره .

فإذا كان الرجل يُحبُّ لكرمه ، أو لشجاعته ، أو لحِلمه ، أو لعِلمه ، أو لتواضُعه ، أو لتعبُّده وتقواه ، أو لزُهده وورعِه ، أو لكمال عقلِه ، أو فور فهمِه ، أو جمال أدبه ، أو حُسن خُلُقه ، أو فصاحة لسانه ، أو حُسن مُعاشرته ، أو كثرة برّه وخيره ، أو لشفقتِه ورحمتِه ، أو نحو ذلك من صفات الكمال ... فكيف إذا تأصّلت واجتمعت هذه الصفات الكاملة وغيرها من صفات الكمال ، في رجل واحد ، وتحقّقت فيه أوصاف الكمال ومحاسن الجمال على أكمل وجوهها ، ألا وهو السيد الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي هو مجمع صفات الكمال ومحاسن الخصال ، قد أبدع الله تعالى صورته العظيمة ، وهيئته الكريمة ، وطوى فيه أنواع الحسن والبهاء ، بحيث يقول كل من نعته : لم يُرَ قبله ولا بعده مثله .

ولذلك كان من الواجب على المكلّف أن يتعرّف إلى جمال هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ومحاسنه الخُلقية ، وكمالاته النفسية والروحية ، والقلبية والعقلية والعلمية ، وذلك لينال مقام محبّته الصادقة ، لأنّ المعرفة هي سبب المحبة ، فكلما زادت المعرفة بمحاسن المحبوب ، زادت المحبة له .

قال سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما : سألت خالي هند بن أبي هالة – وكان وصّافاً – عن حِلية النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئاً أتعلّق به ، فقال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فخماً مُفخّماً ، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ..) الحديث كما سيأتي .

الوجه الرابع : أن اطلاع الإنسان على أوصافه صلى الله عليه وسلم العظيمة وشمائله الكريمة – ليُعطي صورة علمية تنطبع في القلب ، وترتسم في المُخيّلة ، كأنه قد رأى محبوبه صلى الله عليه وسلم .

فقد كان صلى الله عليه وسلم يذكُر لأصحابه أوصاف الرسل قبله ويقرّب إليهم ذلك بأشباههم ، حتى إنهم يصيرون بحال كأنهم قد رأوهم ، وذلك أقرب سبيل للتعرف بهم ، وأقرب طريق للتحبُّب فيهم .

جاء في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (ليلة أُسريَ بي لقيتُ موسى – قال الراوي – فنعته النبي صلى الله عليه وسلم – أي : وصفه – رجِل الرأس ، كأنه من رجال شنوءة ، قال : ولقيت عيسى – فنعته صلى الله عليه وسلم فقال : ربعة أحمر ، كأنما خرج من ديماس – يعني – الحمام – ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به ..) الحديث .

الوجه الخامس : أن في ذكر شمائله صلى الله عليه وسلم وسماع أوصافه ونعوته ، تحيا قلوب المحبين ، وتطرب أرواحهم وعقولهم ، ويزداد حُبهم ، ويتحرك اشتياقهم .

قال العارف الكبير الشيخ أبو مدين رضي الله عنه :

ونحيا بذكراكم إذا لم نكن نراكم

ألا إن تذكار الأحبة يُنعشنا

فلولا معانيكم تراها قلوبنا

إذا نحن أيقاظ وفي النوم إن غبنا

لمِّتنا أسى من بعدكم وصبابة

ولكن في المعنى معانيكم معنا

يحرّكنا ذكر الأحاديث عنكمُ

ولولا هواكم في الحشا ما تحرّكنا

ويرحم الله القائل :

أخلاي إن شطّ الحبيب وربعه

وعزّ تلاقيه وناءت منازله

وفاتَكُم أن تنظروه بعينكم

فما فاتكم بالسمع هذي شمائله

صلى الله عليه وسلم

حول محاسن صورته الشريفة صلى الله عليه وسلم

اعلم – علّمنا الله تعالى وإياك – أن الله تعالى خلق سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم في أجمل صورة بشرية ، وأكمل خلقة آدمية ، فهو صلى الله عليه وسلم مجمع المحاسن المبدَعات ، والفضائل والكمالات الخلقية والخُلُقية ، وقد أجمعت كلمة الذين رأوه ووصفوه على أنه صلى الله عليه وسلم لم يُرَ له مثيل سابق ولا نظير لاحق .

قال البراء بن عازب رضي الله عنه : (كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجهاً ، وأحسنهم خُلُقاً ، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير) متفق عليه .

وعنه رضي الله عنه أنه قال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم مربوعاً ، بعيد ما بين المنكبين ، له شعر يبلغ شحمة أذنيه ، رأيته في حُلة حمراء ، لم أرَ شيئاً قطُّ أحسن منه صلى الله عليه وسلم) رواه مسلم .

وعن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بالقصير ولا بالطويل ، ضخم الرأس ، شثن الكفين والقدمين ، مُشرباً وجهه بحمرة ، طويل المسرُبة ، إذا مشى تكفأ كأنما يقلع من صخر ، لم أر قبله ولا بعده مثله) رواه الإمام أحمد .

وعن علي رضي الله عنه أنه كان إذا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطويل المُمغّط ، ولا بالقصير المتردد ، وكان رُبعة من القوم ، ولم يكن بالجعد القَطط ، ولا بالسبط ، كان جعداً رجِلاً ، ولم يكن بالمطهم ولا بالمُكلثم ، وكان في وجهه تدوير ، أبيضُ [1] ، مُشرب بحمرة ، أدعج العينين ، أهدب الأشفار ، جليل المشاش والكتَد ، أجرد ، ذو مسربة ، شثن الكفين والقدمين ، إذا مشى تقلع كأنما ينحطُّ من صبب ، وإذا التفتَ التفتَ معاً ، بين كتفيه خاتم النبوّة وهو خاتم النبيين ، أجود الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عِشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبّه ، يقول ناعته : لم أرَ قبله ولا بعده مثله) [2]

---

[١] وأما ما ورد في بعض الأحاديث أنه صلى الله عليه وسلم كان أسمر ، فقد أعله الحافظ العراقي بالشذوذ ، وقال : هذه اللفظة – يعني أسمر – انفرد بها حميد عن أنس ، ورواه غيره من الرواة عن أنس بلفظ (أزهر اللون) وقد ورد وصف لونه صلى الله عليه وسلم بالبياض عن خمسة عشر صحابياً كما نبّه عليه المحققون .

[٢] قال الحافظ أبو عيسى الترمذي بعدما روى هذا الحديث : سمعت أبا جعفر محمد بن الحسين يقول : سمعت الأصمعي يقول في تفسير صفة النبي صلى الله عليه وسلم : المُمّغط : الذاهب طولاً ، وقال : سمعت أعرابياً يقول في كلامه : تمغط في نشابته أي : مدّها مداً شديداً ، فهو اسم مفعول من التمغيط ، كما حكاه في (جامع الأصول) عن المحدثين .وقال القسطلاني : الممّغط بتشديد الميم الثانية وبكسر الغين ، اسم فاعل ،وأصله : منمغط ، فقلبت النون ميماً وأدغمت اهـ من (شرح المواهب) باختصار ٤ : ١٩٩ .

المتردد : الداخل بعضه في بعض ، وأما القطط : فالشديد الجعودة . والرجل : الذي في شعره حجونة أي : تثنٍ قليلاً .

وأما المطهم : فالبادن الكثير اللحم ، والمكلثم ، المدور الوجه ، والمشرب : الذي في بياضه حمرة ، والأدعج : الشديد سواد العين ، والأهدب : الطويل الأشفار ، اي : طويل شعر الأشفار ، لأن الأشفار هي الأجفان التي تنبت عليها الأهداب .

والكتد : مجتمع الكتفين ، وهو الكاهل . والمسربة : هو الشعر الدقيق الذي كأنه قضيب من الصدر إلى السرة . والشثن : الغليظ الأصابع من الكفين والقدمين . والتقلع : أن يمشي بقوة ، والصبب : الحدور ، يقال : انحدرنا في صبوب وصبب . وقوله : جليل

وروى البيهقي وغيره [1] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة هاجر من مكة إلى المدينة هو وأبو بكر وعامر بن فُهيرة مولى أبي بكر ، ودليلهم عبد الله بن أريقط الليثي ، فمرُّوا بخيمة أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية – وكانت أمُّ معبد امرأة برزة [2] جلِدة - أي : قوية – تحتبي وتجلس بفِناء الخيمة فتطعم وتسقي (من يمرُّ بها) فسألوها هل عندها لحم أو لبن يشترونه منها ؟ فلم يجدوا عندها شيئاً من ذلك ، وقالت : والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم القِرى – أي : ما أحوجناكم بل كنا نُضيفكم – وإن القوم مُرمِلون مُسنتون [3] .

فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا شاة في كِسر – أي : جانب – خيمتها فقال : (ما هذه الشاة يا أمَّ معبد ؟) .

فقالت : شاة خلّفها الجهد [4] عن الغنم .

فقال صلى الله عليه وسلم : (فهل فيها من لبن ؟) .

فقالت : هي أجهد – أي : أضعف – من ذلك .

فقال : (أتأذنين لي أن أحلبها) ؟

فقالت : إن كان بها حلب فاحلُبها – وفي رواية : نعم ، بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلباً فاحلُبها - .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاة فمسحها ، وذكر اسم الله ومسح ضرعها – في رواية : ظهرها – وذكر اسم الله ، ودعا بإناء لها يُريض

المشاش يريد رؤوس المناكب . والعشرة : الصحبة ، والعشير : الصاحب . والبديهة : المفاجأة . يقال بدهته بأمر أي : فجأته به اهـ

[1] ورواه الحاكم وصححه وصاحب الغيلانيات وابن عبد البر وابن شاهين وابن السكن والطبراني وغيرهم اهـ من الزرقاني على المواهب .

[2] عفيفة جليلة مسنة .

[3] أي : أصابتهم السنة الجدباء .

[4] أي : منعها الهزال عن لحوق الغنم للمرعى .

الرهط – أي : يُشبع الجماعة حتى يُريضوا [1] - وتفاجّت [2] ، واجترّت – وفي رواية – فحلب فيه ثجّاً [3] حتى ملأه .

فسقى أمّ معبد وسقى أصحابه فشربوا عَللاً بعد نَهل ، حتى إذا رووا شرب صلى الله عليه وسلم آخرهم وقال : (ساقي القوم آخرهم شرباً) .

ثم حلب صلى الله عليه وسلم فيه ثانياً عوداً على بدءٍ فغادره – أي : تركه – عندها – وفي رواية : قال لها صلى الله عليه وسلم : (ارفعي هذا لأبي معبدٍ إذا جاءك) – ثم ارتحلوا .

فقلما لبث – أي : ما لبث إلا قليلاً – أن جاء زوجها أبو معبد يسوق عِجافاً يتساوكن هُزلاً ، مُخهنَّ [4] قليل ، فلما رأى اللبن عجب وقال : من أين هذا اللبن يا أم معبد ولا حلوب في البيت ، والشاء عازب [5] ؟!

فقالت : لا والله إلا أنّه مرّ بنا رجل مبارك ، كان من حديثه كذا وكذا – وفي رواية : كيت وكيت – فقال : صفيه لي يا أمّ معبد .

فقالت : رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة ، حسن الخَلق ، مليح الوجه ، لم تعِبه ثجلة [6] ، ، ولم تُزرِ به صعلة [7] ، ، قسيم وسيم [8] ، في عينيه دَعَج [9] ، وفي وفي أشفاره وطَف [10] ، وفي صوته صَحَل [11] ، أحور [1] ، أكحل [2] ، أزجُّ ،

---

[1] أي : حتى يرووا من اللبن ويثقلوا فيناموا

[2] أي : فتحت ما بين رجليها .

[3] الثج : هو السيلان .

[4] المخ : هو الودك الذي في العظم .

[5] أي : بعيدة عن المرعى .

[6] الثجلة : بفتح الثاء وسكون الجيم : عِظم البطن .

[7] الصعلة : بفتح الصاد وسكون العين : صغر الرأس .

[8] صفتان تدلان على الحسن .

[9] الدعج : شدة سواد حدقة العين .

[10] الوطف : مفتوح الطاء : كثرة شعر الحاجبين والعينين .

[11] الصحل : بفتح الصاد والحاء : وهو كالبحة في الصوت .

أقرن [3] ، في عنقه سطع [4] ، وفي لحيته كثاثة ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، كلامه فصل لا نزر[5] ولا هذر [6] ، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ، أبهى الناس وأجمله من بعيد ، وأحسنه من قريب ، ربعة ، لا تشنؤه [7] عين من طول ، ولا تقتحمه [8]

عين من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم قدّاً ، له رفقاء يحفّون به ، إن قال استمعوا لقوله ، وإن أمر تبادروا لأمره ، محفود محشود [9] ، لا عابس ولا مفنّد [10] .

قال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش الذي تطلب ، ولو صادفته لالتمستُ أن أصحبه ، وفي رواية : لو رأيته لاتّبعته – ولأجهدنّ إن وجدتُ إلى ذلك سبيلاً – ثم هاجرت مع زوجها إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأسلما [11] .

وروى مسلم والترمذي عن الجُريري – بالتصغير – أنه قال لأبي الطُفيل : رأيتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : نعم . قلت : كيف رأيته ؟ -

---

[1] الحور : أن يشتدّ بياض بياض العين وسواد سوادها ، وهو المحمود والمحبوب

[2] الكحل : بفتحتين : سواد في أجفان العين خِلقة .

[3] الأقرن : هو مقرون الحاجبين ، ولكن هذا مخالف لحديث هند بن أبي هالة الذي سيأتي ، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم أزج الحواجب سوابغ من غير قرن ، وهو المشهور ، وقد يجاب عن هذا : بأن بين الحاجبين الشريفين شعراً خفيفاً يظهر إذا وقع عليه غبار السفر ، وحديث أم معبد كان في حال السفر اهـ ملخصاً من شرح المواهب .

[4] أي : ارتفاع وطول .

[5] النزر : بسكون الزاي : هو القليل .

[6] الهذر : بفتح الذال : الكثير .

[7] أي لا يُبغض لفرط طوله ، والمراد ليس فيه طول مبغوض إلى النفوس .

[8] أي : لا تتجاوزه إلى غيره احتقاراً

[9] محفود : أي مخدوم ، والمحشود الذي عنده حشد وهم الجماعة .

[10] المفنّد : الذي يكثر اللوم .

[11] انظر شرح المواهب وتاريخ ابن كثير .

وفي رواية الترمذي : فقلت : صفه لي – فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبيض مليح الوجه – وفي رواية : أبيض [1] مليحاً مقصّداً [2]

تلألؤ وجهه المنير وإشراق مُحياه

كان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجهاً ، وأنورهم مُحيّا ، اجتمعت كلمة الصحابة الذين وصفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على أنه صلى الله عليه وسلم ، كان منير الوجه ، مُشرق المحيا ، يتلألأ بالنور الباهر ، والضياء الزاهر ، والبهاء الظاهر .

فمن الصحابة من ضرب المثل لبهاء نوره صلى الله عليه وسلم بالشمس ، ومنهم من شبّه ذلك بالقمر ، ومنهم من شبّه لمعة إشراقات وجهه الشريف بلمعة القمر ، وجميع هذا مما يثبت لنا إشراقات وجهه الظاهرة ، وأنواره الباهرة صلى الله عليه وسلم .

وإليك الأحاديث الساطعة والأدلة القاطعة :

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ، كأنّ الشمس تجري في وجهه)[3] .

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه : وكانوا يقولون : هو كما وصفه صاحبه أبو بكر رضي الله عنه :

---

[1] يعني أيضاً مشرباً بحمرة كما دلت عليه بقية الروايات .

[2] أي : متوسطاً في جميع أوصافه ، والوسط هو مجمع كمال الطرفين المتقابلين .

[3] ورواه الإمام أحمد والبيهقي وابن حبان وابن سعد :

قال عمرو بن سالم الخزاعي حين قدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهو صلى الله عليه وسلم بين أصحابه في المسجد – يستنصره على قريش لما نقضوا العهد :

يا رب إني ناشد محمداً   حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم ولداً وكنا والداً   ثمة أسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً أبداً   وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجرّدا   أبيض مثل البدر يسموا صعدا

أمينُ مصطفى للخير يدعو   كضوء البدر زايله الظلام

وعن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال : قلت للرُبيّع بنت معوّذ : صفي لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقالت : (يا بني لو رأيته لرأيت الشمس طالعة) رواه الترمذي .

والبيهقي وغيرهما .

وروى الترمذي من حديث هند بن أبي هالة من رواية الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : سألت خالي هند بن أبي هالة – وكان وصّافاً – عن حِلية النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أشتهي أن يصِف لي منها شيئاً أتعلّق به .

فقال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فخماً مفخّماً ، يتلألؤ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ..) الحديث كما سيأتي .

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة إضحيان [1] وعليه حُلة حمراء ، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر فلهو عندي أحسن من القمر) رواه الترمذي .

وعن أبي إسحق السّبيعي أنه قال : سأل رجل البراء بن عازب : أكان وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل السيف ؟[2] .

فقال : (لا ، بل مثل القمر) رواه البخاري والترمذي .

وروى مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه وقال رجل : كان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل السيف ؟

فقال جابر : (لا بل مثل الشمس والقمر ، وكان مستديراً) [1]

---

[1] يقال : ليلة ضحيا وإضحيان وهي : المقمرة من أولها إلى آخرها .
[2] أي : أهو مثل السيف في اللمعان والإضاءة .

وفي صحيح البخاري من حديث كعب بن مالك أنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر ..) الحديث .

وروى البيهقي عن أبي إسحق الهمداني [2] عن امرأة من همدان سماها (أبو إسحق) قالت : حججتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مرات ، فرأيتُه على بعيرٍ له يطوف بالكعبة ، بيده محجن عليه بُردان أحمران ، يكادُ يمسُّ شعره منكبه إذا مرّ بالحجر استلمه بالمحجن ، ثم يرفعه إلى فيه فيُقبّله ، قال أبو إسحق : فقلت لها : شبّهيه صلى الله عليه وسلم فقالت : (كالقمر ليلة البدر ، لم أرَ قبله ولا بعده مثله).

ولما قدم صلى الله عليه وسلم المدينة جعل أهلها يتناشدون :

طلع البدر علينا　　　　من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا　　　　ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا　　　　جئت بالأمر المطاع

فوجهه صلى الله عليه وسلم المشرق بالأنوار ، والفياض بالمعاني والأسرار ، دليل ساطع وبرهان قاطع على أنه رسول الله تعالى حقاً وصدقاً .

قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه : أوّل ما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس إليه – أي : أسرعوا إليه – فكنت فيمن جاءه ، فلما تأملت وجهه صلى الله عليه وسلم واستبنته – أي : تحقّقته وتبيّنته – عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذاب – أي : بل هو وجه إمام المرسلين – قال : فكان أول ما سمعتُ من كلامه أن قال : (أيها الناس : أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصِلوا الأرحام ، وصلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام) رواه الترمذي وصححه . ومن أجل ذلك قال عبد الله بن رواحة :

---

[1] يعني أنه وجهه صلى الله عليه وسلم مثل الشمس في الإشراق والضياء ، ومثل القمر في الملاحة والبهاء ، وفيه استدارة ، صلى الله عليه وسلم ، كما في شرح المواهب .
[2] هو السبيعي المتقدم ، وهو تابعي جليل روى له الأئمة الستة

لو لم تكن فيه آيات مبيّنة   كانت بديهته تُنبيك بالخبر

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجهاً ، وأنورهم لوناً ، لم يصفه واصفٌ قطُّ إلا شبّه وجهه بالقمر ليلة البدر ، وكان عرقُه في وجهه مثل اللؤلؤ ، وأطيب من المسك الأذفر) رواه أبو نعيم وغيره

وفي ذلك يقول أبو طالب :

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه   ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وروى ابن عساكر وأبو نعيم والخطيب بسند حسن ، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كنت قاعدة أغزل والنبي صلى الله عليه وسلم يخصف نعله ، فجعل جبينه يعرق ، وجعل عرقه يتولد نوراً ، فبهت ، فقال : (مالك بهت) قلت : جعل جبينك يعرق ، وجعل عرقك يتولد نوراً ولو رآك أبو كبير الهُذلي لعلم أنك بِشعره أولى حيث يقول :

ومبرّأ من كل غُبر حيضَة   وفساد مرضعة وداء مغيل [1]

وإذا نظرتَ إلى أسِرّة وجهه   برِقت بروق العارض المتهلل

وذكر ابن أبي خيثمة : (كان صلى الله عليه وسلم أجلى الجبين ، إذا طلع جبينه بين الشعر أو طلع من فلق الشعر ، أو عند الليل ، أو طلع بوجهه على الناس ، تراءى جبينه كأنه هو السراج المتوقّد يتلألؤ ، وكانوا يقولون : هو صلى الله عليه وسلم كما قال شاعره حسان رضي الله عنه :

متى يبدُ في الليل البهيم جبينهُ   يلُح مثلَ مصباح الدُجى المتوقّد

فمن كان أو من قد يكون كأحمدٍ   نظامٌ لحقٍ أو نكالُ لملحد

---

[1] أي : لم تحمل به في بقية حيض ، ولا حملت بغيره حالة رضاعه فيفسد رضاعه – كما في شرح المواهب .

وفي حديث طارق بن عبد الله المحاربي – كما في (سنن الدارقطني) – قال : قالت الظعينة : (لا تلاوموا ، فقد رأيت وجه رجل ما كان ليحقركم ، ما رأيت وجه رجل أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه) تعني بذلك وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عرقه الشريف وطيب رائحته

كان من صفاته صلى الله عليه وسلم : أنه طيّب الرائحة وإن لم يمسّ طيباً ، ومع ذلك كان يستعمل الطيب في كثير من الأوقات ، ليسنّ ذلك لأمته فيتبعوه ، ولأنه حُبّبَ إليه الطيب ، كما في الحديث الذي رواه الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : _ حُبّب إليّ من دنياكم : الطيب والنساء ، وجُعلت قرّة عيني في الصلاة)

ومما يدلُّ على أن طيب الرائحة كان صفة له صلى الله عليه وسلم وهي أطيب الطيب كله ، وأن رائحته الزكية أطيب من النفحات العنبرية والمسكية ، ما ورد في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال : (ما شممتُ شيئاً قط : ديباجاً ولا حريراً ألين مسّاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم) رواه الشيخان وغيرهما .

وفي رواية الترمذي : قال أنس : (ولا شممتُ مسكاً قطّ ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أزهر اللون ، كأن عرقه اللؤلؤ ، إذا مشى تكفّأ ، ولا مسستُ ديباجة ولا حريرة ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا شممتُ مسكة ولا عنبرة أطيب من رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم) رواه مسلم .

وروى أبو نعيم والخطيب أن آمنة أم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ولدته قالت : (ثم نظرتُ إليه فإذا هو كالقمر ليلة البدر ، ريحه يسطع كالمسك الأذفر) وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : صلّيت مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم صلاة الأولى – يعني : صلاة الظهر – ثم خرج إلى أهله وخرجت معه ، فاستقبله ولدانٌ – أي : صبيان – فجعل صلى الله عليه وسلم يمسح خدّي أحدهم واحداً واحداً .

قال جابر : وأما أنا فمسح خدّي فوجدت ليده برداً وريحاً كأنما أخرجها من جؤنة عطار [1] . رواه مسلم .

وفي (مسند) الإمام أحمد من حديث أبي جحيفة : (أن النبي صلى الله عليه وسلم توضّأ وصلى الظهر ثم قام الناس ، فجعلوا يأخذون يده فيمسحون بها وجوههم ، قال : فأخذت يده فوضعتها على وجهي فإذا هي أبرد من الثلج ، وأطيب ريحاً من المسك) – وأصل الحديث في الصحيحين .

فانظر يا أخي في هذه الأحاديث فإنها تدل دلالة واضحة على طيب رائحته طيباً ذاتياً محمدياً صِرفاً ، أكرمه الله تعالى به في جملة صنوف الإكرام والإنعام

تطيّب الصحابة بعرق النبي صلى الله عليه وسلم وتبّركهم به

روى الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : (دخل علينا النبي صلى الله عليه وسلم فقالَ[2] عندنا ، فعرِق فجاءت أمي – أم سليم بنت ملحان – بقارورة [3] فجعلت تسلت العرق فيها ، فاستيقظ النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (يا أم سُليم ما هذا الذي تصنعين ؟) قالت : هذا عرقك نجعله في طيبنا ، وهو من أطيب الطيب) ، وروى مسلم أيضاً عن أنس رضي الله عنه قال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها [4] وليست فيه ، قال : فجاء ذات يوم فنام على فراشها ، فأُتِيت فقيل لها : هذا النبي صلى الله

---

[1] جؤنة العطار : بضم الجيم وهمزة بعدها وقد تخفف بإبدالها واواً ، وهي : سليلة مستديرة مغشاة كالسفط يجعل فيها العطار عطره .

[2] أي فنام وقت القيلولة وهي : نصف النهار

[3] وهي : إناء من زجاج يوضع فيه الطيب وقد يطلق على غير الزجاج

[4] وكانت مَحرماً له صلى الله عليه وسلم .

عليه وسلم نام في بيتك على فراشك ، قال : فجاءت وقد عرق واستنقع عرقه صلى الله عليه وسلم على قطعة أديم على الفراش ، ففتحت أم سليم عتيدتها [1] فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها ، ففزع[2] النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (ما تصنعين يا أم سُليم ؟) ، فقالت : يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا . فقال : (أصبت) .

وروى مسلم عن أنس عن أم سليم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأتيها فيقيل عندها – أي : ينام في وقت القائلة – فتبسط له نِطعاً فيقيل عليها [3] ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم كثير العرق ، فكانت تجمع عرقه فتجعله في

---

[1] وهو كالصندوق الصغير تجعل المرأة فيه ما يعزّ عليها من متاعها .

[2] أي : استيقظ من نومه .

[3] قال الإمام النووي في شرحه على هذا الحديث : إنها كانت محرماً له صلى الله عليه وسلم ، ففيه الدخول على المحارم والنوم عندهن اهـ . وقال أيضاً في (تهذيب الأسماء) : أم سليم : اختلف في اسمها : فقيل : سهلة ، وقيل : رملة ، وقيل : أنيسة ، وقيل : رميثة ، وقيل : الرميصاء ، وهي بنت ملحان – بكسر الميم وقيل : بفتحها – وهي أم أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا خلاف في هذا بين أهل العلم ، ثم قال : وكانت أم سليم هذه وأختها خالتين لرسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة الرضاع ، وكانت من فاضلات الصحابيات اهـ
فلا ينبغي أن يتوهم من حديث أم سليم أنه صلى الله عليه وسلم كان يخلو بامرأة أجنبية عنه ، فإن أم سليم كان محرماً له ، خالته من الرضاع .
بل إنه صلى الله عليه وسلم قد تبرأ من ذلك الوهم ونفى عنه أن يظن به ذلك ، ففي الصحيحين عن علي بن الحسين رضي الله عنهما أن صفية زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً ، فحدثته ، ثم قمت لأنقلب – أي : أرجع – فقام معي ليقلبني – أي : يودعني من حيث جئت – فمر رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرعا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (على رسلكما – أي : مهلكما دون إسراع – إنها صفية بنت حيي)
فقالا : سبحان الله يا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكم شراً – أو قال : شيئاً)
وفي هذا تشريع لأمته من بعده أن أحدهم مهما ارتفعت درجته وطابت نفسيته فإنه لا يجوز له أن يخلو بامرأة أجنبية أصلاً .

الطيب والقوارير ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (يا أم سليم ما هذا ؟) قالت : عرقك أدوف [1] به طيبي – وفي رواية أحمد : فدعا لها بدعاء حسن .

وعن أم عاصم امرأة عتبة بن فرقد السلمي قالت : (كنا عند عتبة أربع نسوة – أي : زوجات له – فما منا امرأة إلا وهي تجتهد في الطيب لتكون أطيب من صاحبتها ، وما يمسُّ عتبة الطيب إلا أن يمسّ دهناً يمسح لحيته ، ولهو أطيب ريحاً منّا ، وكان إذا خرج إلى الناس قالوا :

ما شممنا ريحاً أطيب من ريح عتبة ، فقلت له يوماً : إنّا لنجتهد في الطيب ولأنت أطيب ريحاً منّا ، فمِمّ – أي : من أي سبب – ذلك ؟

فقال عتبة : أخذني الشرى [2] على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتيته فشكوت ذلك إليه صلى الله عليه وسلم ، فأمرني أن أتجرد ، فتجردت عن ثوبي ، وقعدت بين يديه وألقيت ثوبي على فرجي [3] فنفث رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده ثم مسح ظهري وبطني بيده ، فعبق [4] بي هذا الطيب من يومئذ)[5]

وأخرج أبو يعلى والطبراني من حديث أبي هريرة في قصة الذي استعان بالنبي صلى الله عليه وسلم على تجهيز ابنته فلم يكن عنده شيء فاستدعى صلى الله عليه وسلم بقارورة – أي : إناء صغير – فسَلتَ له فيها من عرقه وقال له : (مرها فلتتطيب به) فكانت إذا تطيّبت به شمّ أهل المدينة رائحة ذلك الطيب فسُّموا بيت المطيّبين . اهـ من (فتح الباري) .

طيبه العبق صلى الله عليه وسلم ينفح كل شيء مسّه وكل طريق مرّ به

---

[1] بالدال المهملة وبالمعجمة كما قال النووي
[2] هو مرض في الجلد يورث الحكة
[3] يعني أنه ستر عورته كلها
[4] لازمه ولزق به
[5] رواه الطبراني في (الكبير والصغير)

روى الطبري والبيهقي عن وائل رضي الله عنه قال : (لقد كنت أصافح رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يمسُّ [1] جلدي جلده ، فأتعرّفه [2] بعدُ في يدي ، وإنه لأطيب رائحة من المسك).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (كانت كفُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ألين من الحرير ، وكأن كفّهُ كفُّ عطارٍ – مسّها بطيب أو لم يمسّها ، يصافح المصافح فيظلُّ يومه يجد ريحها ، ويضع يده على رأس الصغير فيُعرف من بين الصبيان بريحها) رواه أبو نعيم والبيهقي .

وعن أنس رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مرّ في طريق من طرق المدينة ، وجدوا منه رائحة الطيب ، وقالوا : مرّ رسول الله من هذا الطريق) رواه أبو يعلى والبزار بإسناد صحيح .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : (كان في رسول الله صلى الله عليه وسلم خصال لم يكن يمرُّ في طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه صلى الله عليه وسلم سلكه ، من طيب عرقه وعرَفه [3] ، ولم يكن يمرُّ بحجر إلا سجد له) رواه الدارمي والبيهقي وأبو نعيم [4] .

ويرحم الله القائل :

ولو أن ركباً يمّموك لقادهم   نسيمك حتى يستدلّ به الركب

وفي (المسند) عن وائل بن حجر : (أن النبي صلى الله عليه وسلم أُتي بدلوٍ من ماء فشرب منه ، ثم مجّ في الدلو ، ثم في البئر ، ففاح منه مثل ريح المسك) .

حول خصائص ريقه الشريف صلى الله عليه وسلم

---

[1] (أو) للتنويع فهو يخبر عن حالتين

[2] أي : فأعرف أثره بعد مفارقته لي

[3] عرقه : بالقاف ، وعرفه : بالفاء ، وهو ريحه الطيب

[4] انظر المواهب

لقد أعطى الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم خصائص كثيرة في ريقه الشريف ، ومن ذلك : أن ريقه صلى الله عليه وسلم فيه شفاء للعليل ، ورواء للغليل ، وغذاء وقوة وبركة ونماء .

فكم داوى صلى الله عليه وسلم بريقه الشريف من مريض فبرئ من ساعته :

جاء في الصحيحين عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر : (لأعطينّ الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله)

فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله وكلُّهم يرجو أن يُعطاها ، فقال صلى الله عليه وسلم : (أين عليّ بن أبي طالب ؟) فقالوا : هو يا رسول الله يشتكي عينيه ، قال : (فأرسلوا إليه) ، فأُتي به – وفي رواية مسلم : قال سلمة : فأرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عليّ ، فجئت به أقوده أرمد – فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه ، فبرئ كأنه لم يكن به وجع ..) الحديث .

وفي زوائد ابن حبان عن عبد الله بن بريدة قال : سمعت أبي يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تفلَ في رِجل عمرو بن معاذ حين قُطعت رجله فبرأ . وإن ريقه الشريف صلى الله عليه وسلم غذاء للمتغذي .

كما روى البيهقي في (الدلائل) أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوم عاشوراء يدعو برضعائه – أي : صبيانه الذين ينسبون إليه – وبرُضعاء ابنته السيدة فاطمة رضي الله عنها ، فيتفل في أفواههم ويقول للأمهات : (لا ترضعنهم إلى الليل ..) فكان ريقه صلى الله عليه وسلم يكفيهم عن الرضاع

وأعطى النبي صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي رضي الله عنه لسانه ، وكان قد اشتدّ عليه الظمأ ، فمصه حتى روي ، كما رواه ابن عساكر .

وروى الطبراني وأبو نعيم أن عميرة بنت مسعود الأنصارية وأخواتها دخلن على النبي صلى الله عليه وسلم يبايعنه ، وهنّ خمس ، فوجدنه يأكل قديداً ،

فمضغ لهن قديدة ، قالت عميرة : (ثم ناولني القديدة فقسمتها بينهن ، فمضغت كل واحدة قطعة فلقين الله تعالى وما وجد لأفواههنّ خلوف) – أي : تغيُّر رائحة فم .

نظافته صلى الله عليه وسلم وأمره بالنظافة

كان صلى الله عليه وسلم أنظفَ خلق الله تعالى بدناً وثوباً وبيتاً ومجلساً ، فلقد كان بدنه الشريف صلى الله عليه وسلم نظيفاً وضيئاً ، كما تقدم في حديث هند بن أبي هالة أنه صلى الله عليه وسلم (أنور المتجرّد) وذلك أن أعضاءه المتجردة عن الشعر والثوب هي في غاية الحسن ، ونصاعة اللون ، وفي هذا دليل نظافته صلى الله عليه وسلم ، وكما ورد في الحديث : (كأنّ عنقه جيد دُمية في صفاء الفضة)

وروى الترمذي عن أبي الطفيل أنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبيض مليحاً مقصّداً) – أي : متوسطاً بين الطول والقصر .

وروى الترمذي عن ابن أبي جحيفة عن أبيه قال : (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وعليه حلّة حمراء ، كأني أنظر إلى بريق ساقيه)

وذلك لأن ثوبه صلى الله عليه وسلم كان إلى أنصاف ساقيه تحت الركبة – وإن طيب عرفه وعرقه صلى الله عليه وسلم لهو أكبر دليل على نظافة جسمه صلى الله عليه وسلم . وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : (ما مسستُ حريراً ولا ديباجاً ألينَ من كف النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا شممتُ ريحاً قطّ أو عرَفاً – وفي رواية : أو عرقاً – أطيب من ريح أو عرف النبي صلى الله عليه وسلم) [1] .

وعن أبي قرصافة قال : لما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وأمي وخالتي ، ورجعنا من عنده منصرفين ، قالت لي أمي وخالتي : (يا بني ما

---

[1] العرف هو الريح الطيب .

رأينا مثل هذا الرجل ، ولا أحسن منه وجهاً ، ولا أنقى ثوباً ، ولا ألين كلاماً ، ورأينا كأنّ النور يخرج من فِيهِ)[1] .

فهو صلى الله عليه وسلم أنظف خلق الله بدناً ،وأنقاهم ثوباً .

وكان صلى الله عليه وسلم يستاك حين خروجه ودخوله منزله .

أمره صلى الله عليه وسلم بالنظافة

كان صلى الله عليه وسلم يأمر بالنظافة ويحثّ عليها ، ويحذّر من الوساخة ، وقد جاء ذلك منه على وجوه متعدّدة .

أولاً : بيانه صلى الله عليه وسلم أن من مبادئ الإسلام النظافة :

روى الترمذي عن سعد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله تعالى طيّب [2] يجب الطّيب ، نظيف [3] يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جَواد [4] يحب الجود ، فنظّفوا أفنيتكم ولا تشّبهوا باليهود)

وعن سليمان بن صُرَد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (استاكوا ، وتنظّفوا ، وأوتروا فإنّ الله عز وجلّ وتر يحب الوتر)[5] .

وروى الخطيب وغيره عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إنّ الإسلام نظيف ، فتنظّفوا ، فإنه لا يدخل الجنة إلا نظيف)

---

[1] قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم اهـ

[2] أي : منزه عن النقائص ومقدّس عن الآفات والعيوب ، يحب الطيب أي : الحلال الذي علم أصله وجريانه على الوجه الشرعي العاري عن ضروب الحيل وشوائب الشبه اهـ من (فيض القدير)

[3] قال العلامة الخفاجي : وإطلاق (النظيف) على الله تعالى في الحديث ولم يذكره أحد من أسمائه تعالى ، كما قيل وقع للمشاكلة ، والمتقدمون يسمونها ازدواجاً أيضاً ، فلا وجه للاعتراض عليه ، وقيل : إنه بمعنى القدوس ، اهـ ملخصاً .

[4] بالتخفيف أي : كثير الجود والعطاء اهـ (فيض القدير)

[5] رواه ابن أبي شيبة والطبراني ، وأفاد المناوي أنه حسن لغيره .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً (تنظفوا بكل ما استطعتم فإن الله تعالى بنى الإسلام على النظافة ، ولن يدخل الجنة إلا كل نظيف)[1] .

ثانياً : حثُّه صلى الله عليه وسلم على نظافة البدن بشتّى وسائل النظافة :

فمن ذلك : أمره صلى الله عليه وسلم بالغُسل وتحذيره من ترك ذلك .

روى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (على كل رجل مسلم في كل سبعة أيام غُسل يوم ، وهو يوم الجمعة).[2]

ومن ذلك : حثُّه صلى الله عليه وسلم على تعهُّد أطراف البدن بالنظافة ، وإزالة الأوساخ عنها ، وأن ذلك من الفطرة الدينية التي جاءت بها جميع الرسالات الإلهية .

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (عشر من الفطرة [3] : قصّ الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، واستنشاق الماء ، وقصُّ الأظفار ، وغسل البراجم [4] ، ونتف الإبِط [5] ، وحلق العانة ، وانتقاص[6] الماء) .

---

[1] عزاه الخفاجي في (شرح الشفاء) إلى الرافعي في (تاريخ قزوين) وقال : وبما ذكرناه من أن الحديث روي من طرق متعددة تجبر ضعفه ، عُلم أنه خرج من الضعف إلى مرتبة الحسن ، ومعناه صحيح موافق للشرع اهـ

[2] ورواه النسائي وابن حبان .

[3] أي : من الفطرة الدينية التي فطر الله تعالى العباد عليها ، قال تعالى : (فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) وهي : من الأمور التي جاءت بها جميع الرسل واتفقت عليها جميع الشرائع السماوية .

[4] البراجم : عقد الأصابع في ظهر الكف ، والرواجب عقدها من بطنها .

[5] أي : نتف شعر الإبط ولا بأس بحلقه .

[6] قال الشيخ علي القاري في (شرح الشفاء) : انتقاص الماء هو الاستنجاء ، وهو بالفاء والمهملة أو المعجمة ، والمذكور في اللغة أنه بالقاف والمهملة ، وأما بالفاء فنضحه على الذكر اهـ

وقد حذّر النبي صلى الله عليه وسلم من إهمال ذلك مدة طويلة ، ففي سنن أبي داود عن حسن رضي الله عنه قال : وقّتَ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قص الشارب ، وتقليم الأظفار ، ونتف الإبط وحلق العانة ، أن لا تُترك أكثر من أربعين ليلة – يعني أنه إذا دعت الحاجة إلى الترك أو لم يتمكن من الغسل والقص والتقليم في كل أسبوع ، فلا يجوز له أن يؤخر أكثر من أربعين ليلة ، فإنه حينئذ آثم ، كما نصّ الفقهاء على ذلك .[1]

ثالثاً : حثُّه صلى الله عليه وسلم على التنظّف من آثار الطعام والشراب :

روى الحكيم الترمذي عن عبد الله بن بُسر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (قُصّوا أظافركم ، وادفنوا قلاماتكم ، ونقّوا براجمكم ، ونظّفوا لثاتكم من الطعام ، واستاكوا ، ولا تدخلوا عليّ قُحراً بُخراً) [2]

وروى الترمذي عن سلمان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (بركة الطعام : الوضوء قبله ، والوضوء بعده) .

والمراد هنا الوضوء اللغوي وهو غسل اليدين ، لا الوضوء الشرعي وهو غسل الأعضاء المفروضة ، كما دلّ على ذلك حديث الترمذي عن ابن عباس بسند صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قُرِّب إليه طعام ، فقالوا : ألا نأتيك بوضوء ؟ فقال : (إنما أمرتُ بالوضوء إذا قمتُ إلى الصلاة).

رابعاً : حثُّه صلى الله عليه وسلم على نظافة الثياب :

---

[1] ويستحب دفن الأظفار والشعر ، لما ورى الحكيم الترمذي عن عائشة رضي الله عنها : (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأمر بدفن سبعة أشياء من الإنسان : الشعر ، والظفر ، والدم ، والحيضة ، والسن ، والقلفة ، والمشيمة) وقد روى بعض ذلك الطبراني أيضاً ، كما في (الفتح الكبير)

[2] كذا في (الجامع الصغير) وفسر المناوي في شرحه الكبير (قحراً) : مصفرة من شدة الخلوف ، وبخراً : من البخر بفتحتين ، وهو نتن الفم ، ثم قال : هكذا الرواية ، لكن قال الحكيم : المحفوظ عندي قحلاً فلجاً ولا أعرف القحر اهـ

كما روى الطبراني وأبو نعيم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن من كرامة المؤمن على الله نقاء ثوبه ورضاه باليسير)

أي : من أمور الدنيا . وروى أبو نعيم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً وسخة ثيابه فقال : (أما وجد هذا شيئاً ينقّي به ثيابه ؟) .

وفي هذا يوبّخ صلى الله عليه وسلم على وساخة الثياب ، ولم يخاطب ذلك الرجل بخاصّته لئلا يكسر خاطره بمقابلته بما يكره ، وليبيّن أن الحكم لا يختص به ، بل توبيخه موجّه لكل من ترك ثيابه وسخة .

وكان صلى الله عليه وسلم ينهى عن تعريض الثياب للوسخ ، فعن الأشعث بن سليم أنه قال سمعت عمّتي تحدّث عن عمها قال : بينا أنا أمشي في المدينة إذا إنسان خلفي يقول : (ارفع إزارك ، فإنه أنقى [1] - وفي رواية : أتقى – وأبقى) فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله إنما هي بُردة مَلحاء [2]

فقال : (أما لك فيّ أسوة ؟!) فنظرتُ فإذا إزاره صلى الله عليه وسلم إلى نصف ساقيه [3] .

أخرجه الترمذي في الشمائل بهذا اللفظ .

خامساً : حثّه صلى الله عليه وسلم على تنظيف البيوت والأفنية – كما تقدّم في الحديث : (فنظّفوا أفنيتكم ، ولا تشّبهوا باليهود) .

---

[1] من النقاء ، وهو النظافة ، كما أن رواية (أتقى) تدل على التنزه عن الأوساخ لما أن في ذلك تقوى الله تعالى للبعد عن الخيلاء والكبر . اهـ شرح الزرقاني .

[2] تأنيث أملح ، والملحة : بياض يخالطه سواد ، على ما في الصحاح . قيل : الملحاء هي التي فيها خطوط من سواد وبياض – والمراد أنه ثوب لا يلبس في المجالس والمحافل ، إنما هو ثوب مهنة لا ثوب زينة اهـ كما في شروح الشمائل .

[3] وفي هذا إرشاد اللابس إلى الرفق بما يلبسه ، وحفظه وتعهده ، لأن إهماله تضييع وإتلاف .

سادساً : حثّه صلى الله عليه وسلم على تنظيف الجوامع ، وأن ذلك من القُربات وكبار الحسنات

روى أبو داود والترمذي عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (عُرضت عليّ أجور أمتي حتى القذاة يُخرجها الرجل من المسجد ، وعُرضت عليّ ذنوب أمتي ، فلم أرَ ذنباً أعظم من سورةٍ من القرآن أو آيةٍ أوتيها رجل ثم نسيها) .

وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (عُرضت عليّ أمتي بأعمالها ، حسنِها وسيئها ، فرأيت في محاسن أعمالها : إماطة الأذى عن الطريق ، ورأيت من سيء أعمالها النخامة في المسجد لم تدفن) .

فتنظيف المسجد حتى من القذاة – وهي : أصغر من الأذى – فيه أجر كبير ، وترك النخامة والأوساخ في المسجد فيه وزر كبير .

وإذا كان المؤمن مأموراً أن يزيل النخامة من المسجد ، ولا يجوز له أن يتركها إذا رآها ، فكيف يجوز له أن يتنخّم فيه أو يوسّخ المسجد **؟!**

فإن ذلك أعظم ذنباً .

فعلى المسلمين أن يتنظفوا وينظّفوا مساجدهم ، حذراً من الوزر وطمعاً في الأجر .

كما وأنه صلى الله عليه وسلم حثّ على تبخير المساجد وتنظيفها وصيانتها

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد في الدور ، وأن تُنظّف وتُطيّب)[1]

وعن سمرة بن جندب : (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتخذ المساجدَ في ديارنا وأمرنا أن ننظّفها) [1]

---

[1] قال المنذري : ورواه أحمد والترمذي وصححه وأبو داود وابن ماجه .

فكان صلى الله عليه وسلم يأمر بنظافة المساجد العامة ، والمساجد الخاصة التي تُبنى في الدار ليصلّي فيها الإنسان نوافله وقيامه ، ويعبد ربه فيها ، وهي من السنّة المطلوبة

كما نصّ عليه الفقهاء .

سابعاً : حثُّه صلى الله عليه وسلم على نظافة الطرق والساحات العامة ونهيهُ عن تلويثها بالأوساخ والمضارّ ، وبيانه أن ذلك يعتبر شعبةً من شعب الإيمان التي لا يتم الإيمان إلا بها :

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الإيمان بضع وسبعون – وفي رواية : وستون – شعبة ، فأفضلها : قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق)

فإذا كان المؤمن لا يجوز له بمقتضى إيمانه أن يترك أذى رآه في الطريق ويمكنه أن يزيله ، وليس ثمة غيره يزيله ، فمن باب أولى وأحقُّ وأوجبُ أنه لا يجوز له أن يلقي الأذى في الطريق .

فاعتبر يا مسلم واعلم بأن نظافة الطريق والشوارع من الإيمان ، وليست هي من التفضّل ولا من باب الامتنان .

وقد أمر صلى الله عليه وسلم بتنحية الأذى عن الطريق فقال : - كما روى ابن حبان عن أبي برزة - : (نحِّ الأذى عن طريق المسلمين)

وأوعد من آذى المسلمين في طريقهم ، كما روى الطبراني بإسناد حسن عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من آذى المسلمين في طرقهم وجبت عليه لعنتهم)

وروى الطبراني والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

---

[1] رواه أحمد والترمذي وصححه . كما في (الترغيب) .

(من آذى المسلمين في طرقهم وجبت عليه لعنتهم)

وروى الطبراني والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من غسل سخيمته[1] على طريق من طرق المسلمين ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)

وروى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اتقوا اللاعنين)

قالوا : وما اللاعنان يا رسول الله ؟ .

قال : (الذي يتخلى في طرق الناس أو في ظلّهم) أي : ساحات مجتمعهم وجلوسهم ، وأثنى صلى الله عليه وسلم على الرجل يزيل الأذى عن الطريق .

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك فأخره ، فشكر الله له ، فغفر الله له) .

فأكرِم وأعظِم بهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم الذي جاء بسعادة الدنيا ونظافتها ، وسعادة الآخرة ونضارتها .

ثامناً : إن مشروعية الوضوء والغسل اللذين جاء بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لهي أكبر شاهد على أن النظافة هي أصل أصيل في دين الإسلام ، وأنها من أهم المبادئ التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن في الوضوء والغسل إزالة للنجس ، ورفعاً للحدث ، ونظافة من الوسخ والدنس ، إلى ما هناك من بقية الحكم الشرعية ، وفي إزالتهما آثار الذنوب والخطايا ، كما ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذا توضأ العبد المسلم – أو المؤمن – فغسل وجهه خرج

---

[1] المراد بالسخيمة هنا الأقذار والأوساخ ، وإذا كانت حضارة الأمم تطالبهم بنظافة الأبدان والبلدان ، فإن إيمان المؤمنين وشرعهم وحضارتهم الإسلامية تطالبهم بالنظافة على أكمل وجوهها .

من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء – أو مع آخر قطر الماء – فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء – أو مع آخر قطر الماء – فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء – أو مع آخر قطر الماء – حتى يخرج نقياً من الذنوب)[1] .

وهناك حكم طبيّة جمّة مترتبة على مشروعية الوضوء والغسل من استجمام القوى ، واستعادة النشاط للبدن ، وإزالة آثار الإفرازات الجسمية ، إلى ما وراء ذلك مما يطول شرحه .

تاسعاً : إنّ الأحاديث النبوية الواردة في الحثّ على السواك وبيان آثاره والتحذير من تركه ، لهي أكبر دليل على أن النظافة والرعايات الصحية هي من مبادئ الإسلام .

أما آثاره : فقد روى النسائي وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (السواك مطهرة للفم مرضاة للربّ) .

وروى أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (عليكم بالسواك ، فإنه مطيبة للفم ، مرضاة للرب تبارك وتعالى) .

وأما حثّه عليه صلى الله عليه وسلم .

فقد قال : (لولا أن أشقّ على أمتي لأمرتهم بالسواك – أي : لفرضته عليهم – مع كل صلاة) رواه البخاري واللفظ له .

ومسلم بلفظ : (عند كل صلاة) .

والنسائي وابن ماجه وابن حبان بلفظ : (ولأمرتهم بالسواك مع الوضوء عند كل صلاة) ، وفي رواية أحمد : (لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء)

---

[1] قال الحافظ المنذري في (الترغيب) : رواه مالك ومسلم والترمذي ، وليس عند مالك والترمذي غسل الرجلين اهـ

وفي رواية البزار والطبراني : (لفرضتُ عليهم السواك عند كل صلاة ، كما فرضت عليهم الوضوء) .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ركعتان بالسواك أفضل من سبعين ركعة بغير سواك) رواه أبو نعيم بإسناد حسن – كما في (ترغيب) المنذري .

ولذا كان صلى الله عليه وسلم يكثر من استعمال السواك ، ففي صحيح مسلم وغيره عن شُريح بن هانئ قال : قلت لعائشة رضي الله عنها : بأي شيء كان يبدأ النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل بيته ؟ قالت : (بالسواك) .

عاشراً : حثُّه صلى الله عليه وسلم على التنظُّف والتخلُّل بعد تناول الطعام :

فعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (حبّذا المتخلّلون من أمتي) .

قال : وما المتخللون يا رسول الله ؟

فقال : (المتخللون في الوضوء ، والمتخللون في الطعام – أما تخليل الوضوء : فالمضمضة والاستنشاق ، وبين الأصابع ، وأما تخليل الطعام : فمن الطعام ، إنه ليس شيء أشدّ على الملكين من أن يريا بين أسنان صاحبهما طعاماً وهو قائم يصلّي) رواه الطبراني في (الكبير) ، ورواه الإمام أحمد مختصراً ، كما في (الترغيب) .

جماله صلى الله عليه وسلم

إن الله تعالى خلق سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم في أجمل صورة بشرية ، وأكمل خِلقة آدمية ، انطوت فيه جميع المحاسن المبدعات ، والفضائل والكمالات .

قال الله تعالى : (يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

فهو سبحانه يزيد في كمال الخَلق وجماله ما يشاء أن يزيد ، وقد زاد سبحانه في جمال خَلق هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ومحاسنه ، حتى اعتلى ذروة الخَلق الحسن الكريم ، كما زاد سبحانه في كمال خُلُقه صلى الله عليه وسلم حتى اعتلى ذروة الخُلُق العظيم ، قال سبحانه : (وإنك لعلى خُلق عظيم)

ولقد أجمعت كلمة الصحابة الذين وصفوه على أنه لم يُرَ قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم .

قال أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بالقصير ولا بالطويل ، ضخم الرأس ، شثن الكفين والقدمين والكراديس[1] ، مُشرباً وجهه بحمرة ، طويل المسرُبة ، إذا مشا تكفأ كأنما يقلع من صخر ، لم أرَ قبله ولا بعده مثله)[2]

وقال البراء بن عازب : (كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجهاً ، وأحسنهم خُلُقاً ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير ..) متفق عليه .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : (ما رأيت أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأن الشمس تجري في وجهه صلى الله عليه وسلم) رواه الترمذي .

تجمُّله صلى الله عليه وسلم وأمره بذلك

كان صلى الله عليه وسلم يتجمل ، ويأمر أصحابه بالتجمل ، وكان يؤكد ذلك في المجتمعات والمقابلات عامّة ، وفي الجمُع والأعياد خاصةً .

روى البيهقي أنه صلى الله عليه وسلم كانت له حُلة يلبسها للعيدين والجمعة .

وروى ابن السني عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم إلى إخوانه فنظر في كوز من ماء إلى لُمته – أي : إلى شعره –

---

[1] أي : عظيم الكفين والقدمين والكراديس وهي رؤوس العظام
[2] رواه أحمد بهذا اللفظ وقد تقدم نحو هذا في رواية الترمذي

وهيئته ثم قال : (إنّ الله جميل يحب الجمال ، إذا خرج أحدكم إلى إخوانه فليتهيأ في نفسه)[1]

والتجمل هو : الأخذ بما يحفظ على الإنسان جماله ، والبعد عما يشينه في منظره وهيئته .

وأخرج أبو نعيم والواقدي عن جندب بن مكيث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قدم عليه وفد لبس أحسن ثيابه ، وأمر أصحابه بذلك ، فرأيته وفَد عليه وفد كِندة ، وعليه حُلّة يمانية ، وعلى أبي بكر وعمر مثل ذلك .[2]

وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم أن حسن السمت والزيّ الحسن من شمائل الأنبياء وخصالهم الأصيلة .

روى الترمذي عن عبد الله بن سرجس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الهدي الصالح ، والاقتصاد ، جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة) .

وفي رواية مالك في الموطأ : (القصد والتؤدة وحسن السمت جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة)[3]

وكان صلى الله عليه وسلم ينكر من عرّض هيئته للشّين ، ففي (الموطأ) : باب ما جاء في لبس الثياب للجمال بها : ثم أسند إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال : (خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة

---

[1] انظر شرح المناوي على (الجامع الصغير) الجزء الثالث

[2] انظر الجزء الأول من (التراتيب)

[3] أما السمت الحسن فهو – كما قال المناوي – حسن الهيئة والمنظر ، وأصل السمت : الطريق ، ثم استعير للزي الحسن ، والهيئة المثلى في الملبس وغيره ، وأما الهدي الصالح : فهو السيرة السوية ، والسير الحسن ، وأما الاقتصاد أو القصد : فهو التوسط في الأمور والتحرز في طرفي الإفراط والتفريط ، كالجود فإنه وسط بين البخل والإسراف ، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور ، وهكذا دواليك . وأما التؤدة : فهي التأني في الأمور ، وعدم الاستعجال فيها ، ليتبين له عواقبها ، وشرها وخيرها .

أنمار ، قال جابر : فبينا أنا نازل تحت شجرة إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل ، فقلت : يا رسول الله هلُّم إلى الظل ، قال : فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقمت إلى غرارة – ظرف شبيه العدل – فالتمست فيها شيئاً فوجدت جرو قثاء [1] فكسرته ، ثم قرّبته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : (من أين لكم هذا ؟) فقلت : خرجنا به يا رسول الله من المدينة .

قال جابر : وعندنا صاحب لنا نجهّزه يذهب يرعى ، قال : فجهّزته ثم أدبر يذهب في الظهر ، وعليه بُردان له قد خَلِقا – أي بليا – قال : فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فقال : (أما له ثوبان غير هذين ؟) فقلت : بلى يا رسول الله ، له ثوبان في العيبة [2] كسوته إياهما ، قال : (فادعه ، فمره فليلبسهما) قال : فدعوته فلبسهما ، ثم ولى يذهب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما له ؟ ضُرب عنقه ، أليس هذا خيراً له ؟) قال : فسمعه الرجل فقال : يا رسول الله في سبيل الله ؟ - أي : ضرب الله عنقه في سبيل الله - .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (في سبيل الله) قال : فقتل الرجل في سبيل الله .

وعن مالك أنه بلغه أن عمر بن الخطاب قال : (إني لأحبُّ أن أنظر إلى القارئ أبيض الثياب) .

وقال عمر بن الخطاب : (إذا أوسع الله عليكم فأوسعوا على أنفسكم : جمع رجل عليه ثيابه) – أي : إن جمع عليه ثيابه فحسن .

[1] أي : وجد في العدل من القثاء ، وهو اسم لما يقال له : خيار والعجوز والفقوس ، اهـ ، كما في شرح الزرقاني على (الموطأ)
[2] بفتح العين وسكون التحتية فموحدة : المستودع للثياب

وروى أبو نعيم وابن لال وغيرهما عن ابن عمر مرفوعاً : (إن المؤمن أخذ عن الله أدباً حسناً ، إذا وسّع عليه وسّع على نفسه)[1]

وروى الحاكم بإسناده عن سهل بن الحنظلية عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (أحسنوا لباسكم ، وأصلحوا رحالكم ، حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس) [2]

وروى الطبراني والبيهقي عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر نعمته على عبده)

وروى البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله تعالى إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر النعمة ، ويكره البؤس والتباؤس ، ويُبغض السائل المُلحف ، ويحب الحييّ العفيف المتعفف)

قوة بصره الشريف صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى : (ما زاغ البصر وما طغى)

فقد وصفه الله تعالى – وهو صلى الله عليه وسلم في المشهد الأعلى – بأنه ما زاغ بصره ، أي : لم يَحَر ، وما طغى ، أي : لم يجاوز المنظور إليه ، المتجلّي عليه ، وفي هذا دليل قوة بصره وثباته ، لأن البصر إذا بهره النور الساطع : إما أن يزيغ ويحار ، وإما أن يجاوز المنظور إلى غيره كللاً وضعفاً منه ، فلم يقع منه صلى الله عليه وسلم شيء من ذلك ، لما أعطاه الله تعالى من القوة في بصره

ومن خصائصه البصرية : أنه كان يرى ما لا يرى غيره ، كما في سنن الترمذي وغيرها عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ...) الحديث .

---

[1] انظر شرح الزرقاني على (الموطأ)
[2] انظر (الفتح الكبير) .

فكان يرى جبريل والملائكة الكرام دون أن تتمثل بصورة :

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : (رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته ، وله ستمائة جناح ، كلٌّ جناح منها قد سدّ الأفق ، يسقط من جناحه من التهاويل والدرّ والياقوت ، ما الله به عليم)

أما رؤيته الملائكة : فمن ذلك ما جاء عن أنس رضي الله عنه قال : (كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم جالساً في الحلقة ، إذ جاء رجل فسّلم على النبي صلى الله عليه وسلم والقوم ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله .

فردّ النبي صلى الله عليه وسلم : (وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته)

فلما جلس الرجل قال : الحمد لله حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه ، كما يحبُّ ربنا أن يُحمد وينبغي له .

فقال له صلى الله عليه وسلم : (كيف قلت ؟) فردّ عليه كما قال .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (والذي نفسي بيده ، لقد ابتدرها – أي : أسرع إليها – عشرة أملاك ، كلُّهم حريصٌ على أن يكتبها ، فما دروا كيف يكتبونها ، حتى رفعوها إلى ذي العزة ، فقال : اكتبوها كما قال عبدي))[1]

ومن ذلك رؤيته الملائكة تغسّل حنظلة الشهيد رضي الله عنه ، ورؤيته جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه يطير في الجنة مع الملائكة بجناحين .

كما وأنه صلى الله عليه وسلم كان يرى الأبعاد الشاسعة بقوة وعناية ربانية :

[1] قال الحافظ المنذري : رواه أحمد ورواته ثقات ، والنسائي وابن حبان في (صحيحه) إلا أنهما قالا : (كما يحب ربنا ويرضى)

ففي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لما كذبتني قريش قمتُ في الحجِر ، فجلى لي الله – أي : أظهر لي – بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه) .

فهو صلى الله عليه وسلم في مكة عند الحِجر يرى بيت المقدس جلياً .

كما وأنه صلى الله عليه وسلم أراه الله تعالى مشارق الأرض ومغاربها .

ففي صحيح مسلم وغيره عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله زوى – أي : جمع – لي الأرض – فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها ..) الحديث .

وروى الطبراني عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله تعالى قد رفع ليَ الدنيا ، فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة ، كأنما أنظر إلى كفي هذه)[1]

وكان صلى الله عليه وسلم يرى من ورائه كما يرى من أمامه :

ففي الصحيحين – واللفظ لمسلم – عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (هل ترونَ قبلتي ها هنا ؟ فوالله ما يخفى عليّ ركوعكم ولا سجودكم إني لأراكم من وراء ظهري) .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ثم انصرف ، فقال : (يا فلان ألا تحسن صلاتك ؟ ألا ينظر المصلي إذا صلى كيف يصلي ؟! فإنما يصلي لنفسه ؟! إني والله لأبصر من ورائي كما أبصر من بين يديّ).

وروى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : صلى بنا رسول الله ذات يوم ، فلما قضى الصلاة أقبل علينا بوجهه فقال : (يا أيها الناس إني إمامُكم فلا

---

[1] انظر شرح الزرقاني على (المواهب) الجزء السابع .

تسبقوني بالركوع ولا بالسجود ، ولا بالقيام ولا بالانصراف[1] ، فإني أراكم أمامي ومن خلفي ، ثم قال : والذي نفس محمد بيده لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً) قالوا : وما رأيتَ يا رسول الله ؟ قال : (رأيت الجنة والنار) .

حول قوة سمعه الشريف صلى الله عليه وسلم

إنّ الله تعالى أعطى رسوله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم قوةً في السمع خاصةً ، فكان يسمع ما لا يسمع غيره :

فعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أطّت [2] السماء ، وحُقّ لها أن تئطّ ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته لله تعالى ساجداً ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ، ولخرجتم إلى الصُّعدات تجأرون إلى الله تعالى)[3]

ومن ذلك سماعه صلى الله عليه وسلم فتح باب السماء :

روى الطبراني بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وجبريل على الصفا ، فقال : (يا جبريل والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد سَفة من دقيق ، ولا كفّ من سويق) فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدّة في السماء أفزعته ، فقال صلى الله عليه وسلم : (أمر الله تعالى القيامة أن تقوم ؟) فقال – جبريل - : (لا ، ولكن أمر إسرافيل ، فنزل إليك بمفاتيح خزائن الأرض ، وأمرني أن أعرض عليك ، أسيّر معك جبال تهامة زمرداً وياقوتاً ، وذهباً وفضة ، فإن

---

[1] بالتسليم آخر الصلاة ، أو المراد به : الخروج من المسجد بعد السلام ، لاحتمال التذكير أو التنبيه على أمر يهمهم .
[2] أي : ظهر لها صوت من كثرة الملائكة فوقها ، وهو مشتق من الأطيط : صوت الرحل .
[3] رواه الترمذي وأحمد وغيرهما ، ومعنى تجأرون : تستغيثون وتلجأون .

شئت نبيّاً ملِكاً ، وإن شئت نبيّاً عبداً) فأومأ إليه جبريل : أن تواضع ، فقال : (بل نبياً عبداً – ثلاثاً – فلو أني قلت : نبيّاً ملِكاً لسارت الجبال معي ذهباً)[1]

ومن ذلك سماعه عذاب المشركين في قبورهم :

روى مسلم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حائط لبني النجار ونحن معه ، إذ جادت به بغلته فكادت تُلقيه ، وإذا أقبرٌ ستة أو خمسة ، فقال صلى الله عليه وسلم : (من يعرف أصحاب هذه القبور ؟) فقال رجل : أنا .

فقال صلى الله عليه وسلم : (متى ماتوا ؟) قال : في الشرك ، فقال صلى الله عليه وسلم : (إن هذه الأمة تُبتلى في قبورها ، فلولا أن لا تدافنوا ، لدعوتُ الله أن يُسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه ..) الحديث .

فكان صلى الله عليه وسلم يسمع عذاب المعذّبين في قبورهم ، وبيّن أنه لولا خشية أن لا يدفن بعضهم بعضاً إذا سمعوا عذاب القبر : لدعا الله أن يسمعهم ذلك ، ولكن إذا سمعوا عذاب القبر اعتراهم الخوف والفزع ، وذلك مما يؤدي إلى ترك دفن بعضهم مخافةً من سماع ذلك .

ومن ذلك سماعه صلى الله عليه وسلم هدّة صخرة هوت من شفير جهنم :

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوتاً هاله – أي : أفزعه – فأتاه جبريل عليه السلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما هذا الصوت يا جبريل ؟) فقال : (هذه صخرة هَوت من شفير جهنم ، من سبعين عاماً ، فهذا حين بلغت قعرها ، فأحبّ الله

---

[1] قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني بإسناد حسن ، والبيهقي في (الزهد) وغيره ، ونحو ذلك أيضاً في شرح الزرقاني ، ثم أورد المنذري رواية ابن حبان في (صحيحه) أيضاً .

أن يسمعك صوتها ، فما رؤي رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاحكاً ملء فيه حتى قبضه الله عز وجلّ)[1]

ومن ذلك سماعه صلى الله عليه وسلم عذاب المقبورين النمامين والغيابين ، والذين لا يستنزهون ولا يستترون من البول :

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بحائط من حيطان مكة أو المدينة ، فسمع صوت إنسانين يُعذّبان في قبورهما ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (إنهما ليعذبان وما يعذّبان في كبير [2] ، ثم قال : بلى كان أحدهما لا يستتر من بوله ، وكان الآخر يمشي بالنميمة) .

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : مرّ النبي صلى الله عليه وسلم في يوم شديد الحرّ نحو بقيع الغرقد ، وكان الناس يمشون خلفه ، قال : فلما سمع صوت النعال وقرَ ذلك في نفسه ، فجلس حتى قدّمهم أمامه ، فلما مرّ ببقيع الغرقد إذا بقبرين قد دفنوا فيهما رجلين ، قال : فوقف النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (من دفنتم ههنا اليوم ؟) قالوا : فلان وفلان .

قالوا : يا نبي الله وما ذاك ؟! قال : (أما أحدهما فكان لا يتنزّه من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة) .

وأخذ جريدة رطبة فشقها ، ثم جعلها على القبرين ، قالوا : يا نبي الله لم فعلتَ هذا ؟ قال : (ليُخفّف عنهما) قالوا : يا رسول الله حتى متى يعذّبان ؟ فقال : (غيب لا يعلمه إلا الله ، ولولا تمزُّع – أي : تقطُّع – قلوبكم وتزيّدكم في الحديث لسمعتم ما أسمع) .

---

[1] عزاه الحافظ المنذري للطبراني بهذا اللفظ ، وعزاه الحافظ الزرقاني إلى ابن أبي شيبة برجال ثقات .

[2] قال العلامة الخطابي قوله : (وما يعذبان في كبير) : إنهما لم يعذبا في أمر كان يكبر عليهما أو يشق فعله لو أرادا أن يفعلاه وهو التنزه من البول وترك النميمة – ولم يرد أن المعصية في هاتين الخصلتين ليست بكبيرة

حول صوته الشريف صلى الله عليه وسلم

كان صوت النبي صلى الله عليه وسلم على غايةٍ من الحسن ، وقد أعطاه الله تعالى قدرة في الإسماع ، وبلوغ صوته المسافات الشاسعة ، والأماكن الواسعة ، التي لا يبلغها صوت غيره .

روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : (ما بعث الله نبياً إلا حسنَ الوجه حسن الصوت ، وكان نبيكم أحسنهم وجهاً [1] وأحسنهم صوتاً) .

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنه : (قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في العشاء (والتين والزيتون) فلم أسمع صوتاً أحسنَ منه) .

وروى أبو الحسن بن الضحاك عن جبير بن مطعم قال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم حسن النغمة)[2]

وفي حديث أم معبد المتقدم : كان في صوته صلى الله عليه وسلم صَحَل [3] .

وكان صوته صلى الله عليه وسلم يبلغ حيث لا يبلغه صوت غيره :

فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : (خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العواتق في خدورهنّ)[1]

---

[1] وأما قوله صلى الله عليه وسلم في حديث المعراج ، في يوسف : (فإذا أنا برجل – أي : يوسف عليه السلام – أحسن ما خلق الله ، قد فضل الناس بالحسن ، كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب) – كما في رواية البيهقي والطبراني وابن عائذ – فيحمل ذلك على أن المراد غير النبي صلى الله عليه وسلم) ، ويؤيده القول بأن المتكلم لا يدخل في عموم خطابه ، ويشهد له قوله صلى الله عليه وسلم في رواية مسلم : (فإذا هو – يوسف – قد أعطي شطر الحسن) قال ابن المنير : المراد أن يوسف أعطي شطر الحسن الذي أوتيه نبينا صلى الله عليه وسلم . انظر كلام الحافظ ابن حجر في (فتح الباري)

[2] انظر شرح المواهب .

[3] قال ابن الأثير : الصحل – بفتح الصاد والحاء – كالبحة ، وأن لا يكون حاد الصوت .

وعن عبد الرحمن بن معاذ التيمي رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى ففتّحت أسماعنا حتى كنا نسمع ما يقول ، ونحن في منازلنا ، فطفق يُعلّمهم مناسكهم ، حتى بلغ الجمار فوضع أُصبعيه السبابتين ثم قال : (ارموا بحصى الخَذف)[2] .

وروى أبو نعيم عن عائشة رضي الله عنها قالت : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة على المنبر فقال للناس : (اجلسوا) فسمعه عبد الله بن رواحة وهو في بني غَنْم [3] فجلس مكانه [4] .

وروى ابن ماجه عن أم هانئ رضي الله عنها قالت : كنا نسمع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم في جوف الليل عند الكعبة وأنا على عريشي – أي : على سريري - .

فسماعها ذلك – وهي داخل بيتها البعيد عن مكان القراءة – دليل على أن صوته الشريف كان يبلغ مكاناً لا يبلغه غيره – فسبحان من خصّه بالخصائص الكبرى والآيات العظمى صلى الله عليه وسلم ! .

حلاوة منطقه صلى الله عليه وسلم

---

[1] رواه البيهقي ، والعواتق : جمع عاتق وهي الشابة أول ما تدرك ، وقيل : التي لم تنفصل عن والديها ولم تتزوج ، وقد أدركت وشبت ، وأما الخدور : فجمع خدر وهو الستر ، ويطلق على البيت إن كان فيه امرأة ، وإلا فلا ، وإنما خصّهن البراء بالذكر لبعدهن واحتجابهن في البيوت ، فسماعهن صوت النبي صلى الله عليه وسلم – وهو في المسجد وهن في خدورهن – آية دالة على قوة صوته صلى الله عليه وسلم وبلوغه حيث لا يبلغه صوت غيره اهـ كما في شرح الزرقاني على (المواهب) .

[2] رواه أبو داود والنسائي وأحمد ، كما في شرح (المواهب)

[3] بمعجمه مفتوحة فنون ساكنة فميم ، بطن من الخزرج ، كما في شرح (المواهب)

[4] وهذا مبادرة في امتثال أمره صلى الله عليه وسلم مع أنه ليس مأموراً بذلك ، لأن أمره صلى الله عليه وسلم موجه للحاضرين للخطبة بالجلوس ، ولكن كمال الأدب يقتضي ذلك ، فانظر أدب الصحابة معه صلى الله عليه وسلم .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حلوَ المنطق ، حسنَ الكلام ، إذا تكلّم أخذ بمجامع القلوب ، وسبى الأرواح والعقول .

وكان إذا تكلّم يخرج النور من بين ثناياه .

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفلج الثّنيّتين

، إذا تكلّم ريء[1] كالنور يخرج من بين ثناياه)[2] .

وعن أبي قرصافة أنه قال : لما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وأمي وخالتي ورجعنا من عنده منصرفين ، قالت لي أمي وخالتي : يا بني ما رأينا مثلَ هذا الرجل أحسنَ منه وجهاً ، ولا أنقى منه ثوباً ، ولا ألين كلاماً ، ورأينا كأنّ النور يخرج من فيه [3] صلى الله عليه وسلم .

فصاحة لسانه وبلاغة كلامه صلى الله عليه وسلم

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفصحَ خلق الله تعالى لساناً ، وأوضحهم بياناً ، أوتي جوامع الكلم ، وبدائع الحِكم ، وقوارع الزجر ، وقواطع الأمر ، والقضايا المحكمة ، والوصايا المبرمة ، والمواعظ البالغة ، والحجج الدامغة ، والبراهين القاطعة ، والأدلة الساطعة .

جاء في (المسند) وغيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً كالمودّع فقال : (أنا محمد النبي الأمي – قالها ثلاثاً – ولا نبي بعدي ، أوتيتُ فواتح الكلِم ، وخواتمه ، وجوامعه ..) الحديث .

[على] وزن (قيل) على الأفصح ، ويقال : بضم الراء وكسر الهمزة اهـ ، كما في شرح (المواهب)

[٢ ٢] عزاه الحافظ الزرقاني إلى الترمذي والدارمي والطبراني .

[٣] قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني وفيه ما لم يسم .

فكيف لا يكون أفصح خلق الله تعالى ، وقد آتاه الله تعالى الكلم الجامع للمعاني الكثيرة ، في الألفاظ اليسيرة .

وفي حديث عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وهو على المنبر :

(يا أيها الناس إني قد أعطيتُ جوامع الكلم وخواتيمه ، واختُصِر ليَ اختصاراً ، ولقد أتيتكم بها – أي : الشريعة – بيضاء نقيةً ، فلا تهوّكوا ، ولا يضرّنكم المتهوّكون ..) الحديث [1] .

وروى أبو نعيم في (تاريخ أصبهان) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال عمر : يا نبيّ الله مالكَ أفصَحَنا ولم تخرج من بين أظهرنا ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : (كانت لغة إسماعيل قد دَرَست ، فجاءني بها جبريل ، فحفظتها)[2] قال الحافظ الزرقاني : بل زاد رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك ، فكان يخاطب كلّ ذي لغة بلغته ، اتساعاً في الفصاحة – أي : واتساعاً في اطّلاعه صلى الله عليه وسلم على جميع لغات العرب ، ولهجاتهم الفصيحة ، كما ورد في (المسند) وغيره : عن كعب بن عاصم الأشعري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ليس من امبر امصيام في امسفر) [3]

---

[1] وقد أورد الحافظ ابن كثير الحديث بطوله معزواً لأبي يعلى ، ثم قال : ورواه ابن أبي حاتم وله شواهد ، والتهوّك : التحيّر ، أو الدخول في كل أمر .

[2] قال الحافظ الزرقاني : رواه أبو نعيم في (تاريخ أصبهان) بإسناد ضعيف ، وكذا ابن عساكر وأبو أحمد الغطريف بلفظ : (إن لغة إسماعيل كانت درست ، فأتاني بها جبريل فحفظتها) اهـ من شرح المواهب ، وفيه : أخرج الزبير بن بكار بسند جيد عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه مرفوعاً : (أول من فتق الله لسانه بالعربية البينة إسماعيل)

[3] بإبدال اللام ميماً في الثلاثة ، على لغة بعض أهل اليمن ، حيث خاطبهم النبي صلى الله عليه وسلم بلغتهم ، وأصل هذا الحديث في الصحيحين .

ومن ذلك حديث عطية بن عروة السّعدي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيما قال له : (فإن اليد العليا هي المنطية ، والسفلى هي المنطاة) قال : فكلّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغتنا ، أي : بلغة بني سعد ، وهي إبدال العين نوناً [1] .

آدابه في الكلام صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم يتكلم بكلام مفصّل مبيّن ، بحيث لو أراد مستمعه أن يعدّه لأمكنه ذلك ، لوضوحه وبيانه .

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : (ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد الحديث كسردكم هذا ، يحدّث حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه) رواه الشيخان وزاد الإسماعيلي في روايته : إنما كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فَهمَاً تفهمُه القلوب .

وروى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان كلامه صلى الله عليه وسلم فصلاً يفهمه كل من سمعه) .

وروى عن جابر رضي الله عنه قال : (كان في كلامه صلى الله عليه وسلم ترتيل أو ترسيل)

وفي الصحيحين عن أنس : (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا تكلّم بكلمة أعادها ثلاثاً [2]

---

[1] وقد أورد هذا الحديث بتمامه في شرح المواهب ، وعزاه إلى عبد البر والحاكم ، قال الحافظ القسطلاني : وقد كان هذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم : أن يكلم كل ذي لغة بلغته ، على اختلاف لغة العرب ، وتراكيب ألفاظها وأساليب كلمها اهـ

[2] ومن حكمة ذلك : أن تكون الأولى للإسماع ، والثانية للوعي ، والثالثة للفكرة ، أو : الأولى للإسماع ، والثانية للتنبيه ، والثالثة للأمر ، على أن الثلاثة فيها غاية الأعذار والبيان ، فمن لم يفهم بها لا يفهم بما زيد عليها .

حتى تُفهم عنه ، وإذا أتى على قوم فسلّم عليهم ، سلّم عليهم ثلاثاً ، وكان صلى الله عليه وسلم يتكلم بكلام فصل لا هزر ولا نزر ، ويكره الثرثرة في الكلام ، والتشدُّق به)

وكان صلى الله عليه وسلم يكره التنطُّع في الكلام والتكلُّف في فصاحته ، كما ورد في (سنن) أبي داود والترمذي بالسند الجيد عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إنّ الله عز وجلّ يُبغض البليغ من الرجال : الذي يتخلّل بلسانه كما تتخلّل البقر بلسانها)[1]

وكان صلى الله عليه وسلم إذا خطب لا يُخلّ ولا يُملّ :

روى مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال :(كنت أصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم فكانت صلاته قصداً ، وخطبته قصداً) – أي : وسطاً .

وروى ابو داود عن جابر بن سمرة رضي الله عنه : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يطيل الموعظة يوم الجمعة ، إنما هي كلمات يسيرات)

وروى الإمام أحمد وأبو داود من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه قال : (شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة ، فقام متوكئاً على عصاً – أو قوس – فحمد الله وأثنى عليه ، كلمات خفيفات ، طيبات ، مباركات)

حاله صلى الله عليه وسلم وهو يخطُب :

كان صلى الله عليه وسلم يتغير حاله عند الموعظة ، اهتماماً وإعظاماً ، ويُعرف ذلك في وجهه صلى الله عليه وسلم .

روى مسلم عن جابر رضي الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطبَ اشتدّ غضبه ، وعلا صوته ، واحمرّت عيناه ، كأنه منذر جيشٍ يقول صبّحكم ومسّاكم .

---

[1] قال في (النهاية) : هو الذي يتشدق في الكلام ، ويفخم به لسانه ، ويلفه ، كما تلف البقرة الكلأ بلسانها لفاً اهـ

وروى الطبراني والبزار عن جابر : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه الوحي أو وعظ : قلتَ نذير قوم أتاهم العذاب ، فإذا ذهب عنه ذلك رأيته أطلقَ الناس وجهاً ،وأكثرهم ضحكاً ، وأحسنهم بِشراً [1] .

وروى الإمام أحمد عن الزبير بن العوّام قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبنا ، فيذكّرنا بأيام الله ، حتى يُعرف ذلك من وجهه ، وكأنه نذير قوم يصبّحهم الأمر غدوة ، وكان إذا كان حديث عهد بجبريل ، لم يتبسّم ضاحكاً حتى يرتفع عنه .

قوة وعظه وتذكيره وتأثيره في الصحابة :

كان صلى الله عليه وسلم إذا وعظ أثر في قلوب السامعين ، وطيّب نفوسهم ، حتى إنهم لتذرِفُ دموعهم ، وترقُّ وتخشع قلوبهم ، ويرتقي الحال بهم إلى المشاهدات والمعاينات . فعن حنظلة بن الربيع قال : (لقيني أبو بكر الصديق فقال لي : كيف أنت يا حنظلة ؟ فقلت له : نافقَ حنظلة . فقال لي : انظر ما تقول !!! فقلت له : نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكّرنا بالنار والجنة كأنا رأي عين ، فإذا خرجنا من عنده عافَسْنا الأزواج والأولاد والضّيعات ، ونسينا كثيراً) الحديث ، وروى الترمذي عن العرباض بن سارية أنه قال : (وعَظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجِلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون) .

وفي رواية لغير الترمذي : (وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظةً مضّت – احترقت – منها الجلود ، وذرفت منها العيون ، ووجِلت منها القلوب) .

فقلنا : (كأن هذه موعظة مودّع يا رسول الله ، فماذا تعهد إلينا ؟) .

فقال : (أنِ اتقوا الله ، وأن تتبعوا سنتي وسنة الخلفاء الهادية المهدية من بعدي ، عضّوا عليها بالنواجذ ، فإن كل بدعة ضلالة)[1] .

---

[1] انظر (جامع العلوم والحكم)

وقال أسيد بن حُضير : لو أني أكون على أحوال ثلاثة من أحوالي ، لكنت من أهل الجنة : حين أقرأ القرآن وحين أسمعه ، وإذا سمعت خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا شهدتُ جنازة .

بل كانت خُطبهُ ومواعظهُ صلى الله عليه وسلم تؤثّر في الجمادات ، كما ورد في المسند – وأصله في مسلم – عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هكذا بيده : يحركها ، يُقبل بها ويُدبر :

يمجّد الرب نفسه : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملِك ، أنا العزيز ، أنا الكريم ، فرجف برسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر ، حتى قلنا ليخرنّ به ! أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟) كما في رواية مسلم .

فالمنبر يهتز تأثراً بوعظه وتذكيره صلى الله عليه وسلم فويل للقلوب التي لا تهتزّ بمواعظه صلى الله عليه وسلم **تنبيهه صلى الله عليه وسلم الخطباء والواعظين إلى مسؤوليتهم عند رب العالمين :**

لما كانت مواقف الخطابة والوعظ والتذكير مواقف مهمة خطيرة ، لذلك كان صلى الله عليه وسلم ينبه الخطباء إلى إخلاص النية في خطبهم ، وأن وراء ذلك مسؤولية عند رب العالمين :

روى ابن أبي الدنيا والبيهقي مرسلاً بإسناد جيد [2] عن مالك بن دينار عن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من عبدٍ يخطب خطبةً إلا الله سائله عنها يوم القيامة ، ما أراد بها ؟) .

---

[١] وانظر الجزء الثالث من (المطالب العالية)
[٢] كما في ترغيب المنذري ١ : ١٢٥

قال : فكان مالك بن دينار إذا حدّث بهذا الحديث بكى ثم يقول : تحسبون أن عيني تقرُّ بكلامي عليكم ، وأنا أعلم أنّ الله عز وجلّ سائلي عنه يوم القيامة : ما أردتَ به ؟ فأقول : أنت الشهيد على قلبي ، لو لم أعلم أنه أحبُّ إليك ، لم أقرأ به على اثنين أبداً .

كما وأنه صلى الله عليه وسلم حذّر من تصنّع الكلام ليسبي به قلوب الرجال :

فروى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من تعلّم صرف الكلام ليسبي به قلوب الرجال – أو الناس – لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً)[1]

مدحُه صلى الله عليه وسلم الفصاحة وكراهيته اللحن

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلنا : يا رسول الله ما رأينا أفصح منك ؟ فقال : (إن الله تعالى لم يجعلني لحّاناً [2] ، اختار لي خير الكلام : كتابُه القرآن)[3] .

وفي (المستدرك) عن علي بن الحسين رضي الله عنهما : أقبل العباس رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه حُلّتان ، وله ضفيرتان ، وهو أبيض ، فلما رآه تبسّم ، فقال العباس : يا رسول الله ما أضحكك ؟ أضحك الله سنّك .

فقال : (أعجبني جمالُ عم النبي) صلى الله عليه وسلم .

فقال العباس : ما الجمال ؟ قال : (اللسان) [1] .

---

[١] قال في (النهاية) : قد تكررت هاتان اللفظتان في الحديث : فالصرف : التوبة ، وقيل النافلة ، والعدل : الفدية ، وقيل : الفريضة .

[٢] أي : بل جعل لساني لساناً عربياً مبيناً .

[٣] عزاه في (الجامع الصغير) وشرحه إلى الشيرازي في (الألقاب) وإلى الديلمي في (الفردوس)

وعند العسكري : ما الجمال في الرجل ؟ قال : (فصاحة لسانه)[2]

وقد جمع علماء السلف رضي الله عنهم الدواوين الجامعة لبعض جوامع كلِمه صلى الله عليه وسلم ، ونحن نذكر منها أربعين حديثاً ، لعل الله تعالى يكتب لنا أجر ما ورد في الحديث الذي رواه ابن النجار عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من سنتي ، أدخلته يوم القيامة في شفاعتي) وفي رواية ابن عدي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من السنة كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة)[3]

الحديث الأول في وصيته صلى الله عليه وسلم لابن عباس

يبين له فيها ما يجب أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى

روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال لي : (يا غلام إني أعلّمك كلماتٍ : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تُجاهك ، إذا سألت فاسألِ الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك إلا بشيء قد

---

[1] قال الحافظ الزرقاني : وهو حديث مرسل .

[2] ورواه القضاعي والخطيب ، وروى الديلمي من حديث جابر مرفوعاً : (الجمال : صواب المقال ، والكمال : حسن الفعال بالصدق) وروى العسكري عن ابن عمر : مرّ عمر بقوم يرمون ، فقال : بئسما رميتم ، فقالوا : إنا متعلمين ، فقال عمر : لذنبكم في لحنكم أشد علي من ذنبكم في رميكم ، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (رحم الله امرءاً أصلح من لسانه) اهـ ، كما في شرح المواهب .

[3] قال الإمام النووي : طرقه كلها ضعيفة ، وقال ابن عساكر : الحديث روي عن علي وعمر وأنس ، وابن عباس وابن مسعود ، ومعاذ ، وأبي أمامة ، وأبي الدرداء ، وأبي سعيد ، بأسانيد فيها كلها مقال ، ليس للتصحيح فيها مجال ، لكن كثرة طرقه تقويه ، وأجود طرقه خبر معاذ مع ضعفه ، اهـ كما في شرح (فيض القدير) وانظر كلام العلامة ابن حجر المكي في شرحه على الأربعين . وعلى القول بأنه ضعيف – مع تعدد طرقه – فإن الجمهور على أن الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال ، كما هو مفصل في شرحنا على (البيقونية)

كتبه الله لك ، وإن اجتمعت على أن يضُرّوك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رُفعت الأقلام وجفّت الصُحُف) .

زاد الإمام أحمد في روايته : (تعرّف إلى الله في الرّخاء يعرفك في الشدّة ، واعلم أنّ الصبر على ما تكره خير كثير ، وأنّ النصر مع الصبر ، وأنّ الفرجَ مع الكرب ، وأن مع العسر يُسراً)

الحديث الثاني في وصيته صلى الله عليه وسلم لابن عمر رضي الله عنهما

روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي [1] فقال : (كُن في الدنيا كأنّك غريبٌ ، أو عابرُ سبيل ، وعُدّ نفسك من أهل القبور) .

وفي رواية النسائي وأحمد زيادة في أوله : (أُعبُد الله كأنك تراه)

وهذه الوصية فيها بيان مراحل السير والسلوك إلى مقام ملك الملوك ، وقد تضمّنت هذه المراحل الثلاثة ، جميع منازل السائرين ، ومقامات الواصلين ، ولنا في شرح هذا الحديث بحث واسع نفيس ، نذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الحديث الثالث يبيّن فيه النبي صلى الله عليه وسلم

العمل الذي يجعل المسلم محبوباً عند الله ، وعند الناس

روى ابن ماجه عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله دُلّني على عملٍ إذا عملتُه أحبّني الله وأحبّني الناسُ . فقال : (ازهد في الدنيا يحبُّك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبُّك الناس)[2]

---

[1] يروى بالإفراد والتثنية .

[2] وقد رواه ابن أبي الدنيا عن الشيخ إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه ، مفصلاً ، كما في (ترغيب) المنذري .

الحديث الرابع يوصي فيه النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يكون الإنسان كَلّاً على الناس طامعاً فيما عندهم وأن يتوجه بكليته إلى كلٍّ من صلواته ، لأنها ربما كانت آخر صلاته .

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أوصني .

فقال صلى الله عليه وسلم : (عليك بالإياس مما في أيدي الناس ، وإيّاك والطمع ، فإنه الفقر الحاضر ، وصلِّ صلاتك وأنت مودّع ، وإيّاك وما يُعتذرُ منه)[1]

الحديث الخامس يوصي فيه النبي صلى الله عليه وسلم بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة وعدم التسويف والكسل عنها قبل أن تشغلهُ الشواغل ، أو تمنعه الموانع

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (بادروا بالأعمال سبعاً ! [2] هل تنتظرون إلا فقراً مُنسياً ، أو غنىً مُطغياً ، أو مرضاً مُفسداً ، أو هرماً مُفنِداً [3] ، أو موتاً مُجهزاً [4] ، أو الدجّال فشرُّ غائبٍ يُنتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمرُّ)[5]

الحديث السادس ينهى فيه النبي صلى الله عليه وسلم

أن يكون الإنسان إمّعة ، بل يكون محسناً متّبعاً للحق

---

[1] قال الحافظ المنذري : رواه الحاكم والبيهقي في (الزهد) وقال الحاكم – واللفظ له – صحيح الإسناد ، ورواه الطبراني من حديث ابن عمر اهـ

[2] أي سابقوا وقوع أحد هذه السبعة فيكم ، وذلك باهتمامكم بالأعمال الصالحة واشتغالكم بها ، كما في : (فيض القدير)

[3] أي : موقعاً في الكلام المنحرف عن سنن الصحة من الخرف والهذيان .

[4] أي : سريعاً .

[5] رواه الترمذي وحسنه ، والحاكم وصحح إسناده كما في (ترغيب) المنذري و(فيض القدير)

عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تكونوا إمّعةً [1] : تقولون : إنْ أحسن الناسُ أحسنّا ، وإن ظلموا ظلمنا – ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناسُ أن تُحسنوا ، وإن أساءوا أن لا تظلِموا)[2]

الحديث السابع يوصي فيه النبي صلى الله عليه وسلم بالصدق ، ويبيّن عواقبه الحسنة ويحذّر من الكذب ، ويبيّن عواقبه السيئة

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البرّ ، والبرُّ يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجلُ يصدُق ويتحرى الصدق حتى يُكتبَ عند الله صديقاً .

وإيّاكُم والكذب فإنّ الكذب يهدي إلى الفجور ، والفجور يهدي إلى النار ، وما يزال العبدُ يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذّاباً)[3]

فقد أوصى صلى الله عليه وسلم بالصدق : صدق الأقوال بموافقتها لواقع الأمر الشرعي ، وصدق الأفعال بإخلاص النيّة فيها لله تعالى ، وصدق الأحوال بحصولها عن مراقبةٍ لله تعالى ، ثم بيّن صلى الله عليه وسلم أن التحقق بالصدق يوصل صاحبه إلى البرّ ، ومعناه في اللغة : سعة الخير وكثرته ، والمراد به هنا سعة الخير الإيماني ، والتحقق بشُعب الإيمان الكثيرة العظيمة :

قال الله تعالى : (وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا

---

[1] قال في (النهاية) : الإمّعة – بكسر الهمزة وتشديد الميم – الذي لا رأي له فهو يتابع كل أحد على رأيه ، والهاء فيه للمبالغة ، وقيل : هو الذي يقول لكل أحد : أنا معك اهـ

[2] رواه الترمذي وحسنه ، كما في (الترغيب) وغيره .

[3] رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وصححه ، واللفظ له ، كما في (الترغيب) وغيره .

وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) .

فانظر في قوله تعالى : (أولئك الذين صدقوا) بعدما عدّد شعب البرّ ، واقرن بين ذلك وبين الحديث النبوي الذي نحن فيه تفهم المراد .

كما بيّن صلى الله عليه وسلم أن من تحقق بالبر الإيماني فإن ذلك يوصله إلى الجنة .

ثم حذّر النبي صلى الله عليه وسلم من الكذب في الأقوال والأعمال والأحوال ، وبيّن أن ذلك ينتهي بصاحبه إلى الفجور ، ومعناه في الأصل : مجاوزة الشيء حدّه ، والمراد هنا أن الكذب يؤدي بصاحبه إلى مجاوزة حدوده الشرعية ، التي حدّها الله تعالى وأوقفه عندها ، وأن ذلك الفجور يوصل صاحبه إلى النار لا محالة ، فجميع الأقوال والأعمال والأحوال والمقامات ، مرتبط بعضها ببعض ، ويوصل بعضها إلى بعض ، ولها آثارها ، ولها نتائجها في الخير وفي الشرّ.

الحديث الثامن في فضل المحبة الإيمانية وأثرها

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف ترى في رجل أحبّ قوماً ولم يلحق بهم ؟ - أي : ولم يستطع أن يعمل بعملهم – فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (المرءُ مع من أحبّ)

رواه الشيخان . وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : رأيت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحوا بشيء لم أرهم فرحوا بشيءٍ أشدُّ منه .

قال رجل : يا رسول الله : الرجلُ يحبّ الرجل على العمل من الخير يعمل به ، ولا يعمل بمثله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (المرء مع من أحبّ)[1]

الحديث التاسع يحذّر فيه النبي صلى الله عليه وسلم من سوء الظن ، ويبيّن ما يجب على المسلم نحو أخيه

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إياكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذبُ الحديث ، ولا تحسّسوا ، ولا تجسّسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا – عباد الله – إخواناً كما أمركم الله .

المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ، ولا يخذُله ، ولا يحقِره ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا – ويشير إلى صدره ثلاث مرات – بحسب امرئٍ من الشرّ أن يحقِر أخاه المسلم ، كلُّ المسلم على المسلم حرام : دمُه وماله وعرضه)[2]

وفي رواية لمسلم : (إنّ الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) .

الحديث العاشر يوصي فيه النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن أن يكون حريصاً على ما ينفعه في دينه ودنياه ، مستعيناً على ذلك بالله تعالى وينشّطه للعمل ويحذّره من العجز والكسل

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (المؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعِن بالله ولا تعجِز ، وإن أصابك شيءٌ

---

[1] انظر (الترغيب) للحافظ المنذري .
[2] قال الحافظ المنذري : رواه مالك والبخاري ومسلم – واللفظ له ، وهو أتم الروايات – وأبو داود والترمذي ، اهـ . والمراد بقول المنذري (وهو أتم الروايات) أي : بعد جمعها إلى بعضها كما يتبين ذلك لمن راجع صحيح مسلم .

فلا تقل : لو أني فعلتُ : كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدّر الله وما شاء فعل ، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان) .

الحديث الحادي عشر في وصيته صلى الله عليه وسلم بتقوى الله في السر والعلانية

عن معاذ رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اتّق الله حيثما كنتَ ، وأتبِع السيئة الحسنة تمحُها ، وخالقِ الناسَ بخُلق حسن) رواه الترمذي وقال : حسن صحيح .

وروى الطبراني بإسناد رواته ثقات عن أبي سلمة عن معاذ رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أوصني .

قال : (اعبُدِ الله كأنّك تراه ، واعدد نفسكَ في الموتى ، واذكر الله عند كل حجر ، وعند كل شجر ، وإذا عملت سيئةً فاعمل بجنبها حسنةً : السرّ بالسرّ ، والعلانية بالعلانية)[1]

الحديث الثاني عشر في وصيته صلى الله عليه وسلم ببر الوالدين والعفة عن التطلع إلى النساء

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (برّوا آباءكُم ، تبرّكُم أبناؤكم ، وعفُّوا تعفّ نساؤكُم)[2]

الحديث الثالث عشر يبيّن فيه النبي صلى الله عليه وسلم الصفات التي تجعل صاحبها في ظلّ الله تعالى

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (سبعةٌ يُظلّهُم الله في ظلّه ، يوم لا ظلّ إلا ظلُّه : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجلّ ، ورجل قلبه معلّق بالمساجد ، ورجلان

---

[1] كذا في (الترغيب) قال : وأبو سلمة لم يدرك معاذاً .

[2] قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني بإسناد ، ورواه أيضاً هو وغيره من حديث عائشة رضي الله عنها اهـ

تحابّا في الله : اجتمعا على ذلك ، وتفرّقا عليه ، ورجل دعته امرأةٌ ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجلٌ تصدّق بصدقةٍ فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تُنفِق يمينُه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه)[1]

الحديث الرابع عشر يحذّر فيه النبي صلى الله عليه وسلم الإنسان أن يتكلم بالكلمة دون أن يتبيّن ما فيها

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إنّ العبد يتكلّم بالكلمة ما يتبيّن فيها [2] يزلُّ بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب) رواه الشيخان .

وروى الترمذي بلفظ : (إنّ الرجل ليتكلّم بالكلمة لا يرى بها بأساً ، يهوي بها سبعين خريفاً) .

ورواه الحاكم بلفظ : (إنّ الرجل يتكلّم بالكلمة ما يظنُّ أن تبلغ ما بلغت ، يهوي بها سبعين خريفاً في النار) .

وروى البيهقي بلفظ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن العبد ليقول الكلمة ، لا يقولها إلا ليُضحك بها المجلس يهوي بها أبعد ما بين السماء والأرض ، وإنّ الرجل ليزِلّ عن لسانه ، أشدُّ ممّا يزِلُّ عن قدميه).

ورواه أبو الشيخ بإسناد حسن عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ألا هل عسى رجل منكم أن يتكلّم بالكلمة ، يُضحك بها القوم ، فيسقط بها أبعد من السماء ، ألا هل عسى رجل منكم يتكلم بالكلمة ، يُضحكُ بها أصحابه فيسخط الله بها عليه ، لا يرضى عنه حتى يدخلهُ النار)[3]

---

[1] رواه الشيخان وغيرهما ، وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في عدة من الأحاديث ، جملة واسعة من الذين يظلُّهم الله تعالى في ظلّه ، جمعها بعض المحدّثين فارجع إليها إن شئت .

[2] قال الحافظ المنذري : قوله (ما يتبين فيها) أي : ما يتفكر هل هي خير أم شر ؟ اهـ

[3] انظر جميع هذه الروايات في (الترغيب) للمنذري .

الحديث الخامس عشر يبيّن فيه النبي صلى الله عليه وسلم أحوال الناس في الدنيا وعواقبهم في الآخرة

عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ثلاثٌ أقسم عليهنّ وأحدّثكم حديثاً فاحفظوه :

قال : ما نقص مالٌ من صدقةٍ ، ولا ظُلِم عبدٌ مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزّاً ، ولا فتح عبدٌ باب مسألة [1] إلا فتح الله عليه باب فقرٍ .

قال : وأحدّثكم حديثاً فاحفظوه : إنما الدنيا لأربعة نفرٍ :

عبدٌ رزقه الله مالاً وعلماً ، فهو يتّقي فيه ربّه ، ويصلُ فيه رحِمه ، ويعلم أن لله فيه حقاً ، فهذا بأفضل المنازل .

وعبدٌ رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً ، فهو صادق النيّة يقول : لو أنّ لي مالاً لعملتُ بعمل فلان[2] فهو بنيّته ، فأجرهما سواء .

وعبدٌ رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً ، يخبط في ماله بغير علم ، ولا يتّقي فيه ربّه ، ولا يصلُ فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأخبث المنازل .

وعبدٌ لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول : لو أنّ لي مالاً لعملتُ فيه بعمل فلان ، فهو بنيّته [3] ، فوزرهما سواء)[4]

الحديث السادس عشر يبيّن فيه النبي صلى الله عليه وسلم أنواع عمل الخير وآثارها

---

[1] أي : شحاذة وسؤال مال الناس ، ولم يك مضطراً ، أما المضطر : فله أن يسأل قدر الضرورة ، إذا لم يجد ما يسد حاجته بعمل ونحوه .

[2] أي : لتصدقت وعملت من الخيرات ، كما يعمل فلان الغني التقي السخي .

[3] يعني : أنه نوى أن لو كان عنده مال لخبط فيه وهتك ، وفسق وعمل ما عمل فلان ، أي : في إسرافه على نفسه وفسقه ، فهو بنيته لذلك يلحقه إثم ذلك .

[4] رواه الترمذي وابن ماجه ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (صنائع المعروف : تقي مصارعَ السوء ، وصدقة السرّ : تطفئ غضبَ الربّ ، وصلة الرحم : تزيدُ في العمر)[1]

وجاء في رواية أمّ سلمة رضي الله عنها زيادة على ذلك : (وكلُّ معروف صدقة ، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة ، وأول من يدخل الجنّة أهل المعروف)[2] .

الحديث السابع عشر يبيّن فيه النبي صلى الله عليه وسلم وجوب محبّته فوق محبة كل مخلوق

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين) متّفق عليه .

الحديث الثامن عشر يبيّن فيه النبي صلى الله عليه وسلم الصفات التي يجد بها المؤمن حلاوة الإيمان

عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ثلاثٌ من كُنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما ، ومن أحبّ عبداً لا يُحبُّه إلا لله ، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النّار) .

وفي رواية : (ثلاثٌ من كنّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان وطعمه : أن يكون الله ورسولهُ أحبّ إليه مما سواهما ، وأن يحبّ في الله ويبغض في الله ، وأن توقد نارٌ عظيمة فيقع فيها ، أحبُّ إليه من أن يُشركَ بالله شيئاً)[3]

---

[1] إلى هنا رواية الطبراني في (الكبير) بإسناد حسن .
[2] هذه الزيادة رواية الطبراني في (الأوسط) وقد رواها الحافظ المنذري بصيغة (روي)
[3] رواه الشيخان والترمذي والنسائي .

الحديث التاسع عشر فيما ورد من حقوق المسلمين على بعضهم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (حقٌّ المسلم على المسلم ست) قيل : وما هنَّ يا رسول الله ؟

قال : (إذا لقيته فسلّم عليه ، وإذا دعاك فأجِبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله تعالى فشمّته ، وإذا مرض فعُده ، وإذا مات فاتّبعه)[1]

الحديث العشرون في التحذير من الحسد والبغضاء وأن ذلك هو الداء الذي هلكت به الأمم

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (دبَّ إليكم داءُ الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء ، والبغضاء هي الحالقة ، لا حالقة الشعر ولكن حالقة الدّين ، والذي نفس محمدٍ بيده : لا تدخلوا الجنّة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا ، ألا أنبّئكم بشيءٍ إذا فعلتمُوه تحاببتم ؟) .

قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : (أفشوا السلام بينكم)[2]

الحديث الحادي والعشرون في بيان حقوق الطريق وآدابه

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إيّاكم والجلوسَ في الطرقات) .

قالوا : يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بُد نتحدّث فيها [3] .

قال : (فإن أبيتم إلا المجالس ، فأعطوا الطريق حقّها) .

قالوا : يا رسول الله ، وما حقُّ الطريق ؟

---

[1] رواه البخاري بلفظ : (خمس) ومسلم بهذا اللفظ ؟

[2] رواه الترمذي وأحمد ، ورواه البزار بسند جيد كما في (ترغيب) المنذري و (مجمع الزوائد) ، وصدر الحديث في (صحيح) مسلم وغيره .

[3] يعنون أنهم قد يضطرون إلى الجلوس فيها للتحدّث في أمر مهم .

قال : غضّ البصر ، وكفّ الأذى ، وردّ السلام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) رواه الشيخان .

وفي رواية أبي داود زيادة : (وإرشادُ السبيل) .

وعند الطبراني : (وإغاثةُ الملهوف) .

الحديث الثاني والعشرون في بيان أن من خاف الله تعالى سعى إلى النجاة من عذابه وذلك بطاعة الله تعالى

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من خاف أدلج [1]

ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنّة)[2]

الحديث الثالث والعشرون في بيان فضل التفريج عن المسلم والستر عليه ، والتيسير والعون له ، وفضل : طلب العلم والاجتماع على تلاوة كتاب الله تعالى ومدارسته

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من نفّس عن مؤمن كُربة من كُرب الدُّنيا ، نفّس الله عنه كربةً من كُرب يوم القيامة ، ومن سترَ مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، ومن يسّر على معسرٍ يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبدُ في عون أخيه ، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنّة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا

---

[1] قال العلاّمة المناوي : (أدلج) بسكون الدال مخففاً : سار من أول الليل ، وأما التشديد فمعناه سار من آخره اهـ . والمعنى : أن من مشى في الصحراء ، وأقبل عليه الليل ، فإن خوفه من سباع الصحراء وضياعها ، يحمله على أن لا يبيت ، بل يتابع سيره حتى يبلغ منزله ومأمنه – وفي هذا عبرة للسائرين والسالكين .

[2] رواه الترمذي وقال : حسن غريب ، ورواه الحاكم وصحّحه ، وأقرّه الذهبي .

نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفّتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطّأ به عمله ، لم يُسرع به نسبُه)[1]

الحديث الرابع والعشرون في بيان وجوه مسؤولية العبد يوم القيامة

عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تزولُ قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع : عن عُمُره فيم أفناه ، وعن عمله ما عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه ، وعن جِسمه فيمَ أبلاه)

رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

ورواه البزار والبيهقي والطبراني بإسناد صحيح [2] عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع خصال : عن عُمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه).

الحديث الخامس والعشرون خطبته صلى الله عليه وسلم يحضُّ فيها على التمسُّك بكتاب الله تعالى والاهتداء بهديه صلى الله عليه وسلم

عن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطبَ احمرّت عيناه ، وعلا صوته ، واشتدّ غضبه ، كأنه منذر جيش ، يقول : (أمّا بعدُ ، فإن أصدق الحديثِ كتابُ الله ، وإن أفضل الهدي هديُ محمدٍ ، وشرُّ الأمور مُحدثاتها ، وكل مُحدثة بدعة ، وكلّ بدعة ضلالة ، وكلُّ ضلالة في النّار ، أتتكم الساعة بغتةً ، بُعثتُ أنا والساعة هكذا ، صبّحتكم الساعة ومسّتكم

[1] رواه مسلم وأصحاب السنن .
[2] كما في مواضع متعددة من (الترغيب) للمنذري .

، أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك مالاً فلأهله ، ومن ترك ديناً أو ضياعاً : فإليّ وعليّ ، وأنا وليُّ المؤمنين)[1]

الحديث السادس والعشرون خطبته صلى الله عليه وسلم في أول جمعة صلاّها في المدينة المنورة [2]

(الحمد لله أحمده ، وأستعينُه وأستغفره ، وأستهدِيه ، وأومن به ولا أكفُره ، وأعادي من يكفُره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ن وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، والنور والموعظة ، على فترةٍ من الرسل ، وقلّة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمن ، ودنوّ من الساعة ، وقربٍ من الأجل ، ومن يطع الله ورسوله فقد رشَد ، ومن يعصِهما فقد غوى ، وفرّط وضلّ ضلالاً بعيداً .

وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ أن يحضّهُ على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله .

فاحذروا ما حذّركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكرى ، وإنه تقوى لمن عمل به على وجلٍ ومخافةٍ ، وعونُ صدقٍ على ما تبتغون من أمر الآخرة ، ومن يُصلح الذي بينه وبين الله تعالى من أمر السرّ والعلانية – ولا ينوي بذلك إلا وجه الله تعالى – يكن له ذكراً في عاجل أمره ، وذخراً فيما بعد الموت ، حين يفتقر المرءُ إلى ما قدّم ، وما كان سوى ذلك يودُّ لو أنّ بينه وبينه أمداً بعيداً ، ويحذّركم الله نفسه ، والله رؤوف بالعباد

---

[1] رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائي وأبو داود كما في (الجامع الصغير وشرحه الكبير) .

[2] قال الحافظ ابن جرير الطبري : حدثني يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحي أنه بلغه عن خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في أول جمعة صلاّها بالمدينة في بني سالم بن عمرو بن عوف رضي الله عنهم أنه قال : وذكر هذه الخطبة .

والذي صدق قوله ، وأنجز وعده لا خُلف لذلك ! فإنه يقول تعالى : (ما يبدّلُ القول لديّ وما أنا بظلاّمٍ للعبيد) .

واتّقوا الله في عاجل أمره وآجله في السرّ والعلانية ، فإنه من يتّق الله يكفّر عنه سيئاته ويُعظم له أجراً ن ومن يتّق الله فقد فاز فوزاً عظيماً .

وإن تقوى الله تقي مقته ، وتقي عقوبته ، وتقي سخَطه . وإن تقوى الله تبيّض الوجه وترفعُ الدرجة .

خُذوا بحظّكم ولا تفرّطوا في جنب الله ، قد علّمكم الله كتابه ، ونهجَ بكم سبيله ، ليعلمَ الذين صدقوا وليعلمَ الكاذبين .

فأحسنوا كما أحسنَ الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا في الله حقّ جهاده ، هو اجتباكم وسمّاكم المسلمين ، ليهلِك من هلَكَ عن بيّنة ، ويحيى من حيّ عن بيّنة ، ولا قوة إلا بالله ، فأكثروا ذكرَ الله ، واعملوا لما بعد الموت ، فإنه من أصلح ما بينه وبين الله يكفِه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأنّ الله يقضي على الناس ، ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم) .

قال الحافظ ابن كثير : هكذا أوردها ابن جرير ، وفي السند إرسال ، وقال البيهقي : باب أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة ، ثم أورد ابن كثير إسناد البيهقي إلى أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال : كانت أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة أن قام فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثمّ قال :

(أما بعد – أيّها الناس – فقدّموا لأنفسكم ، تعلمُنّ والله لَيُصعقنّ أحدكم ثم ليدعنّ غنمه ليس لها راعٍ ، ثم ليقولنّ له ربُّه – ليس له ترجمان ولا حاجبُ يحجبه دونه - : ألم يأتك رسولي فبلّغك ، وأتيتك مالاً ، وأفضلت عليك ، فما قدّمت لنفسك ؟ .

فينظر – أي : العبد – يميناً وشمالاً ، فلا يرى شيئاً ، ثم ينظر قدّامه فلا يرى غير جهنّم ، فمن استطاع أن يقي وجهه من النّار ولو بشقّ تمرةٍ فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمةٍ طيّبة ، فإنّ بها تُجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف – والسلام (عليكم [1]) وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته .

ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم مرةً أخرى : فقال : (إنّ الحمد لله أحمده ، وأستعينه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مُضلّ له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

إن أحسنّ الحديث كتابُ الله ، قد أفلحَ من زيّنهُ الله في قلبه ، وأدخله في الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغُه ، أحبُّوا من أحبَّ الله ، أحبُّوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملّوا كلام الله وذكره ، ولا تقسُ عنه قلوبكم ، فإنه من يختارُ الله ويصطفي فقد سمّاه خيرته من الأعمال ، وخيرته من العباد ، والصالحَ من الحديث ، ومن كل ما أوتي الناسُ من الحلالِ والحرامِ .

فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، واتّقوه حقّ تُقاته ، واصدقوا الله صالحَ ما تقولون بأفواهِكم ، وتحابُّوا بروحِ الله بينكم ، إنّ الله يغضبُ أن يُنكثَ عهده – والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته) .

قال ابن كثير بعد ما أورد ذلك : وهذه الطريق أيضاً مرسلة ، إلا أنها مقوّية لما قبلها ، وإن اختلفت الألفاظ اهـ انظر (البداية والنهاية) .

الحديث السابع والعشرون خطبته صلى الله عليه وسلم في الحثّ على التوبة ، وصلة العبد بينه وبين ربه والتحذير من ترك صلاة الجمعة ، وخطر ذلك .

[1] هذه الكلمة زيادة من سيرة ابن هشام .

عن جابر رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغلوا ، وصِلوا الذي بينكم وبين ربكم : بكثرة ذكركم له ، وكثرة الصدقة في السرّ والعلانية ، تُرزقوا وتُنصروا وتُجبروا ، واعلموا أن الله افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا ، في يومي هذا ، في شهري هذا ، من عامي هذا ، إلى يوم القيامة ، فمن تركها في حياتي أو بعدي ، وله إمام عادل أو جائر ، استخفافاً بها ، وجحوداً بها ، فلا جمعَ الله له شمله ، ولا بارك له في أمره ، ألا ولا صلاة له ، ألا ولا زكاة له ، ألا ولا حجّ له ، ألا ولا صوم له ، ألا ولا برّ له حتى يتوب ، فمن تابَ تابَ الله عليه)[1]

الحديث الثامن والعشرون خطبته صلى الله عليه وسلم يذكر فيها أنواعاً من التذكير والتحذير

روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً صلاة العصر ، ثم قام خطيباً ، فلم يدَع شيئاً يكونُ إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به ، حفِظه من حفِظه ، ونسيه من نسِيه ، وكان فيما قال :

(إنّ الدنيا خضِرة حُلوة ، وإنّ الله مستخلفكم فيها ، فناظرٌ كيف تعملون ، ألا فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، ألا لا تمنعنّ رجلاً هيبةُ الناس أن يقول بحقٍّ إذا علِمَه ، ألا إنه يُنصب لكل غادر لواءٌ يوم القيامة بقدر غدرته ، ولا غدرة أعظم من غدرة إمامِ عامّةٍ يُركزُ لواؤه عند أسته .

ألا إنّ بني آدم خُلقوا على طبقات شتّى : فمنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً ، ومنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً ، ومن من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً ، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً

---

[1] قال في (الترغيب) : رواه ابن ماجه ، ورواه الطبراني في (الأوسط) من حديث أبي سعيد الخدري أخصر منه اهـ

ويموت كافراً . ألا وإن منهم البطيء الغضب سريع الفيء [1] ، والسريعَ الغضب سريع الفيء ، فتلك بتلك ، ألا وإنّ منهم بطيء الفيء سريع الغضب ، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء ، وشرّهم سريع الغضب بطيء الفيء . ألا وإنّ منهم حسنَ القضاء ، حسنَ الطلب ، ومنهم سيء القضاء حسن الطلب ، فتلك بتلك ، إلا وإن منهم سيء القضاء سيء الطلب ، ألا وإن خيرهم الحسنُ القضاء الحسنُ الطلب ، وشرّهم سيء القضاء سيء الطلب

ألا وإنّ الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، أما رأيتم في حُمرة عينيه ، وانتفاخ أوداجِه ؟ فمن أحسّ بشيء من ذلك فليلصَق بالأرض) .

قال أبو سعيد : وجعلنا نلتفت إلى الشمس هل بقي من النهار شيء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ألا وإنه لم يبقَ من الدنيا فيما مضى منها ، إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه) .

ورواه الإمام أحمد بزيادة : (إنكم تتمُّون سبعين أمّة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى) .

الحديث التاسع والعشرون خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يذكر فيها عظمة الله تعالى وقيّوميّته وتصرُّفه سبحانه في مخلوقاته بالقسط

روى الإمام مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال : (إن الله تعالى لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفضُ القسط ويرفعه ، يُرفع إليه عملُ الليل قبل عمل النهار ، وعملُ النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصرهُ من خلقه) .

الحديث الثلاثون خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يحثُّ فيها على الحياء من الله تعالى حقّ الحياء

---

[1] أي : سريع الرجوع عن الغضب إلى الرضا .

روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر والناس حوله : (أيها الناس ! استحيوا من الله حقّ الحياء) .

فقال رجل : يا رسول الله إنا لنستحيي من الله تعالى !

فقال صلى الله عليه وسلم : (من كان منكم مستحيياً فلا يبيتنّ ليلةً إلا وأجلهُ بين عينيه ، وليحفظ البطن وما حوى [1] ، والرأس وما وعى [2] ، وليذكر الموت والبِلى ، وليترك زينة الدنيا) رواه الطبراني في (الأوسط) .

ويشهد لهذا الحديث ما رواه الترمذي وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (استحيوا من الله حقّ الحياء) .

قلنا : يا نبي الله إنا لنستحيي من الله والحمد لله !

قال : (ليس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله حقّ الحياء : أن تحفظ الرأس وما وعى ، وتحفظ البطن وما حوى ، ولتذكر الموت والبِلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حقّ الحياء) .

الحديث الحادي والثلاثون خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يصفُ فيها أولياء الله تعالى ويذكر فيها عظم الكبائر

عن عبيد بن عمير الليثي عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع : (إنّ أولياء الله المصلّون ، ومن يقيمُ الصلوات الخمسَ التي كتبهنّ الله عليه ويصومُ رمضان ويحتسب صومَه ، ويؤتي الزكاة محتسِباً طيّبة بها نفسه ، ويجتنب الكبائر التي نهى الله عنها) .

فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله وكم الكبائر ؟

---

[1] أي : وما حواه البطن من الطعام والشراب ، ومن الشهوات ، وذلك أن يكون حلالاً في حلال .

[2] وما وعاه الرأس من المدارك السمعية والبصرية ، والقوى العقلية والفكرية والكلامية ، ونحو ذلك فيصرفها فيما شرعه الله تعالى ورضيه .

فقال : (تسعٌ أعظمُهنّ : الإشراك بالله ، وقتل المؤمن بغير حقّ ، والفرار من الزّحف ، وقذف المحصَنة ، والسّحر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الرّبا ، وعقوقُ الوالدين المسلمين ، واستحلال البيتِ الحرام قبلتِكم أحياء وأمواتاً

لا يموت رجلٌ لم يعمل هؤلاء الكبائر ، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة إلا رافقَ محمداً صلى الله عليه وسلم في بُحبوحة [1] جنةٍ أبوابها مصاريع الذهب)[2]

الحديث الثاني والثلاثون خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يحذّر فيها من الظلم والشُّحّ والفحش

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (إيّاكُم والظُّلم ، فإنّ الظلم ظلماتٌ يوم القيامة ، وإيّاكُم والفُحش والتفحُّش ، وإياكم والشُّح ، فإنما هلكَ من كان قبلكم بالشُّح ، أمَرهم بالقطيعة [3] فقطعوا ، وأمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا) .

فقام رجلٌ فقال : يا رسول الله أيُّ الإسلام أفضل ؟

قال صلى الله عليه وسلم : (أن يسلَم المسلمون من لسانِك ويدك) .

فقال ذلك الرجل أو غيره : يا رسول الله أيُّ الهجرة أفضلُ ؟

قال : (أن تهجُر ما كرِه ربُّك)[4] .

الحديث الثالث والثلاثون خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يحذّر فيها من إيذاء المسلمين وتتبُّع عوراتهم

---

[1] بحبوحة المكان : وسطه .

[2] قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني في (الكبير) بإسناد حسن اهـ

[3] أي : بقطيعة الرحم وقطع الرحمة للعباد

[4] قال المنذري في (الترغيب) : رواه أبو داود مختصراً ، والحاكم – واللفظ له – وقال صحيح على شرط مسلم اهـ

روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : صعِدَ النبي صلى الله عليه وسلم المنبر ، فنادى بصوت رفيع – أي : مرتفع – فقال : (يا معشر من أسلمَ بلسانه ولم يُفض الإيمان إلى قلبه ! لا تؤذوا المسلمين ، ولا تتبّعوا عوراتهم – أي : زلاّتهم وعثراتهم – فإنه من تتبّع عورة أخيه المسلم ، تتبّع الله عورته ، ومن تتبّع الله عورته يفضحهُ ولو في جوف رحله) .

ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال : ما أعظمكِ وما أعظم حُرمتك ! والمؤمن أعظمُ حرمةً عند الله منك .

قال في (الترغيب) : ورواه ابن حبان في (صحيحه) إلا أنه قال فيه : (يا معشر من أسلَم بلسانه ، ولم يدخل الإيمان قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيّروهم ، ولا تطلبوا عثراتهم ..) الحديث .

الحديث الرابع والثلاثون خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يحذّر فيها أمته أن يتنافسوا على الدنيا وينسَوا دينهم

روى الشيخان عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج يوماً فصلّى على أهل أُحد صلاته على الميت ، ثم انصرف إلى المنبر فقال : (إني فرطٌ لكم ، وأنا شهيد عليكم ، وإني – والله – لأنظر غلى حوضي الآن ، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض – أو مفاتيح الأرض – وإني – والله – ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها).

وفي رواية : صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتلى أحد بعد ثمان سنين ، كالمودّع للأحياء والأموات ن ثم طلع المنبر فقال : (إني بين أيديكم فرطٌ وأنا شهيد عليكم ، وإن موعدكم الحوض ، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا ، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا ، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها)

وفي رواية : (ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها ، وتقتتلوا وتهلكوا كما هلَكَ من كان قبلكم)

قال عقبة : فكانت آخر ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر .

الحديث الخامس والثلاثون خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يحثُّ فيها على الاستعداد للآخرة

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم خطبَ يوماً فقال في خطبته : (ألا وإنّ الدنيا عرضٌ حاضر ، يأكل منه البرُّ والفاجر، ألا وإن الآخرة أجلٌ صادق ، ويقضي فيها ملكٌ قادر ، ألا وإن الخير كله بحذافيره في الجنة ، ألا وإنّ الشرّ كله بحذافيره في النار ، ألا فاعملوا وأنتم من الله على حذر ، واعلموا أنكم معرضون على أعمالكم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)[1]

الحديث السادس والثلاثون خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يحذّر فيها من ترك الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم حين يُذكر ، ومن التقصير في شهر رمضان ومن التقصير مع الوالدين عموماً ، وخصوصاً عند الكِبر .

عن كعب بن عُجرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (احضروا المنبر) فحضرنا ، فلما ارتقى درجة قال : (آمين) فلما ارتقى الدرجة الثانية قال : (آمين) فلما ارتقى الدرجة الثالثة قال : (آمين) فلما نزل قلنا : يا رسول الله ، لقد سمعنا منك اليوم شيئاً ما كنّا نسمعه **؟!**

فقال : (إن جبريل عليه السلام عرَضَ لي فقال : بعُد من أدرك رمضان فلم يُغفر له **!** قلت : آمين ، فلما رقيت الثانية قال : بعُدَ من ذُكرتَ عنده فلم يصلّ عليك **!** فقلت : آمين ، فلما رقيت الثالثة قال : بعُدَ من أدرك أبويه الكِبر عنده أو أحدهما فلم يُدخلاه الجنة **!** قلتُ : آمين) .

---

[1] في (المشكاة) : رواه الشافعي رضي الله عنه ، وروى نحوه أبو نعيم في (الحلية) عن شداد بن أوس مرفوعاً ، كما في (المشكاة والمواهب) وغيرهما .

رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ، ورواه ابن حبان في (صحيحه) بلفظ :

عن الحسن بن مالك بن الحويرث عن أبيه عن جدّه رضي الله عنه قال : صعِدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر فلما رقيَ عتبةً قال : (آمين) ثم رقي أخرى فقال : (آمين) ثم رقي عتبةً ثالثةً فقال : (آمين) .

ثم قال : (أتاني جبريل عليه السلام فقال : يا محمد من أدرك رمضان فلم يُغفر له فأبعده الله ! فقلتُ : آمين ، قال : ومن أدرك والديه أو أحدهما فدخل النار فأبعده الله ! فقلت : آمين ، قال : ومن ذُكرتَ عنده فلم يُصلّ عليك فأبعده الله ! فقلت : آمين) .

ورواه ابن خزيمة وابن حبان في (صحيحه) أيضاً بلفظ :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم صعِد المنبر فقال : (آمين . آمين . آمين) قيل : يا رسول الله إنكَ صعِدت المِنبر فقلت : (آمين آمين آمين) ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : (إنّ جبريل عليه السلام أتاني فقال : من أدرك شهرَ رمضان فلم يُغفر له فأبعده الله - قل : آمين . فقلتُ : آمين ..) ثم ذكر بقية الحديث .

الحديث السابع والثلاثون خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يحذّر فيها من الدعوى في العلم والقرآن

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قام ليلةً بمكة من الليل فقال : (اللهم هل بلّغتُ) ثلاث مرات .

فقام عمر بن الخطّاب – وكان أوّاهاً – فقال : اللهم نعم وحرّضتَ وجهدتَ ونصحتَ .

فقال صلى الله عليه وسلم : (ليظهرنّ الإيمان حتى يردّ الكفر إلى موطنه ، ولتُخاضنّ البحارُ بالإسلام ، وليأتينّ على الناس زمانٌ يتعلمون فيه القرآن ، يتعلمونه ويقرؤونه ثم يقولون : قد قرأنا وعَلِمنا ، فمن ذا الذي هو خير منا ؟

قال صلى الله عليه وسلم : فهل في أولئك من خير ؟

قالوا : يا رسول الله : من أولئك ؟

فقال : (أولئك منكم – أي : من هذه الأمّة – وأولئك هم وقودُ النار) .

قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني في (الكبير) وإسناده حسن إن شاء الله تعالى اهـ .

ويشهد لهذا الحديث ما ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يظهر الإسلام حتى تختلف التجار في البحر ، وحتى تخوض الخيل في سبيل الله ، ثم يظهر قوم يقرؤون القرآن يقولون : من أقرأ منا ؟ من أعلمُ منا ؟ من أفقه منا ؟)

ثم قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : (هل في أولئك من خير ؟) .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : (أولئك منكم من هذه الأمة ، وأولئك هم وقود النار) .

قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني في (الأوسط) ، والبزار بإسناد لا بأس به ، ورواه أبو يعلى والبزار والطبراني أيضاً من حديث العباس بن عبد المطّلب رضي الله عنه اهـ .

الحديث الثامن والثلاثون خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يبيّن فيها أحوال الناس في المحشر

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبُ على المنبر يقول : (إنكم ملاقوا الله حُفاةً عُراةً غُرلاً – وفي رواية :

مشاةً -) وفي رواية : قال ابن عباس : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : (يا أيها الناس إنّكم محشورون إلى الله تعالى حُفاةً عراةً غُرلاً (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) .

ألا وإنّ أول الخلائق يُكسى إبراهيم عليه السلام .

ألا وإنه سيُجاء برجال من أمّتي ، فيُؤخذُ بهم ذات الشمال ، فأقول : يا ربِّ أصحابي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبدُ الصالح : (وكنتُ عليهم شهيداً ما دُمتُ فيهم) إلى قوله (العزيز الحكيم) .

قال : فيقال لي : إنهم لم يزالوا مرتدّين على أعقابهم منذر فارقتهم ، فأقول : سُحقاً سُحقاً) رواه الشيخان والترمذي وغيرهم .

الحديث التاسع والثلاثون خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يحثُّ فيها على نشر أحاديثه وتبليغها ويدعو لمن فعل ذلك بنضارة الوجه

عن جُبير بن مُطعم قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخَيفِ – خيفِ منى – يقول : [1] (نضّر الله عبداً سمع مقالتي ، فحفظها ووعاها ، وبلّغها من لم يسمعها ، فرُبّ حاملِ فقه إلى من هو أفقه منه ، ثلاثٌ لا يغِلُّ عليهنّ قلب مؤمنٍ : إخلاص العمل لله تعالى ، والنصيحة لأئمة المسلمين ، ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحفظ من ورائهم)[2] .

وجاء في (صحيح) ابن حبان زيادة على ذلك : (ومن كانت الدنيا نيّته فرّق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأتِه من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن

---

[1] وجاء في رواية الطبراني في (الأوسط) عن أنس رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمسجد الخيف من منى .. الحديث ، كما في (ترغيب) المنذري .

[2] قال الحافظ المنذري في (الترغيب) : رواه أحمد وابن ماجه والطبراني في (الكبير) مختصراً ومطولاً ، إلا أنه قال (تحيط) بياء بعد الحاء . رووه كلهم عن محمد بن إسحاق ، عن عبد السلام ، عن الزهري ، عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه ، وله عند أحمد طريق عن صالح بن كيسان عن الزهري ، وإسناد هذه حسن اهـ

كانت الآخرة نيّته جمع الله أمرهُ ، وجعل غناه في قلبه ، وأتتهُ الدنيا وهي راغمة)[1] .

الحديث الأربعون في وصاياه صلى الله عليه وسلم الجامعة للحِكم والآداب

عن أبي ذرّ رضي الله عنه أنه قال : قلتُ يا رسول الله أوصني : قال : (أوصيكَ بتقوى الله ، فإنه زين لأمرك كلّه ، - وفي رواية ابن حبّان – فإنه رأسُ الأمر كلّه)

قلتُ يا رسول الله : زدني ، قال : (عليك بتلاوة القرآن ، وذكرِ الله عز وجلّ ، فإنه ذكرٌ لك في السماء ، ونورٌ لك في الأرض).

قلتُ يا رسول الله : زدني ، قال : (عليك بطول الصّمت ، فإنه مطردةٌ للشيطان ، وعونٌ لك على أمر دينك) .

قلتُ : زدني ، قال : (إيّاك وكثرة الضحك ، فإنه يميتُ القلب ، ويَذهب بنور الوجه) .

قلتُ : زدني ، قال : (قلِ الحقّ وإن كان مُرّاً) .

قلتُ : زدني ، قال : (لا تخف في الله لومةَ لائم) .

قلت : زدني ، قال : (ليحجُزكَ عن النّاس ما تعلمُ من نفسك) .

رواه الإمام أحمد ، والطبراني ، وابن حبان في (صحيحه) ، والحاكم – واللفظ له – وقال : صحيح الإسناد [2] .

وجاء في رواية (صحيح) ابن حبان بعد قوله صلى الله عليه وسلم : (وإيّاك وكثرةَ الضحك) قلتُ : يا رسول الله زدني قال : (عليك بالجهاد فإنه رهبانيةُ أمّتي) .

---

[1] انظر الجزء الأول من (الترغيب) .
[2] كما قال الحافظ المنذري في (الترغيب) .

قلتُ : يا رسول الله زدني ، قال : (أحبّ المساكين وجالِسهم) .

قلتُ : يا رسول الله زدني ، قال : (انظر إلى من هو تحتك [1] ، ولا تنظر إلى من هو فوقك ، فإنه أجدر أن لا تزدري نعمةَ الله عندك) .

قلتُ : يا رسول الله زدني ، قال : (قل الحقّ وإن كان مُرّاً) .

قلتُ : يا رسول الله زدني ، قال : (لِيرُدّك عن الناس ما تعلمه من نفسك [2] ، ولا تجد عليهم فيما يأتون [3] ، وكفى بك عيباً أن تعرفَ من الناس ما تجهله من نفسك) .

وفي رواية الطبراني [4] : (وكفى بالمرء عيباً أن يكون فيه ثلاث خصال : أن يعرفَ من الناس ما يجهلُ من نفسه ، ويستحيي لهم مما هو فيه ، ويؤذي جليسه) ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على صدري فقال : (يا أبا ذرّ : لا عقلَ كالتدبير ، ولا ورع كالكفّ[5] ، ولا حسبَ [6] كحُسن الخُلُق) .

الحديث الحادي والأربعون يبيّن فيه النبي صلى الله عليه وسلم جملة من فضائله الكريمة

روى الإمام مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (فُضّلتُ على الأنبياء بستّ : أعطيتُ جوامع الكلِم ،

---

[1] أي : من الأمور الدنيوية .
[2] أي : ليمنعك عن التكلّم في الناس والوقيعة فيهم ، ما تعلم من نفسك من العيوب ، فقلما تخلو أنت من عيب يماثل عيوب الناس أو أقبح منه ، وأنت تشعر أو لا تشعر بذلك . كما في شرح المناوي .
[3] أي : ليمنعك عن التكلم في الناس والوقيعة فيهم ، ما تعلم في نفسك من العيوب ، فقلما تخلو أنت من عيب يماثل عيوب الناس أو أقبح منه ، وأنت تشعر أو لا تشعر بذلك . كما في شرح المناوي .
[4] كما في (الجامع الصغير) رامزاً إلى حسنه . وقال الشارح : ورواه أيضاً عن أبي ذر رضي الله عنه : ابن لال والديلمي .
[5] أي : الامتناع عما يضطرب القلب في تحليله وتحريمه .
[6] أي : ولا مجدَ ولا شرفَ مثل حسن الخلق .

ونُصرتُ بالرُّعب ، وأحِلَّت لي الغنائم ، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهُوراً ، وأرسلتُ إلى الخلق كافةً ، وختمَ بي النبيّون).

فكان صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يتحدّث بنعمة الله تعالى عليه ، بأن الله تعالى أعطاه جوامع الكلم ، وذلك : قوة الإيجاز في الألفاظ مع بسطٍ وكثرةٍ في المعاني .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (بُعثتُ بجوامع الكلم ، ونُصرتُ بالرُّعب ، وبينا أنا نائم رأيتني أتيتُ بمفاتيح خزائن الأرض فوُضعت في يديّ) .

وروى أبو يعلى في (مسنده) عن عمر مرفوعاً : (أعطيتُ جوامع الكلم ، واختُصر لي الكلام اختصاراً) كما تقدم في جملة من الأحاديث الواردة في ذلك .

أرجحية عقله الشريف صلى الله عليه وسلم على سائر العقول

العقل موهبة إلهية وهبه الله تعالى للإنسان ، وشرّفه به على جميع أنواع الحيوان ، به يعرف العاقلُ حسَنَ الأشياء وقبيحها ، وكمالها ونقصانها ، وبه يعلم خير الخيرين وشرّ الشرّين [1] .

ولقد بلغ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله تعالى ، من أرجحيّة العقل وكماله الغايةَ القصوى التي لم يبلغها أحد سواه ، وذلك بنعمة الله تعالى وفضله عليه صلى الله عليه وسلم .

قال الله تعالى : (ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون)

أي : أنت في أعلى مستوى كمال العقل وسمو الفكر ، فلقد أقسم سبحانه بقوله : (ن) وهو المدد الإلهي الفياض ، وبالقلم الأول المستفيض ، وبما يسطّره

---

[1] وقد ذكر الإمام الغزالي رضي الله عنه مراتب العقول ، وأن بعض مراتب العقل ينتهي إلى بعض ، إذا ارتفعت الحجب والقواطع ، فارجع إلى تفاصيل ذلك في كتبه .

المسطّرون في المستوى الأعلى ، الذي سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صريف أقلامه ، وما تسطّره الأقلام المستمدة من القلم الأول .

أقسم بهذا القسم العظيم على سعة عقل هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وإنه ليس فيه شائبة جنون ، وإنما هو صاحب العقل الأكمل ، والعلم الواسع الأفضل ، وأنه كيف لا يكون عقله فوق كل العقول ، وقد أنعم الله عليه وأكرمه فخصّه بالنبوة الجامعة والخاتمة ، والرسالة العامّة ، ونزول القرآن الجامع للعلوم كلّها ، فإن هذه النعم لا يتحملها إلا من خصّه الله تعالى بأكمل العقول وأرجحها ولذا قال : (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) أي : ما أنت بسبب نعمة ربك عليك بالنبوة والرسالة ، والقرآن الجامع لأنواع العلوم والحكمة ، ما أنت بمجنون – فهو ينفي ما اختلقه أعداؤه صلى الله عليه وسلم ، ويُثبت له بالدليل القاطع أرجحيّة العقل والحكمة .

وذلك أن من أوحي إليه القرآن الجامع للعلوم والمعارف ، وأوحي إليه الحكمة العالية التي هي فوق كل حكمة ، كيف يُتصوّر أن يكون فيه شائبة خلل أو نقص ؟! . (وإن لك أجراً) أي : بسبب صبرك على طعنهم بك .

(غير ممنون) غير مقطوع .

(وإنك لعلى خلق عظيم) فهو صلى الله عليه وسلم أكمل خلق الله عقلاً كما قال ابن عباس رضي الله عنهما : أفضلُ الناس أعقلُ الناس ، وذلك نبيّكم محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال وهب بن منبّه التابعي الثقة ، الذي روى له الشيخان وغيرهما : (قرأتُ في أحد وسبعين كتاباً – أي : من الكتب السابقة – فوجدت في جميعها ، أنّ الله تعالى لم يعطِ جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها ، من العقل في جنب عقل محمد صلى الله عليه وسلم إلا كحبّة رمل من جميع رمال الدنيا ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم أرجح الناس عقلاً ، وأفضلهم رأياً [1]) .

---

[1] كما في شرح المواهب .

وإنّ العقل الكامل هو الأصل الذي تنشأ عنه الخصال الحميدة ، والمواهب الرشيدة ، وبه تُقتبس الفضائل ، وتجتنب الرذائل ، وهو الذي يُسلم صاحبه إلى مجامع الخير والفضل ، كما ورد في حديث إسلام خالد بن الوليد ، حين دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلّم عليه بالنبوّة ، قال : (فردّ عليّ السلام بوجهٍ طَلق ، فقلتُ : إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله .

فقال له صلى الله عليه وسلم : (تعال) فأقبل .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الحمدُ لله الذي هداكَ ، قد كنتُ أرى لكَ عقلاً ، رجوتُ أن لا يُسلمَك إلا إلى الخير ..) الحديث .

وروى الطبراني [1] عن قُرّة بن هبيرة رضي الله عنه أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (إنه كان لنا أربابٌ وربّاتٌ نعبدُهنّ من دون الله عز وجل ، فدعوناهنّ فلم يُجبن ، وسألناهنّ فلم يُعطينَ ، فجئناك ، فهدانا الله بك ، فنحن نعبد الله) .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قد أفلحَ من رُزقَ لُبّاً) .

فقال : (يا رسول الله ألبسني ثوبين من ثيابك قد لبستَهما) فكساه .

فلما كان بالموقف من عرفات ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أعِد عليّ مقالتك) فأعاد عليه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قد أفلحَ من رُزقَ لُبّاً)

أي : عقلاً راجحاً اهتدى به إلى الإسلام ، وفعل المأمورات ، وترك المنهيات . قال تعالى : (إنّما يتذكّر أولوا الألباب) .

وفي هذا بيان منه صلى الله عليه وسلم أن العقل الرجيح ، يُلزم صاحبه بالتمسُّك بهذا الدين الإسلامي ، لأنه دين كامل صحيح ، وهو غاية بغية العقل

---

[1] قال في (مجمع الزوائد) : فيه راو لم يسم ، وبقية رجاله ثقات .

الرجيح ، كما روي عنه صلى الله عليه وسلم : (رأس العقل بعد الإيمان بالله : الحياءُ وحُسنُ الخُلُق)[1] .

لأن الإسلام هو الدين المحكم ، وهو المعقول المبرم ، قال الله تعالى : (إنّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) أي : تعقلون معانيه وأوامره ومناهيه ، فتعلمون يقيناً أنه لا يأمركم إلا بما هو خيرٌ لكم ، ولا ينهاكم إلا عمّا هو شرٌ لكم

كما قال ابن مسعود : (إذا سمعتَ الله يقول : (يا أيها الذين آمنوا) فأرعها سمعَك ، فكل من استمعَ إلى هذا الدين وعقَله ووعاه وفهمه ، لابد أن يُسلم له ويستسلم إليه) .

ولما دخل الأعرابيُّ الفطريُّ العاقلُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيّن له صلى الله عليه وسلم أوامر الإسلام ومناهيه ، فخرج الأعرابيُّ وأعلنَ إسلامَه فقال له قومُه : بمَ عرفتَ أنّه رسول الله ؟

فقال الأعرابيُّ : ما أمرَ محمدٌ صلى الله عليه وسلم بأمرٍ قال العقل : ليته نهى عنه ، ولا نهى عن شيء فقال : ليته أمرَ به .

وقد أدرك عبد المطّلب حقيّة الآخرة بعقله ، وذلك أنه قال يوماً : ما من ظالم يشتدُّ ظلمه إلا انتقم الله منه قبل أن يموت .

فقيل له : فلان جار وطغى !

فقال : انتقم الله منه يوم كذا .

فقيل له : فلان ، فقال : انتقم الله منه يوم كذا .

فقيل له : فلان جار وطغى ولم يُصبه شيء .

ففكّر طويلاً ثم قال : إذاً لابدّ من يوم آخر ينتقم الله منه .

---

[1] رواه صاحب (الفردوس) عن أنس ، وضعفه النسائي ، كما في (فيض القدير) .

وإلى ذلك نبّه الله تعالى العقلاء فقال سبحانه : (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) .

ومن ثمّ قال تعالى مُخبراً عمّا يقول الكفّار يوم القيامة : (وقالوا : لو كنّا نسمع أو نعقلُ ما كنّا في أصحاب السعير) يعني : أنهم لو سمعوا لهذا الدين لعلموا وعقلوا أوامره ، ومعانيه وحِكَمه وأحكامه ، لكنهم عمُوا وصمُّوا .

وعن الحسن البصري مرسلاً يرفعه : (لمّا خلق الله العقلَ قال له : أقبِل فأقبلَ ،

ثم قال له : أدبر فأدبَرَ ، فقال : ما خلقتُ خلقاً أحبّ إليّ منكَ ، بك آخذُ وبك أُعطي) .

فأحبُّ العقول إلى الله تعالى هو عقل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه أكمل العقول وأرجحها وأوسعها ، ويتجلّى لكَ كمالُ عقله صلى الله عليه وسلم وسعةُ فكره ، في جميع قضاياه وأعماله وأقواله وأحواله ، ونحن نذكر لك أطرافاً موجزة هي قطرة من بحره صلى الله عليه وسلم ، أولاً : إن مواجهته صلى الله عليه وسلم للعالم الذي انتشرت الجاهلية الجهلاء في جميع طبقاته ومللِه : عربهم وعجمهم ، حتى إنهم ضلّت عقولهم ، وجهلوا دينَهم ، وصاروا يعبدون أوثاناً وأحجاراً نحتتها أيديهم ، وربما صنع أحدهم صنماً صغيراً من تمر أو عجوة فعبده مدة مديدة ، حتى إذا جاع أكله !

فمواجهة هذه العقلية الصخرة المتحجّرة المنحرفة ، وتحويلها إلى عقلية لطيفة سليمة صائبة ، لهو أمر كبير يحتاج إلى عقل رجيح ، وفكر صحيح ، وقوة بيان ، وفصاحة لسان ، وبرهان ساطع ، ودليل قاطع ، وتحمُّل وأناة ، وحلم وصفح ، وعلم واسع بمختلف الحجج وأنواع الأساليب .

ولا ريب أن جميع ذلك كان بتعاليم أحكم الحاكمين ، وبوحي رب العالمين ، فإنه سبحانه هو الذي خطّ له طريق الدعوة ، وبيّن له أساليبها ،وأوضح له

مناهجها ، ليسير عليها ، كما قال سبحانه : (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) .

ولكن التعاليم الإلهية والإيحاءات الربّانية ، لابدّ لها من عقلٍ كبير ، مشرق منير ، قد أعدّه الله تعالى لحملها ، ثم تطبيقها وتنزيلها في منازلها اللائقة بها ، فإن الناس تتفاوتُ مراتبهم .

فمنهم : من إذا عُرضت عليه الحكمة سلّم لها ، واستسلم لأمرها .

ومنهم : من أخذت بنفسِه الشهوات المفرطةُ مأخذها ، فيحتاج إلى وعظ وتذكير بسوء ما يعمل ، وعواقب ما يقترف .

ومنهم : من تسلّطت على قلبه الشبهات الاعتقادية الفاسدة ، فهو يحتاج إلى ما يزيلها من قلبه بالحجج القاطعة ، والجدل بالتي هي أحسن .

ولذا نوّع الله تعالى أساليب الدعوة ، لأنّ كل أسلوبٍ له موقعه وأثره وموضعه

ومن هنا يُعلم يقيناً أن أعقل العقلاء هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ثانياً : إنّ من تأمّل في أساليب حجته على عبَدة الأوثان ، ومن نظر في أدلّته على اليهود النصارى ، وإلزامهم الحجة وإفحامهم وإلقامهم حجر الخذلان ، تراءت له إشعاعات من عقليته الكبرى صلى الله عليه وسلم ، وأيقنَ أنّ عقله صلى الله عليه وسلم أكمل العقول وأعلاها ، وأوسعها وأفضلها .

فهذا حُصين والد عمران ، الذي يعبد سبعة أصنام في الأرض ، ويرى أنها آلهة ، وكان معظّماً في قريش ، فجاؤوا إليه وقالوا له : كلّم لنا هذا الرجل – أي : محمداً صلى الله عليه وسلم - فإنه يذكر آلهتنا ويسبُّهُم ، وجاؤوا معه حتى جلسوا قريباً من باب النبي صلى الله عليه وسلم .

فقال صلى الله عليه وسلم : (أوسعوا للشيخ) أي : كبير السنّ وهو حصين .

فقال حصين : ما هذا الذي بلغنا عنك : أنك تشتم آلهتنا وتذكرهم ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : (يا حصين ، كم تعبد من إله ؟) .

قال : سبعاً في الأرض ، وواحداً في السماء .

فقال صلى الله عليه وسلم : (فإذا مسّك الضرُّ من تدعو ؟) .

فقال حصين : أدعو الذي في السماء .

فقال صلى الله عليه وسلم : (فإذا هلَكَ المال من تدعو ؟)

فقال حصين : أدعو الذي في السماء .

فقال صلى الله عليه وسلم : (فسيتجيبُ لك وحده وتُشركُهم معه ؟ !! أرضيتَهُ في الشكر أم تخاف أن يُغلبَ عليك ؟ !!)

فقال حصين : لا واحدة من هاتين .

فقال صلى الله عليه وسلم : (يا حصين أسلم تسلم) .

فقال : إنّ لي قوماً وعشيرةً ، فماذا أقول ؟

فقال : (قل : اللهم أستهديك لأرشَدِ أمري ، وزدني علماً ينفعني) .

فقالها حصين ، فلم يقم حتى أسلم .

فقام إليه عمران ابنه فقبّل رأسه ويديه ورجليه .

فلما رأى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم بكى ، وقال : (بكيتُ من صنيع عمران ، دخل حصين – أبوه – وهو كافر ، فلم يقم إليه عمران ولم يلتفت ناحيته ، فلما أسلم قضى حقّه ، فدخلني من ذلك الرقّة) .

فلما أراد حصين أن يخرج قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : (قومُوا فشيّعوه إلى منزله)

أي : إكراماً له ، فلما خرج من سُدّة الباب رأته قريش وقد أسلم ، فقالوا : صبأ ، وتفرّقوا عنه [1] .

وانظر في أسلوب حجته صلى الله عليه وسلم مع الرجل الذي جاء يطلب منه أن يرخّصَ له بالزّنا ، كما ورد في (المسند) أنه صلى الله عليه وسلم جاءه رجل يستأذنه في الزنا .

فقال له صلى الله عليه وسلم : (أترضى أن يزني الناس بأمك) فقال : لا .

فقال صلى الله عليه وسلم : (وكذلك الناس يكرهون – أترضى أن يزني الناس بأختك ؟) فقال : لا . قال صلى الله عليه وسلم : فكذلك الناس يكرهون).

ثم قال صلى الله عليه وسلم : (أترضى أن يزني الناس بابنتك ؟) فقال : لا .

قال صلى الله عليه وسلم : (فكذلك الناس يكرهون) .

فقال : يا رسول الله أشهدك أنني تُبتُ من الزنا .

فانظر في لطافة هذا الأسلوب في الحجة ، ودقّتها وقوّة تأثيرها في النفوس !

ثالثاً – إن حسن تأليفه صلى الله عليه وسلم بين قومه الذين كانوا أشتاتاً منقسمين على بعضهم ، ورفعه الخلاف من بينهم ، وإبعاده إياهم عن الشحناء والبغضاء ، لاسيما في محازّ الاختلافات ، ومثار العصبيات والقبليات ، إنّ هذا لمن أكبر الشواهد على سعة عقله صلى الله عليه وسلم ، وسموّ فكره ، وإليك حادثة وضع الحجر الأسود في موضعه ، وتنازع قبائل العرب وتنافسهم ، وتزاحمهم على ذلك حتى همّوا ببعضهم ، فلم يخرجهم من ذلك إلا رأيه السديد صلى الله عليه وسلم ، حتى إنهم أصبحوا راضين ، وكان ذلك قبل بعثته صلى الله عليه وسلم ، وله من العمر خمس وثلاثون سنة ! وذلك أنّ قريشاً لمّا جدّدت بناء الكعبة تنازعوا في رفع الحجر الأسود ، وتنافسوا رجاءَ أن تنالَ كل قبيلة شرف رفعه ووضعه في موضعه ، وعظُم القيل والقال بينهم ، ثم إنهم

---

[1] عزاه في (الإصابة) إلى ابن خزيمة بإسناده .

قالوا : نحكّم أول داخل من باب بني شيبة ، فكان صلى الله عليه وسلم أول من دخل منه – فأخبروه .

فأمر صلى الله عليه وسلم بثوب فجيء به ، فوضع الحجرُ وسط الثوب وأمرَ كلّ فخذٍ من أفخاذِ العرب أن يأخذوا بطرف من الثوب – أي : بجانب منه – فرفعوه كلُّهم ، فلما أنهوه إلى مقرّه ، أخذه صلى الله عليه وسلم فوضعه بيده في موضعه [1] .

فانظر كيف سلك بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم طريق الإنصافِ ليرفع من بينهم الخلاف .

رابعاً – ومن أعظم ما يدلُّ على أرجحية عقله الشريف صلى الله عليه وسلم وفرط ذكائه مواقفه اليقِظة مع المتصدّين له بالعداوة ، وأخذه بأنواع الحذر منهم ، وردّه مكرهم عليهم ، ويظهر ذلك في الوقائع معهم ، ونقدّم إليك نماذج موجزة :

١ – أخذه بأسباب التحفُّظ من مكرهم وخديعتهم : كما ورد عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أُتي بي إلى النبي صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة – أي حين : قدم المدينة – فقيل له صلى الله عليه وسلم هذا من بني النجار ، وقد قرأ سبع عشرة سورة .

فقرأتُ عليه صلى الله عليه وسلم ، فأعجبه ذلك .

فقال لي صلى الله عليه وسلم : (تعلّم كتاب اليهود – أي : كتابتهم ولغتهم – فإني ما آمنهم على كتابي) . قال زيد : ففعلت ، فما مضى لي نصف شهر

---

[1] وقد روى هذه القصة أبو داود الطيالسي وابن راهويه وغيرهما ، كما في الجزء الأول من شرح المواهب .

حتى حذِقته ، فكنت أكتب له إليهم ، وإذا كتبوا إليه قرأت له صلى الله عليه وسلم [1] .

وقال في (الإصابة) : ورويناه في (مسند) عبد بن حُميد من طريق ثابت بن عبيد عن زيد بن ثابت قال : قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : (إني أكتب إلى قوم ، فأخاف أن يزيدوا أو ينقصُوا فتعلم السريانية) .

قال زيد : فتعلمتها في سبعة عشر يوماً .

وفي (خِطط) المقريزي : كتابة السريانية قديمة ، لها أصل في السنة ، فقد أخرج أبو بكر عبد الله بن أبي داود في كتاب (المصاحف) عن زيد بن ثابت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنها تأتيني كتب لا أحبُّ أن يقرأها كل أحد ، فهل تستطيعُ أن تعلّم كتاب العبرانية – أو قال : السريانية ؟) .

فقلت : نعم ، فتعلمتها في سبع عشر ليلة .

فقد أمر صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت أن يتعلم العبرانية ، ليكاتب اليهود بلغتهم ، وليأمن تلاعبهم في المكاتبات ، ولغير ذلك .

ومن ثمّ قيل : من تعلّم لغة قومٍ أمِن مكرَهم .

٢- إرساله صلى الله عليه وسلم من يكشف عن عدد العدو وعدّته ، وأساليبه في معرفة ذلك :

فقد روى أبو داود الطيالسي وابن راهويه وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث يوم بدر عليّاً كرّم الله تعالى وجهه والزبير وسعد بن مالك في نفر إلى ماء بدر ، يلتمسون له الخبر عن العدو : عددِهم وعُدَّتهم – فأصابوا راوية لقريش فيها غلام – أي : عبد مملوك – لبني الحجاج ، وغلام لبني العاص ،

---

[1] عزاه الحافظ في (الإصابة) إلى البخاري تعليقاً ، وإلى البغوي وأبي يعلى موصولاً .

فجعلوا يسألونهما عن عدد القوم المشركين ، فطفِقا يقولان : العدد كثير ، فأتوا بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ، فلما سلّم قال : (أخبراني عن قريش) .

فقالا : هم وراء هذا الكثيب الذي تراه بالعُدوة القصوى .

فقال صلى الله عليه وسلم : (كم القوم ؟) فقالا : كثير ، فقال صلى الله عليه وسلم : (ما عِدّتهم ؟) قالا : ما ندري

فقال صلى الله عليه وسلم : (كم ينحرون – أي : من الإبل – كلّ يوم ؟) فقالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً . فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : (القوم – أي : العدو – ما بين التسعمائة والألف) وكان الأمر كذلك [1] .

٣ – إرساله صلى الله عليه وسلم من يكشف له عن خبر الأعداء ، من طريق خفيّ الحال والقال : ومن ذلك إرساله حذيفة يوم الأحزاب ، وقوله : (يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون ، ولا تحدِث شيئاً حتى تأتينا) .

وفي رواية : (اذهب فائتني بخبر القوم ولا تحدِث شيئاً حتى تأتيني) [2]

٤ – إرساله صلى الله عليه وسلم من يُخذّل بين صفوف أعدائه مخادعة لهم ، واختياره الرجل المناسب لأن يتدخّل بين العدو ، يخدعهم ويفرّق شملهم

ومن ذلك : ما فعله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب ، حين أتاه نُعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه ، فقال : إني أسلمتُ ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمُرني بما شئت . فقال صلى الله عليه وسلم : (إنما أنتَ فينا رجل واحد ، فخذّل عنا إن استطعت ، فإنّ الحرب خدعة ، فاذهب فشتّت جموع العدو وألقِ بينهم بدهائك) .

---

[١] انظر شرح المواهب .

[٢] عزاه في شرح المواهب وغيره إلى ابن إسحاق .

فخرج حتى أتى بني قُريظة – وهم طائفة من اليهود – وكان لهم نديماً ، فقال : قد عرفتم ودّي إياكم ، وخاصةً ما بيني وبينكم .

قالوا : صدقتَ لستَ عندنا بمتّهم .

فقال لهم : إن قريشاً وغطَفان [1] ليسوا كأنتم – أي : مثلكم – البلدُ بلدكم ، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون أن تتحوّلوا منه إلى غيره ، وإنهم جاؤوا إلى حرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليهم ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره – أي : بغير بلدكم – فإن رأوا نُهزةً أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلّوا بينكم وبينه – أي : محمد وأصحابه – ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ثقةً لكم ، على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه .

فقالوا لنعيم : لقد أشرت بالرأي .

ثم أتى نُعيم بن مسعود قريشاً ، فقال لأبي سفيان ومن معه : قد عرفتم ودّي لكم وفراقي محمداً ، وإنه قد بلغني أمر رأيت حقاً عليّ أن أبلغكموه ، نصحاً لكم فاكتموه عني . قالوا : نفعل .

فقال نُعيم : إن يهودَ ندموا على ما صنعوا ، وأرسلوا إلى محمد : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، أيُرضيك أن نأخذ من أشراف قريش وغطَفان رجالاً نضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم ؟

فأرسل إليهم – محمد - : نعم .

قال نُعيم : فإن بعثتْ إليكم يهودُ يلتمسون منكم رهناً فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً ، ثم إنّ نعيماً أتى غطفان فقال : إنكم أصلي وعشيرتي وأحبُّ الناس إليّ ولا أراكم تتهمونني – أي : بل أنا مصدّقٌ عندكم - .

---

[1] وقد جاؤوا من مكة ، وتجمعوا على جانب المدينة المنورة ، لمحاربة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وتحالفت معهم بنو قريظة من اليهود المقيمين في المدينة على ذلك .

فقالوا : صدقتَ وما أنت عندنا بمتّهم .

قال نعيم : فاكتموا عني .

قالوا : نفعل ، فقال لهم مثل ما قال لقريش .

وكان من صُنع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن أبا سفيان ورؤوس غطفان أرسلوا إلى يهود من بني قريظة ، عكرمة في نفر من القبيلتين : إنا لسنا بدار مقام ، وقد هلكَ الخف والحافر – أي : الإبل والخيل – فاغدوا للقتال ، حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه .

فأرسلوا – أي : يهود بني قريظة – إليهم – إلى قريش وغطفان - : إن اليوم يوم السبت ، لا نعمل فيه شيئاً وكان قد أحدث فيه – أي : في السبت – بعضُنا حدَثاً ، فأصابه ما لم يخفَ عليكم – أي : مُسِخوا – ولسنا بمقاتلين معكم حتى تعطونا من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً ، فإنا نخشى إن اشتدّ عليكم القتال ، أن ترجعوا إلى بلادكم – مكة وما حولها – وتتركونا والرجل – أي : محمداً – ولا طاقة لنا به .

فقالت قريش وغطفان : والله إن الذي حدّثكم نعيم به لحقّ ، فأرسلوا إلى بني قريظة : إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً ، فأبوا عليهم .

وخذّل الله بينهم ، وبعث الله عليهم الريح في ليالٍ شديدة البرد ، فأكفأت قدورهم ، وطرحت أبنيتهم [1] .

٥- تعميته الأمور على أعدائه وتلبيس الأمور عليهم :

وكان صلى الله عليه وسلم يُلبّس أمور الحرب على أعدائه ويعمّيها عنهم ، كيلا يتفطنوا لها ، ويستعدوا للدفع ، أو يزيدوا في الجمع ، وفي ذلك حقن للدماء .

---

[1] ذكر ذلك ابن إسحاق ، كما في شرح المواهب ، ولخص ذلك الحافظ ابن حجر في (الفتح) .

جاء في الصحيحين عن كعب بن مالك رضي الله عنه أنه قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة – أي : غزوة تبوك – غزاها في حرّ شديد واستقبل سفراً بعيداً ، وغزا عدداً كبيراً ، فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبّة غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الذي يريد – أي : فصرّح لهم بالجهة التي يريدها – ولم يورّ بغيرها .

كما أنه صلى الله عليه وسلم لبّس الأمر على أعدائه ليلة الهجرة ، حين قصدوا بيته صلى الله عليه وسلم ليقتلوه ، فأمر علياً رضي الله عنه أن ينام في فراشه صلى الله عليه وسلم ، ويتسجّى ببردته صلى الله عليه وسلم .

٦- أخذه صلى الله عليه وسلم بالأسباب التي فيها تخويف وإرهاب :

كان صلى الله عليه وسلم يأخذ بالأسباب التي فيها إرهابُ أعدائه وتخويفهم ، وذلك ليُضعف من حدّتهم ، ويكفّ من شرهم وضُرّهم ، وشراسة نفوسهم .

فقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم لما توجّه لفتح مكة ، وانتهى إلى مرّ الظّهران ، أمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار لتراها قريش ، وترهبَ من كثرتها ، حتى قال أبو سفيان ومن معه حين رأوها من بعيد : لكأنها نيران عرفة – أي : في كثرتها – وكان ذلك مما ألقى الخوفَ في قلوبهم .

كما أمرَ صلى الله عليه وسلم عمّه العباس أن يُجلس أبا سفيان على الطريق عند مضيق خطم الجبل ، وذلك ليشاهد جيوش المسلمين وكتائبهم حين تمر عليه .

ثم جعلت تمرّ عليه كتيبة كتيبة ، فجعل أبو سفيان يقول للعباس : من هذه الكتيبة يا عباس ؟ وطفِق العباس يخبره عن تلك الكتائب واحدةً واحدةً ، وذلك مما حمل أبا سفيان على التضامن والاستسلام ، إلى أن دخل في الإسلام .

٧- انتقاؤه الشجعان الأكفاء لمقاومة المعارك العنيفة :

كان صلى الله عليه وسلم ينتقي لخوض المعارك العنيفة أكفاء الرجال من الأبطال ، حسبَ الاستعداد والمناسبة ، لخوض تلك المعركة الدامية ، ثم يتبين للصحابة بعد ذلك دقّة نظره صلى الله عليه وسلم في تعيين ذلك الرجل الذي انتقاه ، وصواب رأيه فيه .

فهذا يوم خيبر يقول صلى الله عليه وسلم : (لأُعطينّ الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله ، ويفتح الله على يديه) .

فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو منه أن يُعطاها ،

فقال صلى الله عليه وسلم : (أين علي بن أبي طالب ؟) .

فقالوا : يا رسول الله هو يشتكي عينيه – فأرسل إليه ، فأُتي به وهو أرمد ، فبصق صلى الله عليه وسلم في عينيه ودعا له فقال : (اللهم أذهب عنه الحرّ والقرّ) – أي : البرد – فبرأ كأن لم يكن به وجع .

وفي رواية البيهقي والطبراني عن عليّ كرّم الله وجهه قال : فما رمدتُ ولا صُدعتُ مذ دفع إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الراية يوم خيبر .

وفي رواية يونس عن ابن إسحاق : وكان علي رضي الله عنه يلبس القباء المحشوّ الثخين في شدّة الحرّ فلا يبالي الحرّ ، ويلبس الثوب الخفيف في شدة البرد فلا يبالي البرد ، فسئل عن ذلك ؟ فأجاب بأن ذلك بدعائه صلى الله عليه وسلم يوم خيبر

وفي يوم أحد لما اشتدت المعركة قال صلى الله عليه وسلم : (من يأخذُ هذا السيف بحقّه ؟)

فقام إليه رجال ، منهم : الزبير بن العوام فطلبه ثلاث مرات ، كل ذلك يعرض عنه ، حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرَشة فقال : وما حقُّه يا رسول الله ؟

قال : (أن تضرب به وجه العدو حتى ينحني) – وكان رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب ، فلما رآه صلى الله عليه وسلم يتبختر قال صلى الله عليه وسلم : (إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن) .

قال الزبير : والله لأنظرنّ ما يصنع أبو دجانة ، واتبعتُه ، فأخذ بعصابة له حمراء فعصبَ بها رأسه فقالت الأنصار : أخرج عصابة الموت ، فخرج وهو يقول :

أنا الذي عاهدني خليلي   ونحن بالسفح لدى النخيل

ألاّ أقومَ الدهر في الكيُّول [1]   أضرب بسيف الله والرسول

فجعل لا يلقى أحداً من المشركين إلا قتله ، قال الزبير : وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحاً إلا ذفّف عليه [2]

فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه ، فدعوت الله أن يجمع بينهما ، فالتقيا ، فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دجانة فاتّقاه بدرقته ، فعضّت بسيفه ، وضربه أبو دجانة فقتله ، ثم رأيته حمل بالسيف على رأس هند بنت عتبة ، ثم عدل عنها وقال : أكرمتُ سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أضرب به امرأة [٣] .

٨ – انتقاؤه الرسل الأذكياء العقلاء ليبعثهم إلى الأمراء والملوك ، يبلغون ، ويُدلون بالحجج المعقولة ، والحِكم المقبولة :

يشهد لهم بذلك حُسن عرضهم في مواقفهم مع الملوك ، وقوة بيانهم وبرهانهم

فهذا العلاء بن الحضرمي يبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المنذر بن ساوى ، ومعه كتاب يدعوه إلى الإسلام ، فلما قدِم عليه قال له :

---

[١] الكيول : بفتح الكاف وتشديد الياء : مؤخرة الصفوف .

[٢] بالذال المعجمة وبالمهملة : أسرع في قتله ، كما في شرح المواهب .

[٣] انظر شرح المواهب .

يا منذر إنك عظيم العقل فلا تصغُرنّ في الآخرة ، إن هذه المجوسية شرّ دين ، ليس فيها تكريم للعرب ، ولا عُلِم عند أهل الكتاب أنهم ينكحون ما يُستحيا من نكاحه ، ويأكلون ما يُتكرّم عن أكله ، ويعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة ، ولستَ بعديم العقل ولا الرأي ، فانظر هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا أن لا تصدّقه ؟ ولمن لا يخون أن لا تأمنه ؟ ولمن لا يُخلفُ أن لا تثق به ؟

فإن كان هذا هكذا فهذا هو النبيّ الأميّ الذي – والله – لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليتَ ما أمر به نهى عنه ، وما نهى عنه أمر به ، أو ليتَه زاد في عفوه ، أو نقص من عقابه إذ كل ذلك منه على أمنية أهل العقل ، وفكر أهل النظر ، فقال له المنذر : قد نظرت في هذا الذي في يدي – دين المجوسية – فوجدته للدنيا دون الآخرة ، ونظرت في دينكم فرأيته للآخرة والدنيا ، فما يمنعني من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت ؟! ولقد عجبتُ أمس ممن يقبله – أي : يدخل في الإسلام – وعجبتُ اليوم ممن يردُّه – أي : لا يدخل فيه مع أنه المعقول – وإنّ من إعظام ما جاء به أن يُعظّم رسوله – وسأنظر ، أي : فيما أصنع من الذهاب إلى هذا الرسول صلى الله عليه وسلم – أو مكاتبته ، أو غير ذلك .

لافي أن يُسلم أو لا يُسلم ، فإن قوله : وعجبتُ اليوم ممن يردّه ، اعتراف منه بأنه دين حق اهـ كما في شرح المواهب وغيره .

وهذا المهاجر بن أبي أمية المخزومي ، شقيق أم سلمة أم المؤمنين ، بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحارث بن عبد كُلال أحد ملوك حمير ، فلما قدِم عليه المهاجر قال له :

يا حارث إنك كنت أول من عرض عليه المصطفى نفسه فخَطِئت عنه ، وأنت أعظم الملوك قدراً ، وإذا نظرت في غلبة الملوك فانظر في غالب الملوك ، وإذا سرّك يومك فخف غدك ، وقد كان قبلك ملوك ذهبت آثارها ، وبقيت

أخبارها ، عاشوا طويلاً وأمّلوا بعيداً ، وتزودوا قليلاً ، فمنهم من أدركه الموت ، ومنهم من أكلته النّقم .

وأنا أدعوك إلى الرب الذي إن أردت الهدى لم يمنعك ، وإن أرادك لم يمنعه منك أحد ، وأدعوك إلى النبي الأمي الذي ليس شيء أحسن مما يأمر به ، ولا أقبح مما ينهى عنه .

واعلم أن لك رباً يميت الحيّ ، ويحيي الميّت ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور اهـ كما في (الروض الأُنف) .

٩ – معاملته صلى الله عليه وسلم وحسن سياسته ، ومداراته للناس على مختلف طبقاتهم تأليفاً لهم ، واستمالتهم نحو الحق الذي جاء به ، بتلطيف الحال ولين المقال :

كما رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (رأس العقل بعد الإيمان بالله : التوددُ إلى الناس)[١] .

وكان يداري السفهاء والحمقى ، ليُكفّ من غائلتهم وشرّهم ، وليستميلهم ويجلب قلوبهم نحو السداد والرشاد :

ففي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها : أن رجلاً استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فلما رآه قال : (بئس أخو العشيرة ، وبئس [٢] ابن العشيرة) فلما جلس تطلّق [٣] النبي صلى الله عليه وسلم في وجهه ، وانبسط إليه . وفي رواية : فلما دخل ألان له الكلام ، فلما انطلق الرجل قالت عائشة رضي الله عنها : (يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ، ثم انطلقتَ في وجهه ، وانبسطت إليه) ؟!

---

[١] رواه البيهقي والبزار ، وسنده ضعيف كما في (فيض القدير) وشرح المواهب ، وعزاه في (فتح الباري) إلى البزار بلفظ : (رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس) ، وتعقبه السخاوي بأن لفظ البزار (التودد إلى الناس) اهـ كما في شرح المواهب .
[٢] بالواو ، وفي رواية : بأو ، وهو شك من الراوي حينئذ .
[٣] قال في (الفتح) : أي : أبدى له طلاقة ، وفي رواية : بشّ اهـ

فقال صلى الله عليه وسلم : (يا عائشة متى عهدتني فحّاشاً ؟ إن شرّ الناس منزلةً عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتّقاء شرّه) .

وفي رواية : (اتّقاء فحشه) أي : لأجل اتّقاء قبح قوله وفعله ، فلما دخل هذا الرجل ، وكان يقال له الأحمق – أي : فاسد العقل – لم يقابله صلى الله عليه وسلم بغلظة وفحش ، بل ألانَ له القول ، وسلك معه مسلكَ المداراة .

ولذا قال العلماء : هذا الحديث أصل في المداراة ، وفرّقوا بين المداراة المطلوبة ، وبين المداهنة المذمومة :

أن المداراة هي : بذل الدنيا لصلاح أمر الدنيا أو الدين ، أو صلاح الدنيا والدين معاً ، ومن ذلك البذل : لينُ الكلام ، وترك الإغلاظ في القول والرفق بالجاهل في التعليم ، والرفق بالفاسق في النهي عن فعله ، وترك الإغلاظ عليه ما لم يُظهر ما هو فيه ، والإنكار عليه بلطمة حتى يرتدع عما هو فيه [١] قال الإمام القسطلاني : وهي مباحة وربما استُحسنت .

قال الحافظ الزرقاني : وربما استُحسنت فكانت مستحبة أو واجبة .

وللديلمي في (الفردوس) عن عائشة مرفوعاً : (إن الله أمرني بمداراة الناس كما أمرني بإقامة الفرائض) .

ولابن عدي والطبراني عن جابر مرفوعاً : (مداراة الناس صدقة)[٢] اهـ

وأما المداهنة فهي : بذل الدين لصلاح الدنيا ، وهي مذمومة ، وقد نزّه الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم عنها ، فقال : (ودّوا لو تدهن فيدهنون) وإنما كان صلى الله عليه وسلم يداري ولا يداهن .

[١] انظر شرح المواهب .
[٢] كلا الحديثين فيه ضعف ، كما في شرح المناوي .

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقبل بوجهه على شرّ القوم ، يتألّفهم بذلك ..) الحديث رواه الترمذي وغيره ويأتي بتمامه .

خامساً – ومن أعظم الأدلة على كمال عقله الشريف صلى الله عليه وسلم وأرجحيّته : سعة علومه صلى الله عليه وسلم ، فقد أفاض الله تعالى عليه العلوم العظمى ، والمعارف الكبرى ، وأراه الآيات ، وأيّده بالبيّنات ، وصدّقه بالمعجزات ، وجمع له جميع أنواع الوحي الإلهي ، وذلك لا يقوم به ، ولا يقدر لتحمُّله إلا من خصّه الله تعالى بأعظم قلب ، وأوسع عقلٍ ، ألا وهو السيّد الأكرم صلى الله عليه وسلم .

ومما ينبغي أن يُعلم في هذه المناسبة أن جميع ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من القضايا والأوامر ، والإرشادات والتعليمات ، والجزئيات والكليات ، هي أماني العقلاء والحكماء ، وغايات أهل النظر والفكر [1]

، ويتّضح لك ذلك من وجوه :

الوجه الأول : إن موضع التكاليف الشرعية هو العقل ، حتى إذا فُقد العقل ارتفع التكليف ، وهذا واضح في اعتبار تصديق العقل بالأدلة في لزوم أوامر التكليف ، فلو جاءت الأوامر الشرعية التي جاء بها صلى الله عليه وسلم على خلاف ما تقتضيه العقول السليمة ، لكان لزوم التكليف بها على العقلاء في غير موضعه .

الوجه الثاني : لو كانت أوامره ومناهيه وقضاياه غير معقولة ، لكان التكليف بها تكليفاً بما لا يُطاق ، لأنه تكليف بالتصديق بما لا يصدقه العقل .

الوجه الثالث : لو كان فيما جاء به صلى الله عليه وسلم مناقضة للعقول ، لكان الكفار في زمنه أول من ردّوا عليه بذلك ، لأنهم كانوا في غاية الحرص

---

[1] كما أعلن ذلك العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه للمنذر بن ساوى حين أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه إليه واعترف له بذلك المنذر كما تقدم .

على ردّ ما جاء به صلى الله عليه وسلم ، حتى إنهم كانوا يفترون عليه وعلى شريعته ، فتارة يقولون ساحر ، وتارة مجنون ، وتارة يكذبونه ، كما أنهم كانوا يقولون في القرآن : سحر وشعر ، وغير ذلك من كلامهم المتناقض ، فإن السحر والشعر كيف يتفق مع الجنون .. !!.

فلو كانت قضاياه صلى الله عليه وسلم غير معقولة لكان أولى ما يقولون : إن هذا لا يعقل ، أو مخالف للعقول ونحو ذلك ، ولما صدَر منهم ذلك التناقض في قولهم ساحر وشاعر ونحو ذلك ! .

الوجه الرابع : إن جميع العقلاء والحكماء في زمنه صلى الله عليه وسلم شهدوا بحقيّة ما جاء به ، وأنه المعقول المحكم ، ولذلك سلّموا وأسلموا.

فهذا المنذر بن ساوى يقول : وما يمنعني من دين فيه أمنية الحياة ؟ كما تقدم

وهذا النجاشي حين قال له جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه : (إنا كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي فينا الضعيف ، حتى يبعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله عز وجلّ لنوحّده ونعبده ، ونخلع ما كنا نحن وآباؤنا نعبد من دون الله : من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحق الجوار ، والكفّ عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وشهادة الزور ، وأكل مال اليتيم) .

فقال النجاشي بعد ذلك : (مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله وأنه الذي نجد في الإنجيل ، وأنه الرسول الذي بشّر به عيسى بن مريم ، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيت هذا النبيّ حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه) رواه أحمد ، وفي رواية للطبراني : (لأتيتُه حتى أقبّل نعليه صلى الله عليه وسلم) .

وهذا أكثم بن صيفي يبعث جماعةً من قومه إلى النبي صلى الله عليه وسلم حين بلغه مخرج النبي صلى الله عليه وسلم ، فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فقالا له : نحن رُسل أكثم بن صيفي ، وهو يسألك : من أنت ؟ وما أنت ؟ وبمَ جئت ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : (أما : من أنا ؟ فأنا محمد بن عبد الله .

وأما : ما أنا ؟ فأنا عبد الله ورسوله ، جئتكم بقول الله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)) .

فقالا : ردّد علينا هذا القول ، فردّده عليهم حتى حفظوه .

فأتيا أكثم فقالا له : أبى أن يرفع نسبه ، فسألنا عن نسبه ، فوجدناه زاكي النسب وسطاً في مضر – أي : شريفاً - ، وقد رمى إلينا بكلمات ، قد سمعناها ، فلما سمعهنّ أكثم قال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن ملائمها ، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً ، ولا تكونوا فيه أذناباً [1] .

فجميع ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المعقول المحكَم ، لذا استسلمت له أهل الأفكار والعقول ، ولا يمكن أن يكون فيما جاء به صلى الله عليه وسلم متناقضات عقلية ، أو محالات فكرية أصلاً ، ولكن قد يأتي بعظائم من الحكمة العالية السامية ، التي تعجز العقول البشرية عن الإحاطة بها ، واستيعاب جميع أسرارها لضعف العقول عن ذلك ، كما تضعف الأبصار عن التحديق في ضياء الشمس ، والإحاطة بنورها ، وإنما ترى الأبصار من نور الشمس ما لا يسعها إنكاره ، ولكنها لا تستطيع إدراكه وإحاطته .

فالشريعة المحمدية هي أحكام الله تعالى ، وإن أحكام الله تعالى صادرة عن علمه سبحانه وحكمته ، وأنّى للمخلوق أن يحيط علماً بذلك كلّه ؟ ! .

---

[1] قال الحافظ ابن كثير : رواه أبو يعلى في كتاب : (معرفة الصحابة) .

سعة علمه صلى الله عليه وسلم وكثرة علومه التي لا يحصيها إلا الله تعالى الذي أفاضها عليه

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم واسع العلم ، عظيم الفهم ، أفاض الله تعالى عليه العلوم النافعة الكثيرة ، والمعارف العالية الوفيرة ، وقد أعلن سبحانه وتعالى بسعة علمه صلى الله عليه وسلم ، وأعلم بعظيم فضله ، فقال سبحانه : (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) .

فهو صلى الله عليه وسلم أعلم خلق الله تعالى ، وأعرفهم بالله تعالى ، كما ورد في (الصحيحين) أنه صلى الله عليه وسلم قال : (إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا) . وفي رواية الأصيلي : (أنا أعرفكم بالله)

ومن تدبّر في تعاليم الله تعالى لرسله وأنبيائه صلوات الله تعالى عليهم ، الواردة في القرآن الكريم ، يتضح له جلياً أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم قد علّمه الله تعالى علوماً هي أكثر وأوفر وأجمع وأعمّ ، وذلك لأنه سبحانه قال : (وعلّمك ما لم تكن تعلم) ، فجيء بـ (ما) التي هي للعموم والشمول ، لتعمّ جميع العلوم التي علّمها الله تعالى لرسله وأنبيائه ، ولتشمل غيرها من العلوم التي أفاضها الله سبحانه عليه .

روى الحافظ أبو بكر بن عائذ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : (لما ولدَ النبي صلى الله عليه وسلم قال في أذنه رضوان خازن الجنة : (أبشر يا محمد ! فما بقي لنبيّ عِلم إلا وقد أعطيته ، فأنت أكثرهم علماً وأشجعهم قلباً)[1] ، وجاء في (الصحيحين) واللفظ لمسلم عن أنس رضي الله عنه أن الناس سألوا نبيّ الله صلى الله عليه وسلم حتى أحفوه بالمسألة – أي : أكثروا عليه

---

[1] أورد ذلك العلامة القسطلاني في (المواهب) ، نقلاً عن الشيخ بدر الدين الزركشي ، قال الحافظ الزرقاني : وهذا أرسله ابن عباس ، ومرسل الصحابي وصل في الأصل ، وحكمه الرفع ، إذ لا مجال فيه للرأي اهـ

الأسئلة – فخرج ذات يوم فصعِد المِنبر فقال : (سلوني – لا تسألوني عن شيء إلا بيّنته لكم) - .

وفي رواية : (إلا أخبرتكم به ما دمتُ في مقامي هذا) .

فلما سمع القوم أرَموا – أي : سكتوا – ورهبوا – أي : خافوا – أن يكون بين يدي أمر قد حضر ، فجعلت ألتفتُ يميناً وشمالاً فإذا كلُّ رجل لاف رأسه في ثوبه يبكي ، فأنشأ رجل من المسجد كان يُلاحى فيُدعى لغير أبيه ، فقال : يا نبيّ الله من أبي ؟ قال : (أبوك حذافة) .

ثم أنشأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : رضينا بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، عائذاً بالله من سوء الفتن .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لم أرَ كاليوم قطُّ في الخير والشر ، إني صوّرت لي الجنة والنارُ فرأيتهما دون هذا الحائط) .

فليعتبر المعتبر في قوله صلى الله عليه وسلم : (لا تسألوني عن شيء إلا بيّنته لكم) ومع هذا كله فقد أمره الله تعالى أن يسأله الزيادة في العلم دائماً أبداً ، قال تعالى : (وقل ربّ زدني علماً) .

ولم يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسأله الزيادة من شيء إلا الزيادة من العلم .

فلذلك كان صلى الله عليه وسلم يدأب في دعائه بزيادة العلم ليله ونهاره ، فإذا استيقظ في الليل قال : (لا إله إلا أنت ، سبحانك اللهم وبحمدك ، استغفرك اللهم لذنبي وأسألك رحمتك ، اللهم زدني علماً ، ولا تُزغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهب لي من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب) كما في صحيح مسلم وغيره .

وروى الترمذي وابن ماجه بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم دعا فقال : (اللهم انفعني بما علّمتني ، وعلّمني ما ينفعني ، وزدني علماً ، والحمد لله على كل حالٍ ، وأعوذ بالله من حال أهل النار) .

كما وأنه صلى الله عليه وسلم دائم الترقي في العلوم والمعارف الإلهية ، تتوارد عليه الفيوضات الإلهية والفتوحات الربانية ، كما جاء في صحيح مسلم عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن ربي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم مما علّمني في يومي هذا ..) الحديث .

ففي كل يوم يُفيض الله تعالى علوماً ومعارف ، وقد أمره الله تعالى أن يعلّم الناس من بعض تلك العلوم المفاضة عليه ، حسب ما يحتاجون ويتحمّلون ويستعدّون على الوجه الذي أمره الله تعالى به .

هذا ، وإن أحداً من خلق الله تعالى لا يستطيع أن يُحيط بأبواب علوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا بأنواعها بل ولا أجناسها ، لا يحيط بذلك إلا الله تعالى الذي أفاض عليه جميع ذلك .

وإنني أذكر بعض الوجوه من الحجج الدالة على سعة علمه صلى الله عليه وسلم وكثرة علومه ، ليتعلم الجاهل ، وليتنبّه الغافل ، وليزداد إيمان المؤمن الكامل ، بهذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

الدليل الأول : هذا القرآن الكريم الذي أقرأه الله تعالى إيّاه ، وجمعه له في صدره الشريف ، وعلّمه إيّاه ، وبيّنه له ، وأمره بتبيانه للناس ، وكشف له عن حقائقه القرآنية والفرقانية ، وعن معانيه وأسراره وأنواره ، وظاهره وباطنه

قال الله تعالى : (اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علّم بالقلم . علّم الإنسان ما لم يعلم) .

وهذه الآيات الخمسة هي فاتحة نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم جاءه بها جبريل عليه السلام ليلة نبوّته .

كما ورد في (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها قالت : (أوّل ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلَق

الصبح ، ثم حُبّب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه – وهو التعبُّد – الليالي ذوات العدد ، وكان يتزوّد لذلك حتى جاءه الحق وهو بغار حراء ، فجاءه الملك فقال له : اقرأ ، فقال : (ما أنا بقارئ) .

قال : فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجَهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلتُ : ما أنا بقارئ .

قال : فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلتُ : ما أنا بقارئ . قال : فأخذني فغطّني الثالثة ، ثم أرسلني ، فقال : (اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علّم بالقلم . علّم الإنسان ما لم يعلم) . ..) الحديث .

فهذا جبريل عليه السلام يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم ، ويقول له : اقرأ ، فيقول : ما أنا بقارئ ، أي : لأنه نشأ أمياً لم يتعلم القراءة ولا الكتابة ، فهنا يقول جبريل عليه السلام ثلاث مرات : اقرأ ، ثم يضمه إليه بعد كل قولة ضمّة قوية ، وذلك ليفيض عليه ما أوحاه الله تعالى إليه ، من المعاني والأسرار والأنوار ، المنوطة في الجسم والقلب والروح ، ثم يقول له : (اقرأ باسم ربك) يعني : أنت اقرأ باسم ربك ، لا بدراستك ولا ثقافتك ، لأنك ليس لك سابقة دراسة ولا تعلُّم ، وبهذا يصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قارئاً عالماً ، يتلو كلام الله تعالى بعد أن مضت عليه أربعون سنة لم يأتِ قومه بآية ، وفي هذا برهان قاطع ، ودليل ساطع أن محمداً رسول الله ناطق بالوحي عن الله تعالى .

قال الله تعالى : (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)؟! .

يعني أن من تعقّل أمر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أيقن أنه رسول الله حقاً ، لا يحتمل أمره غير ذلك ، وأن قضيته ليست من باب العبقرية ، ولا من باب الفهم والذكاء ، وإنما قضيته أنه رسولٌ يوحي الله تعالى إليه .

بل إنه سبحانه وتعالى أبطلَ مزاعم المنكرين لنبوّة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، الذين ادّعوا أن ما جاء به من الهدى والعلم والرشاد ، هو من باب الثقافة والحصافة ، أو من باب فرط الذكاء ، وجودة العبقري ، أبطل جميع تلك المزاعم بأنه أميّ لم يتعلم قراءة ولا كتابة ، ولم يستمع إلى معلّم ، فقال تعالى : (وما كنتَ تتلو من قبله من كتاب ولا تخطُّه بيمينك – إذاً لارتاب المبطلون)

ولما اتّهمه أعداؤه بأنه صلى الله عليه وسلم كان يستمع إلى بعض الموالي من العجم ، فجاء بما جاء ، ردّ عليهم سبحانه بقوله : (ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر)، أي : وهو غلام مملوك لبعض بطون قريش ، وكان أعجمياً ، فقال تعالى : (لسانُ الذين يلحدون إليه : أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين) !

والمعنى أن هذا المملوك الذي زعموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ عنه : هو أعجمي اللسان ، عديم البيان ، وقد جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا القرآن العربي المبين ، فكيف يُتصور في العقل أن يكون هذا القرآن العربي المبين من هذا الرجل الأعجمي الذي لا يبين ؟ ! .

فلم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا القرآن من تلقاء نفسه ، ولا من مخلوق آخر لعجزهم عن الإتيان بمثله ، وإنما هو من عند رب العالمين .

قال الله تعالى : (الرحمن . علّم القرآن . خلق الإنسان . علّمه البيان)

أوّل إنسان علّمه الرحمنُ القرآنَ : هو سيد ولدِ آدم محمد صلى الله عليه وسلم وعنه تلقّت الناسُ القرآن وتعلموه منه .

كما وأنه صلى الله عليه وسلم هو أول من علّمه الله البيان عن معاني القرآن .

فهو سبحانه علّم رسوله صلى الله عليه وسلم القرآن : تلاوةَ نصّه ومعانيه ، وحِكمه ومعارفه وأسراره ، وإشاراته وخصائصه .

قال تعالى : (سنُقرئك فلا تنسى) وقال : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ).

والمعنى : إنّ علينا يا محمد صلى الله عليه وسلم أن نجمع لك هذا القرآن في صدرك ، وعلينا إثباتَ قراءته في لسانك ، فلا تعجل بالقرآن قبل أن يتمّ وحيه لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلّت منك .

فهو سبحانه الذي جمع له القرآن في صدره ، وأقرأه إياه بلسانه ، ثم تكفّل له ببيانه ، فقال : (إن علينا بيانه) أي : بيان معانيه وأحكامه ، وأوامره ونواهيه

ومن ذلك : تعليمُ الله تعالى للنبيّ صلى الله عليه وسلم خصائص الكلمات القرآنية ، كما يدلُّ عليه الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي من حديث الثوري ، عن أبي إسحاق ، عن المهلّب بن أبي صُفرة ، قال : حدثني من سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن بُيِّتُم الليلة – وفي رواية : إن بيّتكم العدوّ – فقولوا : حم لا ينصرون) [1]

ومن ذلك : علمه صلى الله عليه وسلم بخصائص الآيات القرآنية ، كما ورد في آخر سورة البقرة ، ففي الترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله كتبَ كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام ، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ، ولا يُقرأ بهنّ في دار ثلاث ليالٍ فيقربها شيطان)[2]

ومن ذلك : ما ورد في خصائص العشر الآيات من أول سورة الكهف وآخرها ، وأنها عصمة من الدجّال ، ففي (مسند) أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدجّال)[3]، وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء عن النبي

---

[1] وذلك أنهم كانوا في بعض الغزوات ، فقال لهم ذلك صلى الله عليه وسلم . قال الحافظ ابن كثير : وهذا إسناد صحيح ، واختار أبو عبيد أن يروى : فقولوا حم لا ينصرون ، أي : إن قلتم ذلك لا ينصروا اهـ وذلك دليل أن في (حم) حماية

[2] قال الترمذي : حديث غريب ، ورواه الحاكم في (المستدرك) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

[3] قال الحافظ ابن كثير : ورواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي من حديث قتادة به ، ولفظ الترمذي _ من حفظ ثلاث آيات من أول الكهف) وقال : حسن صحيح اهـ

صلى الله عليه وسلم قال : (من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصم من فتنة الدجّال)[1] .

وفي (المختارة) للحافظ الضياء المقدسي عن علي بن الحسين ، عن أبيه عن علي مرفوعاً : (من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كلّ فتنة ، وإن خرج الدجال عُصم منه)[2]

وكما ورد في آيات أول سورة يس ، فقد روى ابن إسحاق وغيره (أن النبي صلى الله عليه وسلم حين رقَبه المشركون ليلة الهجرة ، خرج عليهم وفي يده حفنة من تراب فجعل يذرُّها على رؤوسهم ويقرأ : (يس . والقرآن الحكيم) حتى انتهى إلى قوله تعالى : (وجعلنا من بين أيديهم سداً ، ومن خلفهم سداً ، فأغشيناهم فهم لا يبصرون) ، وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وباتوا رُصداء على بابه) ثم جعل كل رجل منهم ينفض التراب عن رأسه ، وحال الله تعالى بينهم وبين رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يروه حين خرج من بينهم .

وهذا باب واسع جداً ولسيس موضع تفصيله هنا .

ومن ذلك : علمه صلى الله عليه وسلم بخصائص السور ، كما يدل على ذلك ما ورد في سورة يس ، وأنها قلب القرآن ، وأن لها الخصائص الكثيرة ، وسورة الدخان ، وأن من قرأها في ليلةٍ أصبح مغفوراً له ، وسورة تبارك ، ووقايتها من عذاب القبر ، وسورة البقرة وبركاتها ، وسور المعوّذات وحصاناتها لقارئها ، وغير ذلك مما ثبت في الأحاديث النبوية [3] فإن ذلك يدلّنا على أن له صلى الله عليه وسلم علماً كبيراً واسعاً بخصائص الحروف القرآنية والآيات والسُّور .

فسبحان الفتاح العليم الذي فتح له وعلّمه صلى الله عليه وسلم .

---

[1] قال ابن كثير : ورواه مسلم أيضاً والنسائي من حديث قتادة به ، وفي لفظ النسائي : (من قرأ عشر آيات من الكهف ..) فذكر الحديث اهـ

[2] انظر تفسير ابن كثير ، وأصل هذا الحديث في (المسند) وغيره .

[3] وقد ذكرنا جانباً من ذلك في كتاب (تلاوة القرآن المجيد) فارجع غليه .

ومن ذلك : علمه صلى الله عليه وسلم بإشارات القرآن الكريم الخفيّة ، فوق العبارات الجليّة ، يدل على ذلك ما رواه الإمام أحمد في (المسند) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت (إذا جاء نصر الله والفتح) علم النبي صلى الله عليه وسلم أن قد نعيت إليه نفسه .

وفي رواية أيضاً عن ابن عباس قال : لما نزلت : (إذا جاء نصر الله والفتح) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (نُعيت إليّ نفسي) فإنه مقبوض في تلك السنة . وروى الإمام أحمد – وأصله في مسلم – عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكثر في آخر أمره من قول : (سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه) ، وقال : (إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي ، وأمرني إذا رأيتُها أن أسبّح بحمده وأستغفره إنه كان توّاباً ، فقد رأيتها – (إذا جاء نصر الله والفتح)) إلى تمام السورة)

وإن علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعاني القرآن الكريم وخصائصه ، وحقائقه وإشاراته ودلالاته ، وأسراره ومضامينه ، إن علمه بذلك لا يعلم قدره ولا يحيط بكمية ما هنالك إلا الله تعالى الذي أفاض عليه ذلك صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : (ما فرّطنا في الكتاب من شيء) .

وقال سبحانه : (ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمةً وبشرى للمسلمين) . وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أنزل القرآن على سبعة أحرف ، لكل حرف منها – وفي رواية : لكل آية : - ظهر وبطن ، ولكل حرف حدّ ، ولكل حدٍّ مطّلع)[1]

---

[1] رواه الطبراني عن ابن مسعود ، ورواه البغوي في (شرح السنة) عن الحسن وابن مسعود مرفوعاً كما في (فيض القدير) على (الجامع الصغير) ، وعزاه العلامة الزركشي في (البرهان) إلى (صحيح) ابن حبان . ومعنى قوله (ولكل حرف حد) أن كل حرف منتهى فيما أراده الله تعالى من معناه ، ومعنى قوله (ولكل حد مطلع) أن لكل غامض من المعاني والأحكام مطلعاً يتوصل به إلى معرفته ويوقف على المراد به ، وظهره : ما ظهر تأويله ، وبطنه : ما خفي تفسيره . اهـ من شروح المناوي على (الجامع الصغير) .

وفي سنن الترمذي وغيره من حديث سيدنا علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم : (.. وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس فيه الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الردّ ، ولا تنقضي عجائبه ..)الحديث

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : (إن القرآن ذو شجون وفنون ، وظهور وبطون ، لا تنقضي عجائبه ، ولا تُبلغ غايته) .

وقال ابن مسعود : (من أراد علم الأولين والآخرين فليتلُ القرآن) [1]

فالقرآن الكريم بحر العلوم والمعارف ، جمعه الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بعلومه وحقائقه ، وقد قال ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره الكريم أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه : (لو تكلّمت لكم على سورة الفاتحة لأوقرتُ سبعين جملاً) – فما ظنّك بعلوم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومفاهيمه القرآنية ؟! نعم إن جميع ما عرفه العارفون وتكلّم به الوارثون المحمديون ، إنما هو رشاشات من بحره صلى الله عليه وسلم وقَبسات من أنواره ، وإشراقات من أسراره صلى الله عليه وسلم .

وقد بحث العلماء والعرفاء في العلوم المستنبطة من القرآن الكريم ، فلم ينتهوا إلى استقصاء أصولها ، وإنما تكلّم كل منهم على حسب علمه ، وقدر فهمه الذي أعطيه ، ولكل بحر معاني القرآن وأسراره لا يتناهى .

وفي (الإتقان) وغيره عن القاضي أبي بكر بن العربي رحمه الله تعالى أنه قال في (قانون التأويل) : علوم القرآن : خمسون علماً ، وأربعمائة علمٍ ، وسبعة آلاف علمٍ وسبعون ألف علمٍ ، على عدد كَلم القرآن ، مضروبة في أربعةٍ ، إذ لكل كلمة ظهر وبطن ، وحدّ ومطّلع ، وهذا مطلق ، دون اعتبار تركيب وما بينها من روابط ، ففي هذا ما لا يحصى ولا يعلمه إلا الله تعالى اهـ

---

[1] وروى سعيد بن منصور عن ابن مسعود أنه قال : (من أراد العلم فعليه بالقرآن ، فإن فيه خبر الأولين والآخرين) كما في (الإتقان).

وقال العلامة الراغب : إن الله تعالى كما جعل نبوة النبيين بنبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم مختتمة ، وشرائعهم بشريعته من وجه منتسخة ، ومن وجه مكمّلة متمّمة – جعل كتابه المنزل عليه متضمّناً لثمرة كُتبه التي أولاها أولئك ، كما نبّه عليه بقوله : (رسول من الله يتلو صُحُفاً مطهّرة . فيها كتب قيّمة) .

وجعل من معجزة هذا الكتاب أنه مع قلة الحجم ، متضمّن للمعنى الجمّ ، بحيث تقصُرُ الألباب البشرية عن إحصائه ، وتعجز الآلات الدنيوية عن استيفائه ، كما نبّه عليه سبحانه بقوله : (ولو أنّ ما في الأرض من شجرةٍ أقلام ، والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحرٍ ما نفِدت كلماتُ الله) اهـ

وقال العلامة الزركشي في (البرهان) : في القرآن الكريم علم الأولين والآخرين وما من شيء إلا ويمكن استخراجه منه لمن فهّمه الله تعالى ، حتى إن بعضهم استنبط عُمر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً وستين سنة من قوله تعالى في سورة المنافقين : (ولن يؤخّر الله نفساً إذا جاء أجلُها) فإنها رأس ثلاث وستين سورة اهـ

والبحث في علوم القرآن ومفاهيمه وإشارته ليس موضعه هنا ، وإنما ذكرنا منها نماذج موجزة ، يستدلّ بها على سعة علوم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعارفه القرآنية ، التي لا يحيط بأنواعها إلا الله تعالى الذي أفاضها عليه صلى الله عليه وسلم .

الدليل الثاني : ومن الأدلة على سعة علمه وكثرة علومه صلى الله عليه وسلم : الحكمةُ التي أنزلها الله تعالى عليه ، قال الله تعالى : (وأنزل الله عليك الكتابَ والحكمة ..) الآية ، وقال تعالى : (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا) .

والحكمة هي السنّة الظاهرة في أفعاله صلى الله عليه وسلم وأقواله ، وأحواله وإقراره ، كما نصّ على ذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه في مواضع من كتبه ، وهو قول جمهور التابعين كالحسن البصري وقتادة ومقاتل بن حيان

وغيرهم – كما نقل الحافظ ابن كثير ذلك عنهم ، عند قوله تعالى : (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) .

وإنما سُمّيت السنّة النبوية بالحكمة : لأن الحكمة تشتمل على سَداد القول ، وصواب العمل ، وإيقاع ذلك في مواقعه ، ووضعه في مواضعه اللائقة به ، ولاشك أن أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله ، وأحواله وإقراره ، جميع ذلك هو عين الحكمة .

كما أنه سبحانه سمّى السنّة النبوية بـ (الميزان) حيث قال سبحانه : (الله الذي أنزل الكتابَ بالحق والميزانَ ، وما يُدريك لعل الساعة قريب)

فالميزان هنا المقرون بالكتاب : هو الحكمة المحمدية والسنّة النبوية ، المقرونة بالكتاب في قوله تعالى : (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ..) الآية ، لأن القرآن يفسّر بعضه بعضاً .

وإنّما سميّت السنّة النبوية المشتملة على أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم وأحواله (ميزاناً) لأنها ميزان الأقوال والأفعال والأحوال ، بحيث يجب على الأمّة أن تعرِض أقوالها وأفعالها وأحوالها على سنّته صلى الله عليه وسلم ، فما وافق الميزان فهو صحيح ورجيح ، ومقبول ونجيح ، وما خالف الميزان – أي : السنّة – فهو قبيح ومردود على صاحبه ، كما روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (كل عملٍ ليس عليه أمرنا فهو ردّ) ، وفي قوله تعالى : (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) دليل استدلّ به كثير من العلماء المحققين ، على أن السنة نزلت بالوحي من عند الله تعالى ، كما دلّ على ذلك أيضاً قوله تعالى : (وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى) – فإنّ النطق أعمُّ من التلاوة ، لم يقل سبحانه : وما يتلو ، أو : ما يقرأ عن الهوى ، حتى يقال إن ذلك خاصّ بالقرآن الكريم ، بل قال سبحانه : (وما ينطق عن الهوى)

أي : وما ينطق محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن والحديث عن الهوى (إن هو) أي : ما نُطقه بذلك (إلا وحيٌ يُوحى) يوحيه الله تعالى إليه بنوع من أنواع الوحي .

وروى أبو داود والترمذي عن المقداد رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ألا إني أوتيتُ الكتاب ومثلهُ معه) ، والمراد بـ (مثله معه) : السنّة ، كما ذكره جمهور كثير من العلماء ، فإن الله تعالى آتى رسوله صلى الله عليه وسلم السنّة النبوية كما آتاه الكتاب وهو القرآن العظيم .

وروى البيهقي في (المدخَل) بإسناده عن حسّان بن عطية أنه قال : كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسنّة ، كما ينزل عليه بالقرآن ، يعلّمه إيّاها كما يعلّمه القرآن [١] .

واستدلّوا على ذلك أيضاً بما ورد في (الصحيحين) وغيرهما – واللفظ للبخاري – عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنّ أكثر ما أخافُ عليكم ما يُخرج الله لكم من بركات الأرض – وفي رواية : إن مما أخافُ عليكم ما يُفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها)

فقال رجل : هل يأتي الخير بالشرّ ؟

قال أبو سعيد : فصمتَ النبي صلى الله عليه وسلم حتى ظننتُ – أي : عرفتُ – أنه صلى الله عليه وسلم يُنزل عليه – وفي رواية : فظننا أنه ينزل عليه – أي : ينزل عليه الوحي – ثم جعل يمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جبينه [٢] .

فقال : (أين السائل ؟) فقال : أنا .

---

[١] انظر (شرح الطريقة المحمدية) للعارف الكبير الشيخ النابلسي رضي الله عنه .

[٢] أي : يمسح العرق ، كما جاء في رواية الدارقطني ، وجرى ذلك على عادته صلى الله عليه وسلم عندما يوحى إليه ، حيث يتفصّد جبينه الشريف عرقاً ، ولذلك أيقنت الصحابة أنه الوحي .

فقال صلى الله عليه وسلم : (لا يأتي الخير إلا بالخير [1] - وفي رواية : إنه لا يأتي الخير بالشرّ – إن هذا المالَ خضِرةٌ حُلوة ، وإن كلّ ما أنبتَ الربيع [2] يقتلُ حَبَطاً أو يلمُّ ، إلا آكلة الخضرة ، أكلت حتى إذا امتدّت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترّت وثلطت وبالت ، ثم عادت فأكلت ، وإن هذا المال حلوة ، من أخذه بحقّه ووضعه في حقّه ، فنِعم المعونة هو ، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع) ، فاستدلّ كثير من العلماء بهذا الحديث على أن الحديث النبوي هو نازل بالوحي من عند الله تعالى .

كما استدلوا على ذلك أيضاً بما رواه البخاري وغيره أن يعلى بن أبي أمية قال لعمر رضي الله عنه : أرِني النبي صلى الله عليه وسلم حين يُوحى إليه ، قال : فبينما النبي صلى الله عليه وسلم بالجعرانة ، ومعه نفر من أصحابه ، جاءه رجل فقال : يا رسول الله كيف ترى في رجل أحرم بعمرة وهو متضمّخ بطيب ؟ .

فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ساعةً فجاءه الوحي ، فأشار عمر إلى يعلى رضي الله عنهما ، فجاء يعلى وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوب قد أظلّ به ، فأدخل – يعلى – رأسه فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مُحمرٌّ الوجه ، وهو يغطُّ ، ثم سُرّي عنه ، فقال : (أين الذي سأل عن العمرة ؟) فأتي بالرجل ، فقال : (اغسل الطيبَ الذي بك ثلاث مرات وانزع عنك الجبّة ، واصنع في عمرتك ما تصنعُ في حجتك) .

---

[1] وفي رواية الدارقطني : كررها ثلاث مرات .

[2] وفي رواية : (وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم) أما الحبط : (فهو انتفاخ البطن من كثرة الأكل) وأما قوله : (أو يلم) – بضم أوله – فمعناه يقرب من الهلاك – وهذا مثال ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن تهافتَ على الدنيا ومالها ، وعميَ بها عن دينه وآخرته ، وجمع ومنع ، ولم يعرف حق الله تعالى في هذا المال ، حتى بطر وفجر ، ومثال لمن أخذ هذا المال من الدنيا بحقه ووضعه في حقه وأدى حقوقه الواجبة عليه ، ولم يشغله ذلك عن دينه ، ولم يتعام بذلك عن آخرته ، فنِعمَ الرجل !

الدليل الثالث : ومن الأدلة على كثرة علومه صلى الله عليه وسلم : إظهارهُ صلى الله عليه وسلم على المغيّبات .

فمن علومه صلى الله عليه وسلم إظهار الله تعالى له على كثير من المغيّبات ، قال الله تعالى : (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا)

وقال تعالى : (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ) .

واطّلاعه صلى الله عليه وسلم على المغيّبات هو على وجوه متعددة نذكر أطرافاً منها :

الوجه الأول : إطّلاعه صلى الله عليه وسلم على بدء الخلق ، حتى دخل أهلُ الجنةِ الجنة ، وأهلُ النارِ النارَ ، كما دلّ عليه ما رواه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً ، فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النارَ ، حفِظه من حفظه ، ونسيه من نسيه) .

وفي (الصحيحين) عن حذيفة رضي الله عنه قال : (قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا مقاماً ، ما ترك فيه شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره ، علمه من علمه وجهِله من جهله) .

قال حذيفة : وقد كنتُ أرى الشيء قد كنتُ نسيتُه فأعرفه كما يعرف الرجل الرجلَ إذا غابَ فرآه فعرفه .

كما أخبر صلى الله عليه وسلم عما هو كائن بعده إلى يوم القيامة ، ففي (صحيح) مسلم عن عمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه قال : (صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً الفجر وصعِد المنبر ، فخَطبنا حتى حضرت الظهرُ ، فنزل فصلّى ، ثم صعد المنبر ، فخطبنا حتى حضرت

العصر ، فنزل فصلّى ، ثم صعد المنبر ، فخطبنا حتى غربت الشمس ، فأخبرنا بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فأعلمُنا أحفظُنا) .

فما ترك أمراً يكون إلى يوم القيامة إلا أخبر عنه صلى الله عليه وسلم .

وروى أبو داود عن حذيفة رضي الله عنه قال : (والله ما أدري أنسيَ أصحابي أم تناسَوا ؟ والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فتنةٍ إلى أن تنقضي الدنيا يبلغُ من معه ثلثمائةٍ فصاعداً إلا سمّاه لنا : باسمه واسم أبيه واسم قبيلته) .

كما أنه صلى الله عليه وسلم أخبر عن جميع أشراط الساعة الصغرى والوسطى والكبرى ، وأخبر عن أحوال الآخرة وبرازخها ، وأحوال أهل الجنة ، وأحوال أهل النار ، وتفاصيل أمورهم كلها ، كما هو مبيّن في كتب السنة ، وفي هذا دليل على سعة العلوم التي أفاضها الله تعالى عليه صلى الله عليه وسلم

الوجه الثاني : إطّلاعه صلى الله عليه وسلم على العوالم ، كما صحّ في أحاديث المعراج من أنه صلى الله عليه وسلم عُرجَ به إلى السموات السبع ودخلها ، واحدةً واحدةً ، ورأى فيها ما رأى ، واجتمع مع الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ثم عُرج به إلى سدرة المنتهى ، ورأى آياتها وعجائبها ، والتجليات المتواردة عليها ، ثم إلى مستوىً سمع فيه صريفَ الأقلام ، إلى ما هنالك من العوالم العلويّة .

كما أنه صلى الله عليه وسلم أطلعه الله تعالى على عالم العرش ، بدليل أنه صلى الله عليه وسلم بيّن سعةَ العرش ، وأنه أوسعُ العوالم ، فعن أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الكرسي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (والذي نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع

عند الكرسي إلا كحلقةٍ مُلقاةٍ في أرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة)[1]

كما أنه صلى الله عليه وسلم تكلّم عن العرش وأن له قناديل ، وهي العوالم العرشية ، وأن له الظلال ، وأن له القوائم ، وأن له الكنوز كما في (الصحيحين) : (.. فإذا موسى آخذٌ بقائمة من قوائم العرش) .

وتحدّث صلى الله عليه وسلم عن حمَلة العرش ، وعن قوة حملة العرش وعظمهنّ ، كما ورد في (المسند) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أنا محمدٌ النبي الأميٌ ، ولا نبيّ بعدي – قالها ثلاثاً – أوتيتُ فواتح الكلِم وخواتمه ، وعلّمتُ كم خزنة النار ، وحملةُ العرش ..) الحديث .

وروى أبو داود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (أذنَ لي أن أحدّث عن ملَكٍ من ملائكة الله تعالى من حملة العرش ، إن ما بين شحمة أذُنه إلى عاتقه مسيرةُ سبعمائة عام).

وفي رواية الطبراني : (مسيرة سبعمائة عام خفقانَ الطير السريع) .

كما أنه صلى الله عليه وسلم أطلعه الله تعالى على عالم الجنة والنار ، ومُثّلتا له ، في عدّة مناسبات ، ففي حديث المعراج : (ثم أدخلتُ الجنة ، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ ، وإذا ترابُها المِسك الأذفر) .

كما أنه صلى الله عليه وسلم أطلعه الله تعالى على عالم البرزخ وأحوالهم وشؤوناتهم ، وعالم الحشر ، وأحوال الناس فيه ، وعالم العرض ، وعالم الحوض ، وأخذ الصحف والحساب والميزان والصراط ، وأحوال أهل الجنة ، وأهل النار ، وحدّث عن جميع تلك العوالم وفصّل أمورهم صلى الله عليه وسلم .

---

[1] رواه ابن مردويه ، وكذلك روى نحوه ابن جرير وغيره ، كما في (تفسير) الحافظ ابن كثير .

كما أنه صلى الله عليه وسلم أطلعه الله تعالى على العوالم العلوية ، وما يجري بين الملأ الأعلى من الاختصام حول الكفّارات والدرجات ، وتجلّت له الأشياء كلّها وعرفها ، كما في الحديث الذي رواه الترمذي وأحمد وغيرهما عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إني قمتُ من الليل فصلّيتُ ما قُدّر لي ، فنعستُ في صلاتي حتى استثقلتُ ، فإذا أنا بربي عز وجلّ فقال لي : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلتُ : لا أدري) وفيه أن الله تعالى أفاض على النبي صلى الله عليه وسلم العلوم حتى قال : (فتجلّى لي كل شيء وعرفت – وفي رواية : فعلمتُ ما في السموات وما في الأرض – وفي رواية الطبراني : فعلّمني كل شيء – وفي رواية له : فما سألني عن شيء إلا علّمته – ثم قال لي : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : في الكفّارات والدرجات ..) الحديث [1] .

الوجه الثالث : عرضُ الأمم عليه صلى الله عليه وسلم – وذلك أنه صلى الله عليه وسلم عُرضت عليه الأمم كلُّها : الأمم قبله وأمته بعده ، ومثّلت له أمته صلى الله عليه وسلم في عدة مناسبات ، وفي (الصحيحين) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (عُرضت عليّ الأمم ، فرأيت النبيّ ومعه الرُّهَيط[2] ، والنبيّ ومعه الرجل والرجلان ، والنبيّ وليس معه أحد ، إذ رُفع لي سواد عظيم ، فظننتُ أنهم أمّتي ، فقيل لي : هذا موسى صلى الله عليه وسلم وقومه ، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت ، فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : انظر إلى الأفق الآخر ، فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : هذه أمتك ، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنّة بغير حساب ولا عذاب : هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ، ولا يتطيّرون – وفي رواية : ولا يكتوون – وعلى ربهم يتوكّلون)[3] .

---

[1] انظر تمام الحديث في كتابنا : (الصلاة في الإسلام) .
[2] تصغير رهط ، وهي الجماعة دون العشرة .
[3] وهذه رواية مسلم باختصار

وروى الطبراني والضياء عن حذيفة بن أسيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (عُرضت عليّ أمتي البارحة لدى هذه الحُجرة ، حتى لأنا أعرفُ بالرجل منهم من أحدكم بصاحبه ، صُوّروا لي في الطين) .

الوجه الرابع : رفع الدنيا له وإراءته إياها : كما وأنه صلى الله عليه وسلم رفع الله له الدنيا فنظر إليها .

روى الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله قد رفع لي الدنيا ، فأنا أنظر إليها ، وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة ، كأنما أنظر إلى كفي هذه)[1] .

ويشهد لهذا الحديث : ما رواه مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ..) الحديث كما تقدم .

بل أراه الله تعالى جميع الأشياء ، كما روى مسلم وغيره عن أسماء رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ما من شيء لم أكن أريتُه إلا رأيته في مقامي هذا ، حتى الجنة والنار ..) الحديث .

فعمّت رؤيته صلى الله عليه وسلم لجميع ما هنالك واطّلع عليه .

الوجه الخامس من إظهاره على المغيّبات : رؤيته صلى الله عليه وسلم آثار الأمور الغيبية قبل وقوعها .

جاء في (الصحيحين) عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : (أشرف النبي صلى الله عليه وسلم على أطَم من آطام [2] المدينة فقال : (هل ترون ما أرى ؟) قالوا : لا .

قال : (فإني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر) .

---

[1] انظر (شرح المواهب) .
[2] الأطم : هو البناء المرتفع .

وفي (صحيح) مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديثه عن غزوة بدر قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول : (هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله تعالى ، وهذا مصرع فلان إن شاء الله)

قال عمر : فو الذي بعثه بالحق ما أخطأ الحدود التي حدّها رسول الله صلى الله عليه وسلم .. الحديث .

وفي رواية لمسلم عن أنس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هذا مصرع فلان) ويضع يده على الأرض ها هنا وها هنا ، قال : (فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله صلى الله عليه وسلم) أي : ما جاوز الموضع الذي عيّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشار إليه

الوجه السادس : انجلاء الأمور الغيبية الخفية له صلى الله عليه وسلم قبل ظهورها وإخباره عنها

ومن ذلك ما روى الإمام أحمد وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم بينما هو يخطب إذ عرض له في خطبته وقال : (يدخل عليكم من هذا الباب – أو من هذا الفجّ – رجل من خير ذي يمن ، ألا إن على وجهه مسحةَ ملك) .

وفي رواية للطبراني : (يطلعُ عليكم خيرُ ذي يمن ، عليه مسحة ملك) فطلع جرير بن عبد الله رضي الله عنه .

وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : كنا جلوساً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (يطلعُ الآن عليكم رجل من أهل الجنة) فطلع رجل من الأنصار تنطفُ لحيته من وضوئه – وفي رواية البيهقي : فجاء سعد بن مالك فدخل منه .. الحديث .

وعن مزيدة بن مالك قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث أصحابه إذ قال : (يطلعُ عليكم من هذا الفجّ ركبٌ من خير أهل المشرق) .

فقام عمر فتوجّه في ذلك الوجه فرأى ثلاثة عشر راكباً ، فرحّب وقرّب ، وقال : من القوم ؟ قالوا : قوم من عبد القيس .. الحديث [1]

الوجه السابع : انكشاف الضمائر النفسية له صلى الله عليه وسلم وإخباره بذلك :

روى الحاكم والبيهقي عن ابن عباس ، وروى ابن سعد عن ابي إسحاق السبيعي قالا : رأى أبو سفيان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي ، والناس يطأون عقبه – أي : يمشون وراءه – فقال أبو سفيان في نفسه : لو عاودتُ هذا الرجل القتال ، وجمعت له جمعاً – فجاء عليه الصلاة والسلام حتى ضرب في صدر أبي سفيان وقال له : (إذن نُخزيك) .

فقال أبو سفيان : أتوب إلى الله وأستغفر الله ، ما أيقنتُ أنك نبيّ إلا الساعة ، إني كنتُ لأحدّث نفسي بذلك [2] .

ومن ذلك : ما رواه الإمام أحمد في (مسنده) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قلتُ لرجل : هلمّ فلنجعل يومنا هذا لله عزّ وجلّ – اي : نشتغل فيه بالعبادة – قال أبو موسى : فو الله لكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم شاهد هذا اليوم ، فخطب فقال : (ومنهم من يقول : هلمّ فلنجعل يومنا هذا لله عز وجلّ) فما زال يقولها حتى تمنّيت أن الأرض ساخت بي – أي : غاصت بي .

وقد روى الطبراني بإسناد رجاله رجال الصحيح ، وأورد أهل السير ، قصة عمير بن وهب الجمحي ، لما تكفّل له صفوان بن أمية بوفاء ديونه ، ونفقة عياله ، على أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وأسرّا ذلك بينهما ، ثم

---

[1] قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني وأبو يعلى ، ورجالهما ثقات ، وفي بعضهم خلاف ، وقال الزرقاني : سنده جيد ، وهذا الوفد وفد عبد القيس الوارد ذكرهم في (الصحيحين)

[2] انظر (شرح المواهب) وذلك يوم فتح مكة

ذهب عمير متوشّحاً سيفه المسموم إلى المدينة ، فاستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأذِن له ، فقال له صلى الله عليه وسلم : (ما جاء بك ؟) .

فقال : جئتُ لهذا الأسير الذي في أيديكم .

فقال له صلى الله عليه وسلم : (فما بالُ السيف في عنقك)؟

فقال عمير : قبّحها الله من سيوف ، فهل أغنت عنا شيئاً ؟ !

فقال : (اصدقني ما الذي جئتَ له ؟) قال : ما جئتُ إلا لهذا .

فقال له صلى الله عليه وسلم : (بلى ، قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحِجر ، فتذاكرتما أصحاب القليب من قريش ، فقلتَ : لولا دينٌ عليّ وعيالي ، لخرجتُ حتى أقتل محمداً ! فتحمّل صفوان لك بدينك وعيالك على أن تقتلني ، والله حائلٌ بيني وبين ذلك) .

فقال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنّا يا رسول الله نكذّبك بما كنتَ تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فو الله إني لأعلم ما أنبأك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام

وروى ابن سعد وغيره عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم ، وابو سفيان جالسٌ في المسجد ، فقال أبو سفيان في نفسه : ما أدري بمَ يغلِبنا محمد ؟ فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فضرب في صدره وقال : (بالله نغلِبك) فقال أبو سفيان :

أشهد أنك رسول الله [1] .

وروى ابن هشام وغيره أن فضالة بن عُمير بن الملوّح همّ أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يطوف بالبيت ، عام الفتح ، فلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم قال له صلى الله عليه وسلم : (أفضالة – وفي رواية : يا فضالة) .

---

[1] كذا في (شرح الزرقاني على المواهب)

فقال : نعم يا رسول الله .

قال صلى الله عليه وسلم : (ماذا كنت تحدّث به نفسك ؟) .

فقال : لا شيء – كنتُ أذكر الله .

فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال له : (استغفِر الله) أي : مما حدّثت به نفسك ، وقولك : لا شيء – ثم وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدر فضالة ، فسكن قلبه – أي : ثبت فيه الإسلام ومحبة خير الأنام – فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئاً أحبّ إليّ منه صلى الله عليه وسلم .

قال فضالة : فرجعتُ إلى أهلي فمررتُ بامرأةٍ كنت أتحدّث إليها ، فقالت : هلمّ إلى الحديث ! فقال فضالة :

قالت : هلمّ إلى الحديث ، فقلتُ : لا   يأبى عليّ الله والإسلام !

لو ما رأيتِ محمداً وقبيله   بالفتح يوم تكسّر الأصنام

لرأيت دين الله أضحى بيّناً   والشرك يغشى وجهه الإظلامُ[1]

الوجه الثامن : اطلاعه صلى الله عليه وسلم على الأمور القلبية وإجابته السائل قبل سؤاله ، وهذا باب واسع جداً :

فمن ذلك : ما رواه الإمام أحمد عن وابصة بن معبد رضي الله عنه قال : أتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أريد أن لا أدعَ شيئاً من البرّ والإثم إلا سألتُه عنه فقال لي : (أدنُ يا وابصة) فدنوت منه حتى مسّت ركبتي ركبته .

فقال صلى الله عليه وسلم : (يا وابصة أخبركَ ما جِئت تسأل عنه أو تسألني ؟) .

فقلت : يا رسول الله أخبرني .

---

[1] كذا في (شرح المواهب والإصابة) وغيرهما .

فقال صلى الله عليه وسلم : (جئتَ تسألني عن البر والإثم) قلتُ : نعم .

فجمع أصابعه الثلاث فجعل ينكتُ بها في صدري ، وقال : (يا وابصة استفتِ نفسك ، البرُّ ما اطمأنّت إليه النفس ، واطمأنّ إليه القلب ، والإثم ما حاك في القلب وتردّد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك) .

الوجه التاسع : بشائره الغيبية – فعن عبد الله بن بُسر قال : وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على رأسي فقال : (يعيش هذا الغلام قرناً) فعاش مائة سنةٍ .

وكان في وجهه ثؤلول فقال : (لا يموت حتى يذهب الثؤلول من وجهه) فلم يمت حتى ذهب الثؤلول من وجهه [1] .

ذكرى حول الآية المتقدمة : وهي قوله تعالى : (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا) .

فإنه سبحانه بيّن لعباده أنه هو الذي يعلم الغيب المطلق علماً ذاتياً لا نهاية له ، كما قال تعالى : (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيبَ إلا الله ..)

وقال تعالى : (له غيب السموات والأرض ..) الآية .

وقال تعالى : (وعنده مفاتِحُ الغيب لا يعلمها إلا هو ..) الآية .

وقد أخبر سبحانه في هذه الآية الكريمة أنه يظهر على غيبه من ارتضى من رسول ، فيُطلعه على ما شاء من الغيب حسب الحكمة الإلهية .

فقد أطلع سبحانه سيدنا عيسى عليه السلام على بعض المغيّبات ، ليكون ذلك آية على صدق نبوته وحجةً على قومه ، قال تعالى : (وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

---

[1] قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني والبزار ورجال أحد إسنادي البزار رجال الصحيح غير الحسن بن أيوب الحضرمي وهو ثقة اهـ

فهو سبحانه يُطلع رسله عليهم الصلاة والسلام على ما شاء من المغيّبات ، بمقتضى حكمته ، ليكون ذلك بيّنةً على صدق نبوتهم ، حيث لم يكن ذلك بواسطة آلات ، ولا بتدخل أسباب عادية ، أو دلالة علامات عرفية ، بل بمجرد إنباء الغيب الإلهي .

ومن هنا يُعلم أن علم التنجيم ، وعلم الفلك ، وعلم الارصادات الجوية ، ونحوها من العلوم التي تُستنتج منها بعض المعلومات الخفية ، فإنها منوطة بأصولٍ علمية ، ومبنية على قواعد وضوابط عرفية عادية ، تُعطي تلك النتائج الخفية ، فلا يُقال : إنها من باب العلم بالمغيّبات أصلاً ، إذ أن علم الغيب شرطه أن يكون مجرّداً عن المواد والوسائط الكونية ، والأسباب العادية ، والعلامات العرفية ، كما نبّه على ذلك المحقّقون .

إذ لا يُقال للطبيب الذي يتعرّف من مقياس النبض على قوة القلب وضعفه ، والذي يتعرف بجسّ المريض وفحصه الطبي على مرضه الخفيّ – لا يُقال : إن هذا من باب العلم الغيبي .

كما أن العالم الفلكي الذي يتعرّف بالارصادات والمقاييس الجوية ، إلى التغيّرات الحارّة والباردة ونحوها – لا يقال إن ذلك من علم الغيب !.

ثم إن قوله تعالى : (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) الآية . هذا لا ينافي قوله تعالى : (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) الآية .

أو المراد : إني لا أعلم الغيب إلا أن يعلمني الله تعالى ، ويطلعني على ما شاء من الغيب .

كما وأن قوله تعالى : (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ..) الآية ، لا ينفي عن أولياء الله تعالى اطّلاعهم على بعض المغيّبات ، وذلك : لأنه إن أريد بـ الرسول في الآية الكريمة : الرسول البشري – كما عليه الجمهور – فاطّلاع الأولياء على بعض المغيبات إنما حصل لهم

باتّباعهم لرسولهم ، وبواسطته يُكرمون ، وحينئذ يكون ذلك داخلاً في الكرامات ، وكل كرامة لوليّ فهي معجزة لنبيّه ، قد نالها باتباعه له ، صلوات الله على نبينا وعلى الأنبياء أجمعين .

وإن أريد بـ الرسول : الرسول الملكي – كما قاله بعضهم – فهو ينزل بالوحي النبوي على الأنبياء ، وينزل بالإلهام الصادق على قلوب الأولياء ، ويُلقي إليهم ويحدّثهم ، وكيف يجوز إنكار اطّلاع الأولياء على بعض المغيّبات ، وقد ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة ؟ ! ومن ذلك ما ورد في الصحيحين وغيرهما واللفظ للبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لقد كان فيما قبلكم محدّثون ، فإن يكن في أمتي أحدٌ فإنه عمر) .

وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لقد كان فيمن قبلكم من بني إسرائيل يكلّمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن من أمتي منهم أحدٌ : فعمر) .

قال في (فتح الباري) : والمحدّث : هو من ألقي في رُوعه شيء من قِبل الملأ الأعلى ، فيكون كالذي حدّثه غيره به ، وقيل : مكلّم أي : تكلّمه الملائكة بغير نبوة ، وهذا ورد من حديث أبي سعيد مرفوعاً ولفظه : قيل : يا رسول الله كيف يحدّث ؟ قال : (تتكلّم الملائكة على لسانه) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (فإن يكن من أمتي أحد فإنه عمر) : لم يرد مورد التردُّد ، بل هذا من باب التأكيد ، كما يقول الرجل : إن يكن لي صديق فإنه فلان ، يريد اختصاصه بكمال الصداقة ، لا نفي الأصدقاء عنه ، ولذا ورد في الترمذي عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه) اهـ ، فهذه الأحاديث صريحة في إثبات الإلهام ، والتحدث عن المغيبات ، وفي سنن الترمذي وغيره عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اتّقوا فِراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله – ثم قرأ : (إن في ذلك لآياتٍ للمتوسّمين)) .

وروى ابن جرير عن ثوبان مرفوعاً : (احذروا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله ، وبتوفيق الله) .

وروى البزار عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسّم) .

ومن ذلك قصة عثمان بن عفان رضي الله عنه لما دخل عليه الرجل وقد نظر إلى امرأة أجنبية ، فقال له عثمان : يدخل أحدكم علينا وفي عينيه أثر الزنا ! فقال الرجل : أوحيٌ بعد رسول الله يا أمير المؤمنين ؟ فقال له : لا ، ولكن فراسة مؤمنٍ صادقةٌ .

الدليل الرابع : من الأدلة على كثرة علومه صلى الله عليه وسلم – علمه صلى الله عليه وسلم بأصناف المخلوقات ، وأنواع أمم الحيوانات ، وبأحكامها وبأوضاعها وتفاصيل أمورها . روى الطبراني بإسنادٍ رجاله رجال الصحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : (لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما في السماء طائر يطير بجناحيه إلا ذكر لنا منه علماً [1]) .

وروى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : (لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يحرّك طائر جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً) .

وزاد الطبراني في روايته أيضاً فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (ما بقي شيء يقرّب من الجنة ويباعد من النار ، إلا وقد بُيّن لكم) .

فقد ذكر صلى الله عليه وسلم للصحابة علماً كبيراً حول عالم الطير ، وفي هذا دليل على أنه صلى الله عليه وسلم كان واسعَ العلم في نواحي أصناف العالم كله .

وأيضاً فيه دليل على أنه صلى الله عليه وسلم بيّن جميع المهام الكونية ، المتعلّقة بمصالح العالم وسعادة البشر ، من جميع الوجوه والاعتبارات ، فإنه

---

[1] انظر (مجمع الزوائد) : الجزء الثامن ، وتفسير ابن كثير في مواضع منه .

صلى الله عليه وسلم الذي تناول ذكر عالم الطير كيف يتصور منه أن يُهمل بيان ناحية إصلاحية من نواحي المصالح البشرية ، ويترك ذكرها ، ويتناول ذكر عالم الطير وأحكامه ؟! لا – بل إنه صلى الله عليه وسلم بيّن جميع النواحي الإصلاحية وطرق السعادات البشرية على أكمل وجوهها .

وقد روى ابو يعلى بإسناده عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أنه قال : قلّ الجراد في سنة من سِني عمر رضي الله عنه التي وليّ فيها ، فسأل عمر عن الجراد ؟ فلم يخبر بشيء ، فاغتمّ لذلك ، فأرسل راكباً إلى كذا ، وآخر إلى الشام ، وآخر إلى العراق ، يسأل : هل رؤي من الجراد شيء أم لا ؟ قال : فأتاه الراكب الذي من قبل اليمن بقبضة من جراد فألقاها بين يديه ، فلما رآها كبّر ثلاثاً ، ثم قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (خلق الله عز وجلّ ألف أمة ، منها ستمائة في البحر ، وأربعمائة في البرّ ، وأوّل شيءٍ يهلِك من هذه الأمم الجراد ، فإذا هلكت تتابعت مثل النّظام إذا قُطع سَلكه)[1] .

وهذه الأحاديث بيانٌ لقوله تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)

وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم ما يترتّب على حشرها المخبر عنه في هذه الآية ، وما يجري بينها من القصاص يوم القيامة .

ففي (صحيح) مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لتؤدُّنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يُقاد للشاة الجلحاء – أي : التي لا قرن لها – من الشاة القرناء) .

ورواه أحمد بلفظ : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يُقتصّ للخلق بعضهم من بعض ، حتى للجمّاء من القرناء ، وحتى للذرّة من الذرّة) .

قال الحافظ المنذري : ورواته رواة الصحيح اهـ

---

[1] انظر هذا الحديث في تفسير ابن كثير وغيره .

فالطير أمّة من الأمم ، والنمل أمّة من الأمم ، كما ورد في (الصحيح) : (قرصت نملة نبيّاً من الأنبياء ، فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه : أن قرصَتك نملة – أهلكتَ أمة من الأمم تسبّح !) .

والنحل أمة كما أخبر سبحانه : (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ، ومما يعرشون ..) الآيات .

والمراد بالأمة هنا : صنفٌ من المخلوقات ذات نظام في حياتها ومعاشها وتناسلها ، وذات انتظام في مجتمعها ، فمنها الآمر والمأمور ، إلى ما هنالك .

قال تعالى : (قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) .

فلما أراد سليمان عليه الصلاة والسلام أن يمرّ بجنوده نادت قائدة النمل ورئيستهم – نادتهم فأمرتهم أن يدخلوا مساكنهم مخافةَ أن تطأهم أقدام الجيش ، وبيّنت لهم أنهم إذا لم يدخلوا المساكن فسوف تطؤهم الاقدام ، ويكون الجيش معذوراً في ذلك ، لأنهم لا يشعرون بأن النمل تحت أقدامهم .

هذا ، وإنّ بحار علومه صلى الله عليه وسلم لا يحيط بها إلا الله تعالى الذي أفاضها عليه ، وقد جاء في (الصحيحين) وغيرهما – واللفظ للبخاري – عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج حين زاغت الشمس ، فصلّى الظهر ، فلمّا سلّم قام على المنبر ، فذكر الساعة وذكر أن بين يديها أموراً عظاماً ثم قال : (من أحبّ أن يسأل عن شيء فليسأل عنه ، فوالله لا تسألوني عن شيء – أي : عن أيّ شيء كان – إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا) .

قال أنس : فأكثر الأنصار البكاء ، وأكثر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : (سلوني)

فقال أنس : فقام رجل فقال : أين مدخلي يا رسول الله ؟ قال : (النار)

فقام عبد الله بن حذافة : فقال من أبي يا رسول الله ؟ قال : (أبوك حذافة)

ثم أكثر أن يقول : (سلوني سلوني) فبرك عمر على ركبتيه فقال : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمدٍ صلى الله عليه وسلم رسولاً .

قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال عمر ذلك .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (والذي نفسي بيده لقد عُرضت عليّ الجنة والنار آنفاً في عرض هذا الحائط وأنا أصلّي ، فلم أرَ كاليوم في الخير والشرّ) .

فقد أذن صلى الله عليه وسلم للصحابة أن يسألوه عن أيّ شيء بدا لهم ، ما دام في مقامه ذلك ، وفي هذا أكبر دليل على سعة علومه التي علّمه الله تعالى إيّاها صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) .

قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم

إنّ قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو خير القلوب وأزكاها ، وأوسعها وأقواها ، وأتقاها وأنقاها ، وألينها وأرقّها ، وهو القلب الواعي اليقظان ، الفيّاض بأنوار الإيمان والقرآن .

فخيرُ القلوب قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم ، جاء في (مسند) أحمد وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : (إن الله تعالى نظر في قلوب العباد ، فوجدَ قلبَ محمد صلى الله عليه وسلم خيرَ قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، وابتعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيه صلى الله عليه وسلم يقاتلون عن دينه – فما

رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سيئ)[1] .

كما وأن قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم هو أزكى القلوب وأطهرها ، فقد شُقّ صدره الشريف منذ صغره واستُخرج من قلبه حظّ الشيطان – كما روى مسلم وغيره عن أنس رضي الله عنه : (أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل صلى الله عليه وسلم ، وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه [2] فشقّ عن قلبه ، فاستخرج القلبَ ، فاستخرج منه علقةً ، فقال : هذا حظّ الشيطان منك[3] ، ثم غسله في طستٍ من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه [4]

ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغِلمانُ يسعون إلى أمّه ، يعني : ظئْره – أي : مرضعته – فقالوا : إن محمداً قد قُتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون – أي : متغيّر اللون – قال أنس : وقد كنتُ أرى أثر ذلك المِخيط في صدره صلى الله عليه وسلم)

وهذا الشقّ للصدر الشريف قد حصل له صلى الله عليه وسلم أوّل مرة وهو صغير السنّ عند حليمة رضي الله عنها .

وقد اختُلف في سنّه صلى الله عليه وسلم وقتئذٍ ، فقيل وقيل ، قال الحافظ الزرقاني : والراجح أنه صلى الله عليه وسلم رجع إلى أمّه وهو ابن أربع سنين ، وأنّ شقّ الصدر إنما كان في الرابعة ، كما جزم به الحافظ العراقي في (نظم السيرة) ، وتلميذه الحافظ ابن حجر في (سيرته) اهـ .

وأما المرة الثانية : فقد شُقّ صدره الشريف صلى الله عليه وسلم وهو ابن عشر سنين ، وقد روى ذلك عبد الله بن أحمد في (زوائد المسند) بسند رجاله

---

[1] قال في (مجمع الزوائد) رواه أحمد والبزار والطبراني في (الكبير) ورجاله موثقون اهـ من الجزء الأول والثامن .

[2] أي : ألقاه على قفاه .

[3] أي : نصيبه لو بقي معك .

[4] أي : أصلح موضع الشق .

ثقات وابن حبّان والحاكم ، وابن عساكر والضياء المقدسي في (المختارة) عن أبيّ بن كعب أن أبا هريرة قال : يا رسول الله : ما أوّل ما ابتُدئتَ به من أمر النبوة؟

فقال صلى الله عليه وسلم : (إني لفي صحراء ، ابن عشر حجج ، إذا أنا برجلين – اي : ملكين في صورة رجلين – فوق رأسي يقول أحدهما لصاحبه : أهوَ هو ؟ قال : نعم ، فأخذاني بوجوهٍ لم أرها لخلقٍ قطُّ – اي : لحسن جمالها – وأرواحٍ لم أجدها من خلقٍ قطُّ ، وثيابٍ لم أرها على خلقٍ قطُّ – اي : لحُسنها وبهجتها – فأقبلا إليّ يمشيان ، حتى أخذ كلُّ واحدٍ منهما بعضدي ، لا أجد لأخذهما مسّاً ، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه – فأضجعاني .

- وفي لفظ – (فقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره ، ففلقاه فيما أرى بلا دم ولا وجع ، فكان أحدهما يختلف بالماء في طستٍ من ذهب ، والآخر يغسل جوفي ثم قال : شُقّ قلبه ، فشقّ قلبي ، فأخرج الغلّ والحسدَ منه ، فأخرج شبه العلقة فنبذ به ..) الحديث [1] .

قال العلامة محمد بن يوسف الشامي في (سيرته الشامية) : والحكمة فيه : أن العشر قريب من سنّ التكليف ، فشقّ قلبه صلى الله عليه وسلم وقُدّس ، حتى لا يتلبّس بشيء مما يعابُ على الرجال اهـ [2] .

وأما المرة الثالثة : فقد شقّ صدره الشريف صلى الله عليه وسلم عند مجيء جبريل عليه السلام بالوحي إليه حين نُبّئ ، فقد روى أبو داود الطيالسي والحارث أبو محمد التميمي

في (مسنديهما) ، والبيهقي وأبو نعيم في (دلائلهما) كلهم عن عائشة رضي الله عنها : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتكف هو وخديجة شهراً بحراء ، فوافق ذلك شهر رمضان ، فخرج رسول الله وسمع : السلام عليكم ، قالت – خديجة - : فظننتُ أنه فجأة الجنّ ، فقال : (أبشروا فإن السلام خير) .

---

[1] انظر الحديث بنصه في شرح الزرقاني ١ :١٥٣
[2] انظر (شرح الزرقاني) وغيره .

ثم رأى يوماً آخر جبريل عليه السلام على الشمس : جناح له بالمشرق ، وجناح له بالمغرب قال : (فهِبتُ [1] منه) .

فانطلق يريد أهله ، فإذا هو بينه وبين الباب ، قال : (فكلّمني حتى أنِستُ به ، ثم وعدني موعداً ، قال : فجئت لموعده ، واحتبس عليّ جبريل) وفي رواية : (فأبطأ عليّ) فلما أراد أن يرجع إذا هو به – أي : بجبريل – وبميكائيل صلى الله عليهما فهبط جبريل غلى الأرض ، وبقي ميكائيل بين السماء والأرض ، قال : (فأخذني جبريل فسلقني لحلاوة[2] القفا وشقّ عن بطني – وفي رواية : فألقاني لحلاوة القفا – أي : وسطه – ثم شقّ عن قلبي ، فأخرج منه ما شاء الله ، ثم غسله في طستٍ من ذهب ثم أعاده فيه ثم كفأني – اي : قلبني – كما يُكفأ الإناء ، ثم ختم في ظهري حتى وجدت مسّ الخاتم) .

والحكمة في هذا الشقّ – كما أفاده المحققون – هو الزيادة في إكرامِه وإمدادِه صلى الله عليه وسلم ، وتقويته وإعداده ، ليتلقّى ما يُوحى إليه بقلبٍ قويٍ في أكمل الأحوال القدسية المرضية .

وأما المرة الرابعة : فقد شُقّ صدره الشريف ليلة الإسراء ، كما ورد في (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه ، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدّثه عن ليلة أسري به : قال : (بينما أنا في الحطيم – وربما قال : في الحِجر – مضطجعاً ، إذ أتاني آتٍ ، فشقّ ما بين هذه إلى هذه – يعني ثغرة نحره إلى شِعرته - ، فاستخرج قلبي ، ثم أتيتُ بطستٍ من ذهبٍ مملوء إيماناً – وفي رواية للبخاري : بطستٍ ملئ حكمة وإيماناً – فغُسل قلبي ، ثم حُشي – أي : حشي إيماناً وحكمة – ثم أعيد .

---

[١] في رواية : (فهلتُ منه) وهو من كلامه صلى الله عليه وسلم .
[٢] هذا لفظ الحديث الوارد في (مسند) أبي داود الطيالسي ص ٢١٥ من الطبعة الأولى بمطبعة حيدر آباد .

- وفي رواية للبخاري : ثم أتيت بماءٍ بطستٍ من ذهب ممتلئ حكمةً وإيماناً فأفرغه في صدري ، ثم أطبقه – ثم أتيتُ بدابّة : دون البغل وفوق الحمار ، أبيض ..) الحديث .

والحكمة في هذا الشقّ – كما أفاده العارفون – هي الزيادة في إكرامه صلى الله عليه وسلم وإعظامه ، والزيادة في إمداده وإعداده ، للتأهب للوقوف بين يدي الله تعالى ومناجاته ، ومشاهدة الأنوار والأسرار ، وتجلّيات الجمال والجلال .

قال في (المواهب وشرحه) وروي شقّ صدره مرة خامسةً وهو ابن عشرين سنةً – فيما قيل – ولا تثبت ، فلا تذكر إلا مقرونةً ببيان عدم الثبوت اهـ [1] .

وقال الحافظ القسطلاني أيضاً : ثم إن جميع ما ورد من شقّ الصدر واستخراج القلب ، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة : مما يجب التسليم له ، دون التعرّض لصرفه عن حقيقته ، لصلاحيّة القدرة ، فلا يستحيل شيء من ذلك .

قال الشارح الزرقاني : لأن القدرة إنما تتعلّق بالممكن دون المستحيل ، هكذا قاله القرطبي في (المُفهم) والطيبي ، والتوربشتي ، والحافظ في (الفتح) ، والسيوطي وغيرهم ، ويؤيده الحديث الصحيح أنهم كانوا يرون أثر المِخيط

في صدره صلى الله عليه وسلم .

وقال أيضاً : قال السيوطي : وما وقع من بعض جهلة العصر من إنكار ذلك وحمله على الأمر المعنويّ ، وإلزام قائله القولَ بقلب الحقائق : فهو جهل صُراح ، وخطأ قبيح ، نشأ من خذلان الله تعالى لهم ، وعكوفهم على العلوم الفلسفية ، وبُعدهم عن دقائق السنّة ، عافانا الله من ذلك – انتهى كلام السيوطي[2] .

فما أزكى قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وما أبرّه ، وما أكرمه وما أعظمه ! حقاً إنه أعظم القلوب وخيرها وأزكاها .

---

[1] انظر (شرح الزرقاني) ١ : ١٣٥
[2] كما في (شرح المواهب) ٦ : ٢٥

سعة قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم وقوته :

قال الله تعالى : (نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكونَ من المنذرين) .

ففي هذه الآية إيماء إلى تخصيص قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم بنزول القرآن عليه دون سائر القلوب ، وذلك لكمال اتّساعه الذي منحه الله تعالى إيّاه وقوة تحمُّله لتنزُّلات القرآن العظيم ، الذي لو أنزل على الصمّ الراسيات والجبال الشامخات ، لتصدّعت وتشقّقت من خشية الله تعالى – قال تعالى : (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ...) الآية .

وإن قلباً نزل عليه القرآن الكريم بأسراره وأنواره ، وحروفه ومعانيه ، وروحه وحقائقه ، حقاً إن هذا القلب أوسع القلوب وأقواها !

قال تعالى : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

فأفاض من بحر أسرار قلبه الشريف ، على قلوب أتباعه ، وأشعّ في مرايا قلوبهم من مشارق أنواره ، ومن تدبّر في قوله تعالى : (وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فهم المعنى

قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم أتقى القلوب :

جاء في (صحيح) مسلم عن أبي ذر في الحديث القدسي : (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم : ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ..) الحديث .

فهذا القلب الذي هو أتقى القلوب المشار إليه في الحديث ، هو قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال : (أما والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له) الحديث في

(الصحيحين) .

كما وأن قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم أنقى القلوب وأسلمها :

ففي (سنن) أبي داود عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا يبلّغني أحد عن أحدٍ من أصحابي شيئاً ، فإني أحبُّ أن أخرج إليكم وأنا سليمُ الصدر) ، وروى ابن ماجه بإسناد صحيح عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : قيل يا رسول الله : أيُّ الناس أفضل ؟

قال : (كلُّ مخمومِ القلب ، صدوق اللسان) .

قالوا : صدوق اللسان نعرفه ، فما مخموم القلب ؟

قال : (هو التقيُّ النقيُّ ، لا إثمَ فيه ، ولا بغي ، ولا غلّ ، ولا حسد) .

كما وأن قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم ألين القلوب وأرقُّها :

قال الله تعالى : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ...) الآية ، فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم غليظ القلب بل كان ليّناً .

وروى الطبراني عن أبي عنبة الخولاني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن لله تعالى آنيةً من أهل الأرض ، وآنيةُ ربكم قلوب عباده الصالحين ، وأحبُّها إليه ألينها وأرقُّها)[1] .

يقظة قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم :

لقد أعطى الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم يقظة القلب ، فهو في توجُّه إلى الله تعالى ووعي عنه دائمين ، لا تعتريه غفلة ، ولا يطرأ على قلبه صلى الله عليه وسلم شائبة نومة ، ولذا كانت رؤياه المنامية من جملة طرق الوحي وأنواه ، كما أن نومه لا ينقض وضوءه صلى الله عليه وسلم ، وقد ثبت ذلك بالأحاديث الصحيحة .

---

[1] قال الحافظ الهيثمي : إسناده حسن . وقال شيخه العراقي : فيه بقية بن الوليد وهو مدلس ، لكنه صرح بالتحديث فيه اهـ من (فيض القدير) للمناوي .

ففي (صحيح) البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها في حديث قيام النبي صلى الله عليه وسلم بالليل ، قالت عائشة : قلتُ : يا رسول الله أتنام قبل أن توتر ؟ فقال : (يا عائشة إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي) .

وفي (صحيح) مسلم عن عياض بن حمار رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (... وإن الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم : عرَبهم وعَجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب [1] ، وقال : إنما بعثتُك لأبتليك وأبتليَ بك ، وأنزلتُ عليك كتاباً لا يغسله الماء [2] تقرأه نائماً ويقظان ...) الحديث .

وروى البخاري عن جابر رضي الله عنه قال : (جاءت ملائكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم – وفي رواية الترمذي : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني رأيتُ في المنام كأنّ جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي – فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة ، والقلب يقظان .

فقالوا : إن لصاحبكم هذا مثلاً ، قال : فاضربوا له مثلاً !

فقالوا : مثَلُه كمَثل رجل بنى داراً ، وجعل فيها مأدبة [3] ، وبعثَ داعياً ، فمن أجابَ الداعي دخل الدار وأكل من المأدُبة .

ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدُبة .

---

[1] قيل : المراد بالكتاب هنا : الكتب السماوية السابقة ، فيكون الحديث محمولاً على حال الناس قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فإن الجهالة عمتهم فأعمتهم ، فمقتهم الله تعالى إلا بقايا قليلة ممن تمسك بالكتاب : أي : بالكتب السماوية .

[2] والمعنى : أن الماء لا يمحوه من الارض ، فإن محي من السطور فهو محفوظ في الصدور ، وذلك لأن الله تعالى هو تكفل بحفظه حيث قال : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فحفظه في محافظ وألواح لا يمحوها الماء ، ألا وهي صدور العلماء والقراء ، قال تعالى : (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ...) الآية .

[3] المأدبة : هي الأطعمة التي تعد للولائم ، والمراد بالمأدبة هنا الجنة .

فقالوا : أوّلوها له يفقهها – اي : يفهمُها – فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان .

فقالوا : فالدارُ الجنةُ ، والداعي محمد صلى الله عليه وسلم - فمن أطاع محمداً صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله ، ومن عصى محمداً فقد عصى الله ...) الحديث .

وفي (سنن) الدارمي : (أتي النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له : لتنمْ عينُك ، ولتسمَع أذنك ، وليعقل قلبُك ، قال : فنامت عيناي ، وسمعت أذناي ، وعقل قلبي .

فقيل لي : سيّد بنى داراً ، فصنع مأدبة ، وأرسل داعياً ، فمن أجاب الداعي : دخل الدار ، وأكل من المأدبة ، ورضي عنه السيّد ، ومن لم يجب الداعي : لم يدخل الدارَ ، ولم يَطعَم من المأدبة ، وسخِط عليه السيّد) .

قال : (فالله السيّد ، ومحمدٌ الداعي ، والدار الإسلام ، والمأدبة الجنّة) .

وقد ذكر علماء السلف والخلف طرق الوحي وأنواعه ، ومن جملتها رؤياه المنامية صلى الله عليه وسلم ، كما دلّ عليه حديث عائشة رضي الله عنها : (أوّل ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصّادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلَق الصبح ...) الحديث .

وقد استدلّ السهيلي وغيره على أنها من الوحي بقول الخليل إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام لولده كما أخبر الله تعالى عنه : (يا بنيّ إني أرى في المنام أني أذبحُك) ثم قيامه بتنفيذ الرؤيا .

خاتم النبوة

لقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أنه صلى الله عليه وسلم كان بين كتفيه خاتم النبوّة ، وهو كما قال علماءُ الحديث : بضعة لحمٍ ناشزة – أي : مرتفعة – في

ظهره الشريف ، عند ناغض كتفه اليسرى ، عليها شعرات كأنها خيلان ، يزهو بالنور ، وتعلوه المهابة ، وينفح بالطيب .

روى الترمذي وغيره عن أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه أنه كان إذا وصفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في جملة أوصافه : بين كتفيه خاتم النبوة ، وهو خاتم النبيّين ... الحديث كما تقدّم .

وروى الترمذي عن رميثة رضي الله عنها قالت : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم – ولو شاء أن أقبّل الخاتم الذي بين كتفيه من قربه لفعلت – يقول لسعد بن معاذ يوم مات : (اهتزّ له عرش الرحمن) .

أوصاف خاتم النبوة : جاء في خاتم النبوّة أوصاف متعددة ، ولا تنافي بينها ، كما سنبيّن إن شاء الله تعالى .

ففي (الصحيحين) – واللفظ للبخاري – عن السائب بن يزيد رضي الله عنه قال : ذهبت بي خالتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : (يا رسول الله إن ابن أختي وَجعَ [1] فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسي ، ودعا لي بالبركة ، وتوضّأ ، فشربتُ من وضوئه ثم قمتُ خلفَ ظهره ، فنظرتُ إلى خاتم النبوّة بين كتفيه مثلَ زر الحَجَلة [2])

وروى الترمذي عن عاصم الأحول عن عبد الله بن سرجس رضي الله عنه أنه قال : (أتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم وهو في ناسٍ من أصحابه ، فدُرتُ هكذا من خلفه ، فعرف الذي أريد ، فألقى الرداء عن ظهره صلى الله عليه

---

[1] وفي رواية : وقع – بكسر القاف – والمراد أنه كان يشتكي رجله .

[2] قال الإمام النووي في (شرحه) : أما زر الحجلة فبزاي ثم راء – اي : واحد الأزرار التي توضع في العرى التي تكون للخيمة – قال : والحجلة : بفتح الحاء والجيم ، هذا هو الصحيح المشهور ، والمراد بالحجلة واحدة الحجال ، وهي : بيت كالقبة – أي كالقبة الصغيرة تعلق على السرير – لها أزرار كبار وعرى ، هذا هو الصواب المشهور ، الذي قاله الجمهور اهـ

وسلم ، فرأيتُ موضع الخاتم على كتفيه مثل الجُمْع[1] حولها خيلانٌ[2] كأنها ثآليل ، فرجعتُ حتى استقبلته فقلتُ : غفر الله لك يا رسول الله ! فقال : (ولك) فقال القوم : استغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : نعم ، ولكم ، ثم تلا هذه الآية : (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات)) .

وقد رواه مسلم وفيه : (ثمّ دُرتُ خلفه صلى الله عليه وسلم فنظرتُ إلى خاتم النبوّة ، بين كتفيه عند ناغِض [3] كتفه اليسرى ، جمعاً ، عليه خيلانٌ كأمثال الثآليل) .

وروى مسلم عن جابر بن سمرة قال : (رأيتُ خاتماً في ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه بيضة حمام) .

وروى الإمام أحمد والترمذي – واللفظ له – عن أبي نضرة العوقي قال : سألتُ أبا سعيد الخدري رضي الله عنه عن خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : (كان في ظهره بضعة ناشزة) – أي قطعة لحم مرتفعة - .

وروى الترمذي وغيره عن علباء قال : حدثني عمرو بن أخطب الأنصاري قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا أبا زيد أدن مني فامسح ظهري) فمسحتُ ظهره ، فوقعت أصابعي على الخاتم .

قلتُ : وما الخاتم ؟ قال : شعراتٌ مجتمعات .

---

[1] بضم الجيم وإسكان الميم ، ومعناه أنه كجمع الكف ، وهو صورته بعد أن تجمع الأصابع وتضمها ، كما أوضحه النووي – والمراد : أن تجمع الاصابع وتضم إلى باطن الكف ، كالقابض على الشيء كما بينه الحافظ الزرقاني . -

[2] قال : وأما الخيلان : فبكسر الخاء المعجمة وإسكان الياء ، جمع خال ، وهو الشامة في الجسد – والله أعلم اه

[3] قال الإمام النووي : وأما ناغض الكتف : فالبنون والغين والضاد المعجمتين ، والغين مكسورة ، وقال الجمهور : النغض والناغض : أعلى الكتف ، وقيل : هو العظم الرقيق الذي على طرفه ، وقيل : ما يظهر منه عند التحرك اهـ

قال العلماء : واختلاف أقوال الرواة في أوصاف خاتم النبوة ، ليس من باب التنافي بينها ، وإنما هي باعتبار أنّ كلاً منهم شبّه بما سنحَ له وظهر ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان يستره ، باعتبار أنه في ظهره الشريف صلى الله عليه وسلم ، فواصفه إما رآه من غير قصد ، أو أنه صلى الله عليه وسلم أراه له ، مع ملاحظة الرائي مقام الهيبة والوقار والأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال العلامة القرطبي في (شرحه على صحيح مسلم) : الأحاديثُ الثابتة دالّة على أنّ خاتم النبوّة كان شيئاً بارزاً أحمر ، عند كتفه الأيسر ، إذا قُلّل : قدر بيضة – اي : قيل فيه قدر بيضة الحمام – وإذا كُثّر : جُمعُ الكفّ – أي : قيل فيه قدرُ جُمعِ الكفّ[1] - .

حكمة وضعه بين الكتفين الشريفين : ذكر العلماءُ في ذلك وجوهاً من الحِكم ، قال الحافظ ابن كثير : ومن أحسن ما ذكره ابن دحية رحمه الله ، وغيره من العلماء قبله ، في الحكمة في كون الخاتم كان بين كتفي رسول الله صلى الله عليه وسلم : إشارة إلى أنه لا نبيّ بعدك يأتي من ورائك [2] اهـ .

وقال في (الفتح) : قال العلماء : السرُّ في ذلك أنّ القلب في تلك الجهة .

وقال العلامة السهيلي في (الروض الأنُف) : وحكمة وضعه – اي : الخاتم – عند النُّغض – من الكتف اليسرى – لأنه معصوم من وسوسة الشيطان ، وذلك الموضع منه يدخل الشيطان اهـ فكان ذلك حفظاً له من الشيطان .

وروى ابن عبد البرّ بسند قويّ إلى ميمون بن مهران عن عمر بن عبد العزيز أنّ رجلاً سال ربّه أن يُريه موضع الشيطان من ابن آدم ، فأري جسدهُ مُمهى[3]

---

[1] انظر جميع ذلك في شرح الزرقاني و (فتح الباري) .
[2] انظر (البداية والنهاية) ٦/ ٢٨
[3] قال الزرقاني : ممهى بضم الميم الأولى وسكون الثانية وتخفيف الهاء ، من أمهاه ، أي : مصفى . وفي (النهاية) : ممهى على وزن مصفى .

يُرى داخله من خارجه ، وأري الشيطان في صورة ضفدع ، عند كتفه حذاء قلبه ، له خرطوم كخرطوم البعوضة ، وقد أدخله في منكبه الأيسر إلى قلبه ، يوسوس إليه ، فإذا ذكر الله تعالى العبدُ خنَسَ .

قال في (الفتح) : وهو مقطوع ، وله شاهد مرفوع عن أنس عند أبي يعلى وابن عدي ولفظه : (إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ..) الحديث

قال : وأورد ابن أبي داود في (كتاب الشريعة) من طريق عروة بن رُويم ، أن عيسى عليه السلام سأل ربه أن يُريه موضع الشيطان من ابن آدم ، قال : فإذا برأسه مثل الحية ، واضع رأسه على تمرَة القلب ، فإذا ذكرَ العبدُ ربّه خنَس ، وإذا غفل وسوس اهـ[1] .

متى خُتم له صلى الله عليه وسلم بخاتم النبوة : اختلف العلماء هل أنه صلى الله عليه وسلم ولِد وعليه خاتم النبوة ، أم إنه وضع له بعد ولادته ؟

فقيل : وُلد به ، نقله ابن سيد الناس ، وردّه في (الفتح) ثم قال : واختلف القائلون بالثاني – أي : بأنه وضع له بعد الولادة –

فقيل : حين ولد صلى الله عليه وسلم وضع له خاتم النبوّة – واستدلوا على ذلك بحديث فيه نكارة

وقيل : عند شقّ صدره صلى الله عليه وسلم وهو في بني سعد – لما ورد في حديث عتبة بن عبد – عند الإمام أحمد والطبراني .

قال الحافظ الزرقاني : وقطع به القاضي عياض ، وقال الحافظ – ابن حجر - : وهو الأثبت اهـ .

وقيل : إنه عند المبعث ، لما تقدم في حديث عائشة رضي الله عنها وفيه : _ وختَم في ظهري حتى وجدتُ مسّ الخاتم في قلبي وقال : اقرأ ..) الحديث

---

[1] انظر (فتح الباري) ٧ :٣٧٤

وقيل : إنه ليلة المعراج ، لما ورد عند أبي يعلى وابن جرير والحاكم في حديث المعراج من حديث أبي هريرة [1] .

قال الحافظ الزرقاني : وطريق الجمع أن الختم تكرّر ثلاث مرات : في بني سعد – أي : في صغره صلى الله عليه وسلم - ثم عند المبعث ، ثم ليلة الإسراء ، كما دلّت عليه الأحاديث – أي : الأحاديث الثابتة – قال : ولا بأس بهذا الجمع فإنّ فيه إعمال الأحاديث كلها ، إذ لا داعي إلى ردّ بعضها ، وإعمال بعضها ، لصحة كل منها ، وإليه أشارَ الشامي – أي : في سيرته – قال : وأما رواية بعد الولادة ، فضعيفة ، وأما أنه وُلد به : فضعيف أيضاً ، يُطلب زاعمه بدليله اهـ[2] .

سبب تسميته بخاتم النبوة : قال العلامة القرطبي وغيره : سمّي بذلك لأنه أحد العلامات الواضحة التي يعرفه بها أهل الكتب السابقة اهـ

وذلك لما ورد في جملة صفاته صلى الله عليه وسلم وأمارات صدقه ، في الكتب السماوية السابقة – أن بين كتفيه صلى الله عليه وسلم خاتم النبوة .

ولذلك لما أخبر بعض الرهبان سلمان الفارسي بظهور النبي في الحجاز ووصفه له ، وأنّ من علامات صدقه : عدم قبول الصدقة ، وقبول الهدية ، وأن بين كتفيه خاتم النبوّة ، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يفحص عنها ، فلما رأى الخاتم آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم .

روى الترمذي وأحمد وغيرهما عن بريدة رضي الله عنه قال : جاء سلمان الفارسي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة ، بمائدة عليها رُطب ، فوضعت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا سلمانُ ما هذا ؟) .

فقال : صدقة عليك وعلى أصحابك .

---

[1] انظر (فتح الباري) و (شرح المواهب)
[2] انظر (شرح الزرقاني على المواهب) ١ : ١٦٠

فقال : (ارفعها ، فإنّا لا نأكل الصدقة) قال : فرفعها .

فجاء سلمانُ الغدَ بمثله فوضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (ما هذا يا سلمان ؟) فقال : هدية لكَ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : (ابسطوا) .

ثم نظر إلى الخاتم على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم فآمن به .

وكان – رقيقاً [1] - لليهود ، فاشتراه [2] رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا وكذا درهماً ، على أن يغرس لهم نخلاً ، فيعمل سلمان فيه حتى يُطعِم ، فغرس رسول الله صلى الله عليه وسلم النخيل إلا نخلةً واحدةً غرسها عمر ، فحملت النخل من عامها ولم تحمل النخلة .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما شأن هذه النخلة) ؟ فقال عمر : يا رسول الله أنا غرستها ، فنزعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغرسها فحملت من عامها .

ومن ذلك ما ورد في قصة – بُحيراء أو بحيرا – الراهب ، ومعرفته بالنبي صلى الله عليه وسلم بسبب خاتم النبوة المخبر عنه في الكتب السابقة .

---

[1] وسبب ذلك أنه كان في بلاد فارس بين قوم مجوس ، فهرب من بينهم ولحق بجماعة من الرهبان في القدس ، فدله أحدهم على ظهور النبي صلى الله عليه وسلم بأرض العرب ، فقصد الحجاز مع جمع من الأعراب ، فباعوه لليهود اهـ كما في (شروح الشمائل) للترمذي .

[2] قال العلامة البيجوري : أي : تسبب في كتابة اليهود له ، لأمره بذلك ، فتجوز بالشراء عما ذكر ، وقوله : (بكذا وكذا درهماً) أي : بعدد يشتمل على العطف ، ولم يبينه في هذا الحديث ، وفي بعض الروايات أنه أربعون أوقية ، قيل : من فضة ، وقيل : من ذهب ، وقد بقي عليه ذلك حتى أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل بيضة الدجاج من ذهب ، فقال صلى الله عليه وسلم : (ما فعل الفارسي المكاتب ؟) فدعي فقال له : (خذها فأدها مما عليك) قال سلمان : فأين تقع هذه مما علي ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : (خذها ، فإن الله سيؤدي بها عنك) قال : فأخذتها فوزنت لهم منها أربعين أوقية فأوفيتهم حقهم – فعتق سلمان رضي الله عنه اهـ

روى الترمذي عن أبي موسى قال : خرج أبو طالب إلى الشام ، وخرج معه النبي صلى الله عليه وسلم في أشياخ من قريش ، فلما أشرفوا على الراهب – بحيرا – هبطوا فحلُّوا رحالهم ، فخرج إليهم الراهب ، وكانوا قبل ذلك يمرُّون به فلا يخرج إليهم . قال : فهم يحلُّون رحالهم فجعل يتخلّلهم الراهب – أي : يمشي بينهم ويطلب في خلالهم شخصاً – حتى جاء فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هذا سيّد العالمين ، هذا رسول رب العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين .

فقال له أشياخ قريش : ما علمك ؟ - أي : ما سبب علمك بذلك ؟ - .

فقال – الراهب - : إنكم حين أشرفتم من العقبة ، لم يبق شجر ولا حجر إلا خرّ ساجداً ، ولا يسجدان إلا لنبيّ ، وإني أعرفه بخاتم النبوة ، أسفل من غضروفة كتفه ، مثل التفاحة .

ثم رجع فصنع لهم طعاماً ، فلما أتاهم به وكان هو – أي : النبي صلى الله عليه وسلم – في رِعية الإبل . فقال : أرسلوا إليه ، فأقبل وعليه غمامةٌ تُظلّه ، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة ، فلما جلس صلى الله عليه وسلم مال فيء الشجرة عليه ، فقال – أي : الراهب للقوم – انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه .

فقال : أنشدكم الله أيُّكم وليُّه – أي : قريبه - ؟

قالوا : أبو طالب .

فلم يزل يُناشده – أي : يناشد أبا طالب – حتى ردّه أبو طالب – أي : أعاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة خوفاً عليه من الروم أن يقتلوه – وبعث معه أبو بكر بلالاً وزوّده الراهب من الكعك والزيت .

قال الترمذي : حديث حسن غريب ، وقال الجزري : إسناده صحيح ورجاله رجال (الصحيحين) أو أحدهما – وذكر أبي بكر وبلال فيه غير محفوظ ، وعدّه أئمتنا وهماً ، وهو كذلك ، فإن سنّ النبي صلى الله عليه وسلم إذ ذلك اثنتا

عشرة سنة ، وابو بكر أصغر منه بسنتين ، وبلال لعله لم يكن وُلد في ذلك الوقت اهـ كما في (المرقاة) . وقال الحافظ ابن حجر في (الإصابة) :
الحديث رجاله ثقات ، وليس فيه سوى هذه اللفظة – اي : ذكر أبي بكر وبلال – فيحتمل أنها مدرجة فيه ، منقطعة من حديث آخر ، وهماً من أحد رواته اهـ .

حول خلقه العظيم صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى : (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) .

أقسم الله تعالى بنون ، وهو المدد الإلهي الفيّاض ، الذي منه استمداد القلم الأعلى المستفيض ، وهو أوّل ما خلق الله تعالى ، كما ورد في الحديث الذي رواه الترمذي والإمام أحمد عن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه قال :
سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتُب . قال : يا ربّ وما أكتبُ ؟ فقال : اكتُب ما هو كائن إلى يوم القيامة ..) الحديث .

ثم أقسم سبحانه بجميع ما تسطره الملائكة وما يسطره المسطّرون : ما أنت يا محمد صلى الله عليه وسلم بفضل نعمة ربك عليك بالنبوة والرسالة بمجنون ، لأنّ مواقف رسالتك ودعوتك الحكيمة ، وشريعتك المستقيمة ، هي في أعلى درجة العلم والحكمة ، فكيف يُتصوّر هذا ويلتقي مع قولهم فيك مجنون ؟! بل المجنون هو الذي يتّهم صاحب العلم والحكمة والفهم بالجنون ! .

(وإنّ لك) يا رسول الله على هذا التحمُّل والصبر على أذاهم بالقول والفعل (لأجراً غير ممنون) أي : غير مقطوع .

(وإنك) يا رسول الله في الأخلاق السامية التي علوت قِمتها ، وانتهيتَ إلى ذروتها ، إنك حقاً (لعلى خُلُق عظيم) .

فهو صلى الله عليه وسلم عظيم في كل ناحية من نواحي الأخلاق الكاملة ، فهو عظيم صلى الله عليه وسلم في حلمه وسماحته ، عظيم في كرمه وسخائه ،

عظيمٌ في شجاعته ، عظيم في تواضعه ، عظيم في كريم عشرته ، عظيم في حيائه ، عظيم في أدبه ، عظيم في رحمته ورأفته ، عظيم في سائر أخلاقه صلى الله عليه وسلم !

وكيف لا يكون صاحبَ الخُلق العظيم وقد تخلّق بالقرآن العظيم ! كما ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها سُئلت عن خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : (كان خُلقه القرآن : يغضب لغضبه ، ويرضى لرضاه) رواه مسلم وأبو داود .

وروى ابن أبي شيبة عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عن خُلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : (كان أحسنَ الناسِ خُلُقاً ، كان خُلُقه القرآن : يرضى لرضاه ويغضب لغضبه ، لم يكن فاحشاً ولا متفحّشاً ، ولا صخّاباً في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح) .

ثم قرأت : إقرأ : (قد أفلح المؤمنون ..) إلى العشر الآيات ، فقرأ السائل ، فقالت : (هكذا كان خلقه صلى الله عليه وسلم) .

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ما كان أحدٌ أحسنَ خُلُقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما دعاه أحدٌ من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال : (لبيك) فلذلك أنزل الله تعالى : (وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم)[1] .

وعن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أن رجلاً نادى النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً ، كلُّ ذلك يردُّ عليه : (لبّيك لبيّك)[2] .

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو المثل الأكمل في الخَلق والخُلُق

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناس وجهاً ، وأحسنهم خُلُقاً) .

---

[١] رواه ابن مردويه وأبو نعيم بسند ضعيف اهـ من (شرح الزرقاني) ٤ : ٢٤٥

[٢] قال في (مجمع الزوائد) : رواه أبو يعلى في (الكبير) عن شيخه جبارة بن المغلس ، وثقه ابن نمير ، وضعفه الجمهور ، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح اهـ ٩ :٢٠

فهو صلى الله عليه وسلم أجمل خلق الله تعالى خَلقاً ، وأكملهم خُلُقاً ، بل هو فيّاض المكارم والكمالات على العالم .

ففي (مسند) أحمد وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بُعثتُ لأتمّم صالحَ الأخلاق) .

وروى الإمام مالك في الموطأ بلاغاً أنه صلى الله عليه وسلم قال : (بُعثتُ لأتمّم مكارم الأخلاق) قال الإمام أبو القاسم رضي الله عنه : وإنما كان خُلُقه عظيماً لأنه لم يكن له صلى الله عليه وسلم هِمّة سوى الله تعالى .

فقد جمع صلى الله عليه وسلم مكارم الأخلاق التي جاءت بها الأنبياء قبله ، وجاء بها كلّها ، وزادهم كمالاً على الكمال ، وجمالاً فوق جمال .

ولقد أثنى الله تعالى على حبيبه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بعظيم خُلُقه ، وكمال أدبه وفضله ، في التوراة والإنجيل وسائر الكتب الإلهية ، كما أثنى عليه ومدحه بعظيم خُلُقه ، وكمال أدبه وفضله ، في القرآن العظيم .

روى البخاري عن عطاء بن يسار قال : لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما ، فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة

فقال : (أجل إنه صلى الله عليه وسلم لموصوفٌ في التوراة ببعض صفته في القرآن :

يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً ، وحرزاً للأمّيّين ، أنت عبدي ورسولي ، سمّيتك المتوكّل ، ليس بفظّ ولا غليظ ، ولا صخّاب[1] بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به

---

[1] الصخب والسخب : الصياح واضطراب الأصوات للخصام .

الملّة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويفتح به أعيناً عُمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقُلوباً غُلفاً [1]) .

وعن وهب بن منبّه : أوحى الله تعالى إلى نبيّ من بني إسرائيل ، يقال له شعياء ، أن قُم في بني إسرائيل فإني سأطلق لسانك بوحي ، فقام فقال :

(يا سماء اسمعي ، ويا أرض أنصتي ، فإن الله تعالى يريد أن يقضي شأناً ، ويدبّر أمراً ، وهو منفّذه :

إنّه يريد أن يبعث أمّياً من الأمّيين ، ليس بفظّ ولا غليظٍ ، ولا صخّاب في الأسواق .لو يمرّ على السراج لم يطفئه من سكينته ، ولو يمشي على القصب واليابس لم يُسمع من تحت قدميه .

أبعثه بشيراً ونذيراً ، لا يقول الخنا [2] ، أفتحُ به أعيناً عُمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقلوباً غُلفاً ، وأسدّده بكل أمر جميل ، وأهبُ له كل خُلُقٍ كريم .

وأجعل السكينة لباسه ، والبرّ شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خُلُقه ، والحقّ شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملّته ، وأحمد اسمه .

وأعرّف به بعد النكرة ، وأكثّر به بعد القلّة ، وأغني به بعد العَيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين أمم متفرقة ، وقلوب مختلفة ، وأهواء مشتّتة ، وأستنقذ به فئاماً من الناس عظيماً من الهَلَكة .

وأجعل أمّته خير أمّة أخرجت للناس : يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، موحّدين مؤمنين ، مخلصين ، مصدّقين بما جاءت به الرسل [3])

---

[1] أي : يفتح قلوباً مغشاة مغطاة بظلمتها ، فيفتحها بنور الإيمان الذي جاء به صلى الله عليه وسلم .

[2] الخنا : هو الفحش في القول .

[3] أورده الحافظ ابن كثير في (تفسيره) ، وعزاه لابن أبي حاتم ، وأورده القسطلاني في (المواهب) وعزاه لابن إسحاق .

كمال لطفه ولين عريكته صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) الآية .

كان صلى الله عليه وسلم ليّن الجانب ، سهل الخُلُق ، حسن المعاشرة مع الأهل والأصحاب وسائر الناس ، يعطي جليسه حظاً كبيراً من الانبساط والملاطفة وحسن المقابلة .

روى الترمذي عن عليّ رضي الله عنه أنه كان إذا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (أجود الناس صدراً ، وأصدقهم لهجةً ، وألينهم عريكةً ، وأكرمهم عشرةً ..) الحديث .

وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : (لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحّشاً ، وكان يقول : (إنّ من خياركم أحاسنكم أخلاقاً))

ومن لطفه صلى الله عليه وسلم أنه ما كان يقابل أحداً بما يكره :فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم سبّاباً ، ولا فاحشاً ، ولا لعّاناً ، وكان يقول لأحدِنا عن المعتَبة : (مالَهُ تَرِبت جبينُه !)) .

بل كان صلى الله عليه وسلم أشدّ الناس لطفاً :

روى أبو نعيم في (الدلائل) عن أنس رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدّ الناسِ لطفاً ، والله ما كان يمتنعُ في غداةٍ باردةٍ من عبدٍ ولا أمة تأتيه بالماء ، فيغسل وجهه صلى الله عليه وسلم بالماء وذراعيه .

وما سأله سائلٌ قط إلا أصغى إليه ، فلا ينصرف صلى الله عليه وسلم حتى يكون هو – أي : السائل – الذي ينصرف عنه .

وما تناول أحدٌ يده قطّ إلا ناوله إيّاها ، فلا ينزع صلى الله عليه وسلم يدَه حتى يكونَ الرجل هو الذي ينزعها منه) .

انبساطه صلى الله عليه وسلم مع الأهل وذوي القربى

روى مسلم في (صحيحه) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال : استأذن عمر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نساء[1] من قريش يكلّمنه ويستكثرنَه [2] ، عاليةً أصواتُهنّ – فلمّا استأذنَ عمر قُمن يبتدِرنَ الحجاب [3]

، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ، فقال عمر : أضحكَ الله سنّك يا رسول الله [4] ؟ .

فقال صلى الله عليه وسلم : (عجبتُ من هؤلاء اللّاتي كنّ عندي ، فلمّا سمعنَ صوتك ابتدرن الحجاب) فقال عمر : فأنت يا رسول الله أحقُّ أن يهبنَ ، ثم قال عمر : أي عدوّات أنفُسهنّ أتهبنني ولا تهبنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟!

قلنَ : نعم أنت أغلظ وأفظّ [5] .

فقال صلى الله عليه وسلم : (والذي نفسي بيده ما لقيكَ الشيطانُ قطُّ سالِكاً فجّاً إلا وسلك فجّاً غير فجّك)[1]

---

[1] قال الحافظ ابن حجر : أي : نسوة من أزواجه صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن يكون معهن غيرهن – أي : من أقاربه المحارم .

[2] قال الإمام النووي في شرحه : قال العلماء : معنى يستكثرنه : يطلبن كثيراً من كلامه وجوابه بحوائجهن وفتاويهن . وقوله : (عالية أصواتهن) قال القاضي عياض : يحتمل أن هذا من قبل النهي عن رفع الصوت فوق صوته صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن علو أصواتهنّ إنما كان باجتماعهنّ ، لا أن كل واحدة بانفرادها صوتها أعلى من صوته صلى الله عليه وسلم اهـ

[3] أي : لأن عمر هو بالنسبة إليهنّ أجنبي ، فيجب الاحتجاب منه ، وفي هذا دليل مشروعية حجاب المرأة بالنسبة للأجنبي عنها حتى الوجه ، فإنه يجب ستره أيضاً .

[4] أي : أدام الله فرحك الموجب لبروز سنك وظهور نورك ، ولكن لابد له من سبب ، وظهور أمر عجب ، فأطلعني عليه ، وشرفني بالإشارة إليه اهـ من (المرقاة) .

[5] أي : أنت يا عمر كثير الغلظة والفظاظة ، بخلافه صلى الله عليه وسلم ، فإنه لين الجانب كثير الرفق . قال الإمام النووي : قال العلماء : وليست لفظة (أفعل) هنا للمفاضلة ، بل هي بمعنى فظ غليظ اهـ

كريم عشرته وحسن معاملته صلى الله عليه وسلم مع زوجاته وسائر أهله

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كريمَ العِشرة مع زوجاتِه وسائر أهله ، يلاطفهنّ ويمازحهنّ ، ويعاملهنّ بالودّ والإحسان .

روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (خيركُم خيركُم لأهلِه ، وأنا خيركم لأهلي) وزاد ابن عساكر في روايته : (ما أكرمَ النّساء إلا كريم ، ولا أهانهُنّ إلا لئيم) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنّ من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً ، وألطفهم بأهلِه) رواه الترمذي .

وروى الحاكم – وقال صحيح الإسناد – عن ابن عباس أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : (خيركُم خيركُم للنساء) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أكملُ المؤمنين إيماناً : أحسنُهم خُلُقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم) رواه الترمذي وقال : حسن صحيح .

وروى ابن سعد عن عائشة رضي الله عنها أنها سُئلت : كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا في بيته ؟

فقالت : (كان ألينَ الناس ، بسّاماً ضحّاكاً ، لم يُرَ قطُّ ماداً رجليه بين أصحابه صلى الله عليه وسلم) – وذلك لعظيم أدبه وكمالِ وقاره - .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : خرجتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره وأنا جارية – أي : حديثة السنّ – لم أحمل اللحم ولم أبدُن ، فقال للناس : (تقدّموا) فتقدّموا .

ثم قال لعائشة رضي الله عنها : (تعالي حتى أسابقَك) فسابقتُه صلى الله عليه وسلم فسبقته .

---

[1] الفج : هو الطريق الواسع ، ويطلق على المكان بين الجبلين .

فسكتَ عني ، حتى حملتُ اللحم وبدُنتُ وسمنتُ ، فخرجتُ معه صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره ، فقال صلى الله عليه وسلم : (تقدّموا) فتقدّموا ، ثم قال : (تعالي أسابقكِ) .

قالت عائشة رضي الله عنها : فسبقني ، فجعل يضحك صلى الله عليه وسلم ويقول : (هذه بتلك)[1] رواه أبو داود وأحمد .

وكان صلى الله عليه وسلم يعاونُ أهلَه في الأمور البيتية :

روى البخاري عن الأسود قال : سألتُ عائشة رضي الله عنها : ما كان النبي يصنع في أهله ؟

فقالت : كان في مهنة أهله ، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة .

وفي هذا تنبيه للأمة أن يسيروا على هذا الكمال ، ولا يكونوا من جبابرة الرجال ، خاصة مع الأهل والعيال .

ولقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء خيراً في مناسبات متعددة ، وفي مجتمعات خاصة وعامة .

ففي (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (استوصوا بالنساء ..) الحديث .

وفي (سنن الترمذي) وابن ماجه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في خطبته يوم حجة الوداع : (ألا فاستوصوا بالنساء خيراً ..) الحديث .

استماعه صلى الله عليه وسلم إلى حديث الزوجات بالملح والفكاهات تأنيساً لهنّ وملاطفة

---

[1] يعني أني سبقتك في هذه المرة الثانية ، في مقابل سبقتك تلك المرة الأولى ، وأراد بذلك أن لا تحزن .

روى الشيخان والترمذي – واللفظ له – عن عائشة رضي الله عنها قالت : جلست إحدى عشرة امرأة فتعاهدنَ وتعاقدنَ أن لا يكتُمنَ من أخبار أزواجهنّ شيئاً [1] .

فقالت الأولى : زوجي لحم جملٍ غثٍّ ، على رأس جبل وعر ، لا سهل فيُرتقى ، ولا سمين فيُنتقل [2] .

قالت الثانية : زوجي لا أبثُّ خبرَه ، إني أخاف أن لا أذَرَه ، إن أذكره أذكر عُجره وبُجرَه [3] .

قالت الثالثة : زوجي العشنَّق [4] ، إن أنطِق أطلّق ، وإن أسكُت أعلّق .

قالت الرابعة : زوجي كليل تِهامة [5] ، لا حرّ ولا قرّ ، ولا مخافة ولا سآمة

قالت الخامسة : زوجي إن دخل فَهِد ، وإن خرج أسِد ، ولا يسأل عما عهِد[6]

قالت السادسة : زوجي إن أكل لفّ ، وإن شرب اشتفّ ، وإن اضطجع التفّ ، ولا يولج الكفّ ليعلم البثّ [1] .

---

[١] أي : على أن لا يخفين شيئاً من أخبار أزواجهنّ : مدحاً أو ذمّاً ، بل يذكرن جميع ذلك .

[٢] تعني : أنها تشبه زوجها في ردائته بلحم جمل غث – أي : شديد الهزال – كائن على رأس جبل وعر – أي : صعب الوصول إليه – والمقصود : أن زوجها متكبر سيء الخلق ، لا يوصل إليه إلا بمشقة ، ولا ينفع زوجته في عشرة ولا في غيرها .

[٣] أي : لا أنشر ولا أظهر خبره – ثم علّلت ذلك بقولها : إني أخاف أن لا أذره – أي : إني أخاف أن لا أتركه – يعني : أنها تخاف من ذكره أن يطلقها ويترتب على ذلك الشقاق والفراق ، وضياع الأطفال ، وقيل : المعنى إني أخاف أن لا أذره بعد الشروع في خبره ، والمراد بالعجر والبجر : عيوبه الظاهرة والخفية .

[٤] هو السيء الخلق ، السفيه .

[٥] تهامة : هي مكة المكرمة وما حولها من الأغوار ، والمقصود من هذا التشبيه أن تصف زوجها بكمال الاعتدال في أموره ، وسهولة أخلاقه – كما في (حاشية البيجوري) .

[٦] تعني أنه كالأسد في الحروب ، في قوته وشجاعته ، ولا يسأل عما عهد – أي : عما علم في بيته من الطعام والشراب وغيرهما ، لجوده وكرمه (انظر حاشية البيجوري).

قالت السابعة : زوجي عَياياء – أو غياياء – طباقاء ، كل داءٍ له داء ، شجّكِ أو فلّك ، أو جمع كلا لك [2] .

قالت الثامنة : زوجي المسُّ مسُّ أرنب ، والريح ريحُ زرنَب[3] .

قالت التاسعة : زوجي رفيعُ العماد [4] ، طويل النّجاد[5] ، عظيم الرماد[6] ، قريب البيتِ من الناد[7] .

قالت العاشرة : زوجي مالكٌ ، وما مالك ؟ مالك خير من ذلك : له إبل كثيرات المبارك ، قليلات المسارح ، إذا سمعنَ صوتَ المِزهر ، أيقنّ أنهنّ هوالك[8]

قالت الحادية عشرة : زوجي أبو زرع ، وما أبو زرع ؟ أناسَ من حُليّ أذُنيّ [1] ، وملأ من شحمٍ عضديَّ[10] ، وبجّحني فبجِحت إليّ نفسي[9]

---

[1] أي : إن أكل أو شرب لم يبق بقية لعياله ، ولا يتفقد حال أهله إذا مرضن أو اشتكين – وقيل غير ذلك . كما في (حاشية البيجوري)

[2] أي : إن ضربك جرحك ، أو فلك : أي : كسرك ، أو جمعهما لك .

[3] فهي تمدحه بأن مسه كمس الأرنب في اللين والنعومة ، وبأنه طيب الرائحة كريح الزرنب : وهو نوع نبات رائحته طيبة .

[4] كناية عن علو حسبه وشرف نسبه .

[5] تصفه بطول القامة ، والنجاد : حمائل السيف ، فالطويل يحتاج إلى طول حمائل سيفه – والعرب تمدح بذلك .

[6] تصفه بالجود ، وكثرة الضيافة من اللحوم والخبز ، فيكثر وقوده فيكثر رماده .

[7] النادي والندي : مجلس القوم ، فهي تصف زوجها بالكرم ، لأنه لا يقرب البيت من النادي إلا من صفته الكرم ، كما في شرح النووي

[8] تعني أن له إبلاً كثيراً ، فهي باركة بفنائه ، لا يوجهها تسرح إلا قليلاً قدر الضرورة ، فإذا نزل به الضيفان كانت الإبل حاضرة ، فيقريهم من ألبانها ولحومها ، ويضرب لهم المزهر والمعازف ، فإذا سمعت الإبل أصوات المزهر علمت أنه قد جاءه الضيفان وأنهنّ منحورات هوالك اهـ من شرح النووي .

[9] أي : فرحني ففرحتُ ، وعظمني فعظمت عندي نفسي .

[10] المعنى : أنها سمنت عنده وامتلأت شحماً .

[1] قال الإمام النووي : ومعناه حلاّني قرطة وشنوفاً ، فهي تنوس – أي : تتحرك – لكثرتها .

وجدني في أهل غنيمةٍ بِشقٍ ، فجعلني في أهل صهيل وأطيط ، ودائس ومُنقّ [1] ، فعنده أقول فلا أقبّح ، وأرقد فأتصبّح ، وأشربُ فأتقمّح [2] .

أمُّ أبي زرع ، فما أمُّ أبي زرع ؟ عكومها ردَاح [3] ، وبيتها فَساح .

ابن أبي زرع ، فما ابن أبي زرع ؟ مضجَعه كمَسلّ شطبة ، وتُشبعه ذراع الجفرة[4] .

بنت أبي زرع ، فما بنتُ أبي زرع ؟ طوع أبيها وطوع أمّها ، وملء كسائها ، وغيظ جارتها .

جارية أبي زرع ، فما جارية أبي زرع ؟ لا تبثُّ حديثنا تبثيثاً[5] ، ولا تنقثُ ميرتنا[6] تنقيثاً ، ولا تملأ بيتنا تعشيشاً [7] .

قالت أم زرع : خرج أبو زرع والأوطاب تُمخض [8] ، فلقي امرأة معها ولدان لها كالفهدين ، يلعبان من تحت خصرها برمانتين ، فطلّقني ونكحها .

---

[1] الصهيل : صوت الخيل ، والأطيط : صوت الإبل ، والمعنى : أنه وجدها في أهل غنم قليلة ، فهم في ضيق عيش ، فحملها إلى أهل خيل وإبل وبقر ، تدوس الزرع في بيدره لتخرج الحب من السنبل . ومنق : بفتح النون وتشدسد القاف ، وهو الذي ينقي الحب وينظفه من التبن بعد الدوس ، وروي منق بكسر النون من نقت الدجاجة إذا صوتت – كما في (حاشية البيجوري على الشمائل)

[2] والمعنى : تشرب حتى تروى ، وتدع الشراب من شدة الري .

[3] العكوم : الأعدال ، جمع عكم ، والرداح : العظيمة – والمعنى : أن أعدالها وأوعية طعامها عظيمة ثقيلة .

[4] قال الإمام النووي : الجفرة بفتح الجيم ، الأنثى من أولاد المعز ، وقيل من الضأن ، وهي ما بلغت أربعة أشهر وفصلت عن أمها ، والمراد : أنه قليل الأكل – والعرب تمدح به اهـ

[5] أي : لا تشيع حديثنا ، بل تكتم سرّنا وحديثنا كله .

[6] الميرة هي الطعام المجلوب – ومعناه : لا تفسد وتفرقه ، ولا تذهب به فهي أمينة .

[7] والمعنى : أنها مصلحة للبيت معتنية بتنظيفه .

[8] الأوطاب : أسقية اللبن ، وتمخض : تحرك لاستخراج الزبد من اللبن .

فنكحتُ بعده رجلاً سَرِياً [1] ، ركب شريّاً [2] ، وأخذ خطياً[3] ، وأراحَ عليّ نِعماً نِعماً ثرياً[4] ، وأعطاني من كل رائحة زوجاً[5] ، وقال : كلي أمّ زرعٍ ، وميري وميري أهلكِ ، فلو جمعتُ كل شيءٍ أعطانيه ما بلغَ أصغرَ آنية أبي زرعٍ .

قالت عائشة رضي الله عنها : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كنتُ لكِ كأبي زرعٍ لأمّ زرعٍ) .

وجاء في رواية الهيثم بن عدي : (كنتُ لكِ كأبي زرعٍ لأم زرعٍ ، في الألفة والوفاء ، لا في الفرقة والجلاء) .

وزاد الطبراني في روايته : (إلّا أنه طلّقها ، وإني لا أطلّقكِ) .

وزاد النسائي والطبراني : قالت عائشة رضي الله عنها : (يا رسول الله صلى الله عليه وسلم بل أنت خيرٌ من أبي زرعٍ).

وفي رواية النسائي : أنه صلى الله عليه وسلم هو الذي ابتدأ الحديث ، فقال لعائشة رضي الله عنها : (كنتُ لكِ كأبي زرعٍ لأمّ زرعٍ) .

فقالت رضي الله عنها : بأبي أنتَ وأمّي يا رسول الله ، ومن كانَ أبو زرعٍ ؟

ففقال صلى الله عليه وسلم : (اجتمع نساء ...) إلى تمام الحديث .

فانظر يا أخي في حسنِ عِشرته صلى الله عليه وسلم ، وكريمِ خُلُقه مع أهله ، حيث أصغى إلى حديث عائشة رضي الله عنها ، وهي تحدّثه عن قصةٍ وقعت في الجاهلية ، من نساءٍ اجتمعنَ وتعاقدنَ على أن تخبر كل واحدةٍ منهنّ عن مواقف زوجها معها ، من حيث الأخلاقُ والمعاملةُ والمعاشرة ! .

---

[1] أي : من سراة الناس وأشرافهم

[2] أي : فرساً يستشري في سيره ، ويمضي بلا فتور .

[3] الخطي : الرمح .

[4] أي : كثيرة ، من : الثروة في المال ، وهي كثرته .

[5] أي : من كل ما يروح من الإبل والبقر والغنم ، أعطاها زوجاً : أي : اثنين ، أو صنفاً كثيراً .

وقد قال العلماءُ : يؤخذ من هذا الحديث :

١- ندب حسن المعاشرة للأهل .

٢- وحلُّ السمر في خيرٍ ، كملاطفة زوجته ، وإيناس ضيفه .

٣- وجواز ذكر المجهول عند المتكلم والسامع بما يكره – فإنه ليس غيبة ، وغاية الأمر أن عائشة رضي الله عنها ذكرت نساء مجهولات ، ذكر بعضهنّ عيوب أزواج مجهولين ، لا يُعرفون بأعيانهم ، ولا بأسمائهم ، ومثل هذا لا يعدُّ غيبة – كما أوضح ذلك الإمام النووي في شرحه .

وفي (التراتيب الإدارية) : أخذ الأئمة من هذا الحديث جواز التحدُّث عن الأمم الماضية ، والأجيال البائدة ، وضرب الأمثال بهم ، لأنّ في سيرهم اعتباراً للمعتبر ، واستبصاراً للمستبصر ، واستخراجَ الفائدة للباحث المستكثر ، فإنّ في هذا الحديث خصوصاً إذا حُدّث به النساء منفعةً في الحضّ على الوفاء للبعولة .

قال القاضي عياض : وفيه – أي : في هذا الحديث – من الفقه : التحدُّث بملح الأخبار ، وطُرف الحكايات ، تسليةً للنفس [1] ، وجلاءٌ للقلب .

وهكذا ترجم أبو عيسى الترمذي عليه :

باب ما جاء في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم في السمر .

ثمّ قال – عياض - :

ويُروى عن أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه أنه قال : (سلُّوا هذه النفوس ساعةً بعد ساعة ، فإنها تصدأ كما يصدأُ الحديد) .

وقال أيضاً : (القلب إذا أُكره عَميَ) .

---

[1] كما دلّ عليه هذا الحديث من تسلية نفس السيدة عائشة رضي الله عنها .

ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول : (حَمّضوا – أي : إذا مللتم من الفقه فخذوا في الأشعار ، وأخبار العرب) .

قال : وهذا كلُّه ما لم يكن دائماً متّصلاً ، وأما أن يكون ذلك عادة الرجل حتى يُعرف به ، ويتخذه ديدناً ويُضحك به الناس فهذا مذموم غير محمود شرعاً .

قال : وللاهتمام بفوائد هذا الحديث وكثرة ما استنبط منه ، أفرده بالتصنيف كثير من العلماء المتقدّمين ، ثم ذكر أسماءهم اهـ باختصار .

كريم عشرته صلى الله عليه وسلم مع الناس كلّهم

جاء في (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه قال : (خدمتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم – وفي رواية أحمد : في السفر والحضر – عشرَ سنين – وفي رواية لمسلم : تسع سنين – فما قال لي أُفٍّ قطّ ، ولا قال لشيء صنعتُه : لمَ صنعتَه ؟ ولا لشيءٍ تركتُه : لمَ تركتَه) .

وفي رواية أبي نعيم : قال أنس : (فما سبّني صلى الله عليه وسلم قط ، ولا ضربني من ضربة ، ولا انتهرني ، ولا عبسَ في وجهي ، ولا أمرَ في أمر فتوانيتُ فيه فعاتبني عليه ، فإن عاتبني عليه أحدٌ من أهله قال : (دعوه ، لو قُدّرَ شيءٌ كان)) .

أدبه الرفيع مع من يحدّثه صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم يُصغي كلّ الإصغاء إلى من يحدّثه ، أو يسأله ، ويقبل عليه ويلاطفه :

روى أبو داود عن أنس رضي الله عنه قال : (ما رأيتُ رجلاً التقم أذنَ النبي صلى الله عليه وسلم – يعني يكلّمه سراً – فينحّي رأسه عنه ، حتى يكون الرجلُ هو الذي ينحّي رأسه ، وما رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيده رجل فترك يده ، حتى يكون الرجلُ هو الذي يدعُ يدَه) .

وفي (صحيح) مسلم عن قتادة في حديث نومهم عن صلاة الفجر ، وقد عطِشوا وتكابّوا على الماء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أحسنوا المَلأ [1] ، كلُّكم سيروى) ففعلوا - .

فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصبُّ .

قال أبو قتادة : وأنا أسقيهم حتى ما بقي غيري وغيرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : (اشرب) فقلتُ : لا أشربُ حتى تشربَ يا رسول الله ، فقال : (إنّ ساقيَ القوم آخرهم شرباً) قال : فشربتُ وشرب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حسن لقائه وكريم إقباله على جلسائه صلى الله عليه وسلم

عن أبي هريرة رضي الله عنه : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن أحدٌ يأخذ بيده فينتزع يده حتى يكون الرجل هو الذي يرسله .

ولم يكن يُرى ركبتيه – أو ركبته – خارجاً عن ركبة جليسه .

ولم يكن أحد يصافحه إلا أقبل عليه بوجهه ، ثم لم يصرفه عنه حتى يفرُغ من كلامه [2]) .

وعن عمرو بن العاص قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقبل بوجهه وحديثه على شرّ القوم ، يتألّفه بذلك ، وكان يُقبل بوجهه وحديثه عليّ حتى ظننتُ أني خير القوم فقلتُ : يا رسول الله أنا خير أم أبو بكر ؟

فقال : (أبو بكر) .

قلتُ : يا رسول الله أنا خير أم عمر ؟ قال : (عمر) .

---

[1] يقال : ما أحسنَ ملأ فلان ، أي : خلقه وعشرته ، قال ابن الأثير بعد ضبطه ، الملأ بفتح الميم واللام والهمزة ، وأكثر رواة الحديث يقرؤونها : أحسنوا الملء : - بكسر الميم وسكون اللام – من : ملأ الإناء – وليس بشيء .

[2] رواه البزار والطبراني بإسناد حسن ، كما في (مجمع الزوائد) ٩ : ١٥ ورواه ابن سعد في (الطبقات) وابن ماجه ، كما في (غذاء الألباب) .

قلتُ : يا رسول الله أنا خير أم عثمان ؟ قال : (عثمان) .

فلمّا سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم صدّ عني ، فوددتُ أني لم أكن سألتُه[1] .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا بعثَ بعثاً قال : (تألّفوا النّاس) الحديث [2]

بسامته وطلاقة وجهه مع الناس صلى الله عليه وسلم

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أطلقَ الناس وجهاً ، وأكثرهم تبسُّماً ، وأحسنهم بِشراً .

روى البزار بإسناد حسن عن جابر رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه الوحي ، أو وعظ قلتَ : نذير قوم أتاهم العذاب ، فإذا ذهب عنه ذلك رأيته أطلقَ الناس وجهاً ، وأكثرهم ضحكاً ، وأحسنهم بِشراً [3]) .

وتقدّم قولُ عائشة رضي الله عنها لما سئلت : كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا في بيتِه ؟

فقالت : (كان ألينَ الناس بسّاماً ضحّاكاً ، لم يُرَ قطُّ ماداً رجليه بين أصحابه)

ردُّه صلى الله عليه وسلم التحيةَ بأحسنَ منها

عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليك يا رسول الله .

فقال : (وعليك ورحمة الله) .

---

[١] رواه الترمذي في (الشمائل) ورواه الطبراني وإسناده حسن ، كما في (مجمع الزوائد) . قال : وفي الصحيح بعضه بغير سياقه اهـ ٩ : ١٥ .
[٢] كذا في (مجمع الزوائد) ٩ : ١٧
[٣] كذا في (مجمع الزوائد) ٩ : ١٧

ثم أتى آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله .

فقال صلى الله عليه وسلم : (وعليك ورحمة الله وبركاته)[1] الحديث .

ترحيبه صلى الله عليه وسلم بالقادم عليه

عن علي كرّم الله وجهه قال : استأذن عمار على النبي صلى الله عليه وسلم فعرف صوته فقال : (مرحباً بالطيّب المُطيّب)[2] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (أقبلت فاطمة تمشي كأنّ مِشيتَها مِشيَةُ النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم : (مرحباً بابنتي) ثم أجلسها عن يمينه أو شماله)[3]

وفي (الصحيحين) عن ابن عباس رضي الله عنهما لما قدم وفدُ عبد القيس على النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : (مرحباً بالوفد ، غير خزايا ولا ندامى ...) الحديث

وقال لعكرمة بن أبي جهل : (مرحباً بالراكب المهاجر) .

وقالت أم هانئ : ذهبتُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يغتسل ، فسلّمتُ عليه ، فقال : (من هذه ؟) قلتُ : أم هانئ ، فقال : (مرحباً بأمّ هانئ) .

سؤاله صلى الله عليه وسلم عن حال أصحابه بقوله : كيف أنت ؟ وكيف أصبحت

أخرج الإمام أحمد من حديث أنس رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يلقى الرجل فيقول : (يا فلان كيف أنت ؟) فيقول : بخير أحمد الله .

---

[1] قال في (الدر المنثور) : رواه أحمد في (الزهد) ، وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسند حسن .

[2] رواه الترمذي وابن ماجه والبخاري في (الأدب المفرد)

[3] رواه الترمذي وابن ماجه والبخاري في (الأدب المفرد)

فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم : (جعلكَ الله بخير)[1] .

وروى أبو يعلى بإسنادٍ حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : (كيف أصبحت ؟) .

فقال : بخيرٍ من قومٍ لم يعودوا مريضاً ، ولم يشهدوا جنازة ! .

وأخرج الطبراني بإسناد حسن عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل : (كيف أصبحتَ يا فلان ؟) .

فقال : أحمد الله إليك يا رسول الله .

فقال له صلى الله عليه وسلم : (ذلك الذي أردته منك) .

إكرامه صلى الله عليه وسلم كرام القوم

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمُ كريم القوم ويقول : (إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه)[2]

روى الطبراني عن جرير بن عبد الله البَجلي رضي الله عنه قال : لما بُعثَ النبي صلى الله عليه وسلم أتيتُه فقال : (ما جاء بك ؟) .

قلتُ : جئتُ لأسلم .

فألقى إليّ كساءَه وقال : (إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه) .

وفي رواية البزار : أتيتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم فبسط إليّ رداءَه وقال : (اجلس على هذا) فقلتُ : أكرمك الله كما أكرمتني ... وذكر الحديث .

---

[1] قال في (محمع الزوائد) : رجاله رجال الصحيح غير مؤمل بن إسماعيل ، وهو ثقة ، وفيه ضعف اهـ

[2] قال في (المقاصد الحسنة) : رواه ابن ماجه بسند ضعيف عن ابن عمر مرفوعاً ، ورواه أبو داود عن الشعبي مرسلاً بسند صحيح ، كما في (كشف الخفاء) وغيره .

وروى الحاكم بإسناده أن النبيّ صلى الله عليه وسلم دخل بعض بيوته ، فدخل عليه أصحابُه ، حتى غصّ المجلس بأهله وامتلأ ، فجاء جرير البجلي فلك يجد مكاناً ، فقعد على الباب .

فنزع رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءَه وألقاه إليه ، فأخذه جرير فألقاه على وجهه وجعل يقبّله ويبكي ، ورمى به إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال : (ما كنتُ لأجلس على ثوبك ، أكرمك الله كما أكرمتَني) .

فنظرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يميناً وشمالاً وقال : (إذا أتاكم كريم قومٍ فأكرموه)[1]

وعن عدي بن حاتم أنّه لما دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ألقى إليه وسادةً .

فقال عدي : (أشهدُ أنك لا تبغي علوّاً في الأرض ولا فساداً).

وأسلم عديّ بن حاتم ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا أتاكُم كريمُ قومٍ فأكرموه)[2]

وعن عبد الرحمن بن عبدٍ قال : قدمتُ على النبيّ صلى الله عليه وسلم في مائة رجلٍ من قومي

فذكر حديثاً فيه : أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أكرمه وأجلسه وكساه رداءه ، ودفع إليه عصاه ، وأنه أسلم .

فقال له رجل من جلسائه : إنا نراك يا رسول الله أكرمتَ هذا الرجل ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : (إنّ هذا شريف قومه ، وإذا أتاكم شريفُ قومٍ فأكرموه)[1]

---

[1] وبتعدد هذه الطرق يتقوى الحديث ، وإن كان في مفرداتها ضعف – كما في (المقاصد الحسنة)

[2] رواه العسكري بسند ضعيف ، كما في (المقاصد الحسنة ، وكشف الخفاء) .

ويؤيد هذا ما رواه ابن عمر وأبو هريرة في حديث : (وإذا كانت عندك كريمةُ قومٍ فأكرِمها)[2] .

ومن ذلك : إكرامه صلى الله عليه وسلم لأمير وفد عبد القيس وإجلاسُه عن يمينه صلى الله عليه وسلم وأمرُه صلى الله عليه وسلم بإكرام الوفد :

فعن شهاب بن عباد أنه سمع بعض وفد عبد القيس وهو يقولون :

قدِمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتدّ فرحُهم – أي : الصحابة – فلما انتهينا إلى القوم أوسعوا لنا ، فقعدنا ، فرحّب بنا النبي صلى الله عليه وسلم ودعا لنا ، ثم نظر إلينا فقال :

(من سيدُكم وزعيمُكم ؟) .

فأشرنا جميعاً إلى المنذر بن عائذ .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (أهذا الأشجُّ ؟) .

قلنا : نعم يا رسول الله – فتخلّف بعد القوم فعقل رواحلهم وضمّ متاعَهم ، ثمّ أخرج عيبته – أي : ما يوضع فيه المتاع – فألقى عنه ثياب السفر ولبس من صالح ثيابه ، ثم أقبل على النبي صلى الله عليه وسلم وقد بسط النبي صلى الله عليه وسلم رجله واتّكأ ، فلما دنا منه الأشجُّ أوسع القومُ له وقالوا : ههنا يا أشجّ .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم واستوى قاعداً وقبض رجله : (ههنا يا أشجُّ) فقعد عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم – فرحّب به وألطفه ، وسأله عن بلادهم ، وسمى له صلى الله عليه وسلم قريةً قرية : الصفا والمشقر وغير ذلك من قرى هجَر .

---

[1] عزاه في (المقاصد) إلى الدولابي .
[2] انظر (كشف الخفاء) ، وفي هذه الأحاديث تنبيه للأزواج أن يحتفظوا بكرامة زوجاتهنّ ، وعلى الأخص بنات الكرام ، وتقدم الحديث الذي رواه ابن عساكر عنه صلى الله عليه وسلم قال : (ما أكرمَ النساء إلا كريم ، ولا أهانهنّ إلا لئيم)

فقال الأشجّ : بأبي أنت وأمي يا رسول الله لأنت أعلمُ بأسماء بلادنا منا !

فقال صلى الله عليه وسلم : (إني وطئتُ بلادكم وفُسح لي فيها) .

قال : ثم أقبل صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال : (يا معشر الأنصار أكرموا إخوانكم فإنهم أشباهُكم في الإسلام ، أشبه شيءٍ أشعاراً وأبشاراً ، أسلموا طائعين غير مكرَهين ولا موتورين – أي : مصابين بمصيبة – إذ أبى قومٌ أن يُسلموا حتى قُتلوا) قال فلمّا أصبحوا قال صلى الله عليه وسلم : (كيف رأيتم كرامة إخوانكم لكم وضيافتهم إيّاكُم ؟) . قالوا : خير إخوان : ألانوا فرشنا ، وأطابوا مطعمنا ، وباتوا وأصبحوا يعلموننا كتابَ ربنا تبارك وتعالى ، وسنّة نبيّنا صلى الله عليه وسلم - فأعجب النبي صلى الله عليه وسلم وفرح .

قال الحافظ المنذري : هذا الحديث بطوله رواه أحمد بإسناد صحيح اهـ

وفي هذا ينجلي لك كريم طبعه صلى الله عليه وسلم ، وطيبُ نفسه ، وكمال خصلته ، وحسنُ طويّته صلى الله عليه وسلم .

فإنّ النفوس اللئيمة في طبعها تُحبُّ أن تحتقرَ كرامةَ الكرام ، وأن تنتقص من جانبها ، ونسأل الله العافية .

مباسطته صلى الله عليه وسلم لجلسائه واتّساعه لهم

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبسُط لجلسائه بساطَ الانطلاق الشرعيّ المباح : القال والحال ، دون أن يقبضهم بحاله ، أو يكبتهم بقاله ، فإذا تحدّثوا بأمرٍ شاركهم في حديثهم ما لم يكن إثماً :

فعن خارجة بن زيد أن نفراً دخلوا على أبيه زيد بن ثابت رضي الله عنه فقالوا : حدّثنا ببعض حديث النبي صلى الله عليه وسلم .

فقال : (وما أحدّثكم ؟! كنتُ جارَه صلى الله عليه وسلم ، فكان إذا نزل عليه الوحي بعثَ إليّ فآتيه ، فأكتب الوحي ، فكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ،

وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا ، كلُّ هذا أحدّثكم عنه صلى الله عليه وسلم [1]) .

وروى الإمام أحمد عن جابر بن سُمرة رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلَ الصمت ، قليلَ الضّحِكِ ، وكان أصحابه يذكرون عنده الشعر وأشياء من أمورهم – في الجاهلية – فيضحكون ، وربّما تبسّمَ معهم [2])

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متخرّقين – أي : متقبّضين – ولا متماوتين [3] ، وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم ، ويذكرون أمر جاهليتهم ، وإذا أريد أحد منهم على شيء من أمر الله تعالى دارت حماليق عينيه كأنه مجنون [4]) .

وفي (النهاية) : لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متخرّقين – أي : متقبّضين ومجتمعين – ولا متماوتين .

يقال : تماوت الرجل ، إذا أظهر من نفسه التخافت والتضاعف من العبادة والزهد والصوم اهـ .

والمراد : أنهم ما كانوا منكمشين على نفوسهم ومنقبضين ، بل كانوا منبسطين ومنطلقين .

وروى مسلم عن سِماك بن حرب قال : قلتُ لجابر بن سمرة رضي الله عنه : أكُنتَ تجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

---

[١] رواه الترمذي في (الشمائل) والبيهقي ، وقال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني بإسناد حسن اهـ

[٢] وروى الترمذي نحوه .

[٣] أي : بل كانوا في قوة ونشاط وعزيمة .

[٤] أي : من شدة الغضبة لدين الله تعالى ، وهذا الحديث رواه البخاري في (الأدب المفرد) ، ورواه ابن أبي شيبة .

فقال جابر : (نعم كثيراً ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقوم من مصلاّه الذي يصلي فيه الصبح حتى تطلُع الشمس ، فإذا طلعت قام ، وكانوا يتحدّثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ، ويتبسّم صلى الله عليه وسلم) .

مزاحه صلى الله عليه وسلم مع جلسائه وإدخال المسرّة عليهم

كان صلى الله عليه وسلم يمزح مع أصحابه لإدخال السرور عليهم ، ليباسطهم ، وليهتدوا بهديه ، ويتخلّقوا بأخلاقه ، فلو أنه صلى الله عليه وسلم ترك الطلاقة مع أصحابه والمباسطة معهم ، ولزم العبوس والانقباض لألزم الصحابةُ أنفسهم بذلك ، وكذلك التابعون من بعدهم ، فمزح صلى الله عليه وسلم ليمزحوا ، ولكنه صلى الله عليه وسلم بيّن لهم أنه لا يقول في مزاحه إلا حقّاً ، فلا يأتي بباطل ولا بعبث أو لعب .

روى البخاري في (الأدب المفرد) والبيهقي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لستُ من ددٍ [1] ولا الدّدُ مني) .

اي : لست من أهل اللعب واللهو ، ولا هما مني .

وقد رواه الطبراني والبزار عن أنس بزيادة : (ولستُ من الباطل ، ولا الباطل مني) كما في (شرح الموهب) .

وفي (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه قال : إن كان النبي صلى الله عليه وسلم ليخالطنا – أي : ليلاطفنا ويمازحنا – حتى يقول لأخٍ لي (يا أبا عُمير ما فعل النُّغير) ورواه الترمذي وقال : وفِقه هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمازح ، وفيه : أنه صلى الله عليه وسلم كنّى غلاماً صغيراً فقال له : يا أبا عُمير ، وفيه : أنه لا بأس أن يُعطى الصبيُّ الطيرَ ليلعبَ به – أي : بشرط ألا يعرّضه لتعذيبٍ أو جوعٍ أو عطشٍ - . وإنما قال

[1] بفتح الدال الأولى ، وكسر الثانية – والمعنى أنه لا يصدر منه صلى الله عليه وسلم إلا الأمر الجد ، والقول الحق .

له النبي صلى الله عليه وسلم : (يا ابا عُمير ، ما فعل النغير ؟) – أي : الطير – لأنه كان له نغير يلعب به فمات ، فحزن عليه ، فمازحه النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : (يا ابا عُمير ما فعل النغير)[1] .

وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه أنّ رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهراً ، وكان يُهدي إلى النبي صلى الله عليه وسلم هديةً من البادية ، فيجهّزه النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج إلى البادية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (إنّ زاهراً باديتُنا ونحن حاضروه)

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يُحبُّه ، وكان زاهرٌ رجلاً دميماً ، فأتاه النبيُّ صلى الله عليه وسلم يوماً وهو يبيع متاعَه ، فاحتضنه من خلفه وهو لا يُبصره .

فقال زاهر : من هذا ؟ أرسِلني .

فالتفتَ زاهر فعرف النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل لا يألو ما ألصقَ ظهرَه بصدر النبي صلى الله عليه وسلم حين عرفه .

فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (من يشتري هذا العبد ؟) .

فقال : يا رسول الله إذاً والله تجدني كاسداً .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (لكن عند الله لستَ بكاسد) أو قال : (أنتَ عند الله غالٍ)

وفي (سنن) أبي داود عن عوف بن مالك الأشجعي قال : أتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، وهو في قبة من أدم – صغيرة –

---

[1] قال في (الجزء الثاني من التراتيب) : قد أكثر الناس من استنباط الأحكام من هذا الحديث ، وزاد أبو العباس ابن القاص من الشافعية على مائة فائدة ، وأفردها في جزء ، ونقل عن ابن الصباغ أنه أملى في درسه على حديث (يا أبا عمير ، ما فعل النغير ؟) أربعمائة فائدة اهـ

فسلّمتُ فردّ وقال : (ادخل) فقلتُ : أكُّلي يا رسول الله ؟ قال : (كلُّك) فدخلتُ .

ومن جملة ما ورد في مزاحه صلى الله عليه وسلم :

ما ورد عن أنس رضي الله عنه : أن رجلاً أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم يستحمله – أي : يطلب منه دابةً - .

فقال له صلى الله عليه وسلم : (إني حاملُك على ولد الناقة) .

فقال : يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة [1] ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : (وهل يلِد الإبل إلا النوق ؟) .

وجاءت امرأة فقالت : يا رسول الله احملني على بعير .

فقال : (احمِلها على ابن بعير) .

فقالت : ما أصنع به ؟ وما يحملني يا رسول الله !

فقال صلى الله عليه وسلم : (وهل يجيء بعير إلا ابن بعير)[2] .

وروى ابن بكار عن زيد بن أسلم أنّ امرأة يقال لها أم أيمن الحبشية ، جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إنّ زوجي يدعوك .

فقال : (من هو ؟ أهو الذي بعينيه بياض ؟) .

فقالت : ما بعينه بياض .

فقال : (بلى بعينيه بياض) .

فقالت : لا والله .

---

[1] فتوهم الرجل أنه صلى الله عليه وسلم سيحمله على ولد ناقة صغير .

[2] رواه الترمذي وأبو داود وأحمد وغيرهم . قال العلامة الزرقاني : قتعددت الواقعة بالنسبة للرجل والمرأة .

فقال صلى الله عليه وسلم : (ما من أحدٍ إلا بعينيه بياض) أي : البياض المحيط بالحدقة .

ومن ذلك ممازحته صلى الله عليه وسلم للمرأة العجوز :

روى الترمذي عن الحسن البصري رضي الله عنه قال : أتت عجوزٌ النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ادعُ الله أن يُدخلني الجنة .

فقال : (يا أمّ فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز) .

قال : فولّت – أي : ذهبت – وهي تبكي .

فقال صلى الله عليه وسلم : (أخبروها أنها لا تدخُلها وهي عجوز ، إنّ الله تعالى يقول : (إنّا انشأناهنّ إنشاءً ، فجعلناهنّ أبكاراً عُرباً أتراباً [1])) .

فهذه الأحاديث تدل على ممازحته صلى الله عليه وسلم لمؤانسة المخاطب ، وتطييب نفسِه ، ولإدخال السرور عليه ، لأن المزاح هو الانبساط مع الغير من غير أذىً .

ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يتمازحون فيما بينهم ، كما جاء في (الأدب المفرد) عن بكر بن عبد الله قال : كان أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم يتبادحون بالبطّيخ ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال .

وفي (النهاية) لابن الاثير : وفي حديث بكر بن عبد الله : كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يتمازحون ويتبادحون بالبطّيخ ، يقال : بدَح يبدَح إذا رمى اهـ .

وأما ما ورد في الحديث من النهي عن المزاح كما في سنن الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا تُمارِ أخاكَ ولا تُمازحه ، ولا تعده موعداً فتخلفَه) : فهذا النهي محمولٌ على

[1] عرباً : جمع عروب ، وهي المفصحة عن محبة زوجها ، والأتراب : جمع ترب – والمراد : أنهنّ متساويات في سن واحدة

الإفراط في المزاح ، لما في ذلك من الشغل عن ذكر الله تعالى ، أو عن التفكير في مهمات الدين ، ولما فيه من قسوة القلب بكثرة الضحك ، بل إن كثرة المزاح تورث العداوة والأذى والحِقد ، وجراءة الصغير على الكبير .

وقد قال عمر رضي الله عنه : (من كثُرَ ضحكه قلّت هيبتُه ، ومن مزح استُخفّ به) اهـ . أي : بأن أكثر المزاح .

كما وأنّ النهي عن المزاح محمول على المزاح الذي فيه أذىً أو حزن للغير

وفي (سنن) أبي داود والترمذي عن عبد الله بن السائب عن أبيه عن جدّه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (لا يأخذن أحدُكم متاع أخيه لاعباً ولا جادّاً ، ومن أخذ عصا أخيه فليرُدّها) .

وروى أبو داود عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : حدّثنا أصحاب محمدٍ صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يسيرون مع النبي صلى الله عليه وسلم فنام رجل منهم ، فانطلق بعضهم إلى حبلٍ معه فأخذه ، ففزع .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يحلُّ لمسلمٍ أن يروّع مسلماً)[1]

وفي يوم الخندق كان زيد بن ثابت ينقل التراب مع المسلمين فنعس ، فجاء عُمارة بن حزم فأخذ سلاحه وهو لا يشعر ، فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك

وروي عن عامر بن ربيعة رضي الله عنه أنّ رجلاً أخذ نعل رجل ، فغيّبها وهو يمزح ، فذُكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا تروّعوا المسلم ، فإنّ روعة المسلم ظلم عظيم) .

قال الحافظ المنذري : رواه البزار والطبراني وابن حبان .

---

[1] قال الزين العراقي بعد ما عزاه لأحمد والطبراني : حديث حسن اهـ من (فيض القدير)

فالمزاح مندوب إليه بين الإخوان والأصدقاء بما لا أذى فيه ، ولا ضرر ولا قذف ولا غيبة ولا شين : في عرض أو دين ، ولا استخفاف بأحد منهم .

وأما مزاح الرجل مع أهله وملاطفتهم بأنواع الملاطفة : فمطلوب ومحبوب ، وهو من أخلاق النبيين ، ومن شعار المؤمنين :

قال عمر رضي الله عنه : (ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبيّ ، فإذا التُمِس ما عنده وجِد رجلاً) .

تبسّمه صلى الله عليه وسلم حين يلقى أصحابه وحين يحدّثهم

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يتبسّم في وجوه أصحابه حين يلقاهم ، وفي حديثه إليهم ، تلطّفاً بهم ومؤانسة لهم .

قال جرير بن عبد الله رضي الله عنه : (ما حجبني رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت[1]

، ولا رآني إلا تبسّم) رواه الترمذي .

وروى الإمام أحمد عن أم الدرداء رضي الله عنها قالت : (كان أبو الدرداء إذا حدّث حديثاً تبسّم) .

فقلتُ : (لا ، يقول الناس : إنك أحمق !) – أي : بسبب تبسُّمك في كلامك –

فقال أبو الدرداء : (ما رأيتُ أو سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدّث حديثاً إلا تبسّم)

فكان أبو الدرداء إذا حدّث حديثاً تبسّم ، اتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك .

حول ضحكه صلى الله عليه وسلم

---

[1] أي : ما منعني من الدخول إليه إذا كان في بيته ، واستأذنت عليه – كما في (الفتح) .

كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يبحثون عن أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وأحواله وآدابه ليتبعوه :

ومن ذلك : تتبعهم لأوصاف ضحكه صلى الله عليه وسلم ، وللأسباب التي كان يضحك من أجلِها ، وذلك لتتبين لهم الأسباب التي يجوز للمسلم أن يضحك من أجلها شرعاً ، وما لا يجوز الضحك منه شرعاً ، لأنّ الضحك منه ما يجوزُ شرعاً ومنه ما لا يجوز في الشرع ، ولا يُعرف ذلك إلا بالرجوع إلى الأصول الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد كان أكثر ضحكه صلى الله عليه وسلم التبسُّم :

روى الترمذي وغيره عن هند بن أبي هالة في حديثه يصف النبي صلى الله عليه وسلم ، قال فيه : (جُلُّ ضحكه التبسُّم ، يفترُّ عن مِثل حَبّ الغمام) .

والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم يضحك ضحكاً حسناً ، كاشفاً عن سنّ مثل حبّ الغمام – وهو البَرَد – في البياض والصفاء والبريق .

وعن عبد الله بن الحارث رضي الله عنه قال : (ما كان ضحك رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إلا تبسُّماً) رواه الترمذي .

وفي (سنن) أبي داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : (ما رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قطُّ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لَهَواتِه [1] ، إنما كان يتبسّم) الحديث .

وكان صلى الله عليه وسلم يضحك أحياناً حتى تبدو نواجذُه :

فعن عامر بن سعد قال : قال سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه :

لقد رأيتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم ضحك يوم الخندق حتى بدت نواجذه .

قال عامر : فقلتُ لسعد : كيف كان ضحِكه ؟

---

[1] جمع لهاة ، وهي اللحمة في أعلى الحلق من أقصى الفم .

فقال سعد : كان رجلٌ معه ترس ، وكان سعد رامياً ، وكان الرجلُ يقول كذا وكذا بالترس – يغطي جبهته ، فنزع له سعد بسهم ، فلما رفع – الرجل المشرك – رأسه رماه – سعد – فلم يخطئ هذه منه – يعني جبهته – وانقلب الرجل وشال برجله – فضحك النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذُه .

قال : قلت : من أيّ شيءٍ ضحك ؟

قال : من فِعله بالرجل . أي : فِعل سعدٍ بالرجل المشرك ، حيث إنه استهدفه حتى أصابه مع توقّيه بترسِه .

وروى مسلم في (صحيحه) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها ، وآخر أهل الجنة دخولاً الجنّة :

رجلٌ يخرجُ من النّار حَبواً ، فيقول الله تبارك وتعالى له : اذهب ، فادخل الجنّة . فيأتيها فيخيّل إليه أنها ملأى .

فيرجع فيقول : يا ربّ وجدتها ملأى .

فيقول الله تبارك وتعالى له : اذهب فادخل الجنّة .

قال : فيأتيها فيخيّل إليه أنها ملأى .

فيرجع فيقول : يا ربّ وجدتها ملأى .

فيقول الله : اذهب فادخل الجنة ، فإنّ لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها – أو : إن لك عشرةَ أمثال الدنيا - .

قال : فيقول : أتسخرُ بي – أو : أتضحكُ بي – وأنت الملِكُ ؟ !) .

قال : لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذُه – قال : فكان يقال : ذاك أدنى أهل الجنة منزلةً .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخر أهلِ النار خروجاً منها .

رجلٌ يؤتى به يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، وارفعوا عنه كِبارها ، فتعرض عليه صغار ذنوبه ، فيقال : عملتَ يوم كذا وكذا : كذا وكذا ، فيقول : نعم ، لا يستطيع أن ينكر ، وهو مشفِق من كبار ذنوبه أن تُعرض عليه .

فيقال له : فإنّ لك مكان كلّ سيئةٍ حسنةً ، فيقول : ربّ قد عملتُ أشياء لا أراها ها هنا !) .

فلقد رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذُه – رواه مسلم والترمذي في الشمائل واللفظ له .

وأخرج الإمام أحمد عن أم سلمة رضي الله عنها ، أن أبا بكر رضي الله عنه خرج إلى بُصرى ومعه النّعيمان وسُويبط بن حرملة رضي الله عنهما ، وكلاهما بدري ، وكان سويبط على الزّاد ، فقال له النعيمان : أطعمني ، فقال سويبط : حتى يجيء أبو بكر .

وكان النعيمان مِضحاكاً مزّاحاً ، فذهب إلى أناسٍ جلبوا ظهراً – أي : إبلاً – فقال لهم النعيمان : أتبتاعون – أي : تشترون – مني غلاماً – أي : عبداً – عربياً فارهاً ؟ - فِتيّاً .

قالوا : نعم .

فقال : إنه ذو لسان ، ولعله يقول : أنا حُر ، فإن كنتم تاركيه لذلك ، فدعوني لا تفسدوه عليّ .

فقالوا : بل نبتاعه – فابتاعوه بعشر قلائص – أي : نوق شابة – فأقبل ليسوقها وقال لهم : دونكم هو هذا .

فقال سويبط : هو – أي : النعيمان – كاذب ، أنا رجل حر .

فقالوا : قد أخبرنا خبرك ، فطرحوا الحبل في رقبته ، فذهبوا به .

فجاء أبو بكر فأخبِر ، فذهب هو وأصحابه إليهم ، فردّوا القلائص وأخذوه .

ثم أخبروا النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك فضحك هو وأصحابه حولاً[1] .

وفي (الجزء الثالث من الإصابة) نقلاً عن الزبير بن بكار : أنّ النعيمان كان لا يدخل المدينة طُرفةٌ إلا اشترى منها ، ثم جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فيقول : ها أهديتُه لك ، فإذا جاء صاحبها يطلب نعيمان بثمنها ، أحضره النعيمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال يا رسول الله : أعطِ هذا ثمنَ متاعه .

فيقول : (أولم تُهدِه لي ؟) .

فيقول : إنه والله لم يكن عندي ثمنه ، ولقد أحببتُ أن تأكلَه .

فيضحك النبي صلى الله عليه وسلم ويأمر لصاحبه بثمنِه .

ومن ذلك ضحكه صلى الله عليه وسلم من الأمر العجيب يبلغه :

روى الإمام أحمد في (مسنده) عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاءت سلمى امرأة أبي رافع مولى النبي صلى الله عليه وسلم - أي : عتيقه – تستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي رافع وقالت : إنه ليضربني .

فقال صلى الله عليه وسلم : (مالَكَ ولها ؟) .

قال : تؤذيني يا رسول الله .

قال : (بماذا آذيتيه يا سلمى ؟) .

قالت : ما آذيته بشيءٍ ، ولكنه أحدثَ وهو يصلي فقلت له : يا ابا رافع إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمرَ المسلمين إذا خرج من أحدهم ريح أن

---

[1] وأخرجه أبو داود الطيالسي وابن ماجه في باب المزاح .

يتوضأ ، فقام يضربني . فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ويقول : (يا أبا رافع لم تأمرك إلا بخير)[1] ، وسئل ابن عمر رضي الله عنهما : هل كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يضحكون ؟ فقال : نعم ، وإنّ الإيمان في قلوبهم أمثالُ الجبال ، وربما قال : وإنّ الإيمانَ في قلوبهم أعظمُ من الجبال .

وأما الضحك المنهيُّ عنه شرعاً : فهو ما كان من باب السخرية بالناس ، وانتقاصهم ، أو فيه انتهاك لحرمات الدين أو المسلمين ، أو ما كان كثيراً ، فإنّ كثرةَ الضحك تميتُ القلبَ الروحاني الإيماني ، لما تفضي إليه من الغفلة المورّثة لقسوة القلب ، وتميت القلب الجسماني ، لأنّ كثرةَ الضحك تضعف القلب بسبب كثرةِ خفقانه ، فيؤدي ذلك إلى موته .

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه : كثرةُ الضحكِ والفرحِ بالدنيا سُم قاتل يسري إلى العروق ، فيخرج من القلب الخوف والحزن اهـ .

روى البخاري في (الأدب المفرد) وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا تُكثروا من الضحك ، فإنّ كثرة الضحك تميتُ القلب) وهناك أحاديث كثيرة وردت في النهي عن كثرة الضحك .

ملاطفته صلى الله عليه وسلم للصبيان وملاعبته لهم

روى الإمام أحمد بإسناد حسن عن عبد الله بن الحارث قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفُّ عبد الله وعبيد الله وكثير بني العباس ثم يقول : (من سبقَ إليّ فله كذا وكذا) قال : فيسبقون إليه ، فيقعون على ظهره وصدره صلى الله عليه وسلم ، فيقبّلهم ويلتزمهم [2]) .

[1] انظر (شرح المواهب) : ٢ : ٣٠٢
[2] كذا في (مجمع الزوائد) ٩ : ١٧

وفي (زوائد ابن حبان) عن أنس رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزور الأنصار ، ويسلّم على صبيانهم ، ويمسح رؤوسهم) .

وروى البخاري في (الأدب المفرد) والطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمع أذناي هاتان ، وبصر عيناي هاتان ، رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيديه جميعاً بكفّي الحسن أو الحسين ، وقدميه[1] على قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله يقول : (إرقه) قال : فرقي الغلامُ حتى وضع قدميه على صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (افتح فاك) ثم قبّله ، ثم قال : (اللهمّ أحبّه فإني أحبُّه) .

وقد جاء ذلك في (الإصابة) وزاد : (حزقّه ، حزقّه ، ترقّ ، عين بقّه)[2]

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدِم من سفرٍ تُلقّي بالصبيان من أهل بيته ، قال : وإنه قدم مرةً من سفره فسُبِق بي إليه ، فحملني بين يديه ، ثم جيء بأحد ابني فاطمة رضي الله عنها ، إما الحسن أو الحسين ، فأردفه خلفه ، فدخلنا المدينة ثلاثة على دابّة .

وقال عبد الله بن جعفر لابن الزبير : أتذكر إذ لقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وأنت وابن عباس ؟ فقال : نعم ، قال : فحَمَلنا وتَرَكك .

كمال لُطفه صلى الله عليه وسلم وشدة اهتمامه بمن يسأله عن أمور الدين من الرجال والنساء

---

[1] منصوب بفعل محذوف تقديره : وجعل قدميه .. الخ ، أو أبصرت عيناي قدميه . كما نبه على ذلك الشارحون .

[2] جاء في (النهاية) لابن الأثير : وفيه أنه عليه الصلاة والسلام كان يرقص الحسن أو الحسين ويقول : (حزقة حزقة ، ترق عين بقه) فترقى الغلام حتى وضع قدميه على صدره – الحزقة : الضعيف المتقارب الخطو من ضعفه ، وقيل : القصير العظيم البطن ، فذكرها على سبيل المداعبة والتأنيس له ، وترق : بمعنى اصعد ، وعين بقه : كناية عن صغر العين اهـ

روى الإمام مسلم عن أبي رفاعة رضي الله عنه قال : انتهيتُ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يخطب ، فقلتُ : يا رسول الله ، رجل غريب جاء يسأل عن دينه ، لا يدري ما دينُه ؟

قال : فأقبل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك خطبته حتى انتهى إليّ ، فأتي بكرسي صُبّت قوائمُه حديداً ، فقعد عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وجعل يعلمُني مما علّمَه الله ثم أتى خطبَته ، فأتمّ آخرها [1] .

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : بينما نحنُ جلوسٌ مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد ، دخل رجلٌ على جملٍ ، فأناخه في المسجد ثم عقله ، ثم قال لهم : أيُّكم محمد صلى الله عليه وسلم ؟ والنبي صلى الله عليه وسلم متكئ بين ظهرانيهِم .

فقلنا : هذا الرجل الأبيض المتكئُ .

فقال له الرجل : ابنَ – أي : يا ابن – عبد المطلب .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (قد أجبتُك) .

فقال الرجل للنبي صلى الله عليه وسلم : إني سائلُك فمشدّدٌ عليك في المسألة ، فلا تجِد عليّ في نفسك – أي : لا تغضب في تشديدي عليك في السؤال بل تحمّل – وإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يحفه بلطافته ، فقال له : (سل عمّا بدا لك) .

فقال : أسألك بربّك وربّ من قبلك : آلله أرسلكَ إلى الناس كلهم ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : (اللهمّ نعم) .

وفي رواية لمسلم : قال الرجل : فمن خلق السماءَ ؟ قال : (الله) .

---

[1] فانظر في شدة اهتمامه صلى الله عليه وسلم بمن سأله عن أمور الدين ، كيف ترك خطبته وعلم السائل ما سأله من أمر دينه ! .

قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : (الله) .

قال : فمن نصبَ هذه الجبال ؟ وجعل فيها ما جعل ؟ - أي : من المنافع – قال صلى الله عليه وسلم : (الله) .

قال : فبالذي خلق السماء ، وخلق الأرض ، ونصب الجبال ، وجعل فيها ما جعل : آلله أرسلك ؟ قال : (اللهمّ نعم) .

قال – كما في رواية البخاري - : أنشدُك بالله – أي : أسألك بالله – آلله أمرك أن تصلي – وفي رواية أن نصلي ، بالنون وفيما بعدها أيضاً – الصلوات الخمسَ في اليوم والليلة ؟ .

قال صلى الله عليه وسلم : (اللهمّ نعم) .

قال : أنشدك بالله ، آلله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة ؟

قال صلى الله عليه وسلم : (اللهمّ نعم) .

قال : أنشدك بالله ، آلله أمركَ أن تأخذ الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا ؟ . فقال صلى الله عليه وسلم : (اللهمّ نعم) .

وفي رواية مسلم : وسأله عن الحجّ أيضاً ، ثم قال الرجل : آمنتُ بما جئتَ به ، وأنا رسولُ من ورائي من قومي ، وأنا ضِمامُ بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر . وفي (الاستيعاب) لابن عبد البر في ترجمة أسماء بنت يزيد بن السّكن رضي الله عنها قال : إنها كانت من ذواتِ العقل والدين ، روي عنها أنها أتت النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت : إني رسولُ من ورائي من جماعة نساء المسلمين ، كلُّهنّ يقلنَ بقولي ، وعلى مثل رأيي :

إن الله بعثك إلى الرجال والنساء ، فآمنا بك واتّبعناك ، ونحن معشرَ النساء مقصورات مخدّرات ، قواعدُ بيوت ، وإن الرجال فُضّلوا بالجُمُعات وشهودِ الجنائز والجهاد ، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم ، وربّينا أولادهم ، أفنشاركهم في الأجر يا رسول الله ؟ .

فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه إلى أصحابه فقال : (هل سمعتم مقالةَ امرأةٍ أحسن سؤالاً عن دينها من هذه ؟) .

فقالوا : بلى يا رسول الله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (انصرفي يا اسماء ، وأعلمي من وراءكِ من النساء أن حُسنَ تبعُّل [1] إحداكُنّ لزوجها ، وطلبها لمرضاته ، واتّباعها لموافقته ، يعدل كل ما ذكرتِ للرجال) .

فانصرفت أسماء وهي تهلّل وتكبّر ، استبشاراً بما قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم اهـ

ويشهد لهذا الحديث : ما رويَ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاءت امرأةٌ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله : أنا وافدةُ النساءِ إليك : هذا الجهاد كتبه الله على الرجال ، فإن يصيبوا أجروا ، وإن قُتلوا كانوا أحياءً عند ربهم يُرزقون ، ونحن معاشر النساء نقوم عليهم ، فما لنا من ذلك ؟ .

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أبلغي من لقيتِ من النساء : أنّ طاعة الزوج ، واعترافاً بحقّه ، يعدِل ذلك ، وقليلٌ منكنّ من يفعله) .

قال الحافظ المنذري : رواه البزار هكذا مختصراً .

والطبراني في حديثٍ فقال في آخره : ثم جاءت النبيّ صلى الله عليه وسلم امرأةٌ فقالت : إني رسولُ النساء إليك ، وما منهنّ امرأة علمت أو لم تعلم إلا وهي تهوى مخرجي إليك :

الله ربُّ الرجال والنساء وإلههنّ ، وأنت رسول الله إلى الرجال والنساء ، كتب الله الجهاد على الرجال فإن أصابوا أجِروا ، وإن استُشهدوا كانوا أحياءً عند ربهم يرزقون ، فما يعدِل ذلك من أعمالهم من الطاعة ؟ .

---

[1] أي : طاعة المرأة لبعلها ، أي : زوجها .

فقال صلى الله عليه وسلم : (طاعةُ أزواجهنّ ، والمعرفة بحقوقهنّ ، وقليلٌ منكنّ من يفعله)[1]

مكافأته صلى الله عليه وسلم الإكرام بأفضل إكرام

روى البيهقي في (الدلائل) وابن إسحاق عن أبي قتادة أنه قال : وفَدَ وفدُ النجاشي على النبي صلى الله عليه وسلم فقام النبي صلى الله عليه وسلم يخدِمُهم .

فقال له أصحابُه : نحن نكفيك – اي : نكفيك القيام بضيافتهم وإكرامهم - .

فقال صلى الله عليه وسلم : (إنهم كانوا لأصحابنا مكرِمين ، وأنا أحبُّ أن أكافِئهم) .

مقابلته صلى الله عليه وسلم الإحسان بأجمل إحسان

كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يضيع الإحسان ، ولا ينكر الجميل والمعروف لإنسان ، من عمل معه معروفاً ، أو صنع معه جميلاً ، يذكره له ، ويقابله بما هو أحسن وأكرم وأجمل ، كما أثبتت ذلك الوقائع الواردة ، والشواهد الثابتة :

فمن ذلك : ما ورد عن عمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه قال : استسقى رسول الله صلى الله عليه وسلم - أي : طلب ماءً ليشرب منه – فأتيتُه بقدح فيه ماء ، فكانت فيه شعرةٌ فأخذتُها – أي : أزالها من القدح - .

فقال صلى الله عليه وسلم مقابلاً لصنعه الجميل : (اللهمّ جمّله) .

قال الراوي : فرأيتُ عمراً وهو ابن تسعين سنة ، وليس في لحيته شعرة بيضاء [2] .

---

[1] انظر (ترغيب) المنذري ٣ :٥٣

[2] قال في (مجمع الزوائد) : رواه أحمد والطبراني إلا أنه – الطبراني – قال : ستون سنة ، وإسناده حسن اهـ

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بين الصفا والمروة ، فسقطت على لحيته ريشة ، فابتدر أبو أيوب فأخذها .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (نزع الله عنك ما تكره)[1] .

فانظر كيف أنه صلى الله عليه وسلم لم يضيّع إحسانَ من أزال عنه ريشة ! .

ومن ذلك : ما رواه مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال : كنتُ أبيتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيتُه بوضوئه وحاجته – أي : بماء وضوئه وسائر ما يحتاجه من سواك ونحوه - .

فقال لي : (سل) أي : اطلب ما تحتاجه في مقابلة خِدمتك لي .

فقلتُ : أسألكَ مرافقتك في الجنة .

فقال صلى الله عليه وسلم : (أو غير ذلك) – أي : تسأل غير ذلك .

فقال ربيعة : قلتُ : هو ذاك – أي : سؤالي مرافقتك ، لا أسألك غير ذلك - .

فقال صلى الله عليه وسلم : (فأعنّي على نفسك بكثرَة السجود) .

ورواه الطبراني في (الكبير) ولفظه : قال ربيعة بن كعب : كنتُ أخدمُ النبيّ صلى الله عليه وسلم نهاري ، فإذا كان الليل أويتُ إلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم فبتُّ عنده ، فلا أزال أسمعه يقول : (سبحان الله ، سبحان الله ، سبحان ربي) حتى أملّ ، أو تغلبني عيني فأنام .

فقال لي صلى الله عليه وسلم يوماً : (يا ربيعة سلني فأعطيَك) .

فقلت : أنظِرني حتى أنظُر – وتذكّرتُ أنّ الدنيا فانية منقطعة ، فقلت : يا رسول الله أسألُك أن تدعو الله لي أن ينجيني من النار ، ويدخلَني الجنّة .

---

[1] قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني وفيه نائل بن نجيح وثقه أبو حاتم وغيره ، وضعفه الدارقطني وغيره .

فسكتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : (من أمركَ بهذا ؟) .

قلتُ : ما أمرني به أحد ، ولكني علمتُ أن الدنيا منقطعة فانية ، وأنت من الله بالمكان الذي أنت منه ، فأحببتُ أن تدعوَ الله لي .

قال : (فأعنيّ على نفسِك بكثرة السجود)[1] .

تفقُّده صلى الله عليه وسلم أصحابه

روى الترمذي وغيرُه عن هند بن أبي هالة ، في حديثه يصف النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وفيه : (كان صلى الله عليه وسلم يتفقّد أصحابه ، ويسأل الناس عما في الناس) – الحديث كما سيأتي بتمامه إن شاء الله تعالى .

والمعنى أنه كان يسأل عنهم حال غيبتهم عنه .

وروى أبو يعلى بإسنادٍ فيه ضعف عن أنس رضي الله عنه (أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا فقدَ الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه : فإن كان غائباً دعا له ، وإن كان شاهداً – أي : حاضراً في البلد – زاره ، وإن كان مريضاً عاده [2]) .

حفظه صلى الله عليه وسلم للودّ واحتفاظه بالعهد

قال الله تعالى : (ولا تنسوا الفضل بينكم إنّ الله بما تعملون بصير) .

أورد البخاري في (صحيحه) : باب حسن العهد[3] من الإيمان .

ثم أسند إلى عائشة رضي الله عنها قالت : ما غِرتُ على امرأةٍ ما غِرتُ على خديجة ، ولقد هلكت – أي : ماتت – قبل أن يتزوّجني رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين ، لما كنتُ أسمعهُ يذكرها – أي : يثني عليها خيراً –

---

[1] انظر (ترغيب) المنذري في فضل السجود .
[2] انظر (الجامع الصغير) و (مجمع الزوائد).
[3] المراد بالعهد هنا : رعاية الحرمة ، والاحتفاظ بالشيء ، والملازمة له ، مع تأدية حقوقه دون إهمال ولا ترك

ولقد أمره ربُّه أن يبشّرها ببيتٍ في الجنّة من قصَب ، وإن كان – أي : وإنه كان صلى الله عليه وسلم – ليذبح الشاةَ ثم يُهدي في خُلّتها منها .

- أي : يُهدي من لحم الشاة إلى صديقات خديجة وخليلاتها من النساء ، إكراماً للسيدة خديجة وحفظَ ودٍّ ، وحسنَ عهدٍ معها .

وروى الحاكم والبيهقي في (الشعب) عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاءت عجوزٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (كيف أنتم ؟ كيف حالكم ؟ كيف أنتم بعدنا ؟) . فقالت : بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله .

فلما خرجت قلت : يا رسول الله ! تُقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ؟ .

فقال : (يا عائشة إنها كانت تأتينا زمان خديجة وإنّ حسنَ العهد من الإيمان)

فكان صلى الله عليه وسلم يحسن العهد ويحفظُ الودّ .

وروى البخاري في (الأدب المفرد) عن أبي الطُّفيل قال : رأيتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم يقسم لحماً بالجِعرانة ، وأنا يومئذ غلام أحمل عضو البعير ، فأتته امرأةٌ فبسط لها صلى الله عليه وسلم رداءه .

قلتُ : من هذه ؟ قيل : هذه أمّه التي أرضعته – أي : هي السيدة حليمة السعدية رضي الله عنها .

وروى أبو داود أن أبا النبيّ صلى الله عليه وسلم من الرضاعة ، أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فوضع له بعض ثوبه ، فقعد عليه ، ثم أقبلت أمّه – من الرّضاعة – فوضع لها شقّ ثوبه من جانبه الآخر ، فجلست عليه ، ثم أقبل أخوه من الرضاعة ، فقام له رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجلسه بين يديه .

صدقه للوعد صلى الله عليه وسلم

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صادقَ الوعد ، يفي بوعده وإن شقّ ذلك عليه .

روى أبو داود عن عبد الله بن أبي الحمساء قال : بايعتُ النبي صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يُبعث ، وبقيت له بقيّة ، فوعدتُه أن آتيه بها في مكان ، فنسيتُ ، ثم ذكرتُ بعد ثلاث ، فجئت فإذا هو صلى الله عليه وسلم في مكانه .

فقال : (يا فتى لقد شققتَ عليّ ! أنا ها هنا منذ ثلاثٍ أنتظرك) .

زياراته الكريمة صلى الله عليه وسلم لأصحابه

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورُ أصحابه ليُكرمَهُم بذلك ، وليُدخل السرورَ عليهم ، ولينفعهم بإرشاداته وتعاليمِه .

فعن عبد الله بن قيس رضي الله عنه : (أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُكثر زيارة الأنصار ، خاصةً وعامّةً ، فكان إذا زار خاصةً أتى الرجلَ في منزله ، وإذا زار عامّةً أتى المسجد)[1] .

وروى الترمذي والنسائي عن أنس رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزور الأنصار ، ويُسلّم على صبيانهم ، ويمسح رؤوسهم)[2]

وجاء في (الأدب المفرد) للبخاري : باب من زار قوماً فطعِم عندهم .

ثم أسند إلى أنس بن مالك : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زار أهل بيت من الأنصار ، فطعِمَ عندهم طعاماً ، فلما خرج – أي : لما أراد أن يخرج – أمر بمكان من البيت فنُضح له على بساط ، فصلّى عليه ، ودعا لهم) .

وإنما فعل ذلك ليتبرّكوا بصلاته ، وبموضع صلاته ، وليتخذوا المكان الذي صلى فيه مسجد البيت .

---

[1] قال في (مجمع الزوائد) : رواه أحمد وفيه راو لم يسمّ ، وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ ٨ : ١٧٣

[2] حديث حسن بل صحيح ، كما نبه عليه في (فيض القدير) .

وعن جُبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (انطلِقوا بنا إلى بني واقف نزور البصير) رجل كان مكفوف البصر [1] .

وروى الإمام أحمد في (المسند) عن قيس بن سعد قال : زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في منزلنا ، فقال : (السلام عليكم ورحمة الله) –

قال : فردّ سعد خفيّاً .

وعند أبي داود بعد أن ردّ سعد خفياً قال قيس : قلت : ألا تأذنُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال سعد : ذرهُ حتى يُكثر علينا من السلام .

فقال صلى الله عليه وسلم : (السلام عليكم ورحمة الله) – أي : ثانياً - .

فردّ سعد خفيّاً .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : (السلام عليكم ورحمة الله) – أي : ثالثاً .

فرجع رسول الله صلى الله واتّبعه سعد ، فقال : يا رسول الله قد كنتُ أسمع تسليمك وأردُّ عليك ردّاً خفيّاً ، لتكثر علينا من السلام ، قال : فانصرف معه رسول الله صلى الله عليه وسلم - أي : ذهب مع سعد إلى منزله – فأمر له سعد بغُسل – أي : ماء ليغتسل تبرُّداً – فوضِع ، فاغتسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ناوله سعد – أو قال : ناوَلوه – مِلحفةً مصبوغةً بزعفران وورس ، فاشتمل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وهو يقول : (اللهمّ اجعل صلواتك ورحمَتك على آل سعد بن عبادة) .

قال : ثم اصاب من الطعام ، فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الانصراف ، قرّب إليه سعد حماراً ، قد وطّأ عليه بقطيفة فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

[1] قال الحافظ الهيثمي : رواه البزار – واللفظ له – والطبراني ، ورجال البزار رجال الصحيح غير إبراهيم بن المستمرّ العروقي وهو ثقة . اهـ ٨ : ١٧٤ .

فقال سعد : يا قيس اصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال قيس : فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اركَب) ، فأبيتُ .

فقال : (إمّا أن تركب ، وإما أن تنصرف) – أي : ترجعَ لمنزلك – قال قيس : فانصرفت . وفي رواية ابن منده [1] : فأرسل سعد ابنَه قيساً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليردّ الحمار .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : (احمِله – أي : احمل قيساً – بين يدي)

أي : أمامي على الدابّة .

فقال سعد : سبحان الله أتحمله بين يديك يا رسول الله ؟ .

فقال صلى الله عليه وسلم : (نعم ! هو أحقُّ بصدر حماره) .

فقال سعد : هو لك يا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : (احمِله إذاً خلفي) ، فانظر إلى كمال لطفه وحسن معاشرته ، ورعايته للحقوق ، وإعطائه كلّ ذي حق حقه صلى الله عليه وسلم ! .

زياراته صلى الله عليه وسلم لضعفاء المسلمين عامة ولأهل الصفة خاصةً

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزور ضعفاء المسلمين ، ويلاطفهم ويؤانسهم ، ويجلس معهم ، ويعود مرضاهم ، ويحضر جنائزهم ، وفي هذا تكريم لهم ، وتبريك عليهم ، ومواساة وإحسان إليهم ، ليشعروا بعزّتهم وكرامتهم وسعادتهم .

فعن سهل بن حُنيف رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي ضعفاء المسلمين ، ويعود مرضاهم ، ويشهد جنائزهم)[2] .

---

[1] كما في (شرح المواهب) .
[2] عزاه في (الجامع الصغير) إلى الطبراني وأبي يعلى والحاكم رامزاً إلى صحته .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : جلستُ في عصابة – أي : جماعة – من ضعفاء المهاجرين ، وإن بعضهم ليستتر ببعضٍ من العُري ، وقارئ يقرأ علينا ، إذ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام علينا ، فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم - أي : وقف مشرفاً علينا – سكت القارئ ، فسلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : (ما كنتم تصنعون ؟) . قلنا : نستمع إلى كتاب الله تعالى .

فقال : (الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرتُ أن أصبر نفسي معهم) .

قال : فجلس صلى الله عليه وسلم وسطَنا ليعدِل نفسه فينا – ثم قال صلى الله عليه وسلم بيده هكذا – اي : أشار إليهم – فتحلّقوا وبرزت وجوههم له ، فقال : (أبشروا يا صعاليك – أي : فقراء – المهاجرين بالنور التامّ يوم القيامة ، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم ، وذلك خمسمائة سنة) .

وكانت صُفّة المسجد النبوي مدرسةً للقرّاء ، يأوي إليها فقراء الصحابة ، ممن لا أهل لهم ، فيتدارسون القرآن ويتعلمون أمور الدين وأحكامه ، ثم يذهبون في نواحي البلاد ، ومختلف الآفاق فيعلّمون الناس ذلك .

تفقُّده صلى الله عليه وسلم أصحابه في الليل واستماعه إلى قراءتهم

روى الشيخان عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إني لأعرف أصواتَ رفقة الأشعريين بالليل حين يدخل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ، وإن كنتُ لم أرَ منازلهم حين نزلوا بالنهار) .

وروى أبو داود والترمذي عن أبي قتادة : (أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج ليلة فإذا هو بأبي بكر رضي الله عنه يصلي : يخفض من صوته – أي : بالقراءة - ، ومرّ بعمر بن الخطّاب وهو يصلي رافعاً – بالقراءة – فلما اجتمعا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، قال صلى الله عليه وسلم : (يا ابا

بكر مررتُ بك وأنت تصلي تخفِض صوتك) – أي : بالقراءة - .فقال أبو بكر : قد أسمعتُ من ناجيتُ يا رسول الله .

فقال : (ارفع من صوتك شيئاً) كما في رواية .

وقال لعمر : (مررتُ بك وأنت تصلي رافعاً صوتك) .

فقال عمر : يا رسول الله أوقظ الوَسنان ، وأطردُ الشيطان .

فقال له صلى الله عليه وسلم : (اخفض شيئاً)) .

وفي رواية لأبي داود : قال صلى الله عليه وسلم : (وقد سمعتك يا بلال وأنت تقرأ من هذه السورة ، ومن هذه السورة !) .

فقال بلال : كلام طيّب يجمع الله بعضه إلى بعض .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (كلُّكم قد أصاب) .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : اعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ، فسمعهم يجهرون بالقراءة ، فكشف الستر وقال : (ألا إن كلّكم مناجٍ ربّه ، فلا يؤذينّ بعضُكم بعضاً ، ولا يرفع بعضكم على بعضٍ في القراءة) .

أو قال : (في الصلاة) رواه أبو داود والترمذي وغيرهما .

ملاطفته صلى الله عليه وسلم لجفاة الأعراب لئلا يفتتنوا

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحمّل جفوة الأعرابي ويلاطفه ، ويقابل غِلظته بلطيف المقال والحال ، وذلك لتثبيته ، أو من أجل أن لا يفتتن ، ويسلكُ بهم مسالك الرحمة واللين والتؤدة ، لئلا ينفِروا أو يشردوا .

ففي (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه قال : مشيتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه بردٌ – أي : ثوب- نجراني غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجبَذَه – أي : جذب الثوب – جبذَةً شديدة ، حتى نظرتُ إلى صفحة

عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أثّر فيه – أي : في عنقه – حاشية البُرد – من شدة جبذته ، ثم قال – الأعرابي – يا محمد : مُر لي من مال الله الذي عندك .

فالتفتَ إليه النبي صلى الله عليه وسلم وضحك ، ثم أمر له بعطاء ! .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أنّ أعرابياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينه في شيء – فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ثم قال له صلى الله عليه وسلم : (أحسنتُ إليك ؟) .

فقال الأعرابي : لا ، ولا أجملتَ ، فغضب بعض المسلمين وهمُّوا أن يقوموا إليه – فأشار رسولُ الله إليهم أن كُفُّوا .

فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ إلى منزله دعا الأعرابيّ إلى البيت .

فقال : (إنما جئتَنا تسألُنا فأعطيناك فقلتَ ما قلتَ) فزاده رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً وقال : (أحسنتُ إليك ؟) .

فقال الأعرابي : نعم ، فجزاك الله من أهلٍ وعشيرةٍ خيراً .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناكَ ، فقلتَ ما قلتَ ، وفي نفس أصحابي عليك من ذلك شيء ، فإذا جئتَ فقل بين أيديهم ما قلتَ بين يديّ حتى يذهب عن صدورهم) .

قال : نعم .

فلما جاء الأعرابيّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنّ صاحبَكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه ، فقال ما قال ، وإنا قد دعوناه فأعطيناه ، فزَعَم أنه قد رضي ، كذلك يا أعرابي ؟) .

فقال الأعرابي : نعم جزاك الله من أهل وعشيرةٍ خيراً .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (إنّ مثلي ومثَلَ هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة ، فشردتْ عليه ، فاتّبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفوراً ، فقال لهم صاحب الناقة : خلّوا بيني وبين ناقتي ، فأنا أرفق بها ، وأنا أعلم بها ، فتوجّه إليها – صاحبها – وأخذ لها من قُشام الأرض – أي : من نبات الأرض – ودعاها حتى جاءت واستجابت ، وشدّ عليها رحلها ، وإني لو أطعتُكم حيث قال ما قال لدخل النار)[1] .

عظيم تواضعه صلى الله عليه وسلم مع أصحابه

قال الله تعالى : (واخِض جناحَك للمؤمنين) .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم له المثل الأكمل في التواضع مع علوّ مقامه ، وشرف جنابه ، ويتجلّى تواضعه صلى الله عليه وسلم في سائر أحواله الخاصة والعامة ، وأموره الخارجية ، والداخلية البيتية .

فكان من تواضعه صلى الله عليه وسلم أن يخدِم نفسه بنفسه :

قالت عائشة رضي الله عنها : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخيطُ ثوبه ويخصِف نعلَه ، ويعمل ما يعملُ الرجال في بيوتهم)[2] .

وفي رواية : (ويرقَعُ دلوه ، ويَفلي ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخدم نفسه صلى الله عليه وسلم)[1]

---

[1] أورد هذا الحديث الحافظ ابن كثير في (تفسيره) آخر سورة التوبة وقال : رواه البزار ثم قال : لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه . قلت : وهو ضعيف بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان والله أعلم اهـ وأورده في (مجمع الزوائد) ونبه على ضعفه . وقال العلامة الخفاجي في (شرح الشفاء : ٢ : ١٧ : وهذا الحديث رواه البزار وأبو الشيخ بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وابن حبان في (صحيحه) وابن الجوزي في (الوفاء) اهـ

[2] أي : من الاشتغال بمهنة الأهل والنفس .

رواه أحمد وابن حبان وصححه وابن سعد .

ومن تواضعه صلى الله عليه وسلم : أنه كان يركب الحمار ، ولا يخصّ نفسه بركوبِ الخيلِ ، كما هو عادة الملوك والأمراء :

روى الترمذي وغيره عن أنس رضي الله عنه أنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود المرضى ، ويشهدُ الجنائز ، ويركب الحمار ، ويجيب دعوة العبد ، وكان يوم بني قُرَيظة على حمار ، مخطوم بحبل من ليف ، وعليه إكاف من ليف)[2] .

ومن تواضعه صلى الله عليه وسلم : أنه كان يُردِف وراءه بعض نساءه :

كما روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر ، وإني لرديف أبي طلحة وهو يسيرُ وبعضُ نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم رديفُ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ عثرت الناقة ، فقلتُ : المرأة – أي : وقعت المرأة أعينونا – فنزلتُ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنّها أمُّكم) [3] فشددت

الرحل ، وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما دنا – أو : رأى المدينة – قال : (آيبون تائبون عابدون ، لربّنا حامدون) .

بل كان يردف خلفه بعض أصحابه ، وصبيانَ أصحابه ، ولا يستنكف من ذلك كما تأنف الكبار والأمراء :

---

[1] هذا لا ينافي أنه صلى الله عليه وسلم كان يسمح لبعض أصحابه أن يخدمه كأنس وغيره ، ليتشرّفوا بخدمته ويستفيضوا من بركاته صلى الله عليه وسلم ، وليس ذلك من باب التعاظم والترفُّع .

[2] يعني أنه صلى الله عليه وسلم ذهب لحرب بني قريظة فركب حماراً خطامه – أي : زمامه – وإكافه – أي : بردعته – من ليف – والبردعة للدواب كالسرج للفرس اهـ (حاشية الباجوري) .

[3] يذكّرهم بوجوب التعظيم لها ، وكانت المرأة هي صفية بنت حيي أم المؤمنين رضي الله عنها .

فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : (أتى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مكة وقد حملَ قُثم – ابن العبّاس – بين يديه ، والفضلَ – أخاهُ – خلفه صلى الله عليه وسلم ، أو : قُثَمَ خلفه ، والفضل بين يديه – شكّ الراوي -) .

وفي (الصحيحين) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنتُ وراء النبي صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه إلا مؤخّرةَ[1] الرحل ، فقال : (يا معاذ بن جبل) .

قلت : لبيّك رسول الله وسعديك .

ثم سار ساعة ثم قال : (يا معاذ بن جبل) .

قلت : لبّيك رسولَ الله وسعديك .

ثم سار ساعة ثم قال : (يا معاذ بن جبل) .

قلت : لبيّك رسول الله وسعديك .

قال : (هل تدري ما حقُّ الله على العباد ؟) .

قال معاذ : قلت : الله ورسولهُ أعلم .

قال : (فإنّ حقّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً) .

ثم سار ساعة ثم قال : (يا معاذ بن جبل) .

قلت : لبيّك رسول الله وسعديك .

قال : (هل تدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟) .

قلت : الله ورسولهُ أعلم .

---

[1] بالتخفيف والتثقيل ، هي آخرة الرحل ، وهو العود الذي خلف الراكب ، والذي أمامه يسمى : قادمة الرحل ، ومقدمة الرحل .

قال : (أن لا يعذّبهم) .

ومن تواضعه صلى الله عليه وسلم : مِشيتُه مع الأرملة والمسكين والأمَة :

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال : جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم – وكان في عقلِها شيء – فقالت : إنّ لي إليك حاجة .

فقال صلى الله عليه وسلم : (اجلسي في أيّ سِكك – أي : طُرق – المدينة شئتِ ، أجلس إليك حتى أقضي حاجتكِ) .

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : إن كانت الأمةُ لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت – وفي رواية أحمد : فتنطلق به في حاجتها – أي : ليقضي لها حاجتها بنفسه الكريمة صلى الله عليه وسلم .

وروى النسائي عن ابن أبي أوفى رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكثر الذّكر ، ويقلُّ اللّغو ، ويطيل الصلاةَ ، ويقصّر الخطبة ، ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين ، فيقضي لهما الحاجة) .

ومن تواضعه صلى الله عليه وسلم وتكريمه لعباد الله المسلمين :

ما روى الإمام أحمد وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في حجة النبي صلى الله عليه وسلم : (أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أتى السقاية فقال : (اسقوني)

فقالوا : إن هذا يخوضه الناس ، ولكنا نأتيك به من البيت .

فقال : (لا حاجة لي فيه ، اسقوني مما يشرب الناس ...)) .الحديث

فانظر في هذا التواضع العظيم ، من صاحب الخُلق العظيم ! لم يقبل أن يُؤتى بشرابٍ خاص له صلى الله عليه وسلم ، وأبى إلا أن يشربَ ممّا يشربُ منه الناس ، ولو خاضت فيه أيديهم .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبعث إلى المطاهر [1]

فيُؤتى بالماء فيشربه ، يرجو بركة أيدي المسلمين رواه الطبراني [2]

ومن تواضعه صلى الله عليه وسلم :

ما جاء في (سنن) الترمذي وأبي داود وغيرهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في العمرة ، فأذن له وقال له : (يا أخي يا عمر أشرِكني بدعائك – وفي رواية : لا تنسني من دعائك) .

أمره صلى الله عليه وسلم بالتواضع

روى الإمام مسلم عن عياض بن حمار في حديث طويل قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وإنّ الله تعالى أوحى إليّ أن تواضعوا ، حتى لا يفخرَ أحدٌ على أحد ، ولا يبغي أحدٌ على أحد) .

تواضعه صلى الله عليه وسلم واختياره أن يكون نبياً عبداً لا نبياً ملكاً

إنّ من أعظم ما يدلُّ على تواضعه صلى الله عليه وسلم : أنه لمّا خيّره الله تعالى بين أن يكون نبياً عبداً ، أو نبيّاً ملِكاً ، اختار العبدية تواضعاً لله تعالى .

روى الطبراني بإسنادٍ حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يومٍ وجبريلُ عليه السلام على الصفا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ياً جبريل والذي بعثك بالحقّ ما أمسى لآل محمدٍ سفّة من دقيق ، ولا كف من سَويق) .

فلم يكن كلامُه بأسرع من أن سمع هدّة من السماء أفزعته .

---

[1] قال المناوي : المراد بالمطاهر هنا : الحياض والفساقي والبرك المعدة للوضوء اهـ

[2] وأبو نعيم في (الحلية) ، كما في (الجامع الصغير) ، وقال الحافظ الهيثمي : رجاله موثقون ومنهم عبد العزيز بن أبي رواد ثقة نسب إلى الإرجاء اهـ

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أمرَ الله القيامة أن تقوم ؟) .

فقال – جبريل - : لا ، ولكن أمرَ إسرافيلَ فنزل إليك حتى سمع كلامك .

فأتاه إسرافيلُ فقال : إنّ الله تعالى سمع ما ذكرتَ ، فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض ، وأمرني أن أعرِض عليك أن أسيّرَ معك جبال تِهامة زُمرُّداً وياقوتاً وذهباً وفضّة ! فإن شئت نبيّاً ملِكاً ، وإن شئتَ نبيّاً عبداً ؟ .

فأومأ إليه جبريل أن تواضعْ .

فقال صلى الله عليه وسلم : (بل نبيّاً عبداً) ثلاثاً .

كذا في (ترغيب) المنذري وقال : رواه البيهقي في (الزهد) وغيره ، قال : ورواه ابن حبان في (صحيحه) مختصراً من حديث أبي هريرة ولفظه قال :

(جلس جبريل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فنظر إلى السماء فإذا ملَك ينزل ، فقال له جبريل : هذا الملك ما نزل منذ خُلِق قبل الساعة .

فلما نزل قال : يا محمد أرسَلَني إليك ربُّك : أملِكاً أجعلك أم عبداً رسولاً ؟ .

فقال له جبريل : تواضع لربّك يا محمد .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا ، بل عبداً رسولاً)) كذا في (الترغيب) .

قلت : وهذا اللفظ أيضاً واردٌ في (مسند) أحمد عن أبي هريرة أيضاً[1]

ولا ريبَ أنّ هناك فرقاً بين مقام الملكية والعبودية ، فإنّ مقام الملكية يتطلّب اتخاذ الجنود ، واتخاذَ الحجّاب والخيول ، واتخاذ الخدم والقصور ، ويتطلب الانتقام لمن يتعرّض بالأذى لنفس الملك .

---

[1] وقال الحافظ الهيثمي : رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ورجال الأولين رجال الصحيح اهـ

وأمّا مقام العبوديّة : فإنه يقتضي أن يخدِمَ نفسه ، وأن يكونَ في معونة أهله ، تواضعاً منه صلى الله عليه وسلم ، ويقتضي العفوَ والصّفحَ عمّن آذاه في نفسه صلى الله عليه وسلم ، أمّا إذا انتهكت حُرمات الله تعالى فينتقم لله تعالى .

ولذلك كان يقول : (آكُلُ كما يأكل العبد)[1] أي : في القعود وهيئة التناول ، والرضا بما حضر تواضعاً لله تعالى وأدباً معه ، فلا آكُلُ متكئاً كما يفعل أهل الرفاهية والانبساط في الدنيا ونعيمِها .

وكان يقولُ : (أجلِسُ كما يجلس العبد) أي : لا كما تجلس الملوكُ الجبابرة ، فإنّ التخلّق بأخلاق العبودية أشرفُ الأوصاف البشرية .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا عائشةُ لو شئتُ لسارت معي جبال الذهب !.

أتاني ملكٌ إلى حجرة الكعبة فقال : إنّ ربّك يقرئك السلامَ ويقول لك : إن شئتَ نبياً ملِكاً ، وإن شئتَ نبياً عبداً .

فأشار جبريل : أن ضع نفسك – أي تواضع - .

فقلتُ : نبياً عبداً) .

فكان بعدُ لا يأكلُ متكئاً ، ويقول : (آكلُ كما يأكلُ العبدُ ،

وأجلسُ كما يجلِسُ العبد) رواه أبو يعلى وابن حبان وابن سعد .

قال في (فيض القدير) : ورواه البيهقي عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً ، وزاد : (فإنما أنا عبد) .

ورواه هنّاد عن عمرو بن مرة وزاد : (فوالذي نفسي بيده لو كانت الدنيا تزِنُ عند الله جناحَ بعوضةٍ ما سقى منها كافراً كأساً)[1] .

---

[1] قال العلامة المناوي : المراد هنا بالعبد : الإنسان المتذلل المتواضع لربه تعالى اهـ

وفي (سنن) أبي داود وابن ماجه عن عبد الله بن بُسر رضي الله عنه قال : كان للنبي صلى الله عليه وسلم قصعةٌ – أي : إناء كبير يوضع فيه الثريد ليأكله الجماعة – يقال لها الغرّاء يحملها أربعة رجال ، فلما أضحَوا – أي : دخلوا في وقت الضُّحى بعد طلوعِ الشمس – وسجدوا – أي : صلّوا – الضُّحى ، أتي بتلك القصعة يعني وقد أثرِد فيها – أي : وُضع فيها الثريد – فالتفّوا عليها ، فلما كثروا جثا رسول الله صلى الله عليه وسلم – أي : جلس على ركبتيه - .

فقال أعرابي : ما هذه الجلسة ؟ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(إنّ الله جعلني عبداً كريماً ، ولم يجعلني جباراً عنيداً) ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كلوا من جوانبِها ، ودعوا – أي : اتركوا – ذروتها – أعلاها – يُبارك لكم فيها) .

ولما كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو أعظمَ من تحقق بمقامات العبدية والعبودية لله تعالى ، وهو أشرف من كمُلت له مراتبُها العالية : لذلك وصفه الله تعالى في أعلى مقاماته بالعبدية فقال سبحانه : (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا) . وقال سبحانه في مقام إنزال الكتاب عليه : (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ..) الآية .

وقال تعالى في مقام الفرقان والنصر والبر : (إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ...) الآية .

وقال تعالى في مقام التحدّي :(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ..) الآية .

وقال تعالى في مقام الإسراء :(سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ..) الآية .

---

[1] انظر (فيض القدير) ١ :٥٥ وقال : ولتعدد هذه الطرق رمز المصنف – السيوطي – لحسنه اهـ

ولذلك كان هو صلى الله عليه وسلم صاحب مقام الوسيلة ، الذي هو أعلى منزلة في الجنة ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : (.. ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة - أي : خاصّة - في الجنة لا ينبغي أن تكون إلا لعبد ، وارجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلّت له شفاعتي يوم القيامة ..) الحديث كما في (صحيح) مسلم .

في عظيم حلمه وعفوه صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى : (فاعفُ عنهم واصفح إن الله يحبُّ المحسنين) .

وقال سبحانه : (فاعف عنهم وشاورهم في الأمر) .

كان صلى الله عليه وسلم عظيمَ الحلم ، لا يقابل السيئة بالسيئة ، بل يعفو ويغفر ، وما انتقم لنفسه من شيءٍ قط ، إلا أن تُنتهك حرمةُ الله ، فينتقم لله تعالى .

روى الشيخان وأبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : (ما خُيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن مأثماً ، فإن كان إثماً كان أبعدَ الناس منه ، وما انتقم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لنفسِه إلا أن تُنتهك حرمةُ الله ، فينتقم لله)

ولقد اتّسع حلمه صلى الله عليه وسلم لجميع خلق الله تعالى ، حتى لأعدائه الذين آذوه .

فلما كانت غزوةُ أحد وكُسرت رَباعيّتُه صلى الله عليه وسلم ، وجُرح في شفته السفى ، وشُجّ في جبهته الشريفة حتى سال منه الدم ، فجعل ينشّفه لئلا ينزل على الأرض ويقول صلى الله عليه وسلم : (لو وقع منه شيءٌ على الأرض لنزل عليهم العذابُ من السماء)

ولقد شقّ ذلك على الصحابة فقالوا : لو دعوتَ عليهم .

فقال : (إنما لم أبعث لعّاناً ، ولكن بُعثتُ داعياً ورحمة – اللهم اغفر لقومي – وفي رواية : اللهم اهد قومي – فإنّهم لا يعلمون) .

ومن مظاهر حلمِه وعظيم عفوه صلى الله عليه وسلم : قصةُ زيد بن سَعنة أحدِ أحبار اليهود ، الذين أسلموا لرؤية تلك الآيات المحمدية ، والعلامات النبوية الجليّة .

فقد ورد عن زيد بن سَعنة أنه قال : لم يبقَ من علامات النبوة إلا وقد عرفته في وجه محمد صلى الله عليه وسلم حين نظرتُ إليه ، إلا اثنتين لم أخبرهما فيه : يسبقُ حلمُه جهلَه ، ولا تزيده شدّةُ الجهل عليه إلا حلماً .

قال زيد بن سعنة : فكنتُ أتلطّف له – أي : لمحمد صلى الله عليه وسلم - لأن أخالطَه ، فأعرفَ حلمَه وجهلَه ، فابتعتُ – اي : اشتريت – منه تمراً إلى أجل فأعطيتُه الثمن – وفي رواية أبي نعيم : فأعطاه زيد قبل إسلامه ثمانين مثقالاً ذهباً على تمر معلوم إلى أجل معلوم .

فلما كان قبل مجيء الأجل بيومين أو ثلاثة ، أتيتُ محمداً صلى الله عليه وسلم فأخذتُ بمجامع قميصه ، ورداؤه على عنقه ، ونظرتُ إليه بوجهٍ غليظٍ ثم قلتُ : ألا تقضينّ يا محمّدُ حقي ؟ فوالله إنكم يا بني عبد المطلب مُطُل[1] .

فقال عمر : أي عدوّ الله تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما أسمع[2] ؟ فوالله لولا ما أحاذرُ فوتَه [3] لضربتُ بسيفي رأسك !

قال : ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلى عمر بسكونٍ وتؤدةٍ وتبسُّم .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنا وهو – أي : أنا وزيد – كنا أحوجَ إلى غير هذا منك يا عمر : أن تأمرني بحسن الأداء ، وتأمرَه بحسن التّباعة) أي : المطالبة . ثم قال صلى الله عليه وسلم : (اذهب يا عمر

---

[1] جمع ماطل ، أي : تؤخرون عن أداء الحق ، وتسوفون الموعد مرة بعد أخرى .
[2] وفي رواية أبي نعيم : فنظر إليه عمر وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير .
[3] أي : من بقاء الصلح بين المسلمين وبين قومه اليهود إذ ذاك .

فاقضِه حقّه وزِده عشرين صاعاً مكان ما رُعتَه) أي : مقابل فزعه ، ففعل ذلك عمر .

قال زيد : فقلت : يا عمر كلُّ علاماتِ النبوّة قد عرفتُها في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نظرتُ إليه ، إلا اثنتين لم أخبرهما : يسبقُ حلمُه جهلَه ، ولا تزيدُهُ شدّةُ الجهل عليه إلا حلماً ، فقد اختبرتُه بهما ، فاشهد يا عمر أني قد رضيتُ بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيّاً .

وفي رواية : قال زيد : وما حملني على ما رأيتني صنعتُ يا عمر إلا أني كنتُ رأيتُ صفاته التي في التوراة كلّها إلا الحلم ، فاختبرتُ حلمَه اليوم ، فوجدته على وصفِ التوراة ، وإني أشهدُك أن هذا التمرَ وشطرَ مالي إلى فقراءِ المسلمين ، وأسلم زيد ، وأهل بيته كلهم إلا شيخاً كبيراً غلبت عليه الشّقوة [1] .

ومن الوقائع التي يتجلّى فيها عفوُه صلى الله عليه وسلم وحلمه : تحمُّل أذى المؤذين ، وغلظةُ المغلظين ، ومقابلة ذلك بالسماحة والصفح .

روى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ثم قال : فقمنا حين قام ، فنظرنا إلى أعرابي قد أدركه فجذبه – وفي رواية : فجبذه – بردائه جبذةً شديدةً ، فحمّر رقبَته صلى الله عليه وسلم – أي : صار فيها حمرة من أثر الجذبة – وكان رداءً خشِناً ، فالتفتَ النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأعرابي فقال له الأعرابي : احملني على بعيريّ هذين – أي : حمّلهما طعاماً – من مال الله الذي عندك ، فإنك لا تحملني من مالك ولا من مال أبيك !

---

[1] قال في (شرح المواهب) : روى هذا الحديث الطبراني وابن حبان ، والحاكم والبيهقي ، وأبو الشيخ وغيرهم ، برجال ثقات عن عبد الله بن سلام عن زيد ين سعنة اهـ

فقال له صلى الله عليه وسلم : (لا ، وأستغفر الله) أي : لا أحملك من مالي ولا مال أبي .

وفي رواية البيهقي : فسكتَ النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : (المالُ مال الله ، وأنا عبده ، لا ، وأستغفر الله ، لا أحملك حتى تُقيدَني[1] من جبذَتِك التي جبذتني) .

فقال له الأعرابي : والله لا أقيدُكَها .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (لِمَ) .

فقال له الأعرابي : لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة .

فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً – وهو عمر كما في رواية – فقال له : (احمل له على بعيريه هذين : على بعير تمراً ، وعلى الآخر شعيراً)[2] .

فكان صلى الله عليه وسلم إذا أوذي في نفسه عفا وصفَح ، ولكن إذا انتهكت حرمةُ جانبٍ من جوانب دين الله تعالى انتقم لله تعالى :

فلما شجّ وجهه الشريف يوم أحد عفا وقال : (اللهمّ اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون) ولما شغلوه عن الصلاة يوم الخندق لم يعفُ بل قال صلى الله عليه وسلم : (ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً ، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس ..)

الحديث كما في (الصحيحين) .

غضبه صلى الله عليه وسلم لله تعالى وشدته لأمر الله تعالى

---

[1] أي : تمكنني من القود ، وهو القصاص من نفسك ، فأفعل معك مثل ما فعلت من جذب الرداء بشدة .

[2] رواه أبو داود والبيهقي وأصله في البخاري .

كان صلى الله عليه وسلم يغضب لله تعالى ويرضى لرضاه ، لم يكن تُغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، ولم يكن يغضب لنفسِه ، بل كان يغضبُ لربِّه تعالى .

وقد جاء في حديث هند بن أبي هالة الذي رواه الترمذي وغيره يصف النبي صلى الله عليه وسلم : (لا تغضبه الدنيا وما كان لها ، فإذا تُعُرّضَ للحق لم يعرفه أحد ، ولم يُقَم لغضبه شيء حتى ينتصرَ له ، لا يغضبُ لنفسه ، ولا ينتصرُ لها ..) الحديث ، ومن استقرأ الأسباب التي كان يغضب من أجلها صلى الله عليه وسلم يجدها كلّها ترجعُ إلى أن ذلك كلّه كان لله تعالى ، ومن أمر الله تعالى ، وانتصاراً لدين الله تعالى ، وانتصاراً للحقّ الذي شرعه الله تعالى .

فمن ذلك : غضبه صلى الله عليه وسلم حين رأى في البيت قِراماً فيه الصُّور :

كما في (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل عليّ النبي صلى الله عليه وسلم وفي البيتِ قِرام – اي : سِتر – فيه صُور ، فتلوّن وجهه صلى الله عليه وسلم – أي : من الغضب – ثم تناول السّتر فهتكه ، قالت : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (مِن أشدّ الناسِ عذاباً يوم القيامة الذين يصوّرون هذه الصُّور).

ومن ذلك : غضبه صلى الله عليه وسلم من العمل الذي ينفّرُ المؤمن :

كما في (الصحيحين) وغيرهما عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان ، مما يطيل بنا – أي : يُطيل الصلاة بنا – قال أبو مسعود : فما رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم قطُّ أشدَّ غضباً في موعظةٍ منه يومئذٍ

فقال صلى الله عليه وسلم : (يا أيها الناس إن منكم منفّرين ، فأيُّكم ما صلّى بالناس فليتجوّز – اي : فليخفّف – فإنّ فيهم المريضَ والكبيرَ وذا الحاجة) .

ومن ذلك : غضبه صلى الله عليه وسلم لما رأى النخامة في قِبلة المسجد :

كما في (الصحيحين) وذلك لأنّ المساجد ينبغي أن يحرص المسلم على نظافتها وكرامتِها ، ولا يجوز إلقاء الوسخ فيها والوخامة ، كما تقدّم في أمر النبي صلى الله عليه وسلم بنظافة المسجد .

ومن ذلك : غضبه صلى الله عليه وسلم من شدة الإثقال والإحراج وشدّة الإلحاح :

ففي (صحيح) البخاري وغيره عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : احتجر رسول الله صلى الله عليه وسلم حجيرة بخَصَفة أو حصيراً ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي إليها – أي : يصلي نافلةً – فتتبّع إليه رجال ، وجاؤوا يصلّون بصلاته ، ثم جاؤوا ليلةً فحضروا ، وأبطأ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عنهم ، فلم يخرج إليهم – اي : بل صلى تلك النافلة في بيته – فرفعوا أصواتهم ، وحصبوا الباب .

فخرج إليهم مُغضَباً فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما زال بكم صنيعكم حتى ظننتُ أنه سيكتبُ عليكم ، فعليكم بالصلاة – أي : النافلة – في بيوتكم ، فإنّ خيرَ صلاة المرء في بيته إلا الصلاة المكتوبة ، أي : المفروضة .

قال الحافظ في (الفتح) : والظاهر أن غضبه صلى الله عليه وسلم لكونهم اجتمعوا بغيرِ أمره ، فلم يكتفوا بالإشارة منه ، لكونه لم يخرج عليهم ، بل بالغوا فحصَبوا بابه وتتبّعُوه ، أو غضبَ لكونه تأخّر إشفاقاً عليهم لئلا تُفرض عليهم ، وهم يظنون غير ذلك اهـ .

شدة غضبه صلى الله عليه وسلم لم تخرجه عن الحق وصواب القول والعمل

إنّ حالة الغضب تضطربُ فيها النفس ، ويتغيّر فيها المزاج ، فربما يخرجُ الغضبان في تلك الحالة عن صواب القول والعمل ، ولذلك ورد في (مسند)

أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (علّموا ويسّروا ، علّموا ويسّروا – ثلاث مرات) .

قال : (وإذا غضبتَ فاسكُت) قالها ثلاثاً – وقد جاء ذلك في (الأدب المفرد) أيضاً .

إلا أن الله تعالى حفِظَ نبيّه سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم من جميع ما هنالك ، فلم يكن غضبه صلى الله عليه وسلم يُخرجه عن الحقّ ، ولا عن كمال الاعتدال في جميع أموره القولية والعملية :

روى ابو داود عن عبد الله بن عمرو قال : كنتُ أكتبُ كلّ شيءٍ أسمعُه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظَه ، فنهتني قريشٌ وقالوا : أتكتبُ كل شيءٍ تسمعه – أي : من رسول الله صلى الله عليه وسلم - ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، بشرٌ يتكلّم في الغضب والرضا ! فأمسكتُ عن الكتابة – فذكرتُ ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأومأ بأصبعه إلى فيه – أي : فمه – فقال : (اكتب ، فوالذي نفسي بيده ما يخرجُ منه إلا حقّ) .

وفي رواية الدارمي : فقال : (اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حقّ)

في عظيم كرمه صلى الله عليه وسلم

قال أنس رضي الله عنه : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناس ، وأجودَ الناس ، وأشجعَ الناس) رواه الشيخان .

وهذه الأوصاف الثلاثة هي من أمّهات الكمالات فهو صلى الله عليه وسلم أحسنُ الناس صورةً ومعنىً ، وجمالاً وكمالاً ، وهو أشجع الناس قلباً ، وهو أجودُ الناس ، وأنفعُهم للناس ، وهذا الجود الذي اتّصف به صلى الله عليه وسلم إنما هو لله تعالى ، وفي الله تعالى ، وابتغاء مرضاة الله تعالى – ولذلك كانت مصارفُ جوده صلى الله عليه وسلم :

منها ما هو من الإنفاق في الجهاد في سبيل الله تعالى .

ومنها من الإنفاق على الفقراء والمساكين والمحتاجين .

ومنها ما هو لتألُّف قلوب المؤلّفة ، تمكيناً لهم وتثبيتاً :

روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : (ما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً إلا أعطاه ، فجاء رجل – وهو صفوان بن أمية – فأعطاه غنماً بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا ، فإنّ محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر) وفي رواية : (من لا يخشى الفقر) .

وأعطى صلى الله عليه وسلم يوم حنين أناساً من الطُّلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام ، أعطاهم مائة مائةٍ من الإبل ، وكان من جملة من أعطى :

مالك بن عوف فامتدحه بقصيدة .

وروى الترمذي عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية أنه قال :

لقد أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطاني ، وإنه لأبغضُ الناس إليّ ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحبُّ الناس إليّ .

وفي (مغازي) الواقدي أن صفوان طاف معه صلى الله عليه وسلم يتصفّح الغنائم يوم حنين ، إذ مرّ بشِعبٍ مملوءٍ إبلاً وغنماً ، فأعجبه فجعل ينظر إليه .

فقال صلى الله عليه وسلم : (أعجبك هذا الشعب يا أبا وهب ؟) قال : نعم .

فقال : (هو لك بما فيه) .

فقال صفوان : أشهد أنك رسول الله ، ما طابت بهذا نفس أحد قطُّ ، إلا نفس نبيّ .

وكان من جوده صلى الله عليه وسلم : أنه ما سأله سائل مما عنده إلا أعطاه ، حتى لا يبقى عنده شيء صلى الله عليه وسلم .

روى الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم حُمل إليه تسعون ألف درهم ووُضعت على حصير ، ثم قام إليها يقسمها ، فما ردّ سائلاً حتى فرغ منها .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : سأل ناس من الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم ما سألوه ، ثم سألوه فأعطاهم ما سألوه ، ثم سألوه فأعطاهم ما سألوه ، حتى إذا نفِد ما عنده قال :

(ما يكون عندي من خير فلن أدخرَه عنكم ، ومن يستعفِف يعفّه الله ، ومن يستغنِ يُغنِه الله ، ومن يتصبّر يُصبّره الله ، وما أعطيَ أحدٌ عطاءً هو خيرٌ له وأوسع من الصبر) رواه الستة .

وكان صلى الله عليه وسلم كريمَ النفسِ ، يكرمُ السائلَ بنفسه ، ولا يأنفُ أن يقومَ إلى السائل فيعطيه الصدقة ، بل كان لا يكلُ صدقَتهُ إلى غير نفسه حتى يكون هو الذي يضعها في يد السائل :

روى ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها قالت : (ما رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يَكِلُ صدقَته إلى غير نفسه ، حتى يكون هو الذي يضعها في يد السائل) .

وروى ابن سعد عن زياد مولى عياش بن أبي ربيعة قال : خَصلتان كان لا يكِلُهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد : الوضوء من الليل حين يقوم ، والسائل : يقوم صلى الله عليه وسلم حتى يعطيَه [1]) .

وكان من كرمه صلى الله عليه وسلم : إذا لم يكن عنده ما يفي بحاجة المحتاج : أمره أن يستقرضَ عليه صلى الله عليه وسلم :

ففي (سنن) أبي داود والبيهقي عن عبد الله الهوزني قال : لقيت بلالاً فقلتُ : يا بلال حدّثني كيف كانت نفقةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قال : (ما كان له شيء ، وكنتُ أنا الذي ألي ذلك منه – أي : أنا المتولّي أمرَ ماله صلى الله عليه وسلم – منذ بعثه الله تعالى حتى توفي ، وكان عليه الصلاة والسلام إذا أتاه الإنسان مسلماً فرآه عارياً ، يأمرني فأنطلقُ فأستقرضُ فأشتري له البردةَ فأكسوه وأطعمه) .

---

[1] انظر (التراتيب) : : ٣١

وروى الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أنّ رجلاً أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيَه .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (ما عندي شيء ، ولكن ابتَع عليّ ، فإذا جاءني شيءٌ قضيتُه) .

فقال عمر : يا رسول الله قد أعطيتَه ! فما كلّفك الله ما لا تقدر عليه .

فكره صلى الله عليه وسلم قول عمر – فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله أنفِق ولا تخَف من ذي العرش إقلالاً .

فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعُرِف في وجهِهِ البِشر بقول الأنصاري ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : (بهذا أمِرتُ) .

بل كان صلى الله عليه وسلم من عظيم كرمه ما سُئل شيئاً قطُّ فقال : لا :

كما روى الترمذي عن جابر رضي الله عنه قال : (ما سُئِل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قطُّ فقال : لا) .

وفي (الصحيحين) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجودَ الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان ، حين يلقاه جبريل ، وكان – جبريل – يلقاه في كلّ ليلة من رمضان فيدارسُه القرآن ، فلَرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير من الريح المرسلة)

ومن هذا وغير هذا ، يتبيّن لكل عاقل أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان أكرمَ خلق الله تعالى أجمعين ، لا يجارَى في كرمه ، ولا يساوى ، بل ولا يدانى ، ولقد بلغ من كرمه صلى الله عليه وسلم أنه كان يبذل المال مرةً للفقير والمحتاج ، ومرةً في سبيل الله والجهاد ، وتارةً يتألّف به فيعطي عطاءً تعجِزُ الملوكُ عنه ، حتى لا يبقى عنده قوتُ ليلة ، فيطوي جائعاً هو صلى الله عليه وسلم وأزواجُه كلُّهنّ لا يجدنَ قوتَ ليلةٍ ، وقد اخترنَ ذلك لمّا خيّرهُنَ ، ورضينَ بذلك .

وربما اشتدّ عليه الجوع أحياناً ، فيربط على بطنه الحجر صلى الله عليه وسلم كما ثبتَ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره ، كما سيأتي ذلك بعد إن شاء الله تعالى

ومن ثَمّ كان صلى الله عليه وسلم أجودَ الناس كلّهم حقاً ، كما وصفه ابن عباس بقوله : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس) .

في عظيم شجاعته صلى الله عليه وسلم

قال سيدُنا علي رضي الله عنه في وصفه للنبيّ صلى الله عليه وسلم : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجودَ الناس صدراً ، وأشجعَهم قلباً ، وأصدَقهُم لهجةً ، وألينهم عريكةً ، وأكرمهُم عِشرةً) الحديث كما تقدّم .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا اعترت الصحابةُ المخاوفَ ، أسرعَ بنفسه إلى كشفِها وإزالتها :

قال أنس رضي الله عنه : (كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناس ، وأجودَ الناس ، وأشجعَ الناس ، ولقد فزع أهلُ المدينة[1] ذاتَ ليلةٍ ، فانطلق ناس قِبلَ الصّوت ، فتلقّاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً ، وقد سبقهم إلى الصوت ، واستبرأ الخبر [2]

على فرسٍ لأبي طلحة عُري[3] ، والسيف في عنقه صلى الله عليه وسلم وهو يقول : (لن تُراعُوا)[4]) رواه الشيخان .

وفي رواية : أنَ الفرس كان يَبطُؤُ[1] - أي : لا يُسرع – فلما ركبه النبي صلى الله عليه وسلم صار سريعاً ، وقال : (وجدناه بحراً) أي : سريع الجري .

---

[١] وذلك من صوت سمعوه

[٢] أي : كشف الخبر وعرفه .

[٣] أي : ليس على الفرس سرج ولا أراة .

[٤] قال الحافظ الزرقاني : (لن) هنا بمعنى : لم ، أي : ليس هنالك شيء تخافونه ، والعرب قد تضع (لن) و(لم) موضع لا .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : (ما رأيتُ أشجعَ ولا أنجدَ[2] ولا أجودَ ولا أرضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم) رواه أحمد وغيره .

وكان أصحابُ النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا ألمّت بهم الملمّات ، وأحاطت بهم المخاوف ، لاذو بجنابه الرفيع ، واحتموا بحماه المنيع صلى الله عليه وسلم .

قال سيدنا علي رضي الله عنه : (كنا – أي : معشر الصحابة – إذا حَميَ البأس – وفي رواية : إذا اشتدّ البأس – واحمرّت الحَدَقُ اتّقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدوّ منه ، ولقد رأيتُني يومَ بدر ونحن نلوذُ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربُنا إلى العدوّ ، وكان من أشدّ الناس يومئذٍ بأساً على الأعداء) .

وفي (صحيح) مسلم أنّ البراء بن عازب كان يقول : الشجاع هو الذي يقربُ من النبي صلى الله عليه وسلم إذا دنا العدوّ – أي : من المسلمين عند المقاتلة – لقربه صلى الله عليه وسلم من العدو – أي : في شدّة المعارك .

ولقد ثبت صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، وثبّتَ قلوبَ الصحابة ، وتقدّم نحو صفوفِ العدو ، وهو على بغلته ، غير مبالٍ ولا هيّاب ، ويقول بكلّ جراءة وثبات :

أنا النبي لا كذِب   أنا ابن عبد المطّلب[3]

أي : أنا لستُ بكاذبٍ فأنهزم ، بل أنا النبي الصادق المؤيّد بتأييد الله تعالى ونصره ، والواثق كل الثقة بعزّته سبحانه وقدرته ونصرته .

وروى البيهقي في (الدلائل) عن عروة بن الزبير [1] أنّ أبيّ بن خلف المشركَ قال يوم أحد : أين محمد ؟ لا نجوتُ إن نجا – وقد كان أبيّ يقول

---

[1] قال الزرقاني : بفتح الياء وسكون الموحدة وضم الطاء مخففاً وبالهمز .
[2] أي : ولا أكثر نجدة منه صلى الله عليه وسلم .
[3] عزاه المنذري في (الترغيب) إلى الإمام مسلم وأبي داود والترمذي .

للنبي صلى الله عليه وسلم حين افتدى يوم بدر : عندي فرسٌ أعلِفُها كلّ يومٍ فَرَقاً – أي : مِكيالاً كبيراً – مِن ذُرَةٍ ، أقتلك عليها .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (أنا أقتلك إن شاء الله) .

فلما رآه – أي : رأى أبيّ النبيّ صلى الله عليه وسلم - يوم أحد ، شدّ أبيّ بن خلف على فرسه ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعترضه رجال من المسلمين .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا – أي : تنحُّوا ولا تحولوا بيني وبين أبيّ بن خلف – وتناول النبي صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصمّة الصحابي ، فانتفض النبي صلى الله عليه وسلم بها انتفاضة – أي : قام بالحربة قومةً سريعةً – تطايروا – أي : أبي بن خلف ومن معه من الكفار تفرّقوا فارّين بسرعةٍ كالطيور – تطايُر الشّعراء – أي : الذبابة عن ظهر البعير إذا انتفض – ثم استقبل النبي صلى الله عليه وسلم أبي بن خلف بالحربة ، فطعنه في عنقه طعنةً تدأدأ – أي : سقط – منها عن فرسه مراراً – وقيل : بل كُسر ضلعٌ من أضلاعه .

فرجع أبي بن خلف إلى قريش وهو يقول : قتلني محمد صلى الله عليه وسلم .

وهم يقولون : لا بأس عليك .

فقال لهم : لو كان ما بي – من الألم والشدة – بجميع الناس لقتلهم ، أليس قد قال : أنا أقتلك ؟ والله لو بصق عليّ محمد لقتلني – ثم مات أبي بن خلف بسَرِف في قفولهم إلى مكة – اي : حين رجع الكفار إلى مكة .

صبره صلى الله عليه وسلم على أذى المشركين وتحمّله الشدائد في سبيل الله تعالى

---

[1] قال العلامة الخفاجي في (شرح الشفاء) : هذا الحديث صحيح رواه البيهقي عن عروة وسعيد بن المسيب مرسلاً وعبد الرزاق في (مصنفه) ، والواقدي في (مغازيه) ، وابن سعد في (طبقاته) اهـ

قال الله تعالى : (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ..) الآية ، كان صبره صلى الله عليه وسلم في سبيل الله تعالى يفوقُ صبرَ الصابرين ، وتحمُّله لأنواع أذى المعاندين له يعلو تحمُّل العالمين ، فكم لقي من سفاء قريشٍ وأشِدّائهم من الغلظة والسفاهة والجفاء والشدّة ؟! ولا ريب أنّ الكلام البذيء المسيء له كِلام في أصحاب النفوس الأبيّة ، والأخلاق الرضيّة ، ويتأثرون به أضعافَ ما يتأثّرُ به غيرهم ، وإنّ الأفعال المؤذية لتعملُ في نفوسهم أضعافَ ما تعملُ في غيرهم ، ممن لا خلاق له ولا خُلُق ، فما ظنُّك بنفسية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم التي هي مجمع الكمال والأفضال ومصدرها ؟! وما ظنّك بتأثره من الكلام المؤذي ، والفعل المسيء إليه .

روى الإمام أحمد والترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لقد أخفتُ في الله وما يُخاف أحد ، ولقد أوذيتُ في الله وما يؤذى أحد ، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعامٌ يأكلُه ذو كبدٍ إلا شيءٌ يواريه إبِط بلال)[1] .

وكان المشركون يتصدّون له بالعداوة ويقابلونه بأنواع الأذى بجموعهم وجماهيرهم وبأفرادهم ، ونسائهم وصبيانهم .

روى الطبراني عن الحارث بن الحارث قال : قلت لأبي : ما هذه الجماعة ؟

قال : هؤلاء القوم الذي اجتمعوا على صابئٍ لهم .

قال : فنزلنا فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى توحيد الله عزّ وجل والإيمان – وهم يردُّون عليه ويؤذونه ، حتى انتصف النهار ، وانصدع الناس عنه .

---

[1] قال في (الترغيب) : رواه الترمذي وابن حبان في (صحيحه) ، وقال الترمذي حسن صحيح اهـ

فأقبلت امرأة قد بدا – أي : ظهر – نحرها – أي : صدرها – وهي تحمل قدَحاً ومنديلاً ، فتناوله صلى الله عليه وسلم منها فشرب وتوضأ ، ثم رفع رأسه فقال : (يا بنيّة خمّري عليك – أي : غطّي – نحرَك ولا تخافي على أبيك) .

قلنا : مَن هذه ؟ قالوا : هذه زينب بنته رضي الله عنها [1] .

وعن عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو قال : قلت له : ما أكثر ما رأيتَ قريشاً أصابت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانت تُظهِرُ من عداوته ؟

قال : حضرتُهم وقد اجتمعَ أشرافُهم في الحِجر فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قطُّ ، سفّه أحلامَنا ، وشتمَ آباءَنا ، وعابَ دينَنا ، وفرّق جماعتَنَا ، وسبّ آلهَتنا ! لقد صبرنا منه على أمرٍ عظيم !

فبينما هم في ذلك إذ طلعَ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشي حتى استقبل الركنَ ، ثم مرّ بهم طائفاً بالبيت ، فلمّا مرّ بينهم غمزوه ببعض ما يقول – قال : فعرفتُ ذلك في وجهه ، ثم مضى ، فلمّا مرّ بهم الثانية غمزوه بمِثلها ، فعرفتُ ذلك في وجهه ، ثم مضى ، فلمّا مرّ بهم الثالثةَ فغمزوه بمثلها .

فقال صلى الله عليه وسلم : (أتسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذي نفسُ محمد بيده لقد جئتكم بالذّبح) أي : القتل .

فأخذتِ القومَ كلمتُه حتى ما منهم رجلٌ إلا على رأسه طائر واقع ، حتى إنّ أشدهم فيه وصاة – أي : توصيةً بإيذائه – قبل ذلك ليرفَؤه[2] بأحسن ما يجدُ من القول ، حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، انصرف راشداً ، فوالله ما كنتَ جَهُولاً ! فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحِجر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعضٍ : ذكرتم ما بلغ منكم وما

---

[1] قال الحافظ الهيثمي : رجاله ثقات اهـ

[2] أي : صار يسكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرفق به ، ويتودد له خوفاً مما قاله لهم .

بلغكم عنه ، حتى إذا باداكم – أي : جاهركم محمد صلى الله عليه وسلم – بما تكرهون تركتموه ؟!

فبينما هم في ذلك إذ طلعَ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوثبوا إليه وثبةَ رجلٍ واحد ، فأطافوا به يقولون : أنتَ الذي تقول كذا وكذا ؟ لما كان يبلغهم من عيب آلهتِهم ودينهم . قال : فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (نعم ، أنا الذي أقول ذلك) .

قال : فلقد رأيتُ رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه صلى الله عليه وسلم ، وقام أبو بكر دونه يقول : أتقتلون رجلاً أن يقولَ ربي الله ؟ ثم انصرفوا عنه .

قال : فإنّ ذلك لأشدُّ ما رأيتُ قريشاً بلغت منه قطُّ[1] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّي عند البيت ، وأبو جهل وأصحابه جلوس ، وقد نُحرت جزور – أي : بعير – بالأمس ، فقال أبو جهل : أيُّكم يقومُ إلى سَلا – أي : كرِش – جزور بني فلان فيضعه بين كتفي محمد إذا سجد ؟

فانبعث أشقى القوم – عقبة بن أبي مُعَيط – فأخذه ، فلما سجدَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وضعه – أي : وضع كرِش البعير بين كتفيه – صلى الله عليه وسلم – فاستضحكوا ، وجعل بعضهم يميل على بعض .

قال ابن مسعود : وأنا قائم أنظر ، لو كانت لي مَنَعة – أي : قوة أو جماعة – طرحتُه عن ظهره صلى الله عليه وسلم ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم ساجدٌ ما يرفع ، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة رضي الله عنها فجاءت – وهي جُويرية – فطرحتهُ عنه صلى الله عليه وسلم ثمّ أقبلت عليهم تشتمهم .

---

[1] قال الحافظ الهيثمي في (مجمع الزوائد) : قلت : في الصحيح طرف منه ، رواه أحمد وقد صرح ابن إسحاق بالسماع ، وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ من الجزء السادس .

فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم ، وكان إذا دعا دعا ثلاث مرات ، وإذا سأل سأل ثلاثاً .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : (اللهمّ عليك بأبي جهل بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط) وذكر السابع ولم أحفظه ، فوالذي بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحقّ لقد رأيتُ الذين سمّى صرعى يوم بدر ، ثم سحبوا إلى القليب – أي : البئر – قليب بدر ، رواه الشيخان .

ولما مات عمه صلى الله عليه وسلم أبو طالب اشتدّ إيذاءُ المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقابلوه بأنواع العداوة والشدائد ، فتوجّه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف لعلّ ثقيفاً يكونون له رِدءاً وعوناً وأنصاراً على قومه في مكة ، فإذا بهم يقابلونه أسوأ مقابلة ويردُّون عليه أقبح ردّ ، وإنما قصَدهم – كما قال المقريزي – لأنهم كانوا أخوالَه ، ولم يكن بينه وبينهم عداوة .

روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلتُ : يا رسول الله : هل أتى عليك يومٌ أشدّ من يومِ أُحُدٍ ؟

قال صلى الله عليه وسلم : (لقد لقيتُ من قومِكِ ما لقيتُ ، وكان أشدُّ ما لقيتُ منهم يوم العقبة ، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال ، فلم يجبني إلى ما أردتُ ، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي ، فلم أستفِق إلا وأنا بقرن الثعالب [1] ، فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلّتني ، فنظرتُ فإذا فيها جبريل عليه السلام ، فناداني فقال : إن الله تعالى قد سمعَ قولَ قومِك لك ، وما ردُّه عليك ، وقد بعثَ إليك ملكَ الجبال لتأمرَه بما شئتَ فيهم .

---

[1] وهو قرن المنازل ، ميقات أهل نجد ، وبينه وبين مكة يوم وليلة .

فناداني ملَكُ الجبال وسلّم عليّ ثم قال : يا محمد إنّ الله تعالى ثد سمعَ قولَ قومِك لك ، وأنا مَلَك الجبال ، قد بعثني إليك لتأمرَني بأمرك – زاد الطبراني : بما شئتَ ؟ إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشَبين[1] !

فقال صلى الله عليه وسلم : (بل أرجو أن يَخرج من أصلابهم من يعبدُ الله ولا يُشرك به شيئاً)

وروى أبو نعيم في (الدلائل) عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال : ومات أبو طالب وازداد من البلاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم شدّة ، فعمّد إلى ثقيف يرجو أن يُؤووه وينصروه ، فوجد ثلاثة نفر منهم سادةَ ثقيف ، وهم إخوة : عبد ياليل بن عمرو ، وخُبيب بن عمرو ، ومسعود بن عمرو ، فعرض عليهم نفسه صلى الله عليه وسلم وشكا إليهم البلاء ، وما انتهك قومه منه .

فقال أحدهم : أنا أسرِق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قطّ .

وقال الآخر : والله لا أكلمك بعد مجلسك هذا كلمةً واحدةً أبداً ، لئن كنتَ رسولاً لأنت أعظم شرفاً وحقاً من أن أكلمك[2] .

وقال الآخر : أيعجِز الله أن يرسل غيرك ؟

وأفشوا ذلك – الذي قال لهم – في ثقيف ، واجتمعوا يستهزئون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقعدوا له على صفّين على طريقه ، فأخذوا بأيديهم الحجارة ، فجعل لا يرفع رجله ولا يضعها إلا رضخوها بالحجارة ، وهم في ذلك يستهزئون ويسخرون ! فلما خلص من صفّيهم وقدماه تسيلان الدماء ، عمدَ صلى الله عليه وسلم إلى حائط من كرومهم ، فأتى ظلّ حبلة من الكرم ، فجلس في أصلها مكروباً مُوجَعاً تسيل قدماه الدّماء .

---

[1] جبلي مكة : أبا قبيس ومقابله قعيقعان .
[2] وزاد ابن إسحاق قوله : ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك

وذكر ابن إسحاق – وروى الطبراني أيضاً – عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما : لما توفي أبو طالب خرج النبي صلى الله عليه وسلم ماشياً إلى الطائف ، فدعاهم إلى الإسلام فلم يجيبوه ، فأتى ظلّ شجرة – أي من عنب – فصلّى ركعتين ثم قال : (اللهمّ إليك أشكو ضعف قوّتي ، وقلّة حيلتي ، وهواني[1] على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت أرحمُ الراحمين ، وأنت ربُّ المستضعفين ، إلى من تكلُني ؟ إلى عدوّ بعيد يتجهّمني [2] ، أم إلى قريبٍ ملّكته أمري ؟ إن لم تكن غضباناً – وفي رواية : إن لم تكن ساخطاً – وفي رواية : إن لم يكن بك سخطٌ – وفي رواية : إن لم يكن بك غضبٌ – عليّ فلا أبالي ، غير أنّ عافيتك أوسعُ لي ، أعوذُ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السموات والأرض ، وأشرقت له الظُّلمات ، وصَلُح عليه أمرُ الدنيا والآخرة ، أن ينزِلَ بي غضبُك ، أو يحلّ بي سخطُك – وفي رواية : أن يحلّ عليّ غضبُك ، أو ينزل عليّ سخطُك – ولك العُتبى [3] حتى ترضى ، ولا حول ولا قوةَ إلا بك)[4]

عدله صلى الله عليه وسلم

كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أعدلَ خلقِ الله تعالى في حقوق الله تعالى ، وفي حقوقِ عباد الله تعالى ، قوّاماً بالقسط ، منتصراً للحق حيث كان الحق ، مع القويّ أو الضعيف ، مع الغنيّ أو الفقير ، مع الكبير أو الصغير ، مع الرجل أو المرأة ، مع الحُرّ أو العبد .

روى الشيخان – واللفظ للبخاري – عن عروة ، أنّ امرأةً سرقت في عهدِ رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الفتح ، ففزع قومُها إلى أسامة بن زيد رضي الله عنهما يستشفعونه .

---

[1] أي : احتقارهم لي واستهانتهم بي .
[2] أي : يلقاني بالغلظة والوجه الكريه .
[3] قال في (شرح المواهب) : العتبى – بضم العين وألف مقصورة – أي : أطلب رضاك .
[4] انظر ذلك كله في (شرح المواهب) للزرقاني .

قال عروة : فلمّا كلّمه أسامة فيها تلّون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم – أي : من شدة الغضب – وقال – لأسامة - : (أتكلّمني في حدّ من حدود الله تعالى ؟!).

فقال أسامة : استغفِر لي يا رسول الله .

فلما كان العشي قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : (أما بعد : فإنما هلكَ الناس – أي : قبلكم في الأمم الماضية – أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ ! والذي نفسي بيده لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها) .

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك المرأة فقُطعت يدُها ، فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوّجت . قالت عائشة رضي الله عنها : كانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] .

فانظر أيها العاقل في عدله العظيم ، وحكمه القويم ! بل كان عدلُه صلى الله عليه وسلم يتّسع لأعدائه ، ويوصل إليهم حقوقَهم المشروعة لهم دون هوادة في ذلك .

فقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن أبي حدردٍ الأسلمي ، أنه كان ليهوديّ عليه أربع دراهم ، فاستعدى عليه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم .

فقال صلى الله عليه وسلم له : (ادفع إليه حقّه) .

فقال – ابن أبي حدرد - : لا أجد – فأعادها – عليه صلى الله عليه وسلم – ثلاثاً – أي : يقول له ادفع إليه حقّه - .

قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال ثلاثاً لم يُراجَع .

---

[1] وأورده الحافظ المنذري في (الترغيب) مختصراً ، وعزاه للبخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة : ٣ : ٢٤٧

فخرج ابن أبي حدرد إلى السوق ، فنزع عمامته فاتّزر بها ، ودفع إليه البُرد الذي كان متّزراً به ، فباعه بأربعة دراهم فدفعها إليها – أي : إلى اليهودي –

فمرّت عجوزٌ فسألته – أي : سألت ابن أبي حدرد – عن حاله ، فأخبرها – بحاجته – فدفعت له بُرداً كان عليها [1]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان لرجلٍ على رسول الله صلى الله عليه وسلم سن – أي : دابة ذات سنّ – من الإبل فجاءه يتقاضاه – أي : يطلب قضاء حقّه – وإنه أغلظ له في القول ، حتى همّ به بعض القوم – أي : همّ بعض الصحابة بضربه لما أغلظ في القول على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان أعرابياً – كما في رواية ابن ماجه .

فقال صلى الله عليه وسلم : (دعُوه – اتركوه – فإنّ لصاحبِ الحقّ مقالاً) .

ثم قال : (أعطوه) .

فطلبوا سِنه فلم يجدوا إلا سنّاً فوقها – أي : أحسنَ من السنّ التي له – فقال صلى الله عليه وسلم : أعطوه . فقال – الرجل - : أوفيتني أوفاك الله تعالى .

فقال صلى الله عليه وسلم : (إنّ خيرَكم أحسنُكم قضاءً) .

أخرجه الخمسة إلا أبا داود كما في (جامع الأصول) .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يُتحاكَم إليه قبل البعثة أيضاً ، لما عرفوه من عدله صلى الله عليه وسلم وأمانته – قال ابن مسعود رضي الله عنه : (كان يُتحاكَم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية قبل الإسلام) .

وروى ابن أبي شيبة عن أبي رافع عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (والله إني لأمينٌ في السماء وأمين في الأرض)[2]

---

[1] انظر (الجزء الثاني من الإصابة) ترجمة عبد الله بن أبي حدرد .
[2] كذا في (الشفاء وشروحه) .

رحمته صلى الله عليه وسلم للعالم

قال الله تعالى : (وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين) .

فهو صلى الله عليه وسلم رسول الرحمة الذي أرسله الله تعالى رحمةً لجميع العالمين :

رحمة للمؤمنين ، ورحمة للكافرين ، ورحمة للمنافقين ، ورحمة لجميع بني الإنسان : الرجال والنساء والصبيان ، ورحمة للطير والحيوان ، فهو رحمةٌ عامّة لجميع خلق الله تعالى .

أما رحمته للمؤمنين : فبهدايتهم إلى سعادة الدنيا والآخرة ، وباهتمامه بما يُصلح لهم أمرَ دينهم ودنياهم ، وتحذيره إياهم مما يفسد عليهم أمرَ الدنيا

والآخرة رأفةً ورحمةً بهم ، كما قال الله تعالى : (بالمؤمنين رؤوف رحيم) – والرأفة تقتضي إبعاد كل شر وفساد وضرر ، والرحمة تقتضي جلب كل خير وصلاح ونفع .

ولقد أقامه الله تعالى في رأفته ورحمته للمؤمنين : أنه أولى بهم من أنفسهم ،

قال تعالى : (النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ..) الآية – يعني أنه صلى الله عليه وسلم أرأفُ بهم وأعطفُ عليهم وأنفع لهم من أنفسهم ، ولذلك كان أحقّ بهم من كل شيءٍ من أمور الدين والدنيا ، وحكمُه أنفذ عليهم من حكم أنفسهم ، فعليهم أن يبذلوها دونه ، ويجعلوها فداءه صلى الله عليه وسلم .

ولذا كان صلى الله عليه وسلم يُعلن هذه الأولوية في خُطبه ومجتمعاته كما تقدّم في بحث كلامه وخطبه صلى الله عليه وسلم .

وكما روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(ما من مؤمنٍ إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرؤوا إن شئتم : (النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فأيُّما مؤمن ترك مالاً فلترثه عصبتُه ما كانوا ، وإن ترك دَيناً أو ضَياعاً أو عيالاً فليأتني ، فأنا مولاه) .

وفي رواية أحمد عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، فأيُّما رجل مات وترك ديناً فإليّ ، ومن ترك مالاً فهو لورثته) .

وأما رحمته للمنافقين : فبالأمان من القتل والسّبي ، نظراً لظاهر إسلامِهم في الدُّنيا . **وأما رحمته للكفار :** فبرفع عذاب الاستئصال عنهم في الدنيا ، وذلك أن الأمم السابقة ، كانت إذا أرسل الله تعالى فيهم رسولاً فكذّبوه وكفروا به جاءهم العذاب فعمّهم ، كما قصّ الله تعالى من أخبار قوم : نوحٍ ، وعادٍ ، وثمود ، وقوم لوط – وغيرهم ، كيف أحاط بهم العذاب وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون .

وأما كفار هذه الأمة المحمدية : فقد رفع الله عنهم العذاب العام الذي يستأصلهم ، كما استأصل وعمّ الكفارَ من الأمم السابقة ، وذلك تكرِمةً لهذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله تعالى رحمةً للعالمين .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : (وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين) قال : من آمنَ تمّت له الرحمة في الدُّنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن عوفي مما كان يصيبُ الأمم من عاجل الدنيا من العذاب – أي : العامّ – من المسخ والخسف والقذف . اهـ [1]

وأما أخذُ بعض كفار هذه الأمة بالعذاب : فهو واقع لا محالة .

وهذا المعنى – وهو أنّ الله تعالى لا يعذّب كفار هذه الأمة المحمدية عذاباً عامّاً مستأصلاً كالكفّار قبلهم – هذا المعنى هو الذي جرى عليه وفهمه محققو

---

[1] رواه الطبراني والبيهقي في (الدلائل) ، وابن مردويه وغيرهم ، كما في (تفسير) ابن كثير وغيره .

العلماء من قوله تعالى : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) أي : وما كان الله ليعذّبَهم وأنتَ مرسلٌ فيهم ، وهذا العذاب المنفيُّ هو العذاب العامّ الطامّ .

أما العذاب الخاصّ ببعضٍ منهم ، أو المرسَل على أطرافٍ منهم ، فهو واقع كما دلّ على ذلك قوله تعالى في الآية التالية لتلك الآية : (وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) الآية – وهذا طريقُ الجمع بين الآيتين ، كما نبّه عليه المحققون .

فهو صلى الله عليه وسلم رسول الرحمة ، وهو نبي الرحمة ، كما في (صحيح) مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمّي لنا نفسه أسماءً فقال : (أنا محمد ، وأحمدُ ، والمقفّي – أي : آخر الأنبياء وخاتمهم – والحاشر ، ونبي التوبة ، ونبي الرحمة) .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قيل يا رسول الله : أدع على المشركين . فقال : (إني لم أبعَث لعّاناً ، وإنّما بُعثتُ رحمة) .

بل هو صلى الله عليه وسلم الرحمةُ المهداةُ التي أهداها الله تعالى للعالم :

كما روى الطبراني والبيهقي في (الدلائل) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إنما أنا رحمةٌ مُهداة) .

وعند الطبراني : (بُعثتُ رحمةً مُهداة)[1] .

رحمته صلى الله عليه وسلم بالأهل والعيال

روى مسلم في (صحيحه) عن عمرو بن سعيد عن أنس رضي الله عنه قال : ما رأيتُ أحداً كان أرحمَ بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : كان إبراهيمُ مسترضعاً له في عوالي المدينة ، فكان ينطلقُ ونحنُ معه ، فيدخلُ

[1] انظر شرح المواهب للزرقاني .

البيتَ وإنه ليُدخّنُ – أي : يعلو منه الدخان – وكان ظِئره قَيناً ، فيأخذُه – أي : فيأخذ النبي صلى الله عليه وسلم ابنه إبراهيم المسترضع – فيقبّله ثم يرجع .

قال عمرو : فلمّا توفي إبراهيم قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : (إنّ إبراهيمَ ابني ، وإنّه مات في الثّدي ، - أي : في سنّ رضاع الثّدي – وإنّ له لظئرين – أي : مرضعتين – تُكمّلان رضَاعه في الجنّة) أي : يتمّان له رضاع سنتين ، فإنه توفي وله ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً اهـ من شرح النووي .

وفسّر القين في (النهاية) بأنه : الحدّاد والصائغ .

ومن رحمتِه بأهله صلى الله عليه وسلم : أنه كان يعاونهم في الأمور البيتية ، كما تقدّم أن الأسود قال سألتُ عائشة رضي الله عنها : ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في أهلِه ؟

فقالت : (كان في مهنة أهلِه ، فإذا حضرت الصلاةُ قام إلى الصلاة) .

فما كان صلى الله عليه وسلم من جبابرة الرجال ، بل كثيراً ما كان يخدِم نفسَه بنفسِه صلى الله عليه وسلم :

ففي (مسند) أحمد وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يخيطُ ثوبَه ، ويخصِف نعلَه ، ويعمل ما يعمل الرجالُ في بيوتهم) .

رحمته صلى الله عليه وسلم بالصبيان

روى الشيخان وغيرهما عن أنس رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إني لأدخلُ في الصلاة أريد إطالتَها ، فأسمع بكاءَ الصبيّ فأتجوّز في صلاتي ، مما أعلم من شدة وَجد أمه)

ومن رحمته صلى الله عليه وسلم بالصبيان : أنه كان يمسح رؤوسهم ويُقبّلُهم :

كما جاء في (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها قالت : قبّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن والحسين ابني عليّ ، وعنده الأقرع بن حابس التميميُّ .

فقال الأقرع : إنّ لي عشرةً ما قبّلتُ منهم أحداً قط ! .

فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : (مَن لا يَرحم لا يُرحَم) .

وفي (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (إنّكم تقبّلون الصبيان وما نقبّلهم ! .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أوَ أملِكُ لك أن نزع الله الرحمةَ من قلبك ؟!) .

يعني : أنّ من كان في قلبه رحمةٌ للصبيان حملته على أن يقبّلهم ، ومن نُزعت الرحمةُ من قلبه أمسكَ عن تقبيلِهم .

وروى الشيخان والترمذي عن البراء رضي الله عنه قال : رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم والحسن على عاتقه يقول صلى الله عليه وسلم : (اللهمّ إني أحبُّه فأحبَّه) .

وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم : أيُّ أهلِ بيتِك أحبّ إليك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : (الحسن والحسين) .

وكان يقول لفاطمة عليها السلام : (ادعي لي ابنيّ) ويضمُّهما إليه رضي الله عنهما .

ومن رحمته بالصبيان وحبّه لإدخال السرور عليهم : أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أتي بأول ما يدرك من الفاكهة يعطيه لمن يكون في المجلس من الصبيان :

كما روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا أتي بباكورة الثمرة – أي : أولها – وضعها على عينيه ثم على

شفتيه وقال : (اللهمّ كما أريتَنا أوله فأرِنا آخرَه) ثم يعطيه من يكون عنده من الصبيان .

رواه ابن السني عن أبي هريرة ، وقال الحافظ الهيثمي : رواه الطبراني في (الكبير ، والصغير) ورجال الصغير رجال الصحيح اهـ

ومن رحمته : دمعُ عينيه صلى الله عليه وسلم لفراق ولده إبراهيم رضي الله عنه :

فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على ابنه إبراهيم رضي الله عنه ، وهو يجودُ بنفسِه – اي : في حالة الاحتضار – فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرِفان – تدمعان - .

فقال له عبد الرحمن بن عوف : وأنت يا رسول الله !

فقال : (يا ابن عوف إنها رحمةٌ) ثم أتبعها بأخرى فقال : (إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضي ربّنا ، وإنّا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون) رواه البخاري ، وروى بعضه مسلم .

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رُفِع إليه ابن ابنتِه وهو في الموت ، ففاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال له سعد : ما هذا يا رسول الله ! .

قال : (هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده ، وإنما يرحمُ الله من عباده الرحماءَ) متفق عليه .

ومن رحمته صلى الله عليه وسلم : بكاؤه لثقل مرض بعض أصحابه :

كما ورد في (الصحيحين) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عاد سعد بن عبَادة ومعه عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم ، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأى القومُ بكاءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بَكَوا ، فقال :

(ألا تسمعون ؟ إنّ الله لا يعذّب بدمعِ العين ، ولا بحزنِ القلب ، ولكن يعذّب بهذا أو يرحم) وأشار إلى لسانِه

ومن رحمته صلى الله عليه وسلم : بكاؤه لموت صاحب من أصحابه : ومن ذلك ما رواه الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبّل عثمان بن مظعون وهو ميت ، وهو صلى الله عليه وسلم يبكي .

وفي رواية ابن سعد في (الطبقات) عن عائشة رضي الله عنها :

(قبّل عثمانَ بن مظعون وهو ميت ، قالت : فرأيتُ دموع النبي صلى الله عليه وسلم تسيل على خدّ عثمان) .

وعند ابن الجوزي في كتاب (الوفاء) عن عائشة رضي الله عنها قالت : لمّا مات عثمان بن مظعون كفّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم الثوبَ عن وجهه ، وقبّل بين عينيه ، ثمّ بكى طويلاً ، فلمّا رُفع على السرير قال : (طوبى لك يا عثمان ، لم تلبَسك الدُّنيا ولم تلبَسها) كذا في (جمع الوسائل) .

وأمّا رحمته صلى الله عليه وسلم بالمساكين والضعفاء : فقد تقدّم ما رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : (إن كانت الأمة – أي : المملوكة – لتأخذُ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت) .

وفي رواية أحمد : (فتنطلق به في حاجتها) – أي : ليقضي لها حاجتها من شراء طعام أو متاع ونحو ذلك .

وروى النسائي عن ابن أبي أوفى رضي الله عنه : (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يأنف – أي : لا يتكبّر – أن يمشي مع الأرملة والمسكين ، فيقضي لهما الحاجة)

وعن سهل بن حُنيف رضي الله عنه : (أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ، ويعودُ مرضاهم ، ويشهدُ جنائزهم)

رواه أبو يعلى والطبراني والحاكم .

رحمته صلى الله عليه وسلم باليتيم

قال الله تعالى : (فأمّا اليتيم فلا تقهر) .

كان صلى الله عليه وسلم يُحسنُ إلى اليتامى ، ويبرُّهم ، ويوصي بكفالتهم والإحسانِ إليهم ، وبيّن الفضائل المرتّبة على ذلك .

روى البخاري وغيره عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنا وكافلُ اليتيمِ في الجنّة هكذا) وأشار بالسبّابة والوسطى وفرّج بينهما .

وروى ابنُ ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : (خيرُ بيتٍ من المسلمين بيتٌ فيه يتيمٌ يُحسنُ إليه ، وشرُّ بيتٍ من المسلمين بيتٌ فيه يتيمٌ يُساءُ إليه) .

وذكر صلى الله عليه وسلم فضلَ المرأة التي مات زوجُها ، فحبست نفسَها على تربيةِ أولادها ولم تتزوّج :

ففي (سنن) أبي داود عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أنا وامرأةٌ سفعاء الخدّين [1] كهاتين يوم القيامة – الوسطى والسبّابة – امرأةٌ آمَت من زوجِها ذاتُ منصب وجمال ، حبسَت نفسَها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه

فقال له صلى الله عليه وسلم : (امسح رأسَ اليتيم ، وأطعِم المسكين) رواه أحمد .

---

[1] وهي التي تغيّر لونها إلى الكمودة والسواد من طول الأيمة ، يريد بذلك أنها حبست نفسها على أولادها ولم تتزوج حتى تحتاج إلى الزينة والتصنع للزوج اهـ كما في (ترغيب) المنذري .

قال الحافظ المنذري : ورجاله رجال الصحيح .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : (الساعي على الأرملة والمسكين – أي : الذي يسعى فيما ينفع الأرملة والمسكين – كالمجاهد في سبيل الله – وأحسَبه قال : وكالقائم لا يفتُر ، وكالصائم لا يُفطِر) رواه الشيخان .

ورواه ابن ماجه بلفظ : (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله ، وكالذي يقوم الليل ويصوم النهار) .

رحمته صلى الله عليه وسلم بالحيوان

كان صلى الله عليه وسلم يوصي بالرحمة بالحيوان ، وينهي صاحبَه أن يُجيعه أو يُدئبه ويتعبَه ، بإدامِة الحمل عليه ، أو إثقاله ، أو يحسّه بما فيه نوع من التعذيب له .

روى أبو داود وابن خزيمة في (صحيحه) عن سهل بن الحنظلية رضي الله عنه قال : مرّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ببعيرٍ قد لحِقَ ظهرُه ببطنه – أي : ضمُر من شدّة الجوع – فقال صلى الله عليه وسلم : (اتّقوا الله في هذه البهائم فاركبوها صالحةً ، وكلوها صالحةً). وروى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال : أردفَني رسول الله صلى الله عليه وسلم خَلفَه ذات يومٍ ، فدخل حائطاً – أي : بستاناً – لرجلٍ من الأنصار ، فإذا فيه جمل فلما رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم حنّ – الجمل – وذرفَت عيناه . فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسحَ ذِفراه – موضع الأذنين من مؤخر الرأس – فسكت – الجمل - .

فقال صلى الله عليه وسلم : (من ربُّ – أي : صاحب – هذا الجمل ؟ لمن هذا الجمل ؟) .

فجاء فتى من الأنصار فقال له صلى الله عليه وسلم : (أفلا تتقي الله في هذه البهيمةِ التي ملّكك الله إياها ؟! فإنه شكا إليّ أنك تُجيعُه وتدئبُه) أي : تتعبُه من كثرة العمل عليه واستعماله فوق طاقتِه .

فكان صلى الله عليه وسلم ينهى عن إجاعة الحيوان وإتعابه ، إمّا بكثرة العمل عليه ، أو تحميلِه فوق طاقتِه .

كما كان صلى الله عليه وسلم ينهى عن إرهاق الحيوان بإيقافِه وإطالة الجلوس عليه من غير ضرورةٍ إلى ذلك :

ففي (مسند) الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على قومٍ وهم وقوفٌ على دوابّ لهم ورواحل .

فقال لهم : (اركبوها سالمة[1] ودعُوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسيَ لأحاديثكم في الطرق والأسواق ، فرًبّ مركوبةٍ خيرٌ من راكبها ، وأكثرَ ذكراً لله منه)

وعزاه في (الجامع الصغير) إلى (المسند) وأبي يعلى والطبراني و(مستدرك) الحاكم رامزاً لصحته .

فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجلوس فوق ظهور الدوابّ وهي واقفةٌ للتحدُّث عليها

قال العلامة المناوي : والمنهيُّ عنه الوقوفُ الطويل لغير حاجة ، فيجوزُ حال القتال ، والوقوف بعرفة ونحو ذلك ، قال : وفيه إشعار بطلب الذكر للراكب ، وقد ذكر أهل الحقيقة أنه يخففُ الثقل عن الدابة اهـ .

---

[1] عن الكد والاتعاب ، قال : وقال الهيثمي : أحد أسانيد أحمد : رجاله رجال الصحيح غير سهل بن معاذ وثقه ابن حبان وفيه ضعف اهـ قال : وقال الذهبي : فيه سهل وفيه لين ، قلت : ولكنه جاء من طرق متعددة فيقوى ما هنالك . قال العلامة المناوي في معنى سالمة : أي : خالصة

وعن عبد الرحمن بن عمرو السلمي رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إنّ الله يوصيكم بهذه البهائم العُجم – مرتين أو ثلاثاً – فإذا سرتم عليها فأنزلوها منازِلها) الحديث .

وفي (سنن) النسائي عن عبد الله بن عمرو قال : نهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الضّفدع وقال : (نقيقُها تسبيح)[1] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (دخلت امرأةٌ النارَ في هرّةٍ ربطتها ، فلم تُطعِمها ولم تدعهَا تأكلُ من خشاش الأرض) رواه البخاري وغيره [2] .

كما وأنه صلى الله عليه وسلم نهى عن تسليط الحيوانات بعضها على بعض بالأذى ، وتهييجِها بالإفساد : ففي (سنن) أبي داود والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما : نهى رسول الله صلى الله لعيه وسلم عن التحريش بين البهائم .

رحمته صلى الله عليه وسلم بالطيور

كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يحذّر من أن يفجعَ الإنسانُ الطيورَ بأولادها ، وذلك من باب الرحمة :

ففي (سنن) أبي داود عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : كنا مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في سفرٍ فانطلق لحاجتِه ، فرأينا حُمّرة[3] معها فرخان ، فأخذنا فرخيها ، فجاءت الحُمّرة فجعلت تُعرش [4] .

---

[1] وكذلك أورده الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى : (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ..) الآية .

[2] كذا في (ترغيب) المنذري قال : وخشاش الأرض : مثلثة الخاء المعجمة وبشينين معجمتين ، هو : حشرات الأرض والعصافير ونحوها

[3] طائر صغير كالعصفور .

[4] قال في (النهاية) مفسراً لهذه الجملة : التعريش أن ترتفع وتظلل بجناحيها على من تحتها اهـ

فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (مَن فجع هذه بولديها ؟ رُدُّوا ولديها إليها) .

ورأى قرية نحل – أي : مجتمع نحل – قد حرقناها ، فقال : (مَن حرق هذه ؟) ، قلنا : نحن .

قال : (إنه لا ينبغي أن يعذّب بالنار إلا ربُّ النار) .

كما وأنه صلى الله عليه وسلم حذّر من قتل الطير عبَثاً ، لا لمنفعة أكل ونحوه .

روى النسائي وابن حبان في (صحيحه) عن الشّريد رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من قتل عُصفوراً عجّ [1] إلى الله يوم القيامة ، يقول : يا ربّ إنّ فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني منفعةً) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ما مِن إنسانٍ يقتُل عصفوراً فما فوقها بغير حقّها إلا يسأله الله عنها يوم القيامة) .

قيل : يا رسول الله وما حقُّها ؟

قال : (حقُّها أن تذبَحها فتأكلَها ولا تقطعَ رأسَها فترميَ به)[2] .

كما وأنه صلى الله عليه وسلم أوصى بالرّفق في ذبحِ الحيوان والإحسان إليه في ذلك :

روى الطبراني وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رجلاً أضجع شاةً وهو يحدُّ شفرته .

فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : (أتريدُ أن تُميتَها موتتين ؟ هلّا حددتَ شفرتَك قبلَ أن تضجعَها !)[1] .

---

[1] أي : شكا إلى الله تعالى بصوت عال .
[2] قال في (الترغيب) : رواه النسائي والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

كما وأنّه صلى الله عليه وسلم حذّر من اتخاذ الحيوان وكل ذي روح غَرَضاً – أي : هَدَفاً للرمي : روى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه مرّ بفتيانٍ من قريش ، قد نصبوا طيراً أو دجاجة يترامونَها ، وقد جعلوا لصاحب الطيرِ كل خاطئة من نبلهم ، فلما رأوا ابن عمر تفرّقوا .

فقال ابن عمر : من فعل هذا ؟ لعن الله من فعل هذا ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من اتّخذ شيئاً فيه الروح غَرَضاً .

التدبُّر والتأمل في قوله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين)

إن من تدبّر قوله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وتفكر في معاني هذه الآية الكريمة يتّضح له جليّاً أن جميع ما جاءت به الرسالة المحمّدية ، وجميع ما اشتملت عليه ، من أوامرَ ومناهيَ ، وعبادات ومعاملات ، وآداب وأخلاق ، وحقوق وواجبات ، كل ذلك مبنيّ على أساس الرحمة للعباد . بل وما جاءت به الرسالة المحمدية من العقوبات الشرعية وهي القصاص والحدود والتعزير !

كل ذلك إنما هو رحمة للعالمين ، ورحمة للبلاد والعباد ، لأن في ذلك إيقافاً للمفسد عن التوغّل في الفساد ، ومنعاً لفساده أن يستشري لغيره ، فإن عضو جسم الإنسان إذا فسد فمن الرحمة أن يُبترَ لئلا يستشري الفساد ويتعدّاه لغيره ، وكذلك فإنّ المجتمع كلّه يعتبر من هذه الناحية كالجسم الواحد في نظر الشرع ، وتفصيل ذلك ليس موضعَه هنا .

ذلك لأن الرسالة المحمدية جاءت بالرحمة وللرحمة ، ولذلك وردت الآية على طريق الحصر ، ليعلَمَ العاقل أن جميع مضامين هذه الرسالة ومشتملاتها ، كل أولئك إنما هو رحمة للعباد في الدنيا والآخرة ، وفيها سعادتهم وصلاحهم ، وفلاحهم ونجاحهم في الدنيا والآخرة ، وأنه لم تأتِ الرسالة المحمدية لسعادة

---

[1] قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني في (الكبير ، والأوسط) والحاكم – واللفظ له – وقال : صحيح على شرط البخاري .

الآخرة وصلاح الآخرة ونجاح الآخرة فحسب ، بل جاءت لسعادة وصلاح وفلاح الدنيا والآخرة معاً .

ولذلك نبه النبي صلى الله عليه وسلم العقلاء والفُطناء والحكماء إلى بيان موقفه من ناحية الإسعاد والإصلاح مع العالم ، فذكر مثالاً حسّياً ليتّضح الموقف ويبرز في صورة محسوسة .

ففي (مسند) الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فيما يرى النائم ملكان ، فقعد أحدهما عند رجليه ، والآخر عند رأسه

فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه : اضرب مَثَل هذه ومثل أمّته .

فقال : إن مَثَل هذا ومثل أمته كمثل قوم سَفر [1] انتهوا إلى رأس مفازة[2] فلم يكن معهم من الزّاد ما يقطعون به المفازة ، ولا ما يرجعون به ، فبينا هم كذلك إذ أتاهم رجلٌ في حُلّة حبِرة[3] ، فقال : أرأيتم إن وردتُّ بكم رياضاً مُعشِبة[4] ، وحياضاً رُواءً أتتبعوني ؟ قالوا : نعم فانطلق بهم فأوردهم رياضاً معشبة ، وحياضاً رُواء ، فأكلوا وشربوا وسمنوا ، فقال لهم : ألم أُلِفكم [5] على تلك الحال ، فجعلتم لي أن أوردكم رياضاً معشبة ، وحياضاً رُواء أن تتبعوني ؟ قالوا : بلى ، قال : فإن بين أيديكم رياضاً هي أعشبُ من هذه ، فاتبعوني ، قال : فقامت طائفة قالت : صدق والله ، لنتبعنّه ، وقال طائفة : قد رضينا بهذا ، نُقيم عليه)[6] .

---

[١] سفر : جمع سافر ، كركب جمع راكب ، وهم القوم المسافرون .
[٢] وصلوا وسط الصحراء الدوية ، وسميت مفازة تفاؤلاً بالفوز والنجاة لمن اجتازها .
[٣] نوع حسن من الثياب ، والمعنى : أن الرجل الذي خرج عليهم هو من أهل الفضل والكمال ، تلوح عليه آيات الصدق والنصح .
حدائق وبساتين .
[٥] أي : ألم أجدكم
[٦] كذا في (مجمع الزوائد) ٨ : ٢٦ وقال : رواه أحمد والطبراني والبزار وإسناده حسن ، وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره آخر سورة التوبة

فلقد جاء رسول الله صلى الله عيله وسلم برسالة عامة ، كافلة وكافية ووافية بجميع مصالح البشر ، وبما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة .

فالمؤمنون الصادقون أخذوا بجميع مبادئ الرسالة المحمدية المنوطة بأمور الدنيا وبأمور الآخرة ، فنالوا من الله سعادة الدنيا والآخرة .

وغيرُهم أخذوا بمبادئ الرسالة المحمدية التي فيها مصالح الدنيا فحسب ، فنالوا حظهم من سعادة الدنيا ورفاهتها ، وانتظام أمورها ، ولكنهم لم يأخذوا بما فيه صلاح آخرتهم وسعادتهم في الآخرة فما لهم في الآخرة من خلاق .

هذا ، وإن قوله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) يشمل عالم الإنس وعالم الجن وعالم الملائكة وما يتبع ذلك من العوالم .

أما رحمته صلى الله عليه وسلم للإنس : فهو ما تقدم من شمول رحمته صلى الله عليه وسلم لجميع طبقات الإنس

وأما رحمته للجن : فكذلك الأمر هو في الجن كما في الإنس ، باعتبار أنه صلى الله عليه وسلم رسول إلى الجن أيضاً رسالة تكليف ، وقد بلّغهم وأمرهم ونهاهم ، وبيّن لهم – في عدة مناسبات .

كما أنهم توافدوا عليه واستمعوا إليه صلى الله عليه وسلم – وتفصيل ذلك مبيّن في كتابنا (**الإيمان بالملائكة – والبحث حول عالم الجن**) فارجع إليه تجد الأدلة على ذلك .

وأما شمول رحمته صلى الله عليه وسلم لعالم الملائكة : فهو ما ذهب إليه جماهير العلماء والعرفاء ، وذلك :

١- إما باعتبار أنه صلى الله عليه وسلم مرسل إليهم برسالة فيها تكليف لهم بأوامر ونواهي ، كما رجحه كثير من محققي المحدثين والفقهاء [1] .

---

[1] انظر (شرح الزرقاني على المواهب) ، و(تفسير) الآلوسي حول الآية – وغيرهما .

٢- وإما باعتبار أنه صلى الله عليه وسلم مرسَل إليهم رسالة تشريف ، فقد شملهم عموم رحمته ، ونالوا بواسطته علوماً جمّة كثيرة ، وأسراراً عظيمة كثيرة ، مما أودع الله تعالى في كتابه الذي أنزل عليه صلى الله عليه وسلم والإيحاءات النبوية التي أوحاها إليه ، وقد قال الله تعالى : (كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ) .

والمراد هنا بالسفرة : الملائكةُ عليهم السلام ، فهم يتلون ما أذن الله تعالى لهم به من تلاوة هذا القرآن الكريم ، المكتوب في صحفهم ، ويزدادون بذلك علماً ومعرفةً بجلال الله تعالى وعظمته وحكمته .

وفي (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها : قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الذي يقرأ القرآن وهو ماهرٌ به ، مع السفرة الكرام البَرَرة ، والذي يقرأ القرآن ، وهو عليه شاق له أجران) .

هذا ، وقد أجملنا الكلام على هذه الآية الكريمة في هذا الموطن ، لأننا سوف نتكلم عليها إن شاء الله بعدُ في الحلقة الثانية من هذا الكتاب ، وهي الحلقة التي يُبحثُ فيها عن مواقف سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مع العالم ، ومن جملة تلك المواقف أنه صلى الله عليه وسلم جاء رحمة للعالمين ، فهناك التفصيل إن شاء الله تعالى .

في عظيم حيائه صلى الله عليه وسلم

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظمَ الناس حياء ، لأنه أعظمُهم إيماناً ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (الحياء من الإيمان)[1] .

[1] تمامه : (والإيمان في الجنة ، والبذاء من الجفاء ، والجفاء في النار) رواه أحمد بـ (رجال الصحيح) والترمذي وابن حبان في (صحيحه) وقال الترمذي : حديث حسن صحيح اهـ (ترغيب) المنذري .

وفي (الصحيحين) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدّ حياءً من العذراء في خِدرها) .

وفي رواية البخاري : (وإذا كره شيئاً عُرف في وجهه صلى الله عليه وسلم) .

ومن المعلوم أن المرأة العذراء ، وهي البكر المستترة في خدرها – أي : في ناحية بيتها أو خيمتها – تكون شديدة الحياء ، فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء منها ، والحياء خُلُق يبعث على اجتناب القبيح ، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : (استحيوا من الله حقّ الحياء) .

فقالوا : إنا لنستحيي من الله والحمد لله .

قال صلى الله عليه وسلم : (ليس ذلك ، ولكن الحياء من الله هو : أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى) إلى تمام الحديث – كما تقدم في جملة الأربعين ، وفيه بيان أن الحياء يحمل صاحبه على فعل الكمال ، ويمنعه من النقصان .

وقال صلى الله عليه وسلم : (الحياء لا يأتي إلا بخير) كما في البخاري .

وقد بلغ من حيائه صلى الله عليه وسلم أنه لم يواجه أحداً بما يكرهه ، بل يعرّض بذلك ، أو يأمر بعض الصحابة من يصارح بذلك الرجلَ المقصّر :

روى أبو داود والترمذي وغيرهما عن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يواجه أحداً في وجهه بشيء يكرهه ، فدخل عليه يوماً رجل وعليه أثر صُفرة ، فلما قام قال لأصحابه : (لو أمرتم هذا أن يغسل هذه الصفرة)

وروى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل ما بال فلان ، ولكن يقول : ما بال أقوامٍ يقولون كذا وكذا) .

ومن ذلك حياؤه صلى الله عليه وسلم من القوم الذي أطالوا الجلوس عنده بعد الأكل ، فاستحيا أن يقول لهم انصرفوا ، حتى نزلت الآية في ذلك .

كما في (صحيح) البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عروساً بزينب ، فقالت لي أمّ سليم : لو أهدينا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هدية

قال أنس : فقلت لها : افعلي .

فعمدت إلى تمر وسمن وأقِط ، فاتّخذت حَيسة في بُرمة فأرسلت بها معي ، فانطلقتُ بها إليه .

فقال : (ضَعها) ثم أمرني فقال لي : (ادعُ رجالاً – سماهم – وادعُ لي من لقيتَ) ففعلت الذي أمرني .

فرجعت فإذا البيت غاص بأهله ، ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده في تلك الحَيسة ، وتكلم بما شاء الله تعالى ، ثم جعل يدعو عشرةً عشرةً يأكلون منه ، ويقول لهم : (اذكروا اسم الله ، وليأكُل كل رجل مما يليه) حتى تصدّعوا كلهم ، وفي رواية مسلم : قيل لأنس : عدَدَكم كانوا ؟

قال : زُهاء ثلاثمائة – فخرج من خرج ، وبقي نفر يتحدثون .

وفي رواية مسلم : وكان النبي صلى الله عليه وسلم شديدَ الحياء – أي : استحيا أن يقول لهم انصرفوا – ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم نحو الحُجُرات ، وخرجتُ أثَره ، فقلت : إنهم قد ذهبوا ، فرجع النبي صلى الله عليه وسلم فدخل البيت وأرخى الستر وإني لفي الحجرة ، وهو يقول : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ

وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ..) الآية) .

والمراد أنه صلى الله عليه وسلم يستحيي حياء كرم أن يقول لهم انصرفوا ، وهم جلوس عنده ، والله لا يستحيي من بيان الحق الواجب اتّباعُه ، وهذا لا ينافي أنه سبحانه متصف بحياء الكرم اللائق بمقام ربوبيته تعالى ، كما قال صلى الله عليه وسلم : (إن ربكم حييٌ كريم ، يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردَّهما صُفراً) أي : خاليتين – رواه الترمذي وغيره .

فباعتبار أن إطالة الجلوس كانت عنده صلى الله عليه وسلم في بيته استحيا منهم أن يُصارحهم في الأمر ، كرماً منه ، ولكن الموقف يتطلب بيان الحق في ذلك لا محالة ، فجاء القرآن بالبيان ، من الملك الديّان ، جل وعلا .

وقد ذكر العلماء للحياء أنواعاً لتنوّع أسبابه :

فمن ذلك : حياء الكرم ، وسببه كرم النفس ، كاستحيائه صلى الله عليه وسلم من القوم لما أطالوا الجلوس عنده ، كما تقدم .

ومن ذلك : حياء الإجلال : وهو حياءٌ سببه المعرفة بعظمة المستحيا منه ، وعلى قدر معرفة العبد بربّه يكون حياؤه سببه منه سبحانه .

ولا ريب أنه صلى الله عليه وسلم أعلم خلق الله تعالى ، بالله تعالى وبعظمة ربوبيته ، كما تقدم في حديث الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أما والله إني لأعلمكم بالله ، وأتقاكم له) ، **ومن ذلك : حياء المحبة :** وهو حياء المحب من محبوبه ، حتى إنه لتمرّ على قلب المحب ذكريات المحبوب فتزيده حياءً ووجلاً من محبوبه .

ومن ذلك : حياء العبودية : وهو حياء يمتزج بين محبةٍ وخوفٍ ، ومشاهدةِ أن قدر معبوده سبحانه ، هو أجلُّ وأعلى من العبادة والعبودية التي يتقرب بها إليه .

ومن ذلك : حياء المرء من نفسه : وهو حياء صاحب النفس الشريفة الكريمة ، من النقص وفعل القبيح ، والقناعة بالدون ، فيجد نفسه مستحيياً من نفسه ، حتى كأن له نفسين يستحيي بإحداهما من الأخرى .

ومن ذلك : حياء الحشمة : وهو حياءٌ سببه الاحتشام ، وتوقي إبداء ما يُطلب فيه الإخفاء .

روى ابن ماجه عن بلال بن الحارث رضي الله عنه : (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد الحاجة أبعَدَ) – أي : قصد مكاناً بعيداً منعزلاً[1] .

وروى الترمذي وأبو داود عن أنس رضي الله عنه : (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد الحاجة لم يرفع ثوبه حتى يدنوَ من الارض) .

وروى ابن سعد عن سعد بن صالح مرسلاً : (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل المرفق [2] لبس حذاءه ، وغطى رأسه صلى الله عليه وسلم) .

وروى الإمام الترمذي في (الشمائل) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : (ما نظرتُ إلى فرج رسول الله صلى الله عليه وسلم - أو قالت : ما رأيت فرج رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، وذلك لشدة حيائه وكمال وقاره صلى الله عليه وسلم وتستُّره كل التستُّر .

وفي (شرح الشمائل) للشيخ القاري والشيخ محمد بن قاسم جسوس : روى أبو صالح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (قالت عائشة رضي الله عنها : ما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً من نسائه إلا مقنّعاً ، يُرخي الثوب على رأسه ، وما رأيتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا رأى مني) أورده ابن الجوزي في كتاب (الوفاء) نقلاً عن الخطيب اهـ .

---

[1] ورواه الإمام أحمد والنسائي ، كما في (الجامع الصغير) ، رامزاً لصحته لكثرة طرقه .

[2] قال المناوي : المرفق بكسر الميم وفتح الفاء : الكنيف اهـ . والحذاء : النعل – وهذا الحديث فيه ضعف .

وأخرج البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغتسل من وراء الحجرات ، وما رأى أحد عورته قطُّ) .

وإسناده حسن [1] . وبهذا الذي ذكرناه فيما تقدم ، يعلم العاقل يقيناً أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم قد نال أكمل مراتب الحياء وأعلاها .

مهابته العظيمة صلى الله عليه وسلم وفخامته الكريمة

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عظيمَ المهابة ، قد توّجه الله تعالى تاج العزّة والكرامة ، وكساه حلّة الفخامة :

روى الترمذي وغيره من حديث بن أبي هالة ، يصف النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فخماً مفخّماً يتلألأ وجهه صلى الله عليه وسلم تلألؤ القمر ليلة البدر) . وقال سيدنا علي رضي الله عنه في وصفه للنبي صلى الله عليه وسلم : (من رآه بديهةً هابه ، ومن خالطه معرفةً أحبّه) .

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم لا يستطيعون إمعان النظر فيه ، لقوة مهابته ومزيد وقاره ، ومن ثمّ لم يصِفه إلا صغارهم ، أو من كان في تربيته قبل النبوة ، كهند بن أبي هالة ، وسيدنا علي رضي الله عنه .

ويدلُّك على ذلك ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : (صحبتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم صحبة طويلة ، وسمعت منه أحاديث كثيرة ، وحفظت عنه ألف مثَلٍ ، ومع ذلك ما ملأتُ عينيّ منه قطّ ، حياءً منه وتعظيماً له ، ولو قيل لي صفهُ : لما قدرتُ) .

ومن عظيم مهابته وكمال وقاره : كانَ من جلس إليه صلى الله عليه وسلم هابه ، وربما أخذته رِعدة شديدة ، من قوة الهيبة المحمدية ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يُباسطهم ويلاطفهم ليسكن رَوعهم :

---

[1] كذا في (جمع الوسائل) للشيخ علي القاري .

روى ابن ماجه والحاكم عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال :

جاء رجل فقام بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخذته رعدة شديدة ومهابة .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (هوّن عليك ، فأنا لستُ بملك ولا جبار ، وإنما أنا ابن امرأة من قريش ، كانت تأكل القديد بمكة)[1] .

فنطق الرجل بحاجته [2] فقام النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (يا أيها الناس إني أوحي إليّ أن تواضَعوا ، ألا فتواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ، ولا يفخر أحد ، وكونوا – عبادَ الله – إخواناً) .

وعن قَيلة بنت مَخرمة أنها قالت : لما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم متخشّعاً في الجِلسة وهو قاعد القُرفُصاء ، أرعدتُ من الفَرَق – أي : الخوف – فقال رجل : يا رسول الله أرعِدت المسكينة ! .

قالت قَيلة : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - ولم ينظر إليّ وأنا عند ظهره - : (يا مسكينة عليكِ السكينة) .

فلما قالها أذهب الله ما كان دخل قلبي من الرعب .

وفي هذه الوقائع مع بعض الصحابة دليل ظاهر على قوة مهابته صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك ما جاء عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال : إني لأضربُ غلاماً لي – أي : يضرب عبداً مملوكاً له بسبب أنه أذنب معه – إذ سمعتُ صوتاً من خلفي ، (اعلم أبا مسعود) قال : فجعلتُ لا ألتفت إليه من الغضب حتى غشيني ، فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

[1] القديد هو اللحم يقطع ويجعل في الشمس حتى يجف ، وكانت عادة العرب أكله ، فكنى صلى الله عليه وسلم بذلك عن عدم تكبره وتجبره .

[2] أي : نطق بحاجته حين رأى تواضع النبي صلى الله عليه وسلم ، وسكن روعه .

قال أبو مسعود : فلما رأيته صلى الله عليه وسلم وقع السوط من يدي ، من هيبته صلى الله عليه وسلم !

فقال لي : (والله : الله أقدرُ عليك منك على هذا) .

فقلتُ : والله يا رسول الله لا أضرب غلاماً لي بعدها أبداً .

وفي رواية : فقلت يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى .

فقال : (أما لو لم تفعل للفحتكَ النار – أو : لمسّتك النار) ، رواه مسلم وأبو داود والترمذي .

وعن زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنها وعنه قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (تصدّقنَ يا معشر النساء ولو من حليّكنّ) .

قالت : فرجعت إلى عبد الله بن مسعود فقلت له : إنك رجل خفيفُ ذاتِ اليد – أي : قليل المال – وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمرنا بالصدقة ، فأتِه فاسأله ، فإن كان ذلك يجزئ عني – أي : دفعتُها لكم – وإلا صرفتُها إلى غيركم ، فقال ابن مسعود : بل ائتيه أنتِ .

قالت : فانطلقتُ فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجتي حاجتها – وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ألقيت عليه المهابة – فخرج علينا بلال فقلنا له : ائتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك : أتجزئ الصدقةُ عنهما على أزواجهما ، وعلى أيتام في حُجورهما ؟ - أي : في تربيتهما – ولا تخبره مَن نحن .

فدخل بلال على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من هما ؟) .

فقال : امرأة من الأنصار وزينب .

فقال صلى الله عليه وسلم : (أيُّ الزيانب هي ؟) قال : امرأة عبد الله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لهما أجران : أجرُ القرابة ، وأجر الصدقة) متفق عليه

خشيته صلى الله عليه وسلم من الله تعالى وخوفه منه

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدّ الناس خشيةً من الله تعالى ، وذلك لأنه أعلمهم بالله تعالى ، والخشية من الله تعالى تكون على حسب العلم به تعالى ، قال الله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماءُ ..) الآية .

وفي (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ترخّص فيه ، وتنزّه عنه قوم ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (ما بالُ أقوامٍ يتنزّهون عن الشيء أصنعه ؟! فوالله إني لأعلمهُم بالله ، وأشدُّهم له خشية) .

١ – وفي هذا الحديث : الحثّ الشديد على الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم ، والنهي عن التعمُّق .

٢ – وفيه ذمُّ التنزُّه عن المباح شكاً في إباحته ، وأن العلم بالله تعالى يوجب اشتدادَ الخشية منه سبحانه ، دون أن يكون هناك إفراط أو تشدُّد في الأعمال - كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى .

٣ – وفي هذا الحديث : بيان منه صلى الله عليه وسلم وإعلان أفضليتِه على جميع العباد ، بالعلم بالله تعالى ، والخشية من الله تعالى ، وأن الله تعالى قد أعطاه أفضل وأكمل مقام في المعرفة والخشية .

وقد قال العارفون رضي الله عنهم إن مقام المعرفة بالله تعالى والخشية من الله تعالى إذا أكملا لصاحبهما ، وانتهى إلى درجة المعرفة حقّ المعرفة ، والخشية حقّ الخشية : ظهرت عليه آثارهما ، وصحت له أحكامهما ، كما روي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً : (لو خِفتم الله تعالى حقّ

خيفته ، لعلمتم العلم الذي لا جهل معه ، ولو عرفتم الله تعالى حقّ معرفته لزالت لدعائكم الجبال)[1] .

فما ظنُّك بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي نال أعلى مقام في المعرفة بالله تعالى ، وأرفع مقام في الخشية من الله تعالى ؟! ومهما تصوّرت وقدّرت من آثارهما وأحكامهما فالأمر أعظم من ذلك ، ولا غرو في ذلك وقد قال الله تعالى :

(وكان فضلُ الله عليك عظيماً) .

وروى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبةً ما سمعتُ مثلها قطّ ، فقال : (لو تعلمون ما أعلم : لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً) .

فغطّى أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم لهم خنين .

وفي رواية : بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحابه شيءٌ ، فخطب فقال :

(عُرضت عليّ الجنة والنار ، فلم أرَ كاليوم في الخير والشرّ ، ولو تعلمون ما أعلم : لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً) .فما أتى على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومٌ أشدُّ منه ، غطّوا رؤوسهم ولهم خنين [2] .

وفي هذا الحديث دليل على عظيم خوفه من الله تعالى ، وكثرة بكائه من خشية الله تعالى .

ومما جاء في عظيم خوفه من الله تعالى :

---

[1] عزاه في (الجامع الصغير) إلى الحكيم الترمذي رامزاً لضعفه .

[2] قال الحافظ المنذري بعد ما أورد تلك الأحاديث : الخنين بفتح الخاء المعجمة بعدها نون هو البكاء مع غُنة بانتشار الصوت من الأنف اهـ

ما ورد عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي ، وكان بيده سواك ، فدعا وصيفة[1] - له أو لها – حتى استبان الغضب في وجهه[2] وخرجت أم سلمة إلى الحُجُرات فوجدت الوصيفة تلعب ببَهمة[3]

فقالت أم سلمة : ألا أراكِ تلعبين بهذه البهمة ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يدعوكِ ؟

فقالت : والذي بعثكَ بالحق ما سمعتكَ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لولا خشيةُ القَوَد – أي : القصاص يوم القيامة – لأوجعتكِ بهذا السواك)[4] .

خشوعه صلى الله عليه وسلم لله تعالى

وبكاؤه من خشية الله تعالى

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائمَ الخشوع والانكسار والتواضع لربه تعالى ، في سائر مواقفه الكريمة ومشاهده العظيمة ، في صلواته وسائر عباداته ، وسائر شؤوناته وقضاياه : من الخطب والمواعظ والفتوحات ، وسائر أحواله صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغ من خشوعه صلى الله عليه وسلم في صلاته أنه سُمع لجوفه أزير كأزير المِرجَل :

كما روى النسائي عن مطرّف عن أبيه رضي الله عنه قال : (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ولجوفه أزيرٌ كأزير المرجل)[1] .

---

[1] امرأة مملوكة .
[2] لاشتغالها في اللعب ، ولم تجب دعوته صلى الله عليه وسلم
[3] ولد الضأن الصغير .
[4] قال في (الترغيب) : رواه أحمد بأسانيد أحدها جيد – واللفظ له – ورواه الطبراني بنحوه .

وفي رواية ابن خزيمة : قال : (ولصدره صلى الله عليه وسلم أزير الرحى) .

وفي رواية أبي داود عن مطرّف عن أبيه قال : (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وفي صدره أزير كأزير الرحى من البكاء) .

وروى ابن خزيمة في (صحيحه) عن علي كرم الله تعالى وجهه قال : (ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة يصلي ويبكي ، حتى أصبح صلى الله عليه وسلم) .

ولما دخل مكة يوم الفتح دخلها خاشعاً لربه تعالى ، وكان على مشهد عظيم من الملأ الحاضر :

وروى أبو يعلى والحاكم بسند جيد قوي عن أنس رضي الله عنه قال :

(لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح استشرفه الناس ، فوضع رأسَه على رَحله متخشّعاً) .

وفي رواية البيهقي عن أنس قال : (دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وذقنُه على راحلته متخشّعاً) .

وفي رواية الواقدي عن أبي هريرة رضي الله عنه : (دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح حتى وقف بذي طوى وتوسّط الناس ، وإن عُثنونه – العثنون : اللحية – ليمسُّ وسط رحله أو يقرب منها ، تواضعاً لله تعالى حين رأى ما رأى من فتح الله وكثرة المسلمين – ثم قال : (اللهم لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة)) .

---

[1] المرجل هو القِدر ، والأزير هو الصوت ، قال الحافظ المنذري : يعني أن لجوفه خنيناً كصوت غليان القدر إذا اشتد اهـ

ومن ذلك : خشوعه صلى الله عليه وسلم وبكاؤه في توجّهه إلى الله تعالى ، ملحّاً بالدعاء ، مستغرقاً في الرجاء :

روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : (تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وقوله تعالى : (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

فرفع صلى الله عليه وسلم يديه وقال : (اللهم أمتي أمتي) وبكى .

فقال الله عز وجل : يا جبريل إذهب إلى محمد – وربُّك أعلم – فاسأله : ما يبكيه ؟ فأتاه جبريل فسأله ، فأخبره بما قال – وهو أعلم –

فقال الله تعالى : يا جبريل إذهب إلى محمد فقل له : إنا سنُرضيك في أمتك ولا نسوؤك)

جوامع من أوصافه الكريمة صلى الله عليه وسلم

المشتملة على محاسن خَلقه ، وكمال خُلقه

وآدابه الخاصة والعامة

إن من أجمع الأحاديث الواردة في بيان أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم الخَلقية والخُلقية ، وما يتعلق بآدابه الخاصة والعامة ، ومن أوضح تلك الأحاديث المعربة عن شمائله صلى الله عليه وسلم حديثَ هند بن أبي هالة .

روى الترمذي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قال : سألت خالي هند بن أبي هالة – وكان وصّافاً – عن حِلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا أشتهي أن يصِفَ لي منها شيئاً أتعلّق به [1] فقال :

[1] أي : أحفظه وأتمسك به

(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فَخماً مُفخّماً [1] يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلةَ البدر ، أطولَ من المربوع ، وأقصرَ من المشذّب [2] ، عظيمَ الهامة [3] ، رجِل الشّعر[4] ، إذا انفرقت عقيقتُه فَرَقها ، وإلا فلا [5] ، يجاوز شعره شحمَةَ أُذُنيه إذا هو وفّره [6]

أزهرَ اللون [7] ، واسع الجبين [8] ، أزجّ الحواجب [9] ، سوابغ في غير قرن [10]

قال العلماء : وإنما قال الحسن ذلك ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم توفي وهو صغير السن ، فأراد أن يستعيد إلى ذاكرته تلك الأوصاف المحمدية ويجعلها محفوظة في خزانة قلبه ، ولوح خياله ..

[١] أي : عظيماً في نفسه ، معظّماً في الصدور والعيون عند كل من رآه صلى الله عليه وسلم .

[٢] الربعة والمربوع : هو الوسط ، بين القصير والطويل على حد سواء ، والمشذّب : هو الطويل البائن الطويل ، والمراد : أنه صلى الله عليه وسلم أطول من المربوع عند إمعان النظر ، وأما في بادئ النظر يُرى ربعة ، كما تقدم في حديث علي كرم الله وجهه – كما وضح ذلك في (جمع الوسائل) وغيره .

[٣] الهامة بتخفيف الميم هي : الرأس ، وعظم الرأس المتناسب مع الجسم : دليل قوة العقل والمدارك .

[٤] أي في شعره صلى الله عليه وسلم شيء من الجعودة .

[٥] المراد بالعقيقة هنا : شعر الرأس ، والمعنى : أن شعر رأسه الشريف صلى الله عليه وسلم إن قبِل أن يفرق بسهولة فرقه ، أي : جعل شعره نصفاً عن اليمين ، ونصفاً عن اليسار ، وإلا بأن لم ينفرق : فلا ، أي : فلا يفرق شعره بل يتركه على حاله .

[٦] أي : إذا جعل شعره وافراً وأعفاه من الفرق صلى الله عليه وسلم .

[٧] أي : هو صلى الله عليه وسلم أبيض اللون بياضاً نيّراً مُشرباً بحمرة .

[٨] أي : واضح الجبين وممتده طولاً وعرضاً ، وهو معنى رواية : صلت الجبين ، وعظيم الجبهة .

[٩] الزّجج : تقوّس في الحاجب مع طولٍ من طرفه ، ويلزم من ذلك دقة الحاجبين وسبوغهما .

[١٠] القرَن – بالتحريك – هو : اقتران الحاجبين ، والتقاء أطرافهما ، وهو من البلج ، والمعنى : أن حاجبيه صلى الله عليه وسلم لم يتصلا ببعضهما ، فهو أبلج ، وأما ما ورد في حديث أم معبد المتقدم (كان أزجّ أقرن) فالمراد كان كذلك فيما يبدو للناظر من بعيد ومن غير تأمل ، وأما القريب المتأمّل فيرى أنه صلى الله عليه وسلم أبلج في الواقع .

، بينهما عِرق يدِرُّه الغضب [1] ، أقنى العرنين [2] ، له نورٌ يعلوه ، يحسَبه من لم يتأمّله أشَمّ [3] ، كثّ اللحية [4]، سهل الخدّين [5] ، ضليعَ الفم [6] ، مفلّج الأسنان الأسنان [7] ، دقيقَ المسرُبة[8] ، كأن عنقَه جِيدُ دُميةٍ في صفاء الفضة [9] ، معتدلَ معتدلَ الخَلق [10] ، بادنٌ ، متماسك[11] ، سواء البطن والصدر [12] ، عريضُ الصدر ، بعيدُ ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس[13] .

---

[1] أي : بين حاجبيه صلى الله عليه وسلم عِرق إذا غضب تحرك وظهر جلياً .

[2] قال العلامة المناوي في (شرح الشمائل) : أقنى : من القنا ، وهو ارتفاع أعلى الأنف واحديداب الوسط اهـ

[3] أي : للعرنين – وهو ما صلب من عظم الأنف – نورٌ يعلوه ، يحسبه من لم يتأمله أشمّ : من الشمم ، وهو ارتفاع قصبة الأنف ، مع استواء أعلاه وإشراف الأرنبة .

[4] أي : عظيم اللحية صلى الله عليه وسلم

[5] وفي رواية البيهقي : (أسهل الخدين) أي : غير مرتفع الخدين ، وهو أكمل وأجمل .

[6] أي : عظيم الفم ، وليس بضيّق الفم ، فإن سعة الفم تُعطي فصاحة في الكلام ، وبياناً لمخارج الألفاظ ، ولاشك أن جميع ذلك على تناسب كامل بين أعضاء جسمه الشريف كلها صلى الله عليه وسلم .

[7] يعني : أن أسنانه الشريفة صلى الله عليه وسلم منتظمة ومنفرجة ، وليست متراصّة ومتضايقة فوق بعضها .

[8] المسرُبة : هي الشعر بين الصدر والسرّة ، والمعنى : أن تلك المسربة هي دقيقة .

[9] الجيد : هو العنق ، والمراد : كأن عنقه صلى الله عليه وسلم في استوائه واعتداله وحسن هيئته وجماله ، كأنه عنق صورة ، ولكن من حيث اللون هو في صفاء الفضة وبياضها البهيج اللامع .

[10] يعني : أن جميع أعضاء جسمه الشريفة صلى الله عليه وسلم خلقها الله تعالى كاملة متناسبة مع بعضها غير متنافرة .

[11] والمعنى : أنه صلى الله عليه وسلم ممتلئ الجسم ، ليس بالنحيل ولا بالهزيل ، وأن أعضاءه الشريفة متماسكة بقواها ، وليست متراخية .

[12] والمعنى : أن بطنه وصدره الشريفين مستويان ، لا ينتأ أحدهما عن الآخر .

[13] الكراديس جمع كُردوس ، وهو رأس العظام ومجمعها ، كالركبة والمنكب ونحوهما ، والمعنى : أنه صلى الله عليه وسلم كان عظيم رؤوس العظام ومجامعها وقويّها ، ويدل ذلك على كمال قواه صلى الله عليه وسلم .

أنور المتجرّد[1] ، موصول ما بين اللّبّة والسّرة بشعر يجري كالخطّ [2] ، عاري عاري الثَّديين والبطن ممّا سوى ذلك [3] ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصّدر [4] .

طويل الزندين ، رحب الراحة [5] ، شثن الكفين والقدمين [6] ، سائل الأطراف أو قال : شائل الأطراف [7] .

خُمصان الأخمصينِ[8] ، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء [9] .

إذا زال زال قِلَعا [1] ، يخطو تكفّياً [2] ويمشي هوناً [3] ، ذريع المشيَة [4] ، إذا مشى كأنما ينحطّ من صَبَب [5] وإذا التفتَ التفت جميعاً [6] .

---

[1] يعني : أنه صلى الله عليه وسلم أنور العضو المتجرّد عن الثوب وشديد بياضه .

[2] اللبّة : هي النقرة فوق الصدر ، والسُّرة ما بقي بعد القطع ، وأما الذي يقطع عند الولادة فهو السُّرُّ .

[3] أي : خالي الثديين والبطن من الشعر .

[4] أي : كثير شعر هذه المواضع الثلاثة .

[5] أي : واسع الكفّ

[6] أي : ضخم الكفين والقدمين ، كما جاء في رواية ، والمعنى : أنه صلى الله عليه وسلم ممتلئ الكفين والقدمين وليس بالضعيف النحيل .

[7] الشك من الراوي ، والمعنى : أنه صلى الله عليه وسلم كان مرتفع الأطراف بلا احديداب ولا انقباض .

[8] تثنية أخمص ، وأخمص القدم هو الموضع الذي لا يمس الأرض عند وطئها من وسط القدم ، ومعنى (خمصان الأخمصين) : أنه صلى الله عليه وسلم شديد تجافي الأخمصين عن الأرض ، لكن على وجهٍ لا يُخرجه عن حدّ الاعتدال والجمال .

[9] أي : أملس القدمين ومستويُّهما بلا تكسّر ، ولذلك ينبو عنهما الماء ، أي : يتباعد عنهما الماء ، يعني أنه صلى الله عليه وسلم إذا صبّ عليهما الماء مرّ سريعاً ، لأنهما مستويتان .

خافض الطّرف [7] ، نظرهُ إلى الأرض أطولُ من نظره إلى السماء [8]

جُلُّ نظره الملاحظة [9] ، يسوق أصحَابه[10] ، ويبدرُ من لقي بالسلام [1])

---

[1] يعني : أنه صلى الله عليه وسلم إذا مشى رفع رجليه بقوة ، كأنه يقلع شيئاً ، و لا يجرهما على الأرض ، ولا يمشي مِشية المختال الذي يقارب خطاه تبختراً .

[2] يمشي مائلاً إلى سَنَن المشي ، وهو ما بين يديه .

[3] الهَون : الرفق واللين ، والمعنى : أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا مشى يرفع رجليه عن الأرض بقوة ، كما دلّ عليه قول ابن أبي هالة : (إذا زال زال قِلعاً) وإذا وضعهما على الأرض وضعهما برفق وتُؤدة ، وهذا معنى : (يمشي هوناً) ، فهو يشير إلى كيفية وضع رجليه على الأرض ، وأنه صلى الله عليه وسلم يمشي بسكينة ووقار ، وحلم وأناة ، دون أن يضرب برجله الأرض ، أو أن يخفق بنعله .
وقد أثنى الله تعالى على الذين يمشون هذه المشية ، ويسلكون هذه الخطّة ، فقال : (وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) .

[4] أي : واسع الخطوة خلقةً بلا تكلُّف .

[5] أي : كأنما ينزل في موضع منحدر .

[6] أي : لا يُسارق النظر ، ولا يلوي عنقه يمنة ولا يسرة ، كما يفعل ذلك الطائش الخفيف .

[7] المراد بالطرف هنا : العين ، والمعنى : أنه صلى الله عليه وسلم إذا لم ينظر إلى شيء يخفض بصره ، وهذا شأن المتأمّل المفكّر .

[8] والمعنى : أن نظره صلى الله عليه وسلم إلى الأرض حالَ السكوت وعدم التحدث ، أطولُ من نظره إلى السماء ، وأما في حال التحدُّث فإنه يكثر النظر إلى السماء ، وكما وردَ في (سنن) أبي داود أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا جلس يتحدّث ، يُكثر أن يرفع طرفه إلى السماء .

[9] قال العلامة المناوي في (شرحه) : والمراد أن أكثر نظره صلى الله عليه وسلم في غير أوانِ الخطابِ الملاحظةُ اهـ
والملاحظَة : هي النظر بلَحاظ العين ، وهو شق العين مما يلي الصدغ ، وأما الذي يلي الأنف فالمُوق والماق .

[10] والمعنى : أنه صلى الله عليه وسلم يُقدّم أصحابه بين يديه ويمشي خلفهم ليرعاهم ويختبر حالهم ، ويعين ضعفائهم ، وليترك ظهره للملائكة خلفه ، كما روى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال : كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يمشون أمامه ويدَعون ظهره للملائكة – كذا في (جمع الوسائل)

صفات آدابه صلى الله عليه وسلم في منطقه وسكوته

قال الحسن رضي الله عنه : فقلت : صِف لي منطق [2] رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان [3] ، دائم الفكرة ،

ليست له راحة [1] . طويل السّكت ـ ولا يتكلّم في غير حاجة [2] ، يفتتحُ الكلامَ ويختتمه باسم الله تعالى [3] ، ويتكلّم بجوامع الكلِم [4] ، كلامه فَصل لا فضولَ ولا

قال الإمام النووي : وإنما تقدّمهم – أي : تقدم أصحابه في قصة جابر يوم الخندق – لأنه صلى الله عليه وسلم دعاهم إليه ، فجاؤوا تبعاً له ، كصاحب الطعام إذا دعا طائفة يمشي أمامهم . -

[١] *وفي رواية : (ويبدأ) والمعنى : أنه صلى الله عليه وسلم يبادر ويسبِق من لقيه من أمته بتسليم التحية .*

[٢] أي : اذكر لي آدابه في منطقه ، وآدابه في سكوته صلى الله عليه وسلم ، كما دلّ عليه الجواب الآتي .

[٣] لم يكن حزنه صلى الله عليه وسلم من أجل أمور الدنيا ، وإنما كانت تتوارد الأحزان لأسباب متعددة ، ترجع إلى دين الله تعالى والشفقة على خلق الله تعالى ، ولذا كانت الآيات تنزل في تسليته صلى الله عليه وسلم وتخفيف شدة الأسى عنه :

فمن ذلك : حزنه على الذين لم يؤمنوا بما جاء به من الهدى – وقد تبيّن لهم الحق – معاندين ومعارضين ، فكان ذلك مما يشقُّ عليه ويُحزنه ، حتى أنزل الله تعالى في ذلك قوله : (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ) ، وقوله تعالى : (ومن كفر فلا يحزُنك كفره ، إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ..) الآية . وقوله تعالى : (فلا تذهب نفسكَ عليهم حَسَرات ، إن الله عليم بما يصنعون) ، وقوله تعالى : (ولا تحزن عليهم ولا تكُ في ضَيق مما يمكرون)

ومن ذلك : حزنه صلى الله عليه وسلم بسبب خداع المنافقين وإظهارهم الإسلام ، وإبطانهم الكفر ، ومسارعتهم في الكفر ، كما قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ) الآية .

ومن ذلك : حزنه صلى الله عليه وسلم لما يقول فيه أعداؤه من الأقوال الباطلة المتناقضة ، والأكاذيب المختلفة ، من أنه صلى الله عليه وسلم ساحرٌ أو شاعر أو مجنون ! وفي ذلك نزل قوله تعالى : (قد نعلم إنه ليحزُنك الذي يقولون) الآية ، وقوله تعالى : (فلا يحزُنك قولُهم ، إنا نعلم ما يُسرّون وما يعلنون) ، وقوله تعالى : (ولا يحزنك قولهم ، إن العزّة لله جميعاً) الآية .

تقصير[5] ، ليس بالجافي ولا المهين [6] ، يُعظِّم النعمَةَ وإن دقّت ، لا يذمُّ منها شيئاً ، غير أنه لم يكن يذمُّ ذواقاً ولا يمدحُه[7] .

ولا تُغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تُعدّي الحقُّ لم يُقم لغضبه شيءٌ حتى ينتصر له [8] ، ولا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها .

إذا أشارَ أشارَ بكفّه كلّها ، وإذا تعجّب قلبَها [9] ، وإذا تحدّث اتّصلَ بها وضربَ براحته اليمنى بطنَ إبهامه اليسرى [1].

---

[١] والمعنى : أنه صلى الله عليه وسلم كان دائم التفكّر في أمور الأمة وما يصلح شؤونهم ويسعدهم في الدنيا والآخرة ، ومن ثمّ ليست له راحة .

[٢] يعني : أنه صلى الله عليه وسلم كان طويلَ الصمت ، لا يتكلم إلا في حاجة دينية أو دنيوية ، فيتحرّز عن الكلام الذي لا فائدة منه ، لقوله تعالى : (والذين هم عن اللغو معرضون)

وقد قال صلى الله عليه وسلم : (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) رواه الترمذي .

[٣] والمعنى : أن كلامه صلى الله عليه وسلم كان محفوفاً بذكر الله تعالى بدأ وانتهاءً .

[٤] أي : بكلمات قليلة الحروف ، جامعة لمعانٍ كثيرة .

[٥] يعني : أن كلامه صلى الله عليه وسلم فاصلٌ بين الحق والباطل ، ومفصّل لا يتداخل في بعضه ، بحيث يتلقاه السامع بوضوح دون التباس ، لا يكثر فيملّ ، ولا يقصّر فيخلّ .

[٦] أي : ليس هو صلى الله عليه وسلم بالجافي الغليظ الطبع ، السيء الخُلُق ، ولا بالمُهين لخلق الله تعالى ، ولا بالمَهين أي : المبتذَل الذليل ، بل هو الفخم المفخّم الموقّر المعظّم صلى الله عليه وسلم .

[٧] فهو صلى الله عليه وسلم يعظّم نعم الله تعالى الكبيرة والصغيرة ، الظاهرة والباطنة ، ، ولا يذم منها شيئاً ، كما وأنه صلى الله عليه وسلم لا يذم ذواقاً – اي : مذوقاً – من المأكولات أو المشروبات التي أباحها الله تعالى ، لأن في الذم كفرانَ النعمة ، وهو شأن المترفين المتكبرين ، كما وأنه صلى الله عليه وسلم لا يمدحُ ذواقاً ، لأن ذلك شأن ذوي الشّره والنهمة المذمومة .

[٨] أي : فإذا تعدّى أحدٌ الحقّ وجاوزه إلى الباطل ، غضب صلى الله عليه وسلم غضباً لا يقاومه شيء ، ولا يدفع غضبه شيء حتى ينتصر للحق بالحق .

[٩] والمعنى : أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أشار إلى شيء : - إنسان أو غيره - ، أشار بكفه كلها ، ولا يقتصر على الإشارة ببعض الأصابع ، لأنه شأن المتكبرين

وإذا غضِب أعرَض وأشاح ، وإذا فرح غضّ طرفه[2] ، جُل ضحكِه التبسُّم ، يفترُّ عن مثل حَبّ الغَمام [3]) .

قال الحسن رضي الله عنه : فكتمتها الحسين بن علي زماناً ثم حدّثته فوجدتُه قد سبقني إليه فسأله عما سألته عنه ، ووجدته قد سأله عن مدخله صلى الله عليه وسلم ومخرجه ، ومجلسه وشكله ، فلم يدَع منه شيئاً [4] .

آدابه صلى الله عليه وسلم إذا دخل منزله

قال الحسين رضي الله عنه : فسألت – علياً رضي الله عنه – عن دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : (كان صلى الله عليه وسلم إذا أوى

والمحتقرين لغيرهم ، وإذا تعجب صلى الله عليه وسلم من أمر ، قلب كفّه ، كما هو شأن كل متعجب .

[1] يعني : أنه صلى الله عليه وسلم إذا تحدّث اتصل حديثه بكفه اليمنى ، وذلك لتأكيد الكلام وتقويته في النفوس ، وزيادةِ إيضاحه بإشارات الكفّ ، وضربَ براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى ، اعتناءً بذلك الحديث ، ودفعاً لما يعرض لنفس السامع من الفتور أو الغفلة عن الحديث .

[2] أي : إذا غضب من أحد أعرض عنه ، فلا يقابله بما يقتضيه الغضب ، امتثالاً لقوله تعالى : (وأعرض عن الجاهلين) .

وأشاح : أي : بالغ في الإعراض وعدل عنه بوجهه صلى الله عليه وسلم .

وإذا فرح صلى الله عليه وسلم من شيء ، غضّ طرفه ، ولا ينظر إليه نظر شره وحرص .

[3] أي : معظم ضحكه صلى الله عليه وسلم إنما هو التبسُّم ، ويفترُّ : أي يضحك ضحكاً حسناً كاشفاً عن سنّ مثل حب الغمام في البياض والصفاء .

وحبّ الغمام هو البَرَد – بفتحتين – الذي يشبه اللؤلؤ .

فكان صلى الله عليه وسلم إذا تبسّم بدت أسنانه الشريفة كاللؤلؤ اللامع .

[4] قال العلامة البيجوري : فقد روى الحسن عن أخيه الحسين ما رواه الحسين عن أبيه علي ، فصار الحسن راوياً ما تقدم عن خاله هند بلا واسطة ، وما سيأتي عن أبيه عليّ بواسطة أخيه الحسين اهـ

إلى منزله جزّأ دخوله ثلاثة أجزاء : جزءاً لله [1] وجزءاً لأهله [2] وجزءاً لنفسه .

ثم جزّأ جزأه بينه وبين الناس ، فيردُّ ذلك بالخاصّة على العامّة[3] . ولا يدّخر عنهم شيئاً [4] .

وكان من سيرته في جزء الأمة إيثارُ أهل الفضل بإذنه ، وقسمُه على قدرِ فضلهم في الدّين :

فمنهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج [5] ، فيتشاغل بهم ، ويشغلهم فيما يصلحهم والأمةَ : من مسألتهم عنه ، وإخبارهم بالذي ينبغي

---

[1] أي : لعبادة الله تعالى بأنواع العبادات ، من صلوات وتلاوات ودعوات ، وتذكُّر وتفكُّر ، وغير ذلك .

[2] لمؤانستهم وحسن معاشرتهم ، والقيام بمهماتهم وحاجاتهم .

[3] يعني أن جزأه صلى الله عليه وسلم الذي هو لنفسه ، يجعله بينه وبين الناس ، فيردُّ ذلك الجزء الذي جعله للناس ، بالخاصة على العامة ، وخاصة الرجل : هم قرابته الذين يختصون به ، والمقرّبون من أصحابه وذويه ، والعامة : من ليسوا بذلك .
وفي معنى ردّ ذلك الجزء بالخاصة على العامة أقوال :
الأول : أن الخاصة تدخل عليه في ذلك الوقت دون العامة ، فتستفيد منه صلى الله عليه وسلم ثم تخبر العامة بما سمعت من العلوم والمعارف والفوائد .
الثاني : أن الباء بمعنى (من) أي : يردّ على العامة من جزء الخاصة .
الثالث : أن يجعل العامة مكان الخاصة ، فيرد ذلك على العامة بدلاً من الخاصة .

[4] والمعنى : أنه صلى الله عليه وسلم لا يُخفي ولا يمنع عن الناس : عامتهم وخاصتهم ، شيئاً مما ينفعهم في دينهم ودنياهم ، بل يقدّم جميع ذلك لهم ، في جميع أحواله صلى الله عليه وسلم .

[5] يعني أن سيرته صلى الله عليه وسلم في الجزء الذي جعله للأمة ، إيثارُ أهل الفضل ، وهم أهل العلم والصلاح والشرف ، فيقدّمهم في الدخول عليه صلى الله عليه وسلم ، والتوجهِ والإقبال ، والإفادةِ وما هنالك .
كما وأن من سيرته صلى الله عليه وسلم في الوقت الذي جزّأه للأمة أنه قسمه بين الأمة على قدر فضلهم في الدين من جهة الصلاح والتقوى وعلى قدر حاجتهم في الدين ، فمِن أهل الفضل ومن بقية الناس : من هو ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو

لهم ، ويقول : (ليبلغ الشاهد منك الغائب ، وأبلغوني حاجةَ من لا يستطيع إبلاغها ، فإنه من أبلغ سلطاناً حاجةَ من لا يستطيع إبلاغها ، ثبّت الله قدميه يوم القيامة) . لا يذكر عنده إلا ذلك ، ولا يَقبل من أحد غيرَه .

يدخلون روّاداً ، ولا يفترقون إلا عن ذَواق [1] ، ويخرجون أدلّة) – يعني على الخير - .

الحوائج ، فيتشاغل بهم ، أي : يكون مشغولاً بإجابة طلباتهم وأسئلتهم ، وقضاء حاجاتهم .
كما وأنه صلى الله عليه وسلم يُشغلهم : بضم أوله من الاشغال ، وبفتحه من : شَغَله ، كما نبه عليه العلماء الشرّاح ، والمعنى : أنه صلى الله عليه وسلم يشغلهم فيما يُصلحهم وينفعهم ، ويصلح الأمة وينفعها ، إما : بأن يفتح لهم باب الأسئلة ، ليفيض عليهم الأجوبة ، أو يبتدئهم بالاخبار عما ينفعهم ، وبيان الذي ينبغي لهم أن يعلموه من الأحكام والمواعظ ، والنصيحة والوصية بما يُصلح شأنهم ويسعدهم في دينهم ودنياهم .
فما كان صلى الله عليه وسلم يترك جزءاً من الزمن فارغاً عما ينفع الأمة ويصلح أمرها ، وما كان يترك أصحابه في فراغ من الوقت وبطالة من العمل ، بل كان صلى الله عليه وسلم يشغلهم بما يصلحهم وينفعهم ، ويصلح الأمة وينفعها
وذلك لأن الله تعالى قال له : (فإذا فرغتَ فانصب وإلى ربك فارغب) أي : فإذا فرغتَ من عمل فانصب لغيره ، وليكن القصد والرغباء في جميع ذلك إليه سبحانه .
ومن هنا يُعلم أن دين الإسلام دين جِدّ وعمل ، لا هزل فيه ولا كسل .
[1] ، وهو الطالب ، وهو في الأصل من يتقدّم أمام القوم ، لينظر لهم الكلأ ومساقط الغيث .
الرواد : بضم الراء وتشديدها ، جمع رائد ، وهو الطالب ، وهو في الأصل من يتقدّم أمام القوم ، لينظر لهم الكلأ ومساقط الغيث .
والمراد أن الناس يدخلون عليه صلى الله عليه وسلم طالبين نفعهم في دينهم ودنياهم ، وصلاح نفوسهم ، وتعلمهم ما فيه سعادتهم ، فلا يخرجون من عنده صلى الله عليه وسلم إلا وهم مكرمون ظفِرون ، أكرمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمَذوق من الطعام ، ضيافة لهم ، وأفاض عليهم بما ينفعهم من العلوم والمعارف ، وبيان ما يحتاجونه من أمور الدنيا والآخرة ، فيخرجون من عنده صلى الله عليه وسلم أدلّة وهداة للناس إلى ما فيه الخير والسعادة .

سيرته وآدابه صلى الله عليه وسلم

إذا خرج من منزله وبرز للناس

قال الحسين رضي الله عنه : فسألت أبي – علياً رضي الله عنه – عن مخرجه ، كيف كان يصنع فيه ؟ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخزُنُ لسانَه إلا فيما يعنيه [1] ، ويؤلّفهم ولا ينفّرهم [2] ، ويُكرِم كريم كلّ قوم ويولّيه عليهم [3] ويحذرُ الناس ويحترسُ منهم من غير أن يطويَ عن أحدٍ منهم بِشرَه وخُلقه[4] .

---

[1] فلا يتكلّم صلى الله عليه وسلم إلا فيما يعنيه ، اي : يهمه وينفع في الدنيا أو الدين ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) فمن حسُن إسلامه اشتغل بما يعنيه ، وترك ما لا يعنيه .
قال العلامة ابن رجب في شرح حديث : (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) : ومعنى يعنيه : أنه تتعلّق عنايته به ، ويكون من مقصِده ومطلوبه ، والعنايةُ : شدة الاهتمام بالشيء ، يقال : عناه يعنيه : إذا اهتم به وطلبه ، وليس المرادُ : أنه يتركُ ما لا عناية له به ، بحكم الهوى وطلب النفس ، بل بحكم الشرع والإسلام اهـ
وهذه غفلة كبيرة وقع فيها كثير من الناس وهو اشتغالهم بما لا يعنيهم .
وفي حديث الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : توفي رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال رجل : أبشر بالجنة .
فقال صلى الله عليه وسلم : (أولا تدري ؟ فلعلّه تكلّم فيما لا يعنيه ، أو بخل بما لا يُنقصه) قال الترمذي : حسن غريب ، وقال المنذري رواته ثقات . اهـ وقد روى معنى هذا الحديث من وجوه متعددة كما في (الترغيب) .

[2] فكان صلى الله عليه وسلم يؤلّف الناس بكريم معاشرته ، وحسن مقابلته ، ولا ينفرهم عنه بغلظة أو فظاظة ، أو كلمات مؤذية ، كما وأنه صلى الله عليه وسلم يؤلف الناس على بعضهم ، ويحببهم في بعضهم ، ولا ينفرهم من بعضهم .

[3] وهذا من كريم خلقه صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه يكرم كريم القوم بما يناسبه من التكريم والحفاوة ، ويجعله والياً عليهم ، وأميراً مديراً لأمورهم .
وهذا من تمام حسن نظره صلى الله عليه وسلم وحكمة تدبيره وتنظيمه وإعطائه المراتب حقّها .

[4] وهذا مما يدل على عظيم عقله وسعة فكره ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان يحذَر الناس الذين هم حديثو عهدٍ بالإسلام ، ولم يخبرهُم ولم يجرّبهم في مهامّ الأمور ،

ويتفقّد أصحابَه[1] ، ويسأل الناس عمّا في الناس [2] .

ويحسّن الحسن ويقوّيه ، ويقبّح القبيح ويوهيه [3] معتدلَ الأمرِ غيرَ مختلف[4] ، لا يغفلُ مخافةَ أن يغفلوا أو يميلوا [5] ، لكلّ حالٍ عنده عتاد [6] ، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه [7] .

ويحترس منهم ، ولكنه لا يطوي عنهم بِشره وحسن مقابلته وطلاقة وجهه صلى الله عليه وسلم .

[1] يطلبهم ويسأل عنهم حال غيبتهم .

[2] والمعنى : أنه صلى الله عليه وسلم كان يتفقّد أصحابه خاصّة ، كما وأنه يبحث عن أحوال الأمة عامّة ، فيسأل الناسَ الذين عندهم معرفة بأحوال الناس ، عمّا في الناس من الأحوال السارّة أو المكروهة ، وعمّا في الناس من سعةٍ وضيق ، وشدو ورخاء ، وفرح وترح ، فيفرح لفرحهم ، ويُسرّ لما يسرّهم ، ويحزن لما يُحزنهم ، ويسعى في رفع المكاره والمساوئ عنهم .
كما وأنه يسأل عما في الناس من سيرهم في أمورهم ومعاملاتهم ، أهم على صلاح واستقامة ؟ أم هم على فساد واعوجاج ؟ وليس هذا من باب التجسس المنهي عنه ، ولكنه من باب التعرّف إلى الفاضل من الفضول ، والكامل من الناقص ، والاستطلاع على أمور الناس ، ليُصلح الاعوجاج ، ولتنبيه الغافل ، وتذكير الناسي ، ونصح الأمة ومعالجة أمراضها النفسية ، فيضع الدواء حيث الداء

[3] فإذا أتى إنسان بفعل حسن ، أو برأيٍ حسن : حسّنه صلى الله عليه وسلم وقوّاه ، وقوّى همة فاعله ونهض بعزيمته ، وإن صدر من إنسان فعل قبيح : ذكر صلى الله عليه وسلم قُبح ذلك الفعل ومحاذيره ، وسوء عواقبه ، ليباعد الناسَ من الوقوع فيه .

[4] يعني : أن جميع أفعاله صلى الله عليه وسلم وأقواله على غاية من الاعتدال ، محفوظ من أن يصدُر عنه أمور متخالفة ، أو يعارض بعضها بعضاً ، وهذا دليل على كمال عقله وإحكام أمره صلى الله عليه وسلم .

[5] أي : لا يغفل صلى الله عليه وسلم عمّا فيه مصالح أتباعه من تذكيرهم وإرشادهم ، ونصيحتهم وتعليمهم ، مخافة أن يغفلوا فيزلّوا ، أو يميلوا إلى الراحة والكسل ، ويبطئوا عن العمل ، فهو صلى الله عليه وسلم يشدُّ عزمهم ويتعهّدهم بالتذكير والنصح .

[6] لكل حال من الأحوال عنده عدة أعدّها لتلك الحالة ، وهيّأ لكل أمرٍ من الأمور ما يحتاجه وما تتطلبه المصلحة .

[7] فهو صلى الله عليه وسلم على الحق المستقيم : لا إفراط ولا تفريط ، ولا تقصير عن الحق ، ولا مجاوزة للحق ، وذلك في جميع أموره وقضاياه .

الذين يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده أعمّهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة [1]

آدابه صلى الله عليه وسلم في مجالسه

قال الحسين : فسألته – أي : علياً رضي الله عنه – عن مجلسه صلى الله عليه وسلم كيف كان ؟ فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر الله تعالى [2] .

ولا يوطّن الأماكن ، وينهى عن إيطانها ، وإذا انتهى إلى قوم : جلس حيث ينتهي به المجلس ، ويأمر بذلك [3] .

---

[1] المقربون عنده صلى الله عليه وسلم من الناس خيارُ الناس ، وأفضلهم عنده أعمُّهم نصيحة ، وأكثرهم خيراً ونفعاً للأمة في دينها ودنياها ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنُهم مواساة للناس بالنفس والمال ، ومؤازرة – أي : معاونة – لهم في مهمات أمورهم ، وتخفيف الأثقال عنهم ، وتنفيس كرباتهم ، وقضاء حوائجهم .

[2] وهذا كما قالت عائشة رضي الله عنها : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كلّ أحيانه) أي : في قيامه وقعوده وعلى جنبه ، كما قال تعالى : (فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ..) الآية .
وروى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من قعد مقعداً لم يذكر الله فيه : كان عليه تِرة – أي : تَبعة وحق يطالبه الله تعالى به يوم القيامة – ومن اضطجع مضطجعاً لا يذكر الله فيه : كانت عليه من الله تره ، وما مشى أحد ممشىً لا يذكر الله فيه إلا كان عليه من الله تره)
وفي هذا كله دليل على أنه ينبغي للمسلم أن يكون على ذكر الله تعالى في جميع أحواله .

[3] والمعنى كما قال العلامة المناوي : أنه صلى الله عليه وسلم كان يجلس في أي مكان يلقاه – في المجلس – خالياً ، ولا يترفّع على أصحابه لمزيد تواضعه ، ومكارم أخلاقه . اهـ
على أن شرف المكان إنما هو بالمكين ، فالمكان الذي يجلس فيه صلى الله عليه وسلم هو أشرف الأمكنة .
كما وأنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر الناس بالجلوس حيث ينتهي بهم المجلس ، إبعاداً للنفس عن الكبر والترفُّع على بقية أهل المجلس .

يعطي كل جلسائه نصيبه ، لا يحسَبُ جليسُه أن أحداً أكرمَ عليه منه [1] .

من جالسَه أو فاوضه في حاجة : صابَرَه حتى يكونَ هو المنصرف[2] ، ومن سأله حاجةً لم يردّه لا بها ، أو بميسورٍ من القول [3] .

قد وسعَ الناسَ منه بسطُهُ وخُلُقُه ، فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحق سواء[4] .

مجلسه مجلسُ : علم[5] ، وحياء ، وصبرٍ ، وأمانة [1] ، لا ترفع فيه الأصوات [2]

قال في (جمع الوسائل وغيره) : وقد روى الطبراني والبيهقي عن شيبة بن عثمان مرفوعاً : (إذا انتهى أحدكم إلى المجلس : فإن وسّع له فليجلس ، وإلا فلينظر إلى أوسع مكان يراه ، فليجلس فيه)

[1] فكان صلى الله عليه وسلم يُعطي كل واحد من جلسائه حظّه اللائق به من البِشر وطلاقة الوجه ، والحفاوة والتكريم ، حتى إن جليسه ليظنّ أنه لا أحد أكرم على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه ، وذلك لما يجد من اللطف ولين الجانب .

[2] والمعنى : أن من جالسَ النبي صلى الله عليه وسلم أو فاوضه في حاجة : صبر عليه صلى الله عليه وسلم ، بل صابره ، أي : غالبَ جليسَه ومفاوضه في الصبر على المجالسة ، مهما طالت المكالمة ، ولا يعاجله صلى الله عليه وسلم بالقيام عن المجلس أو بقطع كلامه ، ولا يُظهر له الملال والسآمة ، بل يستمر معه مقبلاً عليه ، حتى يكون الذي جالسه هو المنصرفَ عنه .

وفي هذا دليل سعةِ خُلُقه وحسن معاشرته وشدّة تحمّله صلى الله عليه وسلم .

[3] فمن سأله صلى الله عليه وسلم حاجةً لم يرده إلا بتلك الحاجة ، أو بميسور من القول ، ولطيف من الكلام ، وذلك كوعده له بنيل تلك الحاجة ، ونحو ذلك .

[4] قد عمّ الناس كلّهم بِشرَه وطلاقة وجهه صلى الله عليه وسلم وحسن خلقه ، فصار لهم أباً : من الشفقة عليهم ، والرحمة لهم والحرص على نفعهم ، بل هو أعظم من الأب شفقةً ورحمةً ، وحناناً وعطفاً ، وفضلاً ولطفاً ، لأنه صاحب مقام : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ..) الآية ، كما سيأتي بعد إن شاء الله تعالى .

[5] يعني أن مجالسه صلى الله عليه وسلم ومجتمعاته عامرةٌ بنور العلم الذي يُفيضه عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويبثّه فيهم ، فكان صلى الله عليه وسلم يعلّمهم الكتاب – أي القرآن – ويبين لهم معانيه ، ويوضح لهم أحكامه ويبرز لهم حِكمه ، ويأتي لهم بأنواع من الحكمة المشتملة على الوعظ والآداب الفاضلة ، والأخلاق الكاملة ، ويأتيهم بأنواع من قصص الأمم السابقة ، لما في ذلك من العبرة .

والبحث في مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم سيأتي بعد إن شاء الله تعالى .

ولا تؤبَن فيه الحُرَم[3] ، ولا تُنثنى فَلَتاتُه [4] ، متعادلين ، بل كانوا يتفاضلون فيه بالتقوى [1] .

---

[1] وهكذا مجلسه صلى الله عليه وسلم مظلّل بالحياء والوقار ، فكان جلساؤه معه صلى الله عليه وسلم على غايةٍ من الحياء والأدب والسكينة .
كما وأن مجلسه صلى الله عليه وسلم مجلس صبر على جفوة البادي ، وإلحاح السائل وإلحافه ، وإكثار السائل عما يهمه من الأمور ، كما تقدم في حديث ضمام لما قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إني سائلُك فمشدّد عليك في المسألة فلا تجد عليّ في نفسك ، فقال له صلى الله عليه وسلم : (سَل عما بدا لك ..) الحديث .
وكان مجلسه صلى الله عليه وسلم مجلسَ أمانة على أسرارٍ أسرّها الجلساء إلى بعضهم ، أو كان مقتضى الحال كتمانها أو خفاؤها إلى حين آخر .

[2] وذلك للوعيد الشديد الذي هدّد الله تعالى به المؤمنين ، حيث قال سبحانه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)
ولما نَزلت هذه الآية الكريمة خاف الصحابة من الوقوع في هذا النهي ، فالتزموا في مجلسه صلى الله عليه وسلم خفض الصوت ، وكثرة الصمت ، وكانوا يتواصون بذلك ، ويعلّمون الجاهل ، ويذكّرون الغافل .
ففي الحديث الذي رواه الترمذي وابن حبان وغيرهما عن صفوان بن عسّال رضي الله عنه أن رجلاً من أهل البادية أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل يناديه بصوت له جهوري : يا محمد يا محمد – صلى الله عليه وسلم - .
فقلنا : ويحَكَ ، اخفض من صوتك ، فإنك قد نُهيتَ عن هذا .
قال : لا والله حتى أسمِعَه .
فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (هاؤم) .
فقال الرجل : أرأيت رجلاً يحبُّ قوماً ولم يلحق بهم ؟ - أي : يحبهم ولكن لا يستطيع أن يعمل مثلهم فهل تنفعه محبته - .
فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (المرءُ مع من أحبّ) .

[3] الأبن : بفتح الهمزة هو : العيب ، والحرم : جمع حرمة ، وهي : ما يحترم ولا يحلُّ انتهاكه ، وما يحميه الرجل من الأهل ، وما يصونه ويحفظه . والمعنى : أن مجلسه صلى الله عليه وسلم لا تعاب فيه حرم الناس ، ولا تنتهك بقذف أو غيبة ونحوهما ، بل مجلسه صلى الله عليه وسلم مصونٌ عن كل قول قبيح ، وعن كل فعل سيء .

[4] الفلَتات : جمع فلتة ، وهي : ما يبدرُ من الرجل من سَقطة أو هفوة ، أو زلّة ، ومعنى : لا تنثى أي : لا تُشاع ولا تذاع ، من قولهم : نثا الحديث : إذا حدّث به وأشاعه .

متواضعين ، يوقّرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير ، ويؤثرون ذا الحاجة ، ويحفظون الغريب [2] .

سيرته صلى الله عليه وسلم مع جلسائه وآدابه معهم

قال الحسين رضي الله عنه : وسألت أبي – علياً رضي الله عنه – عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في جلسائه ؟

فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائمَ البِشر [3] ، سهلَ الخُلُق [4] ، ليّن الجانب[5] ،

ليس بفظّ [6] ، ولا غليظ [7] ، ولا صخّاب [1] ، ولا فحّاش [2] ، ولا عيّاب [3]

والمعنى : كما قال العلماء في شرح هذه الجملة : أنه لا فلتاتَ في مجلسه صلى الله عليه وسلم أصلاً ، فلا يصدرُ من جلسائه صلى الله عليه وسلم زلاّت في مجلسه حتى تذاعَ ، بل المجلس حصينٌ بالأدب والكمال ، وعلى هذا فالنفي منصبٌّ على الفلَتَات .
أو المعنى : إن صدرت هفوةٌ من أحد الجلساء ، فلا تذاع ولا تنقل عن المجلس ، بل ينبّه إليها صاحبُها ، وتستر عليه فلا تعاد أصلاً .

[١] أي : متساوين بينهم ومتوافقين مع بعضهم ، فلا يتكبّر بعضهم على بعض ، ولا يفخر أحد من الجلساء على أحد بحسَب أو نسَب ، بل كانوا يتفاضلون في مجلسه صلى الله عليه وسلم بالتقوى ، فأيُّهم أتقى فهو الأفضل عندهم .
وفي رواية : يتعاطفون ، بدلاً من : يتفاضلون ، والمعنى كما قال العلامة الخفاجي : يعطِف بعضهم على بعض ، ويُشفق عليه ويرحمه بسبب تقوى الله ، لا رياءً ولا سُمعةً ، ولا خوفاً واتقاء شر .

[٢] يؤثرون ذا الحاجة فيقدّمونه على أنفسهم في تقريبه من النبي صلى الله عليه وسلم ، ليقضي له حاجته ، أو يجيبه عن مسألته ، كما أنهم يؤثرونه بقضائها له ، وإعانته عليها ، ولو كانوا في الحاجة مثله ، ويحفظون حق الغريب وكرامته .

[٣] أي : طلاقة الوجه والبشاشة .

[٤] سجيته صلى الله عليه وسلم السهولةُ وعدم الشدة في اقواله وأفعاله ، فهو صلى الله عليه وسلم ليس بالصّعب .

[٥] كثير اللطف ، سريع العطف .

[٦] أي : ليس هو صلى الله عليه وسلم بسيء الخُلُق .

[٧] ليس بالجافي الطبع ، الشديد القاسي .

ولا مُشاحٍّ – وفي نسخة صحيحة : ولا مدّاح ، ولا مزّاح [4] - يتغافلُ عمّا لا يشتهي [5] ، ولا يُؤيس منه راجيه [6] ، ولا يخيب[7] فيه .

قد تركَ نفسه من ثلاث : المراء ، والإكثار ، وما لا يعنيه [8] .

وترك الناسَ من ثلاث : كان لا يذمُّ أحداً ولا يعيبه ، ولا يطلب عورته [9] ،

---

[1]أي : ولا يرفع صوته بالصياح .
[2]لا يتكلم بكلام قبيح .
[3]أي : لا يعيب إنساناً ولا حيواناً ولا طعاماً ، كما جاء في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم ما عاب ذواقاً قطّ ، ولا عاب طعاماً قطّ ، إن اشتهى أكله ، وإلا تركه .
[4]ليس بمشاح ، والمشاحة : هي المضايقة في الأشياء ، وعدم التساهل فيها ، شحاً بها وبخلاً ، ولا مدّاح : أي : ليس مبالغاً في مدح شيء من مباحات الدنيا ، لأن ذلك يدل على شرَه النفس ، وشدة تعلقها به ، ولا كثير المزاح .
[5]يُظهر الغفلة والاعراض عما لا يستحسنه من الأقوال والأفعال التي تصدر من بعض الجلساء ، تلطُّفاً ورفقاً بالجلساء .
[6]أي : من رجاه في أمرٍ لم يقطع رجاءه ، ولم يجعله آيساً .
[7]إما ثلاثي مشتق من الخيبة ، وهو الحرمان ، بمعنى : أن راجيه لا يخيب فيما رجاه ، وإما بتشديد الياء المكسورة ، بمعنى : أنه صلى الله عليه وسلم لا يجعل من رجاه محروماً فلا يخيبه .
وفي نسخة : ولا يجيب فيه : بالجيم ، من الإجابة ، والضمير في (فيه) راجع إلى ما لا يشتهي ، والمعنى : أنه صلى الله عليه وسلم لا يجيب أحداً فيما لا يشتهي ، بل يسكت عنه عفواً وتكرماً – كما فصّل ذلك في (جمع الوسائل) .
[8]والمعنى : أنه صلى الله عليه وسلم قد باعد نفسه ، فبعدت عن ثلاث : المراء والجدال كله ، إلا ما كان فيه نصرة لدين الله تعالى ، وإقامة حجة على المعاندين أو المعارضين ، فإن ذلك من الجهاد الكبير ، قال تعالى : (وجادلهم بالتي هي أحسن ..) الآية . وقال تعالى : (فلا تطعِ الكافرين وجاهدهم به – أي : بالقرآن الكريم – جهاداً كبيراً) .
وترك الإكثار من الكلام ، وفي نسخة مصححة : (الإكبار) بكسر فسكون فموحدة ، أي : ترك استعظام نفسه في الجلوس والمشي ، وأمثال ذلك في معاشرته مع الناس ، كما في (جمع الوسائل) .
[9]العورة هي : ما يُستحيا منه أن يظهر ، والمعنى : أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يطلبُ الاطلاعَ على عورة أحد ، أي زلّاته وهناتِه ، ولا يظهر ما يريد الإنسان ستره ، ولا يتتبع عورات الناس وذنوبهم .

ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه [1] .

وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير [2] ، فإذا سكت تكلموا[3]

لا يتنازعون عنده الحديث ، ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرُغ [4] ، حديثُهم حديثُهم عنده حديثُ أولهم [5] .

يضحك مما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون منه [6] .

ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته ، حتى إن كان أصحابُه ليستجلبونهم [7] ، ويقول : (إذا رأيتم طالب حاجة فأرفِدوه)[8]

---

[1] فهو صلى الله عليه وسلم طويلُ الصمت ، لا يتكلم إلا فيما يتوقع ثوابه عند الله تعالى ، لكونه مطلوباً شرعاً ، أما الكلام الذي لا ثواب فيه فهو صلى الله عليه وسلم بمعزل عنه .

[2] أي : مالوا رؤوسهم وأقبلوا بأبصارهم إلى صدورهم ، وسكتوا وسكنوا ، إجلالاً له صلى الله عليه وسلم وأدباً معه ، فكانت صفتهم في ذلك صفة من على رأسه طائر يريد أن يصيدَه ، فهو يخاف أن يتحرك فيذهب الطائر .

[3] وهذا من كمال الأدب معه صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنهم لا يبتدرونه بالكلام ، ولا يتكلمون مع كلامه صلى الله عليه وسلم .

[4] وفي هذا أيضاً دليل على كمال أدب الصحابة رضي الله عنهم ، واهتمامهم بآداب المجلس ، وذلك أنهم لا يختصمون عنده صلى الله عليه وسلم في الحديث ، ولا ينازع أحدهم الآخر في تناول الحديث ، فلا يتكلم اثنان معاً ، ولا يقطع بعضهم على بعضٍ كلامَه ، بل من تكلم منهم أنصتوا له حتى يفرغ من كلامه .

[5] يعني : أن الذي يتقدم في الكلام أولاً من أهل المجلس ، هو أولهم مجيئاً ، ثم وثم على الترتيب .
وقال بعضهم : معناه أن حديثهم كلّهم أولهم وآخرهم عند النبي صلى الله عليه وسلم ، هو كحديث أولهم في عدم الملال منه ، وفي الإصغاء التام إليه .
وقيل : معناه : حديثهم عنده صلى الله عليه وسلم حديث أولهم ، أي : أفضلهم ديناً ، وأعظمهم تقوى .

[6] ويفعل ذلك صلى الله عليه وسلم تأنيساً لهم ، وجبراً لقلوبهم ، وحسنَ معاشرةٍ لهم .

[7] أي : إنه كان الصحابة ليستجلبون الغرباء ، ويرغبون في حضورهم مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، ليستفيدوا بسبب أسئلتهم .

[8] أي : فأعينوا صاحب الحاجة على حاجته حتى يصل إليها .

ولا يقبل الثناء إلا من مكافئٍ [1] .

ولا يقطعُ على أحدٍ حديثَه حتى يجوز : فيقطعه بنهيٍ أو قيام [2] .

سيرته صلى الله عليه وسلم في سكوته

وفي رواية الطبراني وغيره :

قال الحسين رضي الله عنه : فسألت أبي علياً رضي الله عنه : كيف كان سكوته صلى الله عليه وسلم ؟

فقال : كان سكوته على أربع : الحِلم ، والحذَر ، والتقدير ، والتفكير .

وفي رواية : الحكم ، والحذر ، والتدبُّر ، والتفكر .

فأما تقديره صلى الله عليه وسلم : ففي تسوية النظر ، والاستماع بين الناس .

وأما تذكُّره – أو قال تفكُّره – : ففيما يبقى ويفنى .

---

[1] قيل : المراد لا يقبل المدح إلا من مكافئ ، أي : مقارب في مدحه ، غير مفرط ولا مفرّط ، أي : لا مجاوز ولا مقصّر ، والمجاوزة للحدّ هي ما ورد في قوله صلى الله عليه وسلم : (لا تطروني كما أطرتِ النصارى عيسى بن مريم : جعلوه ابن الله ، ولكن قولوا : عبد الله ورسوله) .
وقيل : المعنى : لا يقبل الثناء عليه صلى الله عليه وسلم إلا من رجل يعرفُ حقيقة إسلامه من المخلصين الذين طابق لسانُهم جنانهم ، ليس من المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، فيمدحون بالظاهر ، ويقدحون بالباطن .
وقيل : المعنى : أنه صلى الله عليه وسلم لا يقبل المدح من أحد إلا من مكافئ على إنعامٍ ناله المادحُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيكون مدحه من باب المكافأة وإلا لم يقبله منه ، بل يُعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، لأن الله تعالى ذمّ من يُحبّ أن يُحمد بما لم يفعل ، في قوله تعالى : (لا تحسبنّ الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا ..) الآية .
وقد أورد هذه الوجوه من المعاني العلامة الشيخ علي القاري والعلامة المناوي في (شرحهما على الشمائل) ، وكذلك العلامة الخفاجي وغيره في (شرح الشفا)

[2] من تواضعه صلى الله عليه وسلم وإكرامه جليسه : أنه لا يقطع على أحد كلامه بل يستمع له حتى يفرغ من كلامه ، إلا أن يتجاوز حدّ الحق الذي شرعه الله تعالى ، فيقطع عليه كلامه بنهيه عن استمراره في الكلام ، أو بقيام من المجلس .

وجُمع له صلى الله عليه وسلم الحلم والصبر [1] ، فكان لا يُغضبُه شيء ولا يستفزّه .

وجُمع له الحذر في أربع : أخذُه بالحسن ، والقيام لهم فيما جمع لهم الدنيا والآخرة . صلى الله عليه وسلم .

وفي رواية للطبراني – كما في (مجمع الزوائد) - : وجُمع له الحذر صلى الله عليه وسلم في أربع : أخذُه بالحسن ليُقتدى به ، وتركُه القبيح ليُتناهى عنه ، واجتهاده الرأي فيما أصلح أمته ، والقيام فيما جمَع لهم الدنيا والآخرة [2]

وإن كل عاقل إذا تدبّر هذه الأوصاف الكاملة ، والأخلاقَ الفاضلة ، والخصالَ الحميدة ، والمزايا الرشيدة ، التي تأصّلت في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واجتمعت كلها فيه على أكمل وجوهِها ، وأعلى مستوياتها – إذا تدبّر ذلك : علم يقيناً أن سيدنا محمداً الذي اتّصف بتلك الصفات ، ليس هو إنساناً كغيره من بني الإنسان ، وإنما هو إنسان مخصّص من رب العالمين ، بخصائص أكرمَه الله بها ، ومميّز على غيره بمزايا منحه الله إياها ، وأنّ قضيّته إنما هو نبي الله ورسوله ، ليس ذلك من باب أدب الأدباء ، ولا من باب حكمة الحكماء ، ولا نجابة النجباء ، ولكن من باب أنه : رسول الله وخاتم الأنبياء ، صلوات الله عليه وعليهم وسلامه – آمين .

من آدابه العامة صلى الله عليه وسلم وقاره العظيم صلى الله عليه وسلم

---

[1] وفي نسخة : جُمع له الحلم في الصبر – قال الخفاجي : أي مع الصبر على أمور الناس والأمة ، فكان صلى الله عليه وسلم مع حلمه صابراً لا يضجر ولا يقلق اهـ

[2] يعني أنه صلى الله عليه وسلم كان يبذلُ جهده فيما يُصلح الأمة ، ويجمع لهم خير الدنيا والآخرة وسعادتهما .
وهذا الحديث – كما قال العلامة الزبيدي في (شرح الإحياء) - : أخرجه الترمذي في (الشمائل) والبغوي ، والطبراني ، والبيهقي في (الدلائل) من طرق – قال : وأخرجه ابن منده اهـ
وقد أورده الحافظ الذهبي في (تاريخ الإسلام) بروايات ، والحافظ ابن كثير في (البداية) أيضاً معزواً للطبراني وغيره .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدّ الناس وقاراً ، وأعظمهم أدباً ، وأرفعَهم فخامةً وكرامةً روى أبو داود في (مراسيله) عن خارجة بن زيد الأنصاري رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوقرَ الناس في مجلسه ، لا يكاد يُخرج شيئاً من أطرافه ، قال كثير من العلماء : يعني أنه صلى الله عليه وسلم لا يُظهر شيئاً من أطراف جسمه الشريف ، وقاراً منه .

وقال العلامة القاري في معنى : لا يكاد يُخرج شيئاً من أطرافه : أي : من بُزاق فمه ، أو مخاط أنفه ، أو قطع ظفره اهـ

وروى ابن ماجه عن إسماعيل قال : دخلنا على الحسن – أي : البصري – نعوده حتى ملأنا البيت ، فقبض رجليه ثم قال : دخلنا على أبي هريرة نعوده حتى ملأنا البيت ، فقبض رجليه ثم قال – أبو هريرة - : دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ملأنا البيت وهو صلى الله عليه وسلم مضطجع لجنبه ، فلما رآنا قبض رجليه ثم قال : (إنه سيأتيكم أقوام من بعدي يطلبون العلم ، فرحّبوا بهم وحيّوهم وعلّموهم)[1] .

تقديمه صلى الله عليه وسلم كبير القوم في الكلام

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدّم كبير القوم في الكلام والسؤال ، وذلك من باب التكريم وحفظ المراتب وتنزيله الناسَ منازلهم :

روى البخاري عن سهل بن أبي حثمة أن نفراً انطلقوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم – وفي رواية – جاء عبد الرحمن بن سهل وحويّصة ومحيّصة ابنا مسعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم – فقالوا : يا رسول الله انطلقنا إلى خيبر ، فوجدنا أحدنا قتيلاً – وفي رواية : فبدأ عبد الرحمن يتكلم ، وكان أصغرَ القوم .

فقال صلى الله عليه وسلم : (كبّر الكِبرَ) .

[1] انظر مقدمة (سنن) ابن ماجه في فضل العلم وقال في (الزوائد) : إسناده ضعيف .

وفي رواية : (يبدأ الأكبر) .

وفي رواية : (الكبرَ الكبرَ)[1] .

وفي رواية : (كبّر كبّر) يريد السنّ .. الحديث في باب القَسامة .

والمعنى قدّم للكلام من هو أكبر منك سنّاً ليعرِض القضية .

وفي (مسند) أحمد عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ليس منا من لم يوقّر الكبير ، ويرحم الصغير ، ويأمر بالمعروف وينهَ عن المنكر) .

تكريمه صلى الله عليه وسلم أهل الفضل

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (البركة مع أكابركم [2]) وفي رواية البزار : (الخير مع أكابركم) .

والمعنى : أن البركة مع أكابركم في الدين والعلم .

كما دل عليه حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ليس من أمتي من لم يجلّ كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقّه)[3]

فمن ذلك : إكرامه صلى الله عليه وسلم لعمه العباس رضي الله عنه ومُباهاتُه به ، وإعلانه صلى الله عليه وسلم ذلك أمام الصحابة ، ليقتدوا به في تكريم عمه العباس رضي الله عنه :

---

[1] بالنصب على الإغراء ، كما في (الفتح) ، أي قدموا الأكبر .

[2] عزاه في (الجامع الصغير) إلى ابن حبان قال : وصححه ابن حبان ، و(الحلية) والبيهقي والحاكم في (المستدرك) وقال : صحيح على شرط مسلم كما في (الترغيب) من كتاب الأدب ، ورواه البزار والطبراني وفي إسناد البزار حماد ، وثقه جماعة ، وفيه ضعف ، وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ

[3] قال في (مجمع الزوائد) : رواه أحمد والطبراني وإسناده حسن .

روى الطبراني بسند حسن عن ابن عباس ، عن أمه أم الفضل ، أن العباس أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه قام إليه وقبّل ما بين عينيه ، ثم أقعده عن يمينه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : (هذا عمي ، فمن شاء فليُباهِ بعمه) .

فقال العباس : نِعمَ القولُ يا رسول الله .. الحديث .

وروى الحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : استسقى عمر عام الرمّادة – أي : عام القحط – بالعباس فقال : (اللهم هذا عمُّ نبيك نتوجّه إليك به ، فاسقِنا) . فما برِحوا حتى سُقوا .

فخطب عمر فقال : (يا أيها الناس ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى للعباس ما يرى الولد لوالده : يعظّمه ، ويفخّمه ، ويبرُّ قسَمه ، فاقتدوا برسول الله صلى الله عليه وسلم في عمه العباس واتّخذوه وسيلةً إلى الله فيما نزل بكم) .

وبعض هذا الحديث في صحيح البخاري .

وكان الصحابة رضي الله عنهم يعظمون العباس ويكرمونه ، اتّباعاً للنبي صلى الله عليه وسلم :

فقد روى الحافظ ابن عبد البر عن ابن شهاب أنه قال : كان الصحابة يعرفون للعباس فضله ، فيقدّمونه ويشاورونه ، ويأخذون برأيه .

وروى أيضاً عن أبي الزّناد أنه قال : لم يمرّ العباس بعمر وعثمان وهما راكبان ، إلا نزلا عن دابّتهما ، حتى يجوز العباس ، إجلالاً له ويقولان : عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن لطائف أدب العباس مع النبي صلى الله عليه وسلم :

ما رواه ابن أبي عاصم عن أبي رزين ، والبغوي في (معجمه) عن ابن عمر ، أنه قيل للعباس : أنت أكبرُ أو النبي صلى الله عليه وسلم ؟

فقال : هو أكبرُ مني ، وأنا ولدتُ قبله .

انظر (الإصابة) وشرح الزرقاني على (المواهب) .

وفي (الإصابة) نقلاً عن الشعبي أنه قال : ذهب زيد بن ثابت رضي الله عنه ليركب ، فأمسك ابن عباس رضي الله عنهما بالركاب .

فقال : تنحّ يا ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : لا ، هكذا نفعل بالعلماء والكبراء [1] .

وروى الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح في نفرٍ من أصحابه ، إذا أتي بقدَح فيه شراب . فناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة ، فقال أبو عبيدة : أنت أولى به يا نبي الله . قال : (خذ) فأخذ أبو عبيدة القدح ، وقال قبل أن يشرب : خذ يا نبي الله

فقال صلى الله عليه وسلم : (اشرب فإنّ البركة مع أكابرنا ، فمن لم يرحم صغيرنا ، ويجلّ كبيرنا : فليس منّا)[2] .

فأراد صلى الله عليه وسلم أن يكرم أبا عبيدة فناوله القدح ، وأثنى عليه بقوله : (البركة مع أكابرنا) ، وروى أبو داود عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن من إجلال الله : إكرامَ ذي الشيبة المسلم ، وحاملِ القرآن غيرِ الغالي فيه ولا الجافي عنه ، وإكرامَ ذي السلطان المُقسِطِ) .

تحسينه صلى الله عليه وسلم الحسن وتنشيطه على إتقان العمل وحسّنه

---

[1] قال في (مجمع الزوائد) ٩ : ٣٤٥ : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير رزين الرماني وهو ثقة اهـ

[2] قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف اهـ من كتاب الأدب .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحسّن الأمر الحسن ويمدح على ذلك ، تكريماً لمن أحسن فيه ، وتنشيطاً لهمته ، ويقبّح الأمر القبيح ويردُّه .

روى الإمام أحمد عن يحيى بن الجزار قال : دخل نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم سلمة رضي الله عنها فقالوا : يا أم المؤمنين حدّثينا عن سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قالت : (كان سرُّه وعلانيته سواءً ، ثم ندمت قالت : أفشيتُ سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرتُه ، فقال : أحسنتِ)) .

قال في (مجمع الزوائد) : رواه أحمد والطبراني وقال : يحيى عن أم سلمة ، ورجالهما رجال الصحيح اهـ .

وروى ابن حبان في (صحيحه) عن طَلق بن علي الحنفي – نسبة لبني حنيفة – قال : بنيتُ المسجدَ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذتُ المِسحاة بمِخلطة الطين ، فكأنه أعجبه فقال : (دعوا الحنفي والطينَ ، فإنه أضبطُكم للطين) .

وفي (طبقات) ابن سعد عن طلق قال : قدمتُ على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبني مسجده ، والمسلمون يعملون فيه معه ، وكنتُ صاحبَ علاجٍ وخلطِ طينٍ ، فأخذتُ المِسحاة أخلط الطين – ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليّ ، ويقول : (إن هذا الحنفيّ لصاحبُ طين) [1] .

وكان صلى الله عليه وسلم يحثُّ على إتقان العمل وإحسانه :

---

[1] كذا في (التراتيب) .

فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إنّ الله تعالى يحبُّ إذا عمل أحدكم عملاً أن يُتقنه)[1] .

وروى البيهقي عن كُليب بن شهاب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله تعالى يُحبّ من العامل إذا عمل عمل أن يُحسن)[2] .

مشاورته صلى الله عليه وسلم لأصحابه

قال الله تعالى : (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) .

فقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالمشاورة في الأمر الذي يحتاجُ بعدُ إلى المشاورة ، فإذا عزم قلبه على الفعل وعلى إمضائه بعد المشاورة – كما تدل عليه الفاء الدالة على الترتيب والتفريع – فليمضِ وليتوكل على الله تعالى .

وإنما أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يشاور أصحابه أهلَ الرأي والتدبير في الأمور التي تتطلّب ذلك ، مع أن عقلهم بالنسبة إلى عقله الشريف صلى الله عليه وسلم كالسُّها بالنسبة إلى شمس الضحى ، ورأيه فوق الآراء كلها – لحكم :

أولاً - تطييب نفوسهم ، حتى إذا دخلوا في ذلك الأمر ومضوا فيه – كالحرب وأمثالها – يكون ذلك عن طيب نفوسهم واختيارهم .

وذلك كما قال قتادة : أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يشاور أصحابه ، وهو يأتيه وحي السماء ، لأنه أطيب لأنفس القوم .

ثانياً – الاستظهار برأيهم ، بمعنى أن رأيهم الموافق لرأيه صلى الله عليه وسلم يزداد به صلى الله عليه وسلم قوة

---

[1] ذكره في (الجامع الصغير) معزواً للبيهقي ، وقال العلامة المناوي : ورواه أبو يعلى وابن عساكر وغيرهما .

[2] كذا في (الجامع الصغير) رامزاً لضعفه .

كما روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن غَنم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر وعمر : (لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما) .

ثالثاً – أن يكون ذلك سنةً بعده صلى الله عليه وسلم لأمته .

فقد أخرج البيهقي عن الحسن رضي الله عنه أنه قال في هذه الآية :

قد علم الله تعالى ما برسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة إليهم ، ولكن أراد أن يستنّ به من بعده

وروى ابن عدي والبيهقي في (الشُّعب) بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت : (وشاورهم في الأمر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أما إن الله ورسوله لغنيّان عنها ، ولكن جعلها الله تعالى رحمةً لأمتي ، فمن استشار منهم لم يعدم رشداً ، ومن تركها لم يعدم غيّاً)[1] .

رابعاً – أن في المشاورة تقديراً للمستشار واعتباراً لمنزلته وإعطاءه حرية الرأي والنظر ، وبها يشعر المستشار أن له اعتباراً وشأناً ، وأن عليه مسؤولية ينبغي أن يؤديها حقها ، ناصحاً صادقاً ، بخلاف الاستبداد في الرأي في مواضع الاستشارة ، فإنه يجعل الموجودين من عقلاء الرجال كالمفقودين ، ويجعل المختارين كالمكرهين .

ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يُكثر أن يشاور أصحابه ، فقد روى الشافعي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ما رأيتُ أحداً أكثر مشاورة لأصحابه من النبي صلى الله عليه وسلم .

خامساً – أن في المشاورة استعراضَ الآراء ، وشحذَ العقول والأفكار ، وبها يعرف مقادير الرجال ، وخبرتهم في الأمور ، ومدى تجاربهم فيها .

حثّه صلى الله عليه وسلم على الاستشارة

كان صلى الله عليه وسلم يحث على الاستشارة ويرغّب فيها :

---

[1] انظر جميع ذلك في (تفسير) الآلوسي .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (المستشير مُعان ، والمستشار مؤتَمَن ، فإذا استُشير أحدُكم فليُشر بما هو صانع لنفسه)[1]

والمشورة – كما قال العلماء – أن تستخلص حلاوة الرأي وخالصه من خبايا الصدور ، كما يشور العسلَ جانيه .

وفي بعض الآثار : (نقّحوا عقولكم بالمذاكرة ، واستعينوا على أموركم بالمشاورة) .

وقد بيّن العلماء أن المستشار يجب أن يكون : أميناً محترماً ، ناصحاً ثابت الجأش ، غيرَ معجَب بنفسه ، ولا متلوّن في رأيه ، ولا كاذبٍ في مقاله .

وزاد بعضهم : ولا محباً – أي : متغالياً في محبة الأمر المستشار فيه – لغلبة هوى محبوبه عليه ، ولا متجرّداً عن الدنيا ، فإنه لا يُستشار في أمر الدنيا ، لعدم معرفته ، ولا منهمكاً في حبها ، لاستيلائها عليه – وذلك مما يُفسد رأيه ، ولا بخيلاً [2] .

وعن أبي مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (المستشار مؤتَمَن ، وهو بالخيار[3] ، إن شاء تكلم ، وإن شاء سكت ، فإن تكلم فليجتهد رأيه)[4] .

وروى الطبراني عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار)[5] .

---

[1] رواه العسكري وأصله في (السنن)
[2] انظر جميع ذلك في (شرح المواهب) من الجزء الرابع – قال : ويستحب تقديم الاستشارة على الاستخارة ، كما في (المدخل) اهـ
[3] ما لم يعين عليه ، بأن كان يلحق المستشير ضرر إذا لم يشر عليه .
[4] رواه الإمام أحمد ،وأصله في (السنن) الأربعة .
[5] رواه الطبراني في (الأوسط) بإسناد ضعيف جداً ، لكن له شواهد كثيرة ، كما في ٠ مجمع الزوائد) ، و(الجامع الصغير) و(شرح المواهب)

تصويبه صلى الله عليه وسلم الرأي الحسن وعمله بمقتضاه

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوّب رأي من تقدّم برأي حسن صائب ، ويعلن ذلك تكريماً لصاحب الرأي الحسن ، وتنشيطاً لهمّته ، وتقديراً لموقعه في مواضع الخبرة .

وفي ذلك دليل على أنه صلى الله عليه وسلم كان أوعى لحكمة الآراء ومراميها ، ومدى أثرها وعواقب أمرها ، فلذا كان يصوّب حسنها ، ويردّ سيئها .

ففي (طبقات) ابن سعد أن النبي صلى الله عليه وسلم استشار يوم قريظة والنضير ، فقام الحُباب بن المنذر فقال : أرى أن ننزل بين القصور فنقطع خبر هؤلاء عن هؤلاء ، وخبر هؤلاء عن هؤلاء ، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بقوله [1] .

وروى الطبراني عن نُبيشة الخير أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده أسارى ، فقال : يا رسول إما أن تمنّ عليهم ، وإما أن تفاديهم .

فقال صلى الله عليه وسلم : (أمرتَ بخير ، أنت نبيشة الخير)[2] .

وروى الطبراني وسعيد بن منصور عن طلحة مرفوعاً : (يا عمرو إنك لذو رأي رشيد في الإسلام) .

حبه صلى الله عليه وسلم حسن الأسماء وكراهته قبيحها

كان صلى الله عليه وسلم يحبُّ للمسلم صالح الأسماء وحَسَنها ، ويكره له سيء الأسماء وقبيحها ، وفي ذلك تكريم المسلم أن يُعرف باسم قبيح ، أو ينادى باسم قبيح أو يُوضع عليه عَلَم قبيح : اسماً أو لقباً أو كنية .

---

[1] انظر (الطبقات) المجلد الثالث ص ٥٦٧

[2] قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني وإسناده حسن اهـ

روى الطبراني وأبو يعلى عن حنظلة بن حِزيَم رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم (كان يعجبه أن يُدعى الرجل بأحب اسمائه إليه ، وأحب كُناه)[1] .

وذلك لما فيه من التكريم والتحابُب والتواصل ، وإدخال السرور عليه .

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتحسين الأسماء :

فروى أبو داود وابن حبان في (صحيحه) عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنكم تُدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم ، فحسّنوا أسماءكم)[2] .

قال العلامة المناوي : ولا يعارض هذا الحديثَ خبرُ الطبراني : أنهم يُدعون بأسماء أمهاتهم ، ستراً منه سبحانه على عباده ، لإمكان الجمع بأنَ من صحّ نسبه يُدعى بالأب ، وغيره يُدعى بالأم – كذا جمع البعض .

وأقول : هو غير جيد ، إذ دعاءُ الأول – أي : الذي صح نسبه – بالأب ، والثاني – أي : الذي لم يصح نسبه – بالأم ، يُعرف به ولد الزنا من غيره ، فيفوت المقصود ، وهو الستر ، ويحصل الافتضاح – فالأولى أن يقال : خبر دعائهم بالأمهات ضعيف ، فلا يُعارض به الصحيح اهـ .

وعن أبي وهب الجُشمي – وكانت له صحبة – رضي الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (تسمّوا بأسماء الأنبياء ، وأحبُّ الأسماء إلى الله : عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقُها : حارث وهمّام ، وأقبحها حربٌ ومُرّة) .

---

[1] انظر (الجامع الصغير) رامزاً لحسنه ، وقال : رواه الطبراني وأبو يعلى وابن قانع في (معجم الصحابة) والبارودي ، وقال المناوي : قال الهيثمي : ورجال الطبراني ثقات اهـ

[2] ورواه الإمام أحمد أيضاً ، وقال النووي في (الأذكار) : إسناده جيد ، قال المناوي : وتبعه الزين العراقي .

قال الحافظ المنذري : رواه أبو داود – واللفظ له – والنسائي .

وإنما كان حارث وهمام أصدقَ الأسماء : لأن الحارث هو الكاسبُ ، والهمام هو الذي يهم مرة بعد أخرى ، وكل إنسان لا ينفك عن هذين . اهـ .

يعني : أن هذين الاسمين مطابقان لمعناها ، إذ كل إنسان يهمُّ أولاً – والهمُّ مبدأ الإرادة – ثم يتحرك للعمل ، وهو الكسب المعبّر عنه بالحارث ، فهو حارث همام ، والاسم الكريم يُشعر بكرامة المسمّى ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يغيّر الاسم القبيح إلى اسم حسن :

فعن عائشة رضي الله عنها : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يغيّر الاسم القبيح) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن ابنةً لعمر كان يقال لها عاصية ، فسمّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم جميلة .

رواه الترمذي وقال : حديث حسن ، ورواه مسلم باختصار .

حبه صلى الله عليه وسلم الفأل الصالح وكراهته التطير

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : (لا عدوى ولا طِيَرة ، ويُعجبني الفأل الصالح : الكلمة الحسنة) .

قال في (النهاية) : الطّيرة : بكسر الطاء وفتح الياء ، وقد تسكّن : هي التشاؤم بالشيء ، وهو مصدر تطيّر ، يقال : تطير طِيرة ، وتخيّر خِيرة .

قال : وأصله فيما يقال : التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما [1] ، وكان ذلك يقيّدهم – أي : يمنعهم في عهد الجاهلية – عن

---

[1] قال الأزهري : إن العرب كانت تزجر الطير ، فتتشاءم بالبارح ، وتتيمن بالسانح .
قال أبو عبيدة : سأل يونس رؤبة – وأنا شاهد – عن السانح والبارح ؟
فقال : السانح ما ولاك ميامنه ، والبارح ما ولاك مياسره .
وقيل : البارح ما يأتي من جهة الشمال ، والسانح ما يأتي من جهة اليمين .

مقاصدهم ، فنفاه الشرع وأبطله ، ونهى عنه ، وأخبر أنه ليس له تأثير في جلب نفع أو دفع ضُرّ .

وقال أيضاً : الفأل – مهموز – فيما يسرّ ويسوء ، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء ، وربما استعملت فيما يسرّ .

وقال أيضاً : وقد جاءت الطيرة بمعنى الجنس ، والفأل بمعنى النوع .

وأشار بذلك إلى ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا طيرة ، وخيرها الفأل) .

قالوا : وما الفأل يا رسول الله ؟

قال : (الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم) .

ولذا قال في (المرقاة) يشرح قوله صلى الله عليه وسلم : (وخيرها الفأل) أي : خير أنواع الطيرة بالمعنى اللغوي الأعم من المأخذ الأصلي اهـ .

والخلاصة : أنه صلى الله عليه وسلم كان يعجبه الفأل الصالح ، أي : الكلمة الحسنة المبشّرة بخير ، كما روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُعجبه إذا خرج لحاجة أن يسمع : يا راشد يا نجيح) .

فالتفاؤل والاستبشار بالخير محمود شرعاً ، كأن يسمع طالبُ ضالة : يا واجد ، وأن يسمع التاجر : يا رازق ، والمسافر : يا سالم ، وقاصد الحاجة : يا نجيح ، والغازي : يا منصور ، والحاجُّ : يا مبرور ، والزائر : يا مقبول ، وأمثال ذلك ، كما في (المرقاة) وغيرها .

وأما التطيُّر بمعنى التشاؤم : فهو منهي عنه شرعاً :

ثم إنهم سموا الشؤم طيراً وطائراً ، والتشاؤم تطيّراً ، وقد يطلقون الطائر على الحظ والنصيب : خيراً أو شراً – كذا في (تفسير) الآلوسي : سورة الأعراف .

روى الإمام أحمد في (مسنده) بسند حسن ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتفاءل ولا يتطير ، وكان يحب الاسم الحسن) .

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا عدوى ، ولا طِيرة ، ولا هامة ، ولا صَفَر ، وفِرّ من المجذوم فِرارك من الأسد) .

فنفى رسول الله صلى الله عليه وسلم تأثير العدوى من ذاتها ، وأنها لا محالة مؤثرة ، كما كانوا يعتقدونه في الجاهلية وإنما هي سبب من الأسباب ، والفعّال المؤثر بالأسباب هو الله تعالى وحده .

روى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا عدوى ، ولا هامَة ولا صفَر) .

فقال أعرابي : يا رسول الله فما بالُ الإبل تكون في الرمل لكأنها الظّباء ، فيخالطها البعير الأجرب فيُجربُها ؟ !

فقال صلى الله عليه وسلم : (فمن أعدى الأول) ؟ .

فالعدوى سبب ، ولكنها لا تؤثر من ذاتها ، وإنما تؤثر بإذن الله تعالى ومشيئته ، وقدرته وإرادته ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : (وفِرّ من المجذوم فرارك من الأسد)

أي : حذراً من أن تؤثر فيك العدوى بإذن الله تعالى وقدرته .

وقد قال العارفون : الأسباب حُجّاب بين يدي رب الأرباب ، يتصرّف فيها بقدرته ومشيئته وحكمته ، وهو المؤثر الفعّال .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (ولا طيرة) أي :لا اعتبار للتطير في الشؤم .

وقال بعضهم : هو نفي معناه النهي ، أي : لا تتطيروا ولا تتشاءموا .

(ولا هامة) قال في (المرقاة) : هي اسم طير يتشاءم به الناس ، وهي الصّدى ، وهو طير يضعف بصره في النهار ، ويطير في الليل ، ويصوّت ، ويسكن الخراب ، ويقال له : بوم ، وهذا أحد قولين حكاهما الإمام النووي .

وثانيهما " كانت العرب تزعم أن عظام الميت – وقيل : روحه – تنقلب هامة تطير – قال : وهذا تفسير أكثر العلماء ، وهو المشهور ، ويجوز أن يكون المراد النوعين معاً ، فإنهما باطلان اهـ .

(ولا صفر) قال أبو داود : سئل مالك عن قوله : (ولا صفر) ؟

فقال : إنّ أهل الجاهلية كانوا يحلّون صفر : يُحلونه عاماً ، ويحرمونه عاماً – فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (ولا صفر) .

وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم الرجلَ الذي يرى ما يكرهه ، وربما دخل عليه التشاؤم منه ، أن يقول : (اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك) كما في (سنن) أبي داود .

وروى الإمام أحمد عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من ردّته الطِيرة – أي : منعته – من حاجته ، فقد أشرك)

قالوا : وما كفارة ذلك يا رسول الله ؟

فقال : (يقول : اللهم لا خيرَ إلا خيرك ولا طيرَ إلا طيرك ، ولا إله غيرك)[1]

حبه صلى الله عليه وسلم التيمن في شأنه كله

روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان النبي صلى الله عليه وسلم يُعجبه التيمُّن

في تنعُّله وترجُّله ، وفي طُهوره وفي شأنه كله) .

---

[1] قال في (مجمع الزوائد) : أخرجه أحمد والطبراني ، وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف ، وبقية رجاله ثقات اهـ

وفي رواية لمسلم : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبُّ التيمُّن ما استطاع : في طهوره وتنعُّله وترجُّله ، وفي شأنه كلّه) .

والتيمُّن : هو الابتداء في الأفعال باليد اليمنى ، إن كان الفعل منوطاً باليد ، وبالرجل اليمنى إن كان منوطاً بالرجل ، وبالجانب الأيمن إن كان الفعل متعلقاً بالجوانب .

والحكمة في ذلك كما أوضحه العلماء والعرفاء : هو أنه من باب تكريم اليمين ، والتفاؤل الحسن ، فإن أصحاب اليمين هم أهل الجنة ، ويؤتَون كتبهم بأيمانهم ، ونورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم .

وفي هذا يتجلى تمام تنظيمه صلى الله عليه وسلم وهديه في مباشرة الأعمال ، وذلك أنه لابد من تقديم أحدِ طرفي اليمين أو الشمال في مباشرة الأعمال ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم الفوضى في ذلك ، وسنّ البدء باليمين ، ورجّحها على الشمال – لما تقدّم .

فكان صلى الله عليه وسلم يبدأ باليمين في طهوره – أي : تطهره ، وهذا شامل للوضوء والغسل والتيمم ، وفي ترجُّله – أي : تمشيط شعر رأسه الشريف ولحيته صلى الله عليه وسلم [1] وفي تنعُّله – أي : لبس نعله .

وزاد أبو داود في روايته : وفي سواكه صلى الله عليه وسلم ، وفي شأنه كله .

وجاء في رواية النسائي : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبُّ التيمُّن : يأخذ بيمينه ويعطي بيمينه ، ويحبُّ التيمُّن في جميع أمره) .

وهذا العموم الوارد في تيامنه صلى الله عليه وسلم في جميع أمره هو – كما قال الإمام النووي وغيره – محمول على ما كان من باب التكريم والتزيين : كالأخذ والعطاء ، ودخول المسجد والبيت ، وحلق الرأس وقص الشارب ،

---

[1] كذا في (جمع الوسائل) .

وتقليم الأظفار ، ونتف الإبط ، والاكتحال ، والاضطجاع ، والأكل والشرب [1] .

وأما ما لا تكريم فيه ولا تزيين ، بل هو من باب الإزالة ، فإنه يؤخذ باليسار ، إكراماً لليمين أيضاً ، كما دلّ عليه ما رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم اليمنى لطُهوره وطعامه ، وكانت يده اليسرى لخلائه وما كان من أذىً) .

وروى أيضاً عن أبي قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا بال أحدكم فلا يمسّ ذكَره بيمينه ، وإذا أتى الخلاءَ فلا يتمسّح بيمينه ، وإذا شربَ فلا يشرب نفَساً واحداً) وكان صلى الله عليه وسلم يأمر باستعمال اليمين في الطعام والشراب ، والأخذ والعطاء ، وينهى عن استعمال الشمال في ذلك :

روى ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ليأكل أحدكم بيمينه ويشرب بيمينه ، وليأخذ بيمينه ،وليعطِ بيمينِه ، فإن الشيطان يأكلُ بشماله ، ويشرب بشماله ، ويعطي بشماله ويأخذ بشماله) .

وروى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا يأكلنّ أحدكم بشماله ولا يشربنّ بشماله ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها)

وكان صلى الله عليه وسلم يقدّم الأيمن فالأيمن ، ويقول : (الأيمنَ فالأيمن) .

روى الشيخان واللفظ للبخاري عن أنس رضي الله عنه أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شرب لبناً وأتى داره [2] فحلبتُ شاةً فشِبتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم من البئر ، فتناول القدحَ فشرب ، وعن يساره أبو بكر ،

---

[1] كما في (جمع الوسائل) وغيره .
[2] أي : والحال قد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم دار أنس .

وعن يمينه أعرابيٌّ ، فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعرابيّ فضلَه ، ثم قال : (الأيمنَ فالأيمنَ)[1] .

وفي رواية : (الأيمنون فالأيمنون) وفي رواية : (ألا فيمّنوا) .

قال الحافظ في (الفتح) : أي : يقدّم من على يمين الشارب في الشرب ، ثم الذي عن يمين الثاني ، وهلّم جراً ، وهذا مستحب عند الجميع .

وقال ابن حزم : يجب اهـ .[2]

فيُبدأ بكبير القوم أو مقدّمهم في الفضل ، أو رئيسهم ، ثم بمن على يمينه .

كراهيته صلى الله عليه وسلم إطلاق بعض الكلمات مخافة إيهامها

جاء في (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا يقولنّ أحدكم : خبُثت نفسي ، ولكن ليقل : لقِست نفسي) .

وفي (سنن) أبي داود عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا يقولنّ أحدكم : جأشت نفسي ، ولكن ليقل : لقِسَت نفسي) .

قال الإمام النووي : قال العلماء : معنى لقِست وجأشت : غثت[3] .

قالوا : وإنما كره خبثت ، للفظ الخبث والخبيث .

وقال الإمام أبو سليمان الخطابي : لقِست وخبثت : معناهما واحد ، وإنما كره خبثت ، للفظ الخبث وبشاعة الاسم منه ، وعلّمهم الأدب في استعمال الحسن منه ، وهجران القبيح اهـ

يعني : أنه صلى الله عليه وسلم كره أن يضيف المسلم لنفسه كلمةً فيها خبث وبشاعة ، فإن المسلم أكرم من ذلك .

---

[1] أي : قدموا الأيمن فالأيمن .
[2] (فتح الباري) : ١٢ : ١٨٨
[3] يقال : غثت النفس ، تغثي ، غثياً ، وغثياناً : إذا اضطربت ، حتى كادت تتقيأ .

ومن ذلك : نهيه صلى الله عليه وسلم أن يقول العبد لسيّده : ربي ، بل يقول : سيدي ومولاي ، ونهيه أن يقول السيد ، عبدي وأمَتي ، ولكن ليقل : غلامي ، وجاريتي ،وفتاي ، وفتاتي .

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا يقل أحدكم – أي : لغيره من المخلوقات - : ربي ، وليقل : سيدي ومولاي) .

وفي رواية له أيضاً : (لا يقولنّ أحدكم : عبدي وأمَتي ، كلكم عبيد الله ، وكلُّ نسائكم إماءُ الله ، ولكن ليقل : غلامي وجاريتي ، وفتاي وفتاتي) .

والحكمة في هذا النهي : إغلاقُ باب الموهمات سدّاً للذريعة ، وإيقافُ نفوس أصحاب الغلمان والجواري عن التطاول والغطرسة والترفع والكبر .

وفي ذلك أيضاً : تكريم للغلمان والجواري ، وإحسان إليهم ، وجبر لقلوبهم .

ومن ذلك : تحذيره صلى الله عليه وسلم الرجلَ من أن يقول : هلكَ الناس – وهو يريد بذلك انتقاصَهم واحتقارهم ، وتنزيه نفسه وتفضيلها عليهم :

روى الإمام مسلم في (صحيحه) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذا قال الرجل : هلَكَ الناسُ فهو أهلكُهم) .

قال الإمام النووي : قلتُ : روي أهلكهم برفع الكاف وفتحها : والمشهور الرفع ، واستدلّ على ذلك برواية في (الحلية) : (فهو من أهلكهم) –

ثم قال : قال الحميدي : والأشهر الرفع – أي : أشدُّهم هلاكاً ،وذلك إذا قال ذلك على سبيل الإزراء عليهم ، والاحتقار لهم ، وتفضيل نفسه عليهم ، لأنه لا يدري سرّ الله تعالى في خلقه اهـ .

يعني أن المحتقِر لغيره ربما ساء عمله ، وختم له بسوء العاقبة ، وأنّ المحتقَر ربما صلح أمره ، وختم له بحسن العاقبة .

اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة

وقال الإمام النووي : قال الخطابي : معناه : لا يزال الرجل يَعيب الناسَ ، ويذكر مساوئهم ، ويقول : فسد الناس وهلكوا ونحو ذلك ، فإذا فعل ذلك فهو أهلكهم – أي : أسوأ حالاً فيما يلحقه من الإثم في عيبهم ، والوقيعة فيهم ، وربما أدّاه ذلك إلى العجب بنفسه ورؤيته أن له فضلاً عليهم ، وأنه خير منهم فيهلك اهـ .

ثم أورد الإمام النووي سند هذا الحديث عند أبي داود وأنه قال : قال مالك :

إذا قال ذلك تحزُّناً لما يرى في الناس – قال : يعني من أمر دينهم – فلا أرى به بأساً .

وإذا قال ذلك عجباً بنفسه ، وتصاغراً للناس ، فهو المكروه الذي يُنهى عنه .

قال النووي : قلت : فهذا تفسير بإسنادٍ في نهايةٍ من الصحة ، وأحسنُ ما قيل في معناه – أي : معنى هذا الحديث – وأوجز ، ولاسيما إذا كان عن الإمام مالك رضي الله عنه اهـ كما في (الأذكار) .

فليحذر المسلم أن يزكي نفسه ، ويحتقر غيره ، أو أن يكرم نفسه ، ويُزري بغيره من المسلمين المخلّطين ، ولكن ليأسف عليهم وليحزن عليهم ، وليدعُ الله تعالى لهم .

وجاء في (بلاغات الإمام مالك التي أوردها في الموطأ) :

(أن عيسى بن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام كان يقول :

لا تُكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فتقسوَ قلوبكم ، فإن القلب القاسي بعيدٌ من الله ، ولكن لا تعلمون ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب ، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد [1] فإنما الناسُ : مبتلىً ومُعافىً ، فارحموا أهل البلاء ، واحمَدوا الله على العافية[1]) .

---

[1] فلا ينظر المسلم إلى ذنوب الناس كأنه رب منزّه عن الذنوب والعيوب ، وأن الناس عبيد محتقرون ، مهينون بذنوبهم وعيوبهم ، ولكن ينبغي أن ينظر المسلم إلى عيوب

حول عباداته صلى الله عليه وسلم

إن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نال أشرف مقامات العبادة وأقربها إلى الله تعالى زلفى ، فهو صلى الله عليه وسلم سيد العِباد ، وإمام العُبّاد .

قال الله تعالى : (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)
فأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية بأربعة أشياء : التسبيح ، والتحميد ، والسجود ، والعبادة حتى الموت .
أما التسبيح : فهو تنزيه الله تعالى عما لا يليق به .
وأما التحميد : فهو إثبات المحامد له والكمالات اللائقة به .
ثم قال سبحانه : (وكن من الساجدين) أي : المصلين ، فأطلق الجزءَ – وهو السجود – وأراد الكلّ – وهو الصلاة – وفي هذا الأمر وهو قوله تعالى : (وكن من الساجدين) : فيه التنبيه إلى أفضلية السجود ، كما صح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربه عز وجلّ وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء) رواه مسلم .
وجاءت هذه الأوامر بعدما ذكر سبحانه ما يعتري رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم من ضيق صدره الشريف ، والغم الذي يجده بسبب ما يقوله الكفار من كلمات الكفر والاستهزاء والسخرية بما جاءهم به من عند الله تعالى .
فجاء قوله تعالى : (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ) بعد ذلك إرشاداً إلى ما يكشف الله تعالى من الغمّ ، ويزيل به ذلك الهمّ ، ويشرح به الصدر ، ويذهب ذلك الضيق ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم إذا أحزنه أمر فزع إلى الصلاة .
ثم قال سبحانه : (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) أي : الموت ، وسُمي بذلك لأنه متيقّن اللحوق بكل حيّ مخلوق .

نفسه وذنوبها كأنه عبد يخشى أن يطلع عليه سيده ، فإن الإنسان لا يخلو عن ذنوب وعيوب ، ظاهرة أو باطنة ، كبيرة أو صغيرة.

[1] ارحموا أهل البلاء – أي : المذنبين – بالموعظة الحسنة ، والرفق في أمرهم وعدم احتقارهم ، وبالستر عليهم ، واحمدوا الله على العافية من الذنوب ليديم ذلك عليكم – كذا في (شرح الزرقاني على الموطأ) .

والمعنى : دُم على العبادات ما دمت حياً من غير إخلال بها لحظةً .
ومما يدل على أن المراد باليقين هنا الموت : قوله تعالى : (إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ) أي : الموت .
وجاء في الحديث الذي رواه البخاري وأحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل على عثمان بن مظعون – وقد توفي – فقال صلى الله عليه وسلم (أمّا هو – أي : عثمان – فقد جاءه اليقين من ربه ، وإني لأرجو له الخير) فأراد صلى الله عليه وسلم باليقين الموت .
وقوله تعالى : (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) معناه : واعبد ربك مدة حياتك كلّها ، دائماً دائباً .
وهذه الآية نظير قوله سبحانه إخباراً عن رسوله عيسى بن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام : (وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمتُ حياً) .
وفي (شرح السنة) للحافظ البغوي ، عن جبير بن نُفير مرسلاً :
أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ما أوحيَ إليّ أن أجمعَ المال وأكونَ من التاجرين ولكن أوحيَ إليّ أن (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ))
فالعابد مهما ارتفع مقامه في العبادات ، لا يستغني عن عبادة ربه تعالى ، ولا يسقط عنه الأمر التكليفيّ بالعبادة ما دام حياً عاقلاً .
قال الله تعالى : (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) ؟!
أي : مثيلاً مسامياً له ومشابهاً ؟ لا : بل هو سبحانه كما قال : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) .
والمعنى : أنه سبحانه لا مِثل له أصلاً ، وجيء بـ (مثل) هنا تأكيداً لنفي المثلية من كل الوجوه والاعتبارات .
وهذا له شواهد كثيرة في القرآن الكريم ، وفي لغة العرب ، وقد نزل القرآن بلسان عربي مبين ، قال تعالى : (ولم يكن له كفواً أحد) أي : ليس له شبيه ولا عديل . والمقصود : أن الله تعالى أمر عباده بعبادته ، وأمرهم بالاصطبار لها ، وذلك بالمحافظة عليها في أوقاتها ، والمواظبة الدائمة عليها في الأيام والليالي ، وذلك بإعطاء كل وقتٍ حقّه وحظّه من العبادة ليل نهار .

ولذلك كانت عبادات النبي صلى الله عليه وسلم دائمةً مستمرةً متواصلة في الليل والنهار : روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها : أنها سُئلت : كيف كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ هل كان يخصُّ شيئاً من الأيام – اي : ويترك العمل في أيام - ؟ .
فقالت : (لا – كان عمله دِيمةً ،وأيُّكم يستطيع ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستطيع ؟ !) .
ولم يدع رسول الله صلى الله عليه وسلم نوافله وتطوعاته طِيلة عمره ، كما جاء عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : (ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان أكثر صلاته – أي : التطوع – وهو جالس ، وكان أحبُّ العمل إليه ما داوم عليه العبد ، وإن كان شيئاً يسيراً) .
رواه ابن حبان في (صحيحه) [1] .

حقيقة العبادة

العبادة هي : التقرب إلى الله تعالى بأقصى غايات الخضوع والتذلل له سبحانه ، فيما شرعه لعباده من الأقوال والأعمال : القلبية والبدنية والحالية .
وللعبادة لذة وحلاوة ، ونعيم وطلاوة ، فمن طعِم حلاوتها ،وذاق لذّتها ، تعلّق بها وعشقها ، فهو لا ينفك عنها أبداً ، لأنها تصير راحته وريحانه .
وإن أعظم ذائق ذاق حلاوتها ،وأكبر من نعِم بها ، وشهد أسرارها وأنوارها ، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إمام العبّاد وسيد الصالحين ، وأتقى الأولين والآخرين بنص قوله سبحانه : (إن وليّي الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين) .
فلقد أخبر سبحانه أن توليته لعباده على نسبة صلاحهم ، وأن له سبحانه وتعالى توليةً خاصة لحبيبه صلى الله عليه وسلم لم ينلها غيره ، أشار إليها بقوله : (إن وليّي الله) أي : إن وليّي المتولّي لأمري كله على وجه الخصوص ، هو الله تعالى ، والتولية الإلهية : تكون على نسبة الصلاح ، كما دلّ عليه آخر الآية ، فينتج من ذلك أن له في الصلاح مقاماً خاصاً به ، لم ينله غيره صلى الله عليه وسلم .
ولذلك كان له صلى الله عليه وسلم أكملُ ذوقٍ لحلاوة العبادات ، وألذُّ راحة ونعيم بها :

---

[1] كما في (الترغيب) للحافظ المنذري .

كما جاء في (المسند) وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (قُم يا بلال أرِحنا بالصلاة)
وكما في (المسند) وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (وجُعلت قرّة عيني في الصلاة)
والمتّبعون المحمّديون نالوا نصيبهم من لذّة العبادات ، ونعيم الطاعات ، على حسب مراتبهم :
كما ورد عن الشيخ الكبير العارف إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه أنه قال : لو يعلم الملوك ما نحن عليه من اللذّة لجالدونا عليه بالسيوف .
وقال العارف الكبير الشيخ أبو سليمان الداراني رضي الله عنه : أهل الليل في ليلهم : ألذُّ من أهل اللهو في لهوهم ، ولولا الليلُ ما أحببتُ البقاء في الدنيا .
وكما قال بعضهم رضي الله عنهم : إذا كان أهل الجنة على ما نحن عليه : فهم في عيشٍ طيّبٍ .
ولذلك كلِّف أهلَ الجنة عبادة ربهم سبحانه في الجنة كلَفاً بغير تكلُّف ، فهم يعبدون الله تعالى في الجنة ، أكثر من عباداتهم له في الدنيا .
كما ورد في (الصحيحين) من حديث أبي هريرة ، أن الله تعالى يقول للملائكة الذين يطوفون في الطُّرق يلتمسون أهل الذكر : (ما يقول عبادي ؟
يقولون : يسبّحونك ويكبّرونك ، ويحمدونك ويمجّدونك .
فيقول : هل رأوني ؟
فيقولون : لا والله يا ربّ ما رأوك .
فيقول : كيف لو رأوني ؟
فيقولون : لو رأوك كانوا أشدّ لك عبادةً ، وأشدّ لك تمجيداً ، وأكثر لك تسبيحاً ..) الحديث .
فأهل الجنة أكثر عبادةً منهم في الدنيا ، لأنهم يرون ربهم سبحانه ، ولكن عبادتهم كلَف بلا مشقة ، وإنما هي راحتهم ونعيمهم ، كما دل عليه ما جاء في (صحيح) مسلم عن جابر رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في أهل الجنة : (يُلهَمون التسبيح والتحميد والتقديس ، كما تُلهمون النَفَس)
وللعبادات آثار في نفس العابد : تهذّبها من الرعونات والحماقات والدعاوي والأنانيّات ، حتى تصفوَ نفس العابد ، وتدخل في دائرة العبودية ، لسلطان مقام الربوبية ، وقد قال صلى الله عليه وسلم لربيعة بن كعب الأسلمي لما قال له : أسألك مرافقتكَ في الجنة ، قال له صلى الله عليه وسلم : (فأعنّي على نفسك بكثرة السجود) .

وللعبادات صبغة نورانية : ينصبغ بها قلب العابد وعقله ، وجميع حواسّه ، بالنور الإلهي ، حتى إنه ليشرق في وجه العابد إشراقاً ، قال الله تعالى : (صبغةَ الله ومن أحسنُ من الله صبغةً ونحن له عابدون) .

والمعنى : إلزموا صبغة الله ، فإنها صبغةُ نورٍ ثابت ، ولا أحسن منها صبغة ،وذلك بعبادتكم لربكم سبحانه كما شرع لكم ، قال صلى الله عليه وسلم : (والصلاة نور ، والصبر ضياء) .

وبالعبادات صفاء القلب وجِلاؤه : ونقاؤه وضياؤه ، حتى إنه لتتجلّى فيه أنوار الحق ، قال الله تعالى : (الله نور السماوات والأرض مثلُ نوره كمِشكاة ..) الآية .

أي : مثل نوره سبحانه في قلب عبده المؤمن ، كمشكاةٍ أي : كُوّة فيها مصباح يتوقّد بالنور .

والمشكاة تشير إلى الصدر ، والمصباح هو قلب المؤمن المشرق بنور الإيمان بالله تعالى .

وقد أنشِد لبعض العارفين في ذلك :

إذا سكنَ الغديرُ على صفاءٍ وجنّب أن يحرّكه النسيمُ
بدت فيه السماءُ بلا امتراءٍ كذاك الشمسُ تبدو والنجومُ
كذاك قلوبُ أرباب التجلّي يُرى في صفوها الله العظيمُ

وذلك كلّه من باب التجلّي في المجالي ، وظهور النور في مرايا القلوب ، وليس ذلك من باب التجزّؤ أو الحلول – تعالى الله عن ذلك علُّواً كبيراً .

وبالعبادات يكون التقرُّب والاقتراب إلى رب الأرباب :

قال الله تعالى : (واسجُد واقترب) .

وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي : (وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه ..) الحديث .

انظر في كتابنا : (الصلاة في الإسلام) ، وكتابنا : (التقرب إلى الله تعالى) وفيه جمع لطرقه وبيان لمعانيه .

وليس هذا موضعَ تفصيل البحث ، حول آثار العبادة وأسرارها ، وإنما ألمحنا لمحات يعتبر بها المعتبر ، فيعلم أن للعبادة أثراً في العابد كبيراً ، وسراً عظيماً ، وإشراقاً وضياءً ، ورفعةً ومقاماً ، وقرباً وحباً .

فماذا تتصور أيها العاقل من عظمة آثار عبادة سيّد العُبّاد والمقربين ، وإمام الأنبياء والمرسلين ؟ وماذا تقدّر من قوة إشراقات عباداته صلى الله عليه وسلم وضيائها ، وأنوارها وأسرارها ، ومدى مكانتها وقربها ؟

نعم إنه لا يحيط علماً بذلك إلا الله تعالى الذي اصطفاه على جميع المصطفين الأخيار .

المنهاج الذي رسمه النبي صلى الله عليه وسلم للعابدين

إن منهاجه صلى الله عليه وسلم الذي انتهجه في العبادة ، والذي رسمهُ للعُباد ، هو أقوم المناهج وأقواها ، وأفضلها عند الله تعالى وأهداها ، وأعدلها في أداء الحقوق وأكملها ، وهو أبين طرق التقرب إلى الله تعالى وأقربها ، ومهما جاء العابد بمشاقّ التعبدات ، وأتى بعظائمَ من الطاعات ، لا يقرّبه ذلك إلى الله تعالى زلفى ، كما تقرّبه السنة المحمدية التي سنّها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطاعات والعبادات .

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال : (جاء ثلاثةُ رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته ، فلما أخبِروا كأنهم تقالّوها [1] .

قالوا : أين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر [2]؟

فقال أحدهم : أما أنا فأصلّي الليلَ .

وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر .

وقال الآخر : وأنا أعتزل النساء ولا أتزوّج أبداً .

فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكن : أصوم وأفطر ، وأصلّي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني) [3] .

---

[1] أي : رأوها قليلة بالنسبة لما ينبغي لهم .

[2] أي : بيننا وبينه صلى الله عليه وسلم بون بعيد ، ومسافة طويلة – فإننا معرضون للذنوب وسوء العاقبة ، ولم تضمن لنا المغفرة ، وأما النبي صلى الله عليه وسلم فهو المعصوم والمضمون له الغفران اهـ كما في (شرح ابن علان) على (رياض الصالحين) وغيره .

[3] نقل العلامة محمد بن علان في (شرح رياض الصالحين) عن المطرزي في (شرح المصابيح) أنه قال عند قوله صلى الله عليه وسلم : (فمن رغب عن سنتي فليس مني) يعني : من ترك ما أمرت به من أحكام الدين : فرضاً أو سنةً ، على سبيل الاستخفاف بي ، وعدم الالتفات إليّ فليس مني ، لأنه كافر ، أما من تركه لا عن استخفاف بل عن الكسل ، لم يكن كافراً وحينئذ فقوله : (ليس مني) أي : من المقتدين بي والعاملين بسنتي اهـ .

وكان منهاجه صلى الله عليه وسلم في العبادة : أنه إذا عمل عملاً أثبته وداوم عليه :
روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
(اكلَفوا من العمل ما تطيقون ، فإن الله لا يملُّ حتى تملُّوا ، وإنّ أحبّ العمل إلى الله أدومُه وإن قلّ) .
وكان صلى الله عليه وسلم إذا عمل عملاً أثبته .
ومن إرشاداته صلى الله عليه وسلم للعِباد والعُبّاد : أن يقوموا بأداء جميع الحقوق التي عليهم ، دون أن يشغلهم حق عن أداء حقّ ، ولا يحملهم أداء واجب على إهمال واجب آخر : ففي (سنن) أبي داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : بعثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن مظعون : (أرغبةً عن سنّتي ؟) .
فقال عثمان : لا والله يا رسول الله ولكن سنّتك أطلب .
فقال صلى الله عليه وسلم : (فإني أنام وأصلّي ، وأصوم وأفطر ، وأنكح النساء ، فاتقِ الله
يا عثمان ، فإن لأهلك عليك حقاً ، وإن لضيفك عليك حقاً ، وإن لنفسك عليك حقاً ، فقم وأفطر ، وصلّ ونم) .
وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : أخبِر النبي صلى الله عليه وسلم أني أقول : والله لأصومنّ النهار ، ولأقومنّ الليل ما عشتُ – أي : مدة حياتي كلّها
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنتَ الذي تقول ذلك) ؟ .
فقلت له : قد قلتُه بأبي وأمي يا رسول الله .
قال : (فإنك لا تستطيع ذلك ، فقُم وأفطر ، ونم وقم وصم من الشهر ثلاثة أيام ، فإن الحسنة بعشر أمثالها ،وذلك مثل صيام الدهر) .
أي : لأن صيام اليوم مقابَل بعشرٍ ، فصيام ثلاثة أيام من الشهر يعطي ثلاثين حسنة .
قال عبد الله بن عمرو : قلت : فإني أطيقُ أفضلَ من ذلك .
وفي رواية لمسلم : إني أطيق أكثر من ذلك .
قال صلى الله عليه وسلم : (فصم يوماً وأفطر يومين) .
قلت : فإني أطيق أفضل من ذلك .

قال : (فصم يوماً وأفطر يوماً ، فذلك صيام داود صلى الله عليه وسلم ، وهو أعدلُ الصيام) .
وفي رواية : (هو أفضل الصيام) .
أي : أفضل أنواع صيام التطوع .
قال عبد الله بن عمرو قلت : فإني أطيق أفضل من ذلك .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا أفضل من ذلك) .
قال ابن عمرو : ولأن أكونَ قبلتُ الثلاثة أيام التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبُّ إليّ من أهلي ومالي .
وفي رواية : (ألم أُخبرَ أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟) .
قلت : بلى يا رسول الله .
قال : (فلا تفعل ، صم وأفطر ، ونم وقم ، فإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لعينك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لزورك عليك حقاً ، وإن بحسبك أن تصوم في كل شهر ثلاثة أيام ، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها ، فإذاً ذلك صيام الدهر) .
قال ابن عمرو : فشدّدتُ – اي : شددت على نفسي ولم أقبل رخصة النبي صلى الله عليه وسلم – فشُدّد عليّ ، قلت : يا رسول الله إني أجدُ قوة .
قال صلى الله عليه وسلم : (صم صيام نبي الله داود ، ولا تزد عليه)
قلت : وما كان صيام داود ؟
قال صلى الله عليه وسلم : (نصف الدهر) .
فكان عبد الله بن عمرو يقول بعدما كبر – أي : في السن وثقل عليه ذلك العمل - : يا ليتني قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وفي رواية : (ألم أخبرَ أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة ؟) .
فقلت : بلى يا رسول الله ، ولم أرِد بذلك إلا الخير .
قال صلى الله عليه وسلم : (فصم صوم نبي الله داود ، فإنه كان أعبدَ الناس ، واقرأ القرآن في كل شهر) .
قلت : يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك .
قال : (فاقرأه في كل عشر) .
قلت : يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك .
قال : (فاقرأه في كل سبع ، ولا تزد على ذلك) .
قال ابن عمرو : فشدّدتُ فشُدّد عليّ ، وقال لي النبي صلى الله عليه وسلم : (إنك لا تدري لعلك يطول بك عُمُر) .

قال ابن عمرو : فصِرتُ إلى الذي قال لي النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما كبرتُ وددتُ أني كنتُ قبلت رخصة النبي صلى الله عليه وسلم .
وفي رواية : (وإن لولدك عليك حقاً) .
وفي رواية : (لا صام من صام الأبد) .
وفي رواية : (أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود ، وأحب الصلاة – أي : قيام الليل – صلاة داود : كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفرُّ – أي : في الحرب – إذا لاقى) أي : لقي العدو . وزاد النسائي : (وإذا وعد لم يخلف) .
وفي رواية : قال ابن عمرو : أنكحَني – اي : زوّجني – أبي امرأة ذات حسَب ، وكان يتعهّد كنّته – اي : امراة ولده – فيسألها عن بعلها – أي : عن حال زوجها معها – فتقول : نِعم الرجلُ من رجل لم يطأ لنا فراشاً ولم يفتّش لنا كَنَفاً أي : لم يكشف لنا ستراً ، وكنّت بذلك عن عدم إتيانه لها .
فلما طال ذلك عليه – أي : على أبيه – ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : (إلقني به) .
قال ابن عمرو : فلقيتُه صلى الله عليه وسلم فقال : (كيف تصوم ؟) .
قلت : كل يوم .

قال : (وكيف تختم ؟) .
قلت : كل ليلة ، وذكر نحو ما سبق .
قال الإمام النووي رضي الله عنه : وجميع هذه الروايات صحيحة ، معظمها في (الصحيحين) وقليل منها في أحدهما اهـ .
والمقصود : أنه صلى الله عليه وسلم كان يرغّب في المداومة على الأعمال والتطوّعات وإن قلّت ، ويحذّر من الإكثار المؤدي إلى الانقطاع أو نفرة النفس وكراهتها لذلك
كما وأنه صلى الله عليه وسلم كان يحرّض على تأدية جميع الحقوق المترتبة على المكلّف ، والقيام بها كاملة ، دون أن يشتغل ببعض الحقوق ، فإن ذلك يكون إفراطاً فيما اشتغل به ، وتفريطاً فيما أهمله وشُغل عنه .
ومن إرشاداته صلى الله عليه وسلم : أنه كان يأمر بالعمل الدائم وإن قلّ ، ويحذّر من العمل الكثير المنقطع :
جاء في (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حصير وكان يحجزه بالليل فيصلي عليه ، ويبسطه في

النهار ويجلس عليه ، فجعل الناس يثوبون [1] إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيصلون بصلاته حتى كثروا .
فأقبل عليهم فقال : (يا أيها الناس خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملُّوا ، وإنّ أحبّ الأعمال إلى الله ما دام وإن قلّ)) .
وفي رواية : (وكان آل محمد صلى الله عليه وسلم إذا عملوا عملاً أثبتوه) .
وفي رواية : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (سدّدوا وقاربوا واعلموا أنه لن يُدخل أحدَكم عملُه الجنة ، وإن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ) .
كما في (الصحيحين) .

وكان صلى الله عليه وسلم يحذّر من المشادّة في الدين :

روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الدين يُسر ، ولن يُشادّ [2] الدينَ أحد إلا غلبه ، فسدّدوا وقاربوا [3] ، وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والرّوحة وشيء من الدُّلجة ، والقصدَ القصدَ تبلغوا) .

والمعنى : الزموا القصد أي : التوسط في الأمر تبلغوا المقصود وهو فضل الله تعالى ورضوانه .
قال الإمام النووي : الغدوة : سير أول النهار ، والروحة : سير آخر النهار ، والدلجة : سير آخر الليل ، وهذا استعارة وتمثيل ، ومعناه : استعينوا على طاعة الله عز وجلّ بالأعمال في وقت نشاطكم وفراغ قلوبكم ، تستلذّون العبادة ولا تسأمون ، وتبلغون مقصودكم ، كما أن المسافر الحاذق يسير في هذه الأوقات ويستريح هو ودابته في غيرها فيصل المقصودَ بغير تعب – والله أعلم اهـ ، وروى الإمام أحمد بسند حسن عن بريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (عليكم هدياً قاصداً ، فإن من يشاد هذا الدين يغلبه) .

---

[1] أي : يرجعون إليه ويجتمعون عنده .
[2] قال في (الفتح) : والمشادة المغالبة . والمعنى : لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز أو انقطع فينقلب اهـ
[3] قال الإمام النووي : السداد : الاستقامة والإصابة ، والمقاربة : القصد – أي : التوسط – الذي لا غلو فيه – أي : تجاوز المأمور به والزيادة فيه – ولا تقصير – أي : إخلال بشيء منه – اهـ

قال العلامة ابن منير : في هذا الحديث علَم من أعلام النبوة ، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطّع – أي : مفرط ومتشدد – في الدين ينقطع ، وليس المراد منع طلب الكمال في العبادة فإنه من الأمور المحمودة ، بل المراد منع الإفراط المؤدي إلى الملال ، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل ، أو إخراج الفرض عن وقته ، كمن بات يصلي الليل كله ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل فنام عن صلاة الصبح في الجماعة ، أو إلى أن خرج وقت الصلاة المختار ، أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة . وفي حديث محجن بن الأدرع عند أحمد : (لن تنالوا هذا الأمر بالمبالغة وخير دينكم أيسره ..) الحديث .

وقد يستفاد من هذه الإشارة إلى الأخذ بالرخصة الشرعية ، فإن الأخذ بالعزيمة في موضع الرخصة تنطّع ، كمن يترك التيمم عند العجز عن استعمال الماء – لضرر يصيبه – فيفضي استعماله الماء إلى حصول الضرر اهـ كلام ابن المنير .

ومن إرشاداته صلى الله عليه وسلم : أنه كان يكره للإنسان أن يتكلف من العبادات نوافل فوق طاقته ، خوف القطيعة ، وتحذيراً من الترك :

روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن هذا الدين متين ، فأوغِلوا فيه برفق)[1].

وجاء في رواية البيهقي وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولا تبغّض إلى نفسك عبادة الله ، فإن المنبتَّ [2] ، لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى) [3] .

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه : أراد بهذا الحديث أن يكلّف نفسَه أعمالَ الدين بتلطّف وتدريج ، فلا ينتقل دفعة واحدة إلى أقصاها ، إذ الطبعُ نَفورٌ لا يمكن نقله عن أخلاقه الرديئة إلا شيئاً فشيئاً ، فمن لم يراع التدريج ، وتوغّل

---

[1] أي : ادخلوا فيه برفق .

[2] فالمنبت : هو المنقطع ، وهو الراكب الذي حمل دابته على الإسراع فوق طاقتها ، رجاء الوصول لمقصوده ، فإذا بدابته أعيت وانقطعت عن متابعة السير ، فلا هو قطع مسافة الأرض ، ولا هو أبقى ظهر دابته ينتفع به ، فكذلك من تكلف من العبادة ما لا يطيق فإنه ينتهي أمره إلى القطيعة والترك .

[3] وقد روى هذا الحديث بتمامه البيهقي في (سننه) ، والبزار والحاكم في (علومه) ، وأبو نعيم والقضاعي ، والعسكري والخطابي في (العزلة) – كذا في (المواهب وشرحها) للحافظ الزرقاني .

دفعة واحدة ، ترقّ إلى حالة تشقّ عليه ، فتنعكس أموره ، فيصير ما كان محبوباً عنده ممقوتاً ، وما كان مكروهاً عنده – يصير – مشرباً هيناً لا ينفر عنه ، وهذا لا يُعرف إلا بالتجربة والذوق .
ونظيره في العادات : الصبي يُحمل على التعلّم ابتداءً قهراً ، فيشق عليه الصبر عن اللعب ، والصبر مع المعلم ، حتى إذا انفتحت بصيرته ، وأنِس بالعلم ، انقلب الأمر ، فصار يشق عليه الصبر عن العلم اهـ .
ومن إرشاداته صلى الله عليه وسلم : أنه كان يحذّر من الدخول في العبادات على كراهية أو كسل ، بل يدخلها على جد ونشاط في العمل :
جاء في (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين .
فقال : (ما هذا الحبلُ ؟) .
قالوا : هذا حبل زينب ، فإذا فترَت – وفي رواية مسلم : فإذا كسلت أو فترَت – تعلّقت به .
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (حلّوه ، ليصلّ أحدُكم نشاطه ، فإذا فتر فليرقُد) .
فمن اعتراه الفتور في حال تطوعاته أو قيامه في الليل ، بسبب تعب شديد أو نوم ثقيل ، فعليه أن يقف عن ذلك ، ريثما يذهب عنه ذلك الفتور والكسل ، ثم يتابع سيره في العبادة .
وفي (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقُد ، حتى يذهب عنه النوم ، فإن أحدكم إذا صلّى وهو ناعس – أي : نعاساً ثقيلاً كما يدل عليه قوله : - لا يدري لعله يذهبُ يستغفرُ فيسبّ نفسَه) أي : يدعو على نفسه وهو لا يشعر ، لثقل نعاسه .
ومن إرشاداته صلى الله عليه وسلم : تحذيرُه من الإكثار والنشاط للعبادات والنوافل ، ثم التقاعس عنها ، والفتور على وجه يقصر عن حد السنة التي سنّها صلى الله عليه وسلم في ذلك العمل .
كما أنه صلى الله عليه وسلم ما كان يرضى أن يُمدح الرجلُ بعباداته حال هجمته الأولى وشِرتّه ونشاطه في بادئ الأمر ، حتى تمضي عليه مدة ويستقرّ أمره فإن انتهى إلى حد السنة مُدح ،وإن قصر عنها فلا يُمدح :

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن لكل شيء شِرّةً ، ولكل شِرة فترة ، فإن صاحبها سدّد وقارَبَ فارجوه ، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدّوه)[1] .
وقد رواه ابن حبان في (صحيحه) أيضاً من حديث أبي هريرة ولكن بلفظ : (لكل عمل شرّة ..) الحديث .
كما في (الترغيب) للمنذري ، قال : والشرّة : بكسر الشين المعجمة وتشديد الراء ، وبعدها تاء تأنيث ، هي : النشاط والهمّة .
وأخرجه الحافظ المنذري أيضاً من رواية ابن أبي عاصم وابن حبان في (صحيحه) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لكل عملٍ شرّة ، ولكل شرّة فترة ، فمن كانت فترته إلى سنّتي فقد اهتدى ، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك) .
وقد أورد الحافظ ابن حجر في (المطالب العالية) عن ابن فاختة أنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن ابن أخي قد اجتهد في العبادة ، وأجهد نفسه .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (تلك شرّة الإسلام ، لكل شيء شرّة ، ولكل شرّة فترة ، فارقبه عند فترته ، فإن قارب فلعلّه ، وإن هلك فتبّاً له)[2]
وفي هذه الأحاديث النبوية تنبيهات وإرشادات للمسلمين ، إلى الاستمرار على التقوى والعبادات ، والتزام الطاعات والقربات ، على وجه دائم ، دون أن يُقبل أحدهم على العبادة بهمة ونشاط ، ويحمّل نفسه من النوافل فوق طاقته ، ثم إنه بعد ذلك يفتر ويملُّ ، ويترك أو يقصّر عن حدّ السنة .

حول تهجّده صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى : (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا) .
قال علماء اللغة : الهجود هو النوم ، والتهجُّد ترك النوم بسبب الاشتغال بالصلاة .
والمعنى : ومن الليل فتهجد بالصلاة المشتملة على القرآن الكريم وعلى هذا تكون صيغة التهجد من صيغ السلب ، كالتأثُّم بمعنى ترك الإثم ، والتحرُّج وهو البعد عن الحرج ، وهكذا ..

---

[1] قال في (التيسير) : رواه الترمذي وصححه .
[2] انظر الجزء الثالث ص ١٧٦

ومعنى : (نافلة لك) أي : عبادة زائدة لك على بقية فرائض الصلوات :
إما : على طريق الفريضة ،بناءً على أنّ التهجّد كان فرضاً عليه صلى الله عليه وسلم دون أمته – قال الحافظ الزرقاني : وهو قول الأكثر وقول الإمام مالك .
وإما : على طريق التطوع ، ويكون تخصيصه صلى الله عليه وسلم بكون التهجد نافلة له ، باعتبار أن تطوعاته صلى الله عليه وسلم هي خالصةٌ له في رفعة درجاته ، وكثرة حسناته ، وعلو مقامه ، لكونه لا ذنب عليه ، فالتهجد في حقه هو نافلة له خالصة بخلاف الأمة فإن لهم ذنوباً ، وهي تحتاج إلى كفارات ، ولهم تقصيرات ، وهي تحتاج إلى مكملات ، فتطوعاتهم الزائدة على فرائضهم يحتاجونها لتكفير ذنوبهم ، أو لتكميل ما انتقصوا من فرائضهم ،كما جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (.. وإن انتقص – أي : العبد – من فريضته شيئاً قال الله تعالى للملائكة : انظروا هل لعبدي من تطوع ؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ..) الحديث كما في (السنن) .
فصاحب مقام النفل الأكمل والفضل الأول ، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أعطاه الله تعالى أعلى رتبة في النافلة ، ورتب على ذلك المقام المحمود الذي تحمده عليه الخلائق كلهم : الأولون والآخرون ، وهو مقام الشفاعة العامة العظمى :
كما جاء في (صحيح) البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً ـ كلُّ أمة تتبع نبيّها – يقولون : يا فلان اشفع لنا ، حتى تنتهي الشفاعة إليّ ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود) .
وروى مسلم عن سعد بن هشام أنه قال : (قلت لعائشة رضي الله عنها : يا أمّ المؤمنين أنبئيني عن خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
قالت : ألستَ تقرأ القرآن ؟
قلت : بلى .
قالت : فإن خُلق نبيّ الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن [1] .
قال : فهمَمت أن أقومَ ولا أسأل أحداً عن شيء حتى أموت – ثم بدا لي فقلت : أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
فقالت : ألستَ تقرأ (يا أيّها المزّمل) ؟

---

[1] أي : كان خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن في العمل بأحكامه ، والتأدب بآدابه ، والاعتبار بأمثاله وقصصه وحسن تلاوته والتحقق بجميع مطالبه .

قلت : بلى ؟
قالت : فإن الله عز وجلّ افترض قيام الليل من أول هذه السورة ، فقام نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولاً ، وأمسك الله خاتمتها – اي : آخر سورة المزمل – اثني عشر شهراً في السماء ، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة بالتخفيف – أي : في قوله تعالى : (فاقرؤوا ما تيسّر منه) – فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة) الحديث .
وقد نقل الحافظ الزرقاني الإجماع على نسخ وجوب قيام الليل في حق الأمة .
قال : وشذّ بعض التابعين فأوجبه ولو قدرَ حلب شاة .
واختلف في نسخ وجوبه في حقه صلى الله عليه وسلم على قولين للعلماء في ذلك .

وقت قيامه صلى الله عليه وسلم متهجداً

روى الشيخان عن مسروق قال : سألتُ عائشة رضي الله عنها أيُّ العمل كان أحبّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؟
قالت : الدائم .
قلت : متى كان يقوم ؟ - وعند مسلم : أيُّ : حينٍ كان يصلي ؟ -
قالت : إذا سمع الصارخ .
قال الحافظ في (الفتح) : الصارخ : الديك ، وقد جاء في (مسند) الطيالسي في هذا الحديث : الصارخ : الديك .. والصرخة الصيحة الشديدة ، وجرت العادة بأن الديك يصيح عند نصف الليل غالباً .
قاله محمد بن نصر ، قال ابن التين : وهو موافق لقول ابن عباس : نصف الليل ، أو قبله بقليل ، أو بعده بقليل . اهـ .
وقد روى الإمام أحمد وابو داود وابن ماجه بإسناد جيد ، عن زيد بن خالد الجهني مرفوعاً : (لا تسبّوا الديك ، فإنه يوقظ للصلاة) .
وفي رواية : (فإنه يدعو إلى الصلاة) كذا في (شرح المواهب) .
وهذا القيام على هذا الوجه ، حكم له النبي صلى الله عليه وسلم أنه أحب القيام ، كما جاء في (الصحيحين) عن ابن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : (أحبُّ الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، ويصوم يوماً ويفطر يوماً) – وقد تقدم .
وذلك ليستريح من نصَب القيام ، فإنه بعد القيام يريح البدن ، ويذهب ضرر السهر ، وذبول الجسم ، بخلاف السهر إلى الصباح .

وفيه من الحكمة أيضاً : استقبالُ صلاة الصبح وأذكار النهار بنشاط وإقبال وهذا بالنسبة للصلاة أيضاً أقرب إلى عدم الرياء ، لأن من نام السدس الأخير أصبح ظاهر اللون ، سليم الصدر ، فهذا أقرب إلى إخفاء عمله في الليل ، كما ذكر ذلك الحافظ في (الفتح) .
وبذلك يكون المتهجد قد نال فضائل تجليات الرب عزّوجل في الثلث الثاني والثلث الأخير ، كما ورد في (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا ، حين يبقى ثلث الليل الآخر ، يقول : من يدعوني فأستجيبَ له ؟ من يسألني فأعطيَه ؟ من يستغفرني فأغفرَ له حتى ينفجر الفجر) كما في رواية مسلم .
قال في (الفتح) : زاد سعيد عن أبي هريرة : (هل من تائب فأتوبَ عليه ؟) وزاد أبو جعفر عنه : (من ذا الذي يسترزقني فأرزقَه ؟ من ذا الذي يستكشف الضرّ فأكشف عنه ؟) .
وزاد عطاء عنه : (ألا سقيمٌ يستشفي فيشفى ؟)
وزاد سعيد بن مرجانة عنه : (من يُقرض غيرَ عديم ولا ظلوم ؟) .
وقال في (الفتح أيضاً) : وفي هذا الحديث من الفوائد : تفضيل صلاة آخر الليل على أوله ، وتفضيل تأخير الوتر ، لكن في حق من طمع أن ينتبه ، وأن آخر الليل أفضل للدعاء والاستغفار ، يشهد له قوله تعالى : (والمستغفرين بالاسحار) ، وأن الدعاء في ذلك الوقت مجاب اهـ .
فكان أغلب قيامه صلى الله عليه وسلم لصلاة الليل في أول النصف الثاني من الليل ، كما روى الشيخان وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينام أول الليل ، ويحيي آخره .
والمراد بأول الليل ههنا : الأولية النسبية ، وهي ما بعد صلاة العشاء ، وما يتصل بها من أوراد وقراءات مطلوبة بعد الصلاة وقبل النوم [١] ـ فإنه قد صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها .
وكانت له صلى الله عليه وسلم أوراد وقراءات قبل أن ينام :
كما روى الإمام أحمد والترمذي وصححه عن عائشة رضي الله عنها :

---

[١] انظر شرح الزرقاني على المواهب ٥ : ٦٧

(أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ بني إسرائيل – أي : سورة الإسراء – والزمر) .
وأخرج الترمذي والنسائي عن جابر رضي الله عنه : (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ : آلم تنزيل السجدة ، وتبارك الذي بيده الملك) .
وعن العِرباض بن سارية رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ المسبّحات قبل أن يرقد ، وقال : (فيهنّ آيةٌ أفضل من ألف آية) رواه أحمد وأصحاب السنن .
ورواه ابن الضّريس عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً ، وزاد : قال يحيى : فنراها الآية التي في آخر الحشر – أي : الآيات الثلاثة في آخر سورة الحشر
وقال الحافظ ابن كثير : الآية هي قوله تعالى : (هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم) .
والمسبّحات ستّ : (الحديد ، والحشر ، والصف ، والجمعة ، والتغابن ، وسبح اسم ربك الأعلى) .
أذكاره صلى الله عليه وسلم حين يستيقظ لصلاة الليل
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استيقظ من منامه لصلاة الليل ، يمسح النوم عن وجهه بيده ، ويرفع رأسه إلى السماء ، ثم يكبر عشراً ، ويحمد عشراً ، ويقول : (سبحان الله وبحمده) عشراً ، ويقول : (سبحان الملك القدُّوس) عشراً .
وفي رواية ابن مردُويه : ثم استوى على فراشه قاعداً ، ورفع رأسه إلى السماء ، فقال : (سبحان الملك القدوس) ثلاث مرات ، ثم قرأ الآيات من آخر سورة آل عمران ، ثم قام إلى شنّ معلقةٍ ، فتوضأ منها فأحسن وضوءه ، ثم قام يصلي وعند مسلم : فتسوّك وتوضّأ .
قال ابن عباس رضي الله عنهما : فقمت فصنعت مثل ما صنع ، ثم ذهبت فقمت إلى جنبه ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده اليمنى على رأسي ، وأخذ بأذني اليمنى ففَتَلها ، فصلى ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم أوتر ، ثم اضطجع ، حتى جاء المؤذن ، فقام فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم خرج فصلى الصبح .
وروى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا هبّ من الليل واستيقظ كبّر عشراً ، وحمد الله عشراً – أي : من المرات – وقال : (سبحان الله وبحمده) عشراً ، وقال : (سبحان الملك

القدوس) عشراً ، واستغفر عشراً [1] ، وهلّل – أي : قال لا إله إلا الله – عشراً ، ثم قال : (اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا ، وضيق يوم القيامة) عشراً ثم يفتتح الصلاة [2] أي : صلاته في الليل .

إطالته صلى الله عليه وسلم في صلاة الليل

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُطيل القراءة في صلاة الليل ، ويُطيل الركوع فيها والسجود ، ويُكثر من الدعاء في سجوده .

روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تورّمت قدماه .

وفي رواية عنها : أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم الليل حتى تفطّرت قدماه – أي : تشققت من كثرة القيام - .

وفي رواية النسائي عن أبي هريرة : حتى تزلَع قدماه ، بزاي وعين مهملة – أي : تشقّق - .

قال الحافظ في (الفتح) : ولا اختلاف بين هذه الروايات : إذ حصل الانتفاخ والورم ، وحصل الزلع والتشقق .

وجاء في رواية (الصحيحين) قالت عائشة : فقلت له : لمَ تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك ، وما تأخّر ؟

قال : (أفلا أكون عبداً شكوراً) صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : أأترك تهجّدي لما غُفر لي ، فلا أكون عبداً شكوراً ؟ بل : إن المغفرة هي سبب لكون التهجد شكراً ، فكيف أتركه ؟

وقد استدل بعض العلماء بهذا الحديث على جواز أخذ الإنسان نفسَه بالجهد في العبادة ، ومشقة البدن فيها .

قال الحافظ في (الفتح) : وحُمل ذلك ما لم يُفض إلى الملال ، لأن حال النبي كانت أكملَ الأحوال ، فكان لا يمل في عبادة ربه ، وإن أضرّ ذلك ببدنه الشريف صلى الله عليه وسلم – بل صح أنه صلى الله عليه وسلم قال : (وجُعلت قرّة عيني في الصلاة) فأما غيرُه صلى الله عليه وسلم فإذا خشي الملل ينبغي له أن لا يكدّ نفسه ، وعليه يُحمل قوله صلى الله عليه وسلم : (خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لا يملُّ حتى تملُّوا)

---

[1] قال في (شرح المواهب) : أي : قال : (اللهم اغفر لي واهدني وارزقني) كما في رواية اهـ

[2] انظر (سنن) أبي داود ، و(المواهب) للقسطلاني ، و(نزل الأبرار) .

اهـ . قال الحافظ القسطلاني : لكن ربما دسّت النفسُ أو الشيطان على المجتهد في العبادة بمثل ما ذُكر ، خصوصاً إذا كبر ، فتقول له : قد ضعُفتَ وكبِرت ، فأبقِ على نفسك ، لئلا ينقطع عملك بالكلية – قال : وهذا وإن كان ظاهره جميلاً ، لكن فيه دسائس ، فإنه إن أطاعه فقد يكون استدراجاً ، يؤول به إلى ترك العمل شيئاً فشيئاً ، إلى أن ينقطع العمل بالكلية ، وما ترك سيد المرسلين المغفور له شيئاً من عمله بعد كبره اهـ .

وروى مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال : صليتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فافتتح البقرة ، فقلت – أي : ظننت – يركع عند المائة ، ثم مضى ، فقلت : يصلّي بها في ركعة ، فمضى ، فقلت : يركع بها ، ثم افتتح النساء ، فقرأها ، ثم افتتح آل عمران ، فقرأها ، يقرأ مترسّلاً ، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح ، وإذا مرّ بسؤال سأل ، وإذا مرّ بتعوّذ تعوذ .

وفي رواية للنسائي : لا يمرّ بآية تخويفٍ أو تعظيم لله عز وجل إلا ذكره ، ثم ركع ، فجعل يقول : (سبحان ربي العظيم) فكان ركوعه نحواً من قيامه – أي : قريباً في الطول من قيامه – ثم قال : (سمع الله لمن حمده) ثم قام طويلاً قريباً مما ركع ، ثم سجد فقال : (سبحان ربي الأعلى) فكان سجوده قريباً من قيامه .

استفتاحه صلى الله عليه وسلم صلاة الليل

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُطيل في استفتاحه الصلاةَ في الليل ، بأنواع من صيغ الاستفتاح .

فمن ذلك : ما رواه ابو داود عن حذيفة رضي الله عنه أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي من الليل ، فكان يقول : (الله أكبر – ثلاثاً – ذو الملكوت والجبروت ، والكبرياء والعظمة) ثم استفتح ، فقرأ البقرة ثم ركع ، فكان ركوعه نحواً من قيامه .. الحديث .

وروى الإمام مسلم وغيره عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال : سألتُ عائشةَ أمّ المؤمنين رضي الله عنها : بأي شيء كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يفتتح صلاته إذا قام من الليل ؟

قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته : (اللهم ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطرَ السموات والأرض ، عالمَ الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم) .

وروى أبو داود عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل كبّر ، ثم يقول : (سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدّك ، ولا إله غيرك) ثم يقول : (لا إله إلا الله) ثلاثاً ، ثم يقول : (الله أكبر كبيراً – ثلاثاً – أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونَفثه) ثم يقرأ) .

وروى الشيخان وغيرهما – واللفظ لمسلم – عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل – وفي رواية لأبي داود : كان صلى الله عليه وسلم في التهجد بعدما يقول : (الله أكبر) - :

(اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهنّ ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والساعة حق .

اللهم لك أسلمتُ ، وبك آمنتُ ، وعليك توكّلتُ ، وإليك أنبتُ ، وبك خاصمتُ ، وإليك حاكمتُ ، فاغفر لي ما قدّمت وما أخرّتُ ، وما أسررتُ وما أعلنتُ ، أنت إلهي لا إله إلا أنت) .

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى : ومعنى سؤاله صلى الله عليه وسلم المغفرةَ – مع أنه مغفور له – أنه يسأل ذلك – أي : يطلب المغفرة – تواضعاً وخضوعاً ، وإشفاقاً وإجلالاً ، وليُقتدى به في أصل الدعاء والخضوع ، وحسن التضرّع في هذا الدعاء المعيّن .

وفي هذا الحديث وغيره مواظبتُه صلى الله عليه وسلم في الليل على الذكر والدعاء ، والاعتراف لله تعالى بحقوقه ، والإقرار بصدقه ، ووعده ووعيده ، والبعث ، والجنة والنار ، وغير ذلك . اهـ .

ومن أدعيته صلى الله عليه وسلم في سجود الليل :

ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في سجوده : (اللهم اغفر لي ذنبي كلّه ، دِقّه وجِلّه ، أوله وآخره ، سرّه وعلانيته) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : فقدتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةً من الفراش ، فالتمسته في البيت وجعلت أطلبه ، فوقعت يدي على بطن قدميه ، وهو في السجود ، وهما منصوبتان ، وهو يقول :

(سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت [1] اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك ،) رواه مسلم وأصحاب السنن .
ومن ذلك : دعاؤه صلى الله عليه وسلم بزيادة النور .
كما في رواية مسلم ، عن ابن عباس لمّا بات عند خالته ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ليرى كيف صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلَم في الليل – قال : فتكاملت صلاة رسول
الله صلى الله عليه وسلم ثلاثَ عشرة ركعة ، ثم نام حتى نفخ ، وكنا نعرفه إذا نام بنفخه ، ثم خرج إلى الصلاة ، فصلى فجعل يقول في صلاته – أو في سجوده - :
(اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وعن يميني نوراً ، وعن شمالي نوراً ، وأمامي نوراً ، وخلفي نوراً ، وفوقي نوراً ، وتحتي نوراً ، واجعل لي نوراً – أو قال : واجعلني نوراً) .
وفي رواية لمسلم أيضاً : ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلتئذٍ تسعَ عشرةَ كلمةً ، قال سلمة : حدثنيها كريب – أي : عن ابن عباس – فحفظتُ منها اثنتي عشرة ، ونسيتُ ما بقي ، فذكرها ، وقال في آخره : (واجعل في نفسي نوراً ، وأعظم لي نوراً) .
وفي رواية لمسلم أيضاً عن ابن عباس : فأذّن المؤذّن ، فخرج صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة وهو يقول : (اللهم اجعل في قلبي نوراً ..) إلى آخر الدعاء كما تقدم .
قال الحافظ الزرقاني : ولا خُلفَ – أي : ولا اختلاف بين رواية دعائه بذلك في صلاته أو سجوده ، وفي حال خروجه إلى الصلاة – فقال ذلك في الصلاة الليلية وفي حال خروجه إلى صلاة الصبح اهـ .
يعني أنه صلى الله عليه وسلم فعل جميع ذلك .
وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةً حين فرغ من صلاته يقول :
(اللهم إني أسألك رحمةً من عندكَ تهدي بها قلبي ، وتجمع بها أمري ، وتلّمُّ بها شعثي ، وتردُّ بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكّي بها عملي ، وتُلهمني بها رشدي ، وتردُّ بها ألفتي ، وتعصمُني بها من كل سوءٍ .

[1] جاء هذا في رواية أبي يعلى

اللهم أعطني إيماناً ويقيناً ليس بعده كفر ، ورحمةً أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة .
اللهم إني أسألك الفوز في القضاء ، ونُزل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء . اللهم إني أنزل بك حاجتي وإن قصر رأيي وضعُف عملي ، وافتقرتُ إلى رحمتك ، فأسألك يا قاضي الأمور ، ويا شافي الصدور ، كما تُجير بين البحور ، أن تجيرني من عذاب السعير ، ومن دعوة الثبور ، ومن فتنة القبور . اللهم وما قصُر عنه رأيي ، ولم تبلغه مسألتي ، ولم تبلغه نيتي من خير وعدتَه أحداً من خلقك ، أو خير أنت معطيه أحداً من عبادك ، فإني راغبٌ إليك فيه ، وأسألك برحمتك يا ربّ العالمين . اللهم يا ذا الحبلِ الشديد ، والأمر الرشيد ، أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنةَ يوم الخلود ، مع المقرّبين الشهود ، الركّع السجود ، الموفين بالعهود إنك رحيم ودود ، وإنك تفعل ما تريد . اللهم اجعلنا هادين مهتدين ، غير ضالين ولا مضلين ، سِلماً لأوليائك ، حرباً لأعدائك ، نحبّ بحبّك من أحبّك ، ونعادي بعداوتك من خالفَك ، اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة ، وهذا الجُهد وعليك التكلان . اللهم اجعل لي نوراً في قلبي ، ونوراً في قبري ، ونوراً بين يديّ ، ونوراً من خلفي ، ونوراً عن يميني ، ونوراً عن شمالي ، ونوراً من فوقي ، ونوراً من تحتي ، ونوراً في سمعي ، ونوراً في بصري ، ونوراً في شعري ، ونوراً في بَشري ، ونوراً في لحمي ، ونوراً في دمي ، ونوراً في مخّي ، ونوراً في عظامي ، اللهم أعظم لي نوراً ، وأعطني نوراً ، واجعل لي نوراً)[1]
وفي رواية عند أبي عاصم قال في آخره : (وهب لي نوراً على نور) .
قال الحافظ الزرقاني : سأل النبي صلى الله عليه وسلم النورَ في أعضائه وجهاته ، ليزداد في أفعاله وتصرّفاته وتقلُّباته نوراً على نور ، فهو دعاء بدوام ذلك ، فإنه كان حاصلاً له صلى الله عليه وسلم لا محالة ، أو هو تعليم لأمته .
قال : وقال الشيخ أكمل الدين :
أما النور الذي عن يمينه فهو المؤيّد له ، والمعين على ما يطلبه من النور الذي بين يديه ، والنور الذي عن يساره فنور الوقاية .

---

[1] قال الحافظ العراقي : رواه الترمذي وقال غريب ، قال : ورواه الطبراني أيضاً ، وقال العلامة في (شرح الإحياء) : رواه محمد بن نصر في (كتاب الصلاة) ، والبيهقي في (كتاب الدعوات) اهـ

والنور الذي خلفه هو النور الذي يسعى بين يدي من يقتدي به ويتبعه ، فهو لهم من بين أيديهم ، وهو له صلى الله عليه وسلم من خلفه ، فيتبعونه على بصيرةٍ ، كما أنه المتّبع على بصيرة ، قال الله تعالى : (قل : هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتبعني).
وأما النور الذي فوقه فهو تنزُّل نورٍ إلهي قدسي بعلمٍ غريب لم يتقدّمه خبر ، ولا يعطيه نظر اهـ .
ورواية الترمذي عن ابن عباس قد فصّلت قول ابن عباس في رواية مسلم : ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلتئذ تسع عشرة كلمةً – كما تقدم

هيئات صلاته صلى الله عليه وسلم النافلة في الليل

كانت هيئة صلاته صلى الله عليه وسلم النافلة في الليل على أنواع ثلاثة – كما في (المواهب للقسطلاني وشرحها) .
أحدها : أنه صلى الله عليه وسلم كان أكثر صلاته قائماً ، دلّ على ذلك الحديث الذي رواه أحمد ومسلم والترمذي وصححه ، عن حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : (ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلّى في سُبحته[1]

قاعداً حتى كان قبل وفاته بعام ، فكان يصلي في سبحته قاعداً ، ويقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطولَ من أطولَ منها) .

أي : حتى تكون السورة القصيرة بسبب ترتيلها أطول من سورةٍ أطول منها خلت عن الترتيل .

الثاني : أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي قاعداً ، ويركع قاعداً ، كما جاء في (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ليلاً طويلاً قائماً ، وليلاً طويلاً قاعداً ، وكان إذا قرأ قائماً ، ركع قائماً ، وإذا قرأ وهو قاعد ركع وسجد وهو قاعد) .

---

[1] قال في (شرح المواهب) : السبحة بضم السين فسكون الباء ، هي النافلة ، وسميت بذلك لاشتمالها على التسبيح ، من تسمية الكل باسم البعض ، وخصت به دون الفريضة .
قال ابن الأثير : لأن التسبيح في الفرائض نفل . وفي النوافل نوافل مثلها .

الثالث : أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ قاعداً ، فإذا بقي يسير من قراءته ، قام فركع قائماً ، كما في (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي – أي : النافلة – جالساً [1] ويقرأ وهو جالس ، فإذا بقي من قراءته قدر ما يكون ثلاثين آية ، أو أربعين آية ، قام وقرأها وهو قائم ..) الحديث . قال الحافظ الزرقاني : فجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ما يطيقه من القيام والجلوس ، إبقاءً على نفسه ، ليستديم الصلاة [2] .

وكان صلى الله عليه وسلم يُرشد من نام عن حزبه من الليل أن يأتي به ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر ، فيكتب له كأنما أتى به في الليل :

روى مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من نام عن حزبه – وفي رواية ابن ماجه : عن جزئه [3]

- من الليل ، أو عن شيءٍ منه ، فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر ، كتب له كأنما قرأه من الليل) .

قال الإمام النووي : في هذا الخبر دلالة على المحافظة على الأوراد .اهـ

يعني أنه ينبغي للمسلم أن يواظب على أوراد عبادته ونوافله ، في الليل والنهار ، وإن نام عن شيء من ذلك في الليل فليأتِ به حتى الظهر من النهار ، ليستمرّ الخير والنور والأجر بلا انقطاع .

قال العلامة القرطبي : وهذه الفضيلة إنما تحصل لمن غلبه نوم أو عذر منعه من القيام به ، مع أنّ نيّته القيام به ، وظاهره أن له أجره مكملاً مضاعفاً ، وذلك لحسن نيته ، وصدق تلهُّفه وتأسُّفه ، وهو قول بعض شيوخنا .

---

[١] وذلك قبل وفاته بعام ، كما تقدم في حديث حفصة رضي الله عنها .

[٢] انظر ذلك ٧ : ٤١

[٣] الحزب والجزء والورد كلها تؤول إلى معنى واحد ، وهو ما يجعله المسلم على نفسه ويعينه : من صلاة وقراءة قرآن ،وذكر الله تعالى ، وغير ذلك

وقال بعضهم : يحتمل أن يكون غير مضاعف ، إذ التي يصليها ليلاً أكمل وأفضل – والظاهر الأول اهـ .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فاتته الصلاة من الليل من وجعٍ أو غيره ، صلّى من النهار ثنتي عشرة ركعة) .

صلاته صلى الله عليه وسلم في الضحى

روى الإمام مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الضحى أربعاً ويزيد ما شاء الله) .

وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه أن : (النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي الضحى ستّ ركعات) .

وروى مسلم عن أمّ هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل بيتها يوم فتح مكة فصلى ثماني ركعاتٍ .

قالت : ما رأيته صلّى صلاةً قطُّ أخفّ منها ، غير أنه كان يتمّ الركوع والسجود . وروى مسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بثلاثٍ : بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتي الضحى ، وأن أوتر قبل أن أرقد) – أي : قبل أن أنام .

وروى الحاكم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الضحى اثنتي عشرة ركعة)[1] .

قال العلماء : ولا تنافي بين هذه الروايات ، فقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الضحى تارةً ركعتين وهو أقلّها ، وتارةً أربعاً وهو الأغلب ، وتارةً ستاً ، وتارة ثمانية ، وتارة اثنتي عشرة ، وذلك أفضلها وأكثرها [2] .

---

[1] انظر (المواهب) للقسطلاني وشرحه للزرقاني .
[2] انظر (حاشية العلامة الباجوري على الشمائل)

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن عظيم أجر المسلم الذي يصلي صلاة الصبح في جماعة ، ثم يقعد في مصلّاه ، يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس وترتفع ، فيقوم يصلي صلاة الضحى :

فعن سهل بن معاذ عن أبيه رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من قعد في مصلّاه حين ينصرف من صلاة الصبح ، حتى يسبّح – اي : يصلي – ركعتي الضحى لا يقول إلا خيراً : غُفر له خطاياه وإن كانت أكثر من زبَد البحر) قال الحافظ المنذري : رواه أحمد وأبو داود وأبو يعلى ، وأظنه قال :

(من صلّى صلاة الفجر ، ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس : وجبت له الجنة)[1] .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من صلى صلاة الغداة في جماعة ، ثم جلس يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ، ثم قام فصلى ركعتين : انقلب بأجرِ حجّةٍ وعُمرةٍ) .

قال المنذري : رواه الطبراني وإسناده جيّد .

كان صلى الله عليه وسلم إذا صلى الصبح ذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى الفجر تربّع – أي : جلس متربعاً – في مجلسه حتى تطلع الشمس حسَناً) .

أي : طلوعاً بارزاً ينتشر ضياؤها .

[1] ثم قال المنذري : رواه الثلاثة من طريق زبان بن فائد عن سهل ، وقد حسنت – أي : طريقه – وصححها بعضهم اهـ

قال في (الترغيب) : رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ، والطبراني ولفظه : (كان صلى الله عليه وسلم إذا صلى الصبح جلس يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس)

قال ورواه ابن خزيمة في صحيحه ولفظه : قال : عن سماكٍ أنه سأل جابر بن سمرة : كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع إذا صلى الصبح ؟

فقال : (كان يقعد في مصلّاه إذا صلى الصبح حتى تطلع الشمس) .

نوافله صلى الله عليه وسلم بين المغرب والعشاء

عن محمد بن عمّار بن ياسر رضي الله عنه قال : رأيت عمار بن ياسر يصلي بعد المغرب ستّ ركعاتٍ ، وقال : رأيت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بعد المغرب ستّ ركعاتٍ ، وقال :

(من صلى بعد المغرب ستّ ركعات غُفرت له ذنوبه ، وإن كانت مثل زبَد البحر) قال الحافظ المنذري : حديث غريب ، رواه الطبراني في الثلاثة ، وقال : تفرّد به صالح بن قطن البخاري – قال ولا يحضرني الآن فيه جرح ولا تعديل اهـ .

ومن شواهد فضل هذه الركعات بعد المغرب :

ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من صلى بعد المغرب ستّ ركعاتٍ لم يتكلم فيما بينهنّ بسوءٍ عُدلن بعبادة ثنتي عشرة سنة) .

قال المنذري : رواه ابن ماجه وابن خزيمة في (صحيحه) ، والترمذي : كلهم من حديث عمر بن أبي خثعم ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة ، عنه ، وقال الترمذي : حديث غريب .

وله شاهد آخر من حديث عائشة رضي الله عنها ، كما هو عند ابن ماجه ، في فضل من صلى بعد المغرب عشرين ركعةً .

بل كان صلى الله عليه وسلم في بعض الأحيان يتابع صلاة النفل بعد المغرب حتى العشاء :

كما جاء عن حذيفة رضي الله عنه قال : أتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم فصليتُ معه المغرب فصلى إلى العشاء .

قال الحافظ المنذري : رواه النسائي بإسناد جيد اهـ .

وأما ما يتعلق بالسنن الواردة قبل الفروض الخمسة ، والجمعة ، وبعدها : فالكلام عليها مفصّل في كتابنا : (الصلاة في الإسلام) .

وأما ما يتعلق بالصيام والصدقات والحج : فهو مفصل في كتب السنن ، ولولا مخافة ملل القارئ لأتينا بجملة واسعة من ذلك .

وقد أتينا بجملٍ واسعةٍ في كتاب : (تلاوة القرآن المجيد) حول قراءة النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن وحبّ استماعه من غيره ، إلى ما هنالك ، فارجع إليه .

في دعائه صلى الله عليه وسلم

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكثر من الدعاء ، ويرغّب فيه ، ويحثّ عليه ، في مناسبات متعددة ، وذلك لأن الدعاء نوع من العبادة :

كما جاء في الحديث الذي رواه أصحاب السنن وصححه الترمذي عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الدعاء هو العبادة) ثم قرأ : (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي – أي : التي من جملتها الدعاء - سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) أي : ذليلين صاغرين .

وروى الترمذي عن أنس مرفوعاً : (الدعاء مخّ العبادة) أي : خالصها ، وذلك باعتبار أن الداعي يدعو الله تعالى عند انقطاع أمله عما سواه ، وفي ذلك حقيقة التوحيد والإخلاص .

كما أن في الدعاء إظهار الافتقار ، لسلطان العزيز الجبار .

وفيه التبرّؤ من الحول والقوة ، وهو سِمة العبودية ، واستشعارُ التذلل لعزة الربوبية . كما أن الدعاء يتضمن الثناءَ على الله تعالى ، والاعترافَ له بأنواع الفضل والكرم ، كما أن الدعاء مفتاح الرحمة الإلهية :

فقد روى الترمذي عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من فُتح له باب الدعاء ، فتحت له أبواب الرحمة ، وما سُئل الله تعالى شيئاً أحبّ إليه من أن يُسأل العافية ..) الحديث .

كما أن الدعاء فيه استمداد القوة ، وهو سلاح قاصم :

فقد روى أبو يعلى والديلمي ، والحاكم وصححه ، عن علي كرم الله تعالى وجهه مرفوعاً : (ألا أدلّكم على ما يُنجيكم من عدوكم ، ويدرّ لكم أرزاقكم ؟ تدعون الله في ليلكم ونهاركم ، فإن الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموات والأرض) .

كما أن الدعاء فيه إرضاءُ الله تعالى :

روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه ، وصححه ابن حبان والحاكم ،عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من لم يسأل الله يغضب عليه)

قال العلامة الطيبي : معناه أن من لم يسأل الله يُبغضه ، والمبغوض مغضوب عليه ، والله يحبُّ أن يُسأل اهـ .

وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم وجوه إجابة الدعاء :

ففي (مسند) أحمد وغيره ، عن أبي سعيد رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ما من مسلم يدعو بدعوةٍ ليس فيها إثمٌ ولا قطيعة رحمٍ ، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجّل له دعوته ، وإما أن يدّخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها) .

آدابه صلى الله عليه وسلم في الدعاء

كان صلى الله عليه وسلم يرفع يديه في الدعاء حَذو منكبيه .

وقد جاء ذلك في كثير من أدعيته ، دعا بها في مناسبات متعددة :

قال الإمام القسطلاني في (إرشاد الساري) : وقد جمع النووي في شرح المهذب نحواً من ثلاثين حديثاً في ذلك – أي : في رفع يديه صلى الله عليه وسلم في الدعاء – من (الصحيحين) وغيرهما ، وللمنذري فيه جزء اهـ .

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله حيي كريم ، يستحيي إذا رفع الرجلُ إليه يديه أن يردّهما صفراً خائبتين)[1]

وكان صلى الله عليه وسلم يدعو مشيراً بباطن كفيه نحو السماء تارةً إن كان الدعاء بنحو تحصيل شيء ، وبظاهرهما إلى السماء تارةً إن دعا بنحو دفع بلاء ، كما ورد في (سنن) أبي داود عن أنس [2] .

ولذا قال الإمام النووي : قال العلماء : السنة في كل دعاء لدفع بلاء أن يرفع يديه ، جاعلاً ظهور كفيه إلى السماء ، وإذا دعا بسؤال شيء وتحصيله أن يجعل كفيه إلى السماء اهـ

---

[1] رواه أبو داود والترمذي وحسنه ، وابن ماجه ، وابن حبان في (صحيحه) ، والحاكم وقال : صحيح على شرطهما ، كما في (جامع العلوم) ، و(نزل الأبرار) ، وغيرهما .

[2] انظر (شرح المواهب) وغيره .

وفي (صحيح) البخاري : قال أبو موسى الأشعري : (دعا النبي صلى الله عليه وسلم ثم رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه [1]) .

وكان صلى الله عليه وسلم يبالغ في رفع يديه في الاستسقاء ، وفي مواقف الاستغاثة بالله عز وجلّ ، والاستنصار على الأعداء ، كما جاء في (الصحيحين) : (أنه صلى الله عليه وسلم رفع يديه يوم بدر يستنصر على المشركين حتى سقط رداؤه عن منكبيه صلى الله عليه وسلم) .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا رفع يديه في الدعاء لم يحطّهما حتى يمسح بهما وجهه [2] :

وروى أبو داود عن بُريدة : (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دعا فرفع يديه : مسح وجهه بيديه)[3] .

قال العلامة المناوي : وذلك عند فراغه من الدعاء ، تفاؤلاً وتيمّناً أن كفيه مُلئا خيراً ، فأفاض منه على وجهه ، فيتأكد ذلك للداعي – ذكره الحليمي اهـ

وكان يستقبل القبلة في دعائه :

كما ورد في (مسند) أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أنزلت عليه عشر آيات من أول سورة : (قد أفلح المؤمنون) قال عمر:

فاستقبل القبلة ، ورفع يديه صلى الله عليه وسلم وقال : (اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تُهنّا ، وأعطنا ولا تحرِمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وارضَ عنا ..)

الحديث [1] .

---

[1] قال الحافظ الزرقاني : وذلك لعدم الشعر أصلاً ، أو لدوام تعهده بالإزالة .

[2] رواه الترمذي والحاكم عن ابن عمر ، وقال الترمذي : صحيح غريب ،كما في (فيض القدير)

[3] وقد رمز السيوطي إلى حسنه .

وقد استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم القبلة يوم بدر ، ودعا الله تعالى .

وكان صلى الله عليه وسلم يرشد الداعي إلى أن يفتتح دعاءه بالثناء على الله تعالى ، ثم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم :

قال النووي في (الأذكار) : روينا في كتابي الترمذي وابن ماجه ، عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال :

خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ، فقعد فقال : (من كانت له حاجة إلى الله أو إلى أحد من بني آدم ، فليتوضأ ، وليُحسن الوضوء ، ثم ليصلّ ركعتين ، ثم ليثن على الله عز وجلّ ، وليصلّ على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ليقل :

لا إله إلا الله الحليمُ الكريمُ ، سبحان الله ربّ العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين ، أسألك موجباتِ رحمتك ، وعزائمَ مغفرتك ، والغنيمة من كل برّ ، والسلامة من كل إثم ، لا تدع لي ذنباً إلا غفرته ، ولا همّاً إلا فرّجته ، ولا حاجةً هي لك رضاً إلا قضيتها يا أرحم الراحمين) .

قال الترمذي : وفي إسناده مقال اهـ [2]

ويدل على استفتاح الدعاء بالثناء : ما روى الإمام أحمد والحاكم ، عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح دعاءه بـ (سبحان ربي العليّ الأعلى الوهاب) .

ولذا قال الإمام حجة الإسلام الغزالي رضي الله عنه : فيندب أن يفتتح الدعاء بذكر الله تعالى ، وبما هو اللائق من ذكر المواهب والمكارم أولى اهـ .

ومن آداب الدعاء التي أرشد إليها النبي صلى الله عليه وسلم :

---

[1] ورواه الترمذي في : التفسير ، والنسائي في : الصلاة .

[2] وقد رواه الحاكم في (المستدرك) ،وله شواهد متعددة ، كما في (نزل الأبرار) و (شرح الأذكار) ، و(تحفة الذاكرين)

الصلاة عليه أول الدعاء ، وأوسطه ، وآخره :

كما جاء في (مسند) أحمد من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا تجعلوني كقَدَح[1] الراكب) .

قيل : وما قدحه يا رسول الله ؟

قال صلى الله عليه وسلم : (فإن الراكب يملأ قدحه ثم يضعه ويرفع متاعه على راحلته ، فإن احتاج إلى الشراب شربه ، أو الوضوء توضأ ، وإلا هَراقه .

اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره)[2] .

والمراد : أن يصلّى عليه في أول الدعاء وأوسطه وآخره صلى الله عليه وسلم .

وعن علي رضي الله عنه قال : (كلُّ دعاءٍ محجوبٌ حتى يصلّى على محمد صلى الله عليه وسلم)[3] .

وروى الترمذي عن سعيد بن المسيّب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه موقوفاً قال : (إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيّك صلى الله عليه وسلم) .

ومن آداب الدعاء الإلحاحُ فيه :

روى أبو داود عن ابن مسعود رضي الله عنه : (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُعجبه أن يدعو ثلاثاً ، ويستغفر ثلاثاً) .

ورُوي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن الله يحبّ الملحّين في الدعاء)[1]

---

[1] القدح بفتحتين : إناء صغير للشرب .
[2] انظر (المواهب) للقسطلاني و(شرحه)
[3] قال في (الترغيب) : رواه الطبراني في (الأوسط) موقوفاً ، ورواته ثقات ، ورفعه بعضهم ، والموقوف أصح اهـ

ومن مطالب الدعاء التي أرشد إليها النبي صلى الله عليه وسلم لتحصل الإجابة :

تطييب المأكل والمشرب والملبَس ، وذلك بأن يكون حلالاً :

روى مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله تعالى طيّب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات – أي : الحلال – واعملوا صالحاً ..) الآية ، وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

ثم ذكر – رسول الله صلى الله عليه وسلم – الرجلَ يُطيل السفر أشعثَ أغبرَ ، يمدُّ يديه إلى السماء : يا ربِّ يا ربِّ ومطعمُه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسُه حرام ، وغُذي بالحرام ، فأنّى يستجاب لذلك ؟) .

ومن ذلك إرشاده صلى الله عليه وسلم الداعي إلى عدم الاستعجال ، بأن يقول : قد دعوتُ ربي فلم يُستجب لي ، فإن ذلك يُبعد الإجابة ، لما ورد في (الصحيحين) وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يُستجاب لأحدكم ما لم يعجَل ، يقول : دعوتُ فلم يُستجب لي) .

وفي رواية : (دعوتُ ربي فلم يستجب لي) .

وروى أحمد وأبو يعلى برجال الصحيح من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يزال العبدُ بخير ما لم يستعجل) .

قالوا : يا نبي الله وكيف يستعجل ؟

---

[1] أخرجه ابن عدي في (الكامل) ، والبيهقي في (الشعب) ، من حديث عائشة رضي الله عنها ، كما في (نزل الأبرار) وغيره .

قال : (يقول قد دعوتُ فلم يُستجب لي)[1] .

وكان صلى الله عليه وسلم يرشد الداعي إلى العزم والجزم بوقوع مطلوبه :

ففي (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يقل أحدكم إذا دعا : اللهم اغفر لي إن شئتَ ، اللهم ارحمني إن شئتَ – وفي رواية للبخاري : اللهم ارزقني إن شئتَ – ولكن ليعزم المسألة ، فإن الله تعالى لا مُكره له) .

وإنما نهى عن ذلك لأن التعليق بالمشيئة إنما يُحتاج إليه ، إذا تأتّى إكراه المطلوب منه ، وأمكن أن يُكره على تحقيق المطلوب ، وإن الله تعالى هو منزّه عن أن يُكره على أمر ، أو أن يفعل كُرهاً ، وإنما يفعل جميع ما يفعل بمشيئته وإرادته سبحانه ، ولا مُكره له سبحانه .

ونقل في (شرح المواهب) عن النووي أن هذا النهي محمول على الكراهة ، قال وهو أولى ، قال : وظاهر كلام ابن عبد البرّ أنه نهي تحريم – وهو الظاهر . قاله الحافظ – أي : في (الفتح) – اهـ .

قال القسطلاني : وقيل : معنى العزم أن يُحسن الظن بالله في الإجابة ، فإنه يدعو كريماً ، وقد قال ابن عيينة : لا يمنعنّ أحدَكم الدعاءَ ما يعلم من نفسه – يعني : من التقصير – فإن الله تعالى قد أجاب دعاء شرّ خلقه ، وهو إبليس حين قال : (أنظرني إلى يوم يُبعثون) اهـ .

وكان صلى الله عليه وسلم يُرشد الداعي إلى ختم دعائه بالتأمين ، لتحصل الإجابة :

---

[1] فبين النبي صلى الله عليه وسلم الاستعجال المذموم ، وهو أن يقول الداعي : دعوت فلم يستجب لي ، وهذا لا يمنع أن يسال العبد ربه تعجيل الإجابة ، فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال في دعاء الاستسقاء : (عاجلاً غير رائث).

روى أبو داود عن أبي زهير النميريّ قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة نمشي ، فأتينا على رجلٍ قد ألحّ في المسألة [1] فوقف النبي صلى الله عليه وسلم يستمع منه .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (أوجبَ [2] إن ختمه) .

فقال رجل من القوم : بأيّ شيءٍ يختمه ؟

فقال : (بآمين ، فإنه إن ختمه بآمين فقد أوجبَ) .

فانصرف الرجل الذي سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم فأتى الرجلَ – الذي ألحّ في المسألة – فقال – له - : اختم يا فلان بآمين وأبشر .

وروى الحاكم عن حبيب بن سلمة الفهريّ – وكان مجاب الدعاء – قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (لا يجتمع ملأ – أي : جماعة – فيدعو بعضهم ، ويؤمّن بعضهم ، إلا أجابهم الله تعالى) [3] .

وكان صلى الله عليه وسلم يرشد الداعي إلى أن يوقن بالإجابة ، وأن يدعو عن قلبٍ شاهد ، لا عن قلب غافل :

ففي (مسند) الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (القلوب أوعية ، وبعضها أوعى من بعض ، فإذا سألتم الله عزّ وجلّ يا أيها الناس ، فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة ، فإن الله تعالى لا يستجيب لعبدٍ دعاه عن ظهر قلبٍ غافلٍ) [4] .

---

[1] أي : أكثر من الرجاء والدعاء .
[2] قال الزرقاني : قال الحافظ في أماليه : أي : عمل عملاً وجبت له الجنة ، وقال السيوطي : الظاهر أن معناه فعل ما تجب له به الإجابة اهـ
[3] انظر (ترغيب) المنذري .
[4] قال الحافظ المنذري : إسناده حسن ، ثم أورد هذا الحديث من رواية الترمذي والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ومن آداب الدعاء الواردة عنه صلى الله عليه وسلم : أنه كان يستحب الجوامع من الدعاء :

روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها : (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستحبُّ الجوامع من الدعاء ، ويدَع - أي : يترك – ما سوى ذلك)[1] .

ورواه الحاكم بلفظ : (كان يُعجبه صلى الله عليه وسلم الجوامع) .

والمراد بجوامع الدعاء : ما جمع مع وَجازته خيري الدنيا والآخرة :

نحو : (ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) – وهذا أوجهُ ما قيل في معنى جوامع الدعاء .

وبناءً عليه يكون قول عائشة رضي الله عنها – ويدع ما سوى ذلك – محمولاً على أغلب الأحوال لا كلها – فقد قال الحافظ المنذري : كان صلى الله عليه وسلم يجمع في الدعاء تارةً ويفصّل أخرى اهـ .

وقيل : جوامع الدعاء هي الكلمات التي تجمع الأغراض الصالحة والمقاصد الحسنة . وقيل : هي التي تجمع الثناء على الله تعالى وآداب المسألة .

من جوامع أدعيته العامة صلى الله عليه وسلم

جاء في (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه قال : (كان أكثرُ دعاء النبي صلى الله عليه وسلم : (اللهمّ آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار)) .

والحسنة في الدنيا : هي – كما ورد عن علي كرّم الله تعالى وجهه - :

المرأة الصالحة . وقال قتادة : هي العافية والكفاف .

وقال الحسن البصري : هي العلم والعبادة .

---

[1] قال الإمام النووي في (الأذكار) و (الرياض) : إسناده جيد اهـ

وقال السُّدي : المال الصالح .

وقال ابن عمر : الأولاد الأبرار أو ثناء الخلق .

وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : هي صحبة الصالحين .

قال العلامة الآلوسي : والظاهر أن الحسنة وإن كانت نكرةً في الإثبات وهي لا تعمُّ إلا أنها مطلقة فتنصرف إلى الكامل ، والحسنة الكاملة في الدنيا ما يشمل جميع حسناتها ، وهي توفيق الخير ، وبيانها – أي : تفسير الحسنة – بشيء مخصوص ، ليس من باب تعيين المراد ، إذ لا دلالة للمطلق على المقيّد أصلاً ، وإنما هو من باب التمثيل .

قال : وكذا الكلام في (وفي الآخرة حسنة) فقد قيل : هي الجنة ، وقيل : السلامة من هول الموقف وسوء الحساب ،وقيل : الحور العين ، وقيل : لذة الرؤية – أي : رؤية الباري جلّ وعزّ – وقيل وقيل والظاهر الإطلاق وإرادة الكامل ، وهو الرحمة والإحسان اهـ أي : بجميع تلك الأصناف وغيرها .

وفي (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا رجلاً من المسلمين قد صارَ مثل الفرخ المنتوف .

فقال له صلى الله عليه وسلم : (هل كنتَ تدعو الله بشيءٍ ؟)

قال : نعم ، كنتُ أقول : اللهم ما كنتَ معاقبي به في الآخرة ، فعجّله لي في الدنيا . فقال صلى الله عليه وسلم : (سبحان الله إذاً لا تطيق ذلك ولا تستطيعه ، فهلّا قلتَ : (ربنا آتنا في الدنيا حسنةً ، وفي الآخرة حسنةً ، وقنا عذاب النار)) ودعا له فشفاه الله تعالى .

ومن أدعيته الجامعة صلى الله عليه وسلم :

(اللهم أصلح لي ديني الذي هو عِصمةُ أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي ، واجعل الحياة زيادةً لي من كل خير ، واجعل الموت راحةً لي من كل شرٍّ) .

ومن ذلك : (ربّ أعنّي ولا تُعن عليّ ، وانصُرني ولا تنصُر عليّ ، وامكُر لي ولا تمكُر عليّ [1] ، واهدني [2] ويسّر لي الهُدى ، وانصرني على من بغى عليّ . ربّ اجعلني لك ذكّاراً ، لك شكّاراً ، لك رهّاباً ، مطواعاً لك ، مُخبتاً إليكَ ، أوّاهاً منيباً . ربّ تقبّل توبتي ، واغسل حَوبتي [3] ، وأجب دعوتي ، وثبّت حُجّتي ، وسدّد لساني ، واهدِ قلبي ، واسلُل سخيمة[4] صدري – وفي رواية : قلبي)[5]

ومن ذلك : (اللهم إني اسألك الهُدى والتُّقى ، والعفاف[6] والغنى [7]) .

رواه مسلم من حديث ابن مسعود .

ومن أدعيته صلى الله عليه وسلم :

(اللهم لك أسلمتُ ، وبك آمنت، وعليك توكّلتُ ، وإليك أنبتُ ، وبك خاصمتُ اللهم إني أعوذ بعزّتك لا إله إلا أنتَ : أن تضلّني ، أنت الحي الذي لا يموت) وفي رواية : (أنتَ الحيّ القيُّوم الذي لا يموت والجن والإنس يموتون)

رواه الشيخان عن ابن عباس .

ومن أدعيته صلى الله عليه وسلم :

---

[1] قال في (النهاية) : مكر الله إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه ، وقيل : هو استدراج العبد بالطاعات ، فيتوهّم – العبد – أنها مقبولة ، وهي مردودة ، والمعنى : ألحق مكرك بأعدائي لا بي اهـ
قال العلامة الزرقاني : ولا يسند – المكر – إلى الله تعالى إلا على سبيل المقابلة والازدواج – والمقابلة هنا مقدرة ، لأن قوله : (امكر لي) معناه جازِ من مكر عليّ اهـ

[2] أي : اهدني لصالح الأعمال والأخلاق .

[3] أي : خطيئتي .

[4] بفتح السين وكسر الخاء هي : الحقد

[5] رواه أصحاب (السنن) وصححه الحاكم – كلهم عن ابن عباس

[6] أي : الصيانة عن مطامع الدنيا وعن المنهيات

[7] غنى النفس ، والغنى عن الناس .

(اللهم عافني في جسدي ، وعافني في سمعي وبصري ، واجعلهما الوارثَ مني [1] لا إله إلا الله الحليم الكريم ن سبحان الله ربّ العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين) .

ومن أدعيته صلى الله عليه وسلم الجامعة لأنواع من التعاويذ :

(اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجُبن ، والهرَم ، والبخل ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات) .

رواه الشيخان من حديث أنس .

وفي رواية للبخاري :

(اللهم إني أعوذ بك من الهمّ والحزَن ، والعجز والبخل ، والجبن وضلَع الدّين [2] وغلبة الرجال)[3] .

ومن ذلك : (اللهم إني أعوذ بك من الجُذام [4] والبَرص والجنون وسيّئ الأسقام) .

رواه أبو داود والنسائي من حديث أنس بإسنادٍ صحيح .

ومن ذلك : ما جاء عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل والهرم ، وعذاب القبر . اللهم آتِ نفسي تقواها ، وزكّها أنت خير من

---

[1] أي : أبقهما عليّ صحيحين سليمين إلى أن أموت ، بأن يلازماني لزوم الوارث لموروثه .

[2] أي : ثقل الديون

[3] أي : تسلط الرجال وشدتهم بغير حق شرعي

[4] الجذام كـ (غراب) : علة تحدث في البدن ، فتفسد مزاج الأعضاء ،وربما تؤدي إلى تآكلها وسقوطها .

زكّاها ، أنت وليُّها ومولاها . اللهم إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع ، ومن قلبٍ لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوةٍ لا يُستجاب لها)[1] .

قال العلامة الطيبي : في كلّ من هذه القرائن [2] إشعارٌ بأن وجود الشيء مبني على غايته ، والغرض – اي : المقصود الغاية :

فإن تعلُّم العلم إنما هو للنفع به ، فإذا لم ينفعه لم يخلُص كَفافاً ، بل يكون وبالاً – على صاحبه –

وإن القلب إنما خُلق ليخشع لربه تعالى ، فإذا لم يخشع فهو قاسٍ يُستعاذ منه ، (فويلٌ للقاسية قلوبُهم) .

وإنما يعتدُّ بالنفس إذا تجافت – أي : تباعدت – عن دار الغرور ، وأنابت إلى دار الخلود ، فإذا كانت – النفس – نهمةً لا تشبع ، كانت أعدى عدوّ للمرء ، فهي أهمُّ ما يُستعاذ منه .

وعدم استجابة الدعاء : دليلٌ على أن الداعي لم ينتفع بعلمه ، ولم يخشع قلبه ، ولم تشبع نفسه اهـ .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول :

(اللهم إني أعوذ بك من الشّقاق والنفاق ، وسوء الأخلاق)[3] .

رواه أبو داود من حديث أبي هريرة .

وكان صلى الله عليه وسلم يعوّذ الحسن والحسين يقول :

---

[1] رواه مسلم ، وكذا الإمام أحمد وأصحاب (السنن) ، كما في (شرح المواهب)

[2] أي : القرائن الواردة في قوله صلى الله عليه وسلم : (أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها) .

[3] أما الشقاق : فالمراد به التعادي والخلاف ، والمراد بالنفاق : نفاق العمل ، وأن سوء الأخلاق من المهلكات والمخازي .

(أعوذ – هذا لفظ البخاري ووقع في الأذكار : أعيذكما – بكلمات الله [1] التامّة [2] ، من كل شيطان وهامّة[3] ، ومن كل عين لامّة)[4] .

ويقول : (إن أباكما – أي : جدكما الأعلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام – كان يعوّذ بها إسماعيل وإسحاق) رواه البخاري وغيره .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : (اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحوّل عافيتك ، وفُجاءة[5] نقمتك ، وجميع سَخَطك) .

رواه مسلم وأبو داود .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول :

(اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء)

رواه الترمذي وغيره ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : (اللهم إني أعوذ بك من يوم السوء ، ومن ليلة السوء ، ومن ساعة السوء ، ومن صاحب السوء ، ومن جار السوء في دار المُقامة) رواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر .

أدعيته صلى الله عليه وسلم في مناسبات متعددة

دعاؤه صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن ينام :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند مضجَعه :

---

[1] أي : كلامه على الإطلاق ، أو القرآن الكريم خاصة .
[2] قال الزرقاني : اي الكاملة ، أو النافعة ، أو الشافية ، أو المباركة ، أو القاضية التي تمضي وتستمر ولا يردها شيء ولا يدخلها نقص ولا عيب . اهـ . وعلى كل فهي صفات مؤكدة وكاشفة .
[3] بتشديد الميم : ذات السموم
[4] التي تصيب ما نظرت إليه بسوء .
[5] بضم الفاء والمد ، وبفتحها والقصر ، أي : بغتة العقوبة وأخذة الغضب – كما في (شرح المواهب)

(اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم ، وبكلماتك التامّة ، من شرّ ما أنت آخذٌ بناصيته ، اللهم أنت تكشفُ المغرمَ والمأثم ، اللهم لا يُهزم جندُك ، ولا يُخلَف وعدك ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ ، سبحانك وبحمدك)[1] .

وكان إذا أرادَ أن يرقُد وضع يده اليمنى تحت خدّه ثم يقول :

(اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك) ثلاث مرات [2] .

وكان إذا أوى إلى فراشه قال : (الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا ، وكفانا وآوانا ، فكم ممّن لا كافي له ولا مؤوي)[3] .

دعاؤه صلى الله عليه وسلم إذا استيقظ من نومه :

كان صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه قال : (باسمك أحيا وأموت) .

وإذا قام قال : (الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور)[4]

دعاؤه صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء وإذا خرج منه :

عن أنس رضي الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول إذا دخل الخلاء :

(بسم الله ، اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث)

وفي رواية الطبراني : (اللهم إني أعوذ بك من الرّجس النّجس ، الخبيث المُخبث ، الشيطان الرجيم) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا خرج من الخلاء : (غفرانك)[1] .

---

[١] رواه أبو داود والنسائي وغيرهما من حديث علي كرم الله وجهه .
[٢] أخرجه أبو داود من حديث حفصة رضي الله عنها .
[٣] رواه مسلم وأصحاب (السنن).
[٤] رواه الشيخان وغيرهما من حديث حذيفة رضي الله عنه .

وللطبراني عن ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج من الخلاء يقول : (الحمد لله الذي أذاقني لذّته ، وأبقى فيّ قوّته ، وأذهب عني أذاه) .

دعاؤه صلى الله عليه وسلم إذا خرج من بيته :

عن أم سلمة رضي الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا خرج من بيته قال :

(بسم الله ، توكّلتُ على الله ، اللهم إني أعوذ بك أن أضِلّ أو أُضلّ أو أزِلّ أو أُزلّ ، أو أظلِم أو أُظلَم ، أو أجهل أو يُجهل عليّ)[2] .

ومن دعائه إذا توجّه إلى المسجد ، وإذا دخله ، وإذا خرج منه :

عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى الصلاة وهو يقول :

(اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وعن يميني نوراً ، وخلفي نوراً ، وفي عصبي نوراً ، وفي لحمي نوراً ، وفي دمي نوراً ، وفي شعري نوراً ، وفي بَشَري نوراً)[3] .

وعن السيدة فاطمة بنت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد يقول : (بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ، اللهم

اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب رحمتك) .

وإذا خرج قال : (بسم الله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب فضلك)[1]

---

[1] رواه أصحاب السنن .
[2] رواه أصحاب السنن .
[3] رواه الشيخان ، وتقدم رواية لمسلم حين خرج صلى الله عليه وسلم لصلاة الصبح .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول إذا دخل المسجد :

(أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم،[2] من الشيطان الرجيم) **ومن أدعيته صلى الله عليه وسلم إذا أصبح وإذا أمسى :**

(اللهم بك أصبحنا ، وبك أمسينا ، وبك نحيا وبك نموت ، وإليك النشور)

وإذا أمسى قال : (اللهم بك أمسينا ، وبك أصبحنا ، وبك نحيا وبك نموت ، وإليك النشور)[3]

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أمسى قال :

(أمسينا وأمسى الملك لله ، والحمد لله ، لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

ربّ أسألك خيرَ ما في هذه الليلة ، وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة ، وشرّ ما بعدها .

ربّ أعوذ بك من الكسل والهرم ، وسوء الكِبَر ، أعوذ بك من عذابٍ في النار ، وعذابٍ في القبر) .

وإذا أصبح قال :

(أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله ..)[4] إلى آخر ما سبق .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أصبح قال :

(أصبحنا وأصبح الملك لله ، والحمد لله ، والكبرياء والعظمة لله ، والخلقُ والأمر ، والليل والنهار ، وما يسكن فيهما ، لله تعالى .

---

[١] رواه الترمذي وغيره .
[٢] رواه ابو داود وقال النووي : إسناده جيد .
[٣] رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
[٤] رواه مسلم وأبو داود من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

اللهم اجعل أوّل هذا النهار صلاحاً ، وأوسطه فلاحاً ، وآخره نجاحاً ، يا أرحم الراحمين)[1] .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول :

(إذا أصبح أحدكم فليقل :

أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين .

اللهم أسألك خيرَ هذا اليوم : فتحه ونصرَه ، ونورَه وبركته وهُداه .

وأعوذ بك من شرّ ما فيه ، وشرّ ما بعده .

ثم إذا أمسى فليقل مثل ذلك)[2] .

وكان صلى الله عليه وسلم يدعو حين يمسي وحين يصبح بهذه الدعوات :

(اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة .

اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنيايَ ، وأهلي ومالي .

اللهم استُر عَوراتي وآمن رَوعاتي .

اللهم احفظني من بين يدي ، ومن خلفي ، وعن يميني ، وعن شمالي ، ومن فوقي ، وأعوذ بعظمتك أن أغتالَ من تحتي)[3]

وكان صلى الله عليه وسلم يدعو إذا أصبح وإذا أمسى :

---

[1] رواه ابن أبي شيبة في (مصنفه) والطبراني وابن السني من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه ، كما في (تحفة الذاكرين) وغيره

[2] قال في (الأذكار) : رويناه في (سنن) أبي داود بإسناد لم يضعفه ، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه

[3] رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما . وأغتال : مبني لما لم يسم فاعله ، ومعناه : أؤخذ غيلة ، وقد فسر هنا بالخسف .

(اللهم عافني في بدني ، اللهم عافني في سمعي ، اللهم عافني في بصري ، لا إله إلا أنت – ثلاثاً – اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر ، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، لا إله إلا أنتَ – ثلاثاً - [1]) .

وقال صلى الله عليه وسلم لابنته الكريمة السيدة فاطمة رضي الله عنها :

(ما يمنعكِ أن تسمعي ما أوصيكِ به ؟ تقولين إذا أصبحتِ وإذا أمسيتِ : يا حيُّ يا قيُّوم برحمتك أستغيثُ ! أصلِح لي شأني كلّه ، ولا تكلني إلى نفسي طرفةَ عين)[2] .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أهمّه الأمر رفع رأسه إلى السماء ، وقال : (سبحان الله العظيم)

وإذا اجتهد في الدعاء قال : (يا حيُّ يا قيُّوم)[3]

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أراد أمراً قال : (اللهم خِر لي واختر لي)[4]

وكان صلى الله عليه وسلم إذا استجدّ ثوباً سمّاه باسمه : قميصاً ، أو عمامةً ، أو رداءً ، ثم يقول : (اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه ، أسألك من خيره ، وخير ما صُنع له ، وأعوذ بك من شرّه ، وشرّ ما صُنع له)[5]

وكان صلى الله عليه وسلم إذا رأى المطر قال : (اللهم صيّباً نافعاً)[6] .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا رأى الهلال قال : (اللهم أهلّه علينا باليُمن والإيمان ، والسلامة والإسلام ، ربي وربُّك الله)[7] .

---

[1] أخرجه أبو داود والنسائي
[2] رواه النسائي والحاكم في (المستدرك) من حديث أنس رضي الله عنه .
[3] رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه
[4] رواه الترمذي عن الصديق رضي الله عنه ، قال النووي : سنده ضعيف
[5] رواه أحمد وأبو داود والترمذي
[6] رواه أصحاب السنن عن عائشة رضي الله عنها
[7] رواه أحمد والترمذي

وكان صلى الله عليه وسلم إذا رأى الهلال قال : (اللهم أهِلّه علينا بالأمن والإيمان ، والسلامة والإسلام ، والتوفيق لما تحبُّ وترضى ، ربُّنا وربُّك الله)[1]

وكان صلى الله عليه وسلم إذا رأى الهلال قال : (الله أكبر ، الله أكبر ، الحمد لله ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم إني اسألك من خير هذا الشهر ، وأعوذ بك من سوء القدر ، ومن شر يوم المحشر)[2]

وكان صلى الله عليه وسلم إذا رأى الهلال قال : (هلال خيرٍ ورشد ، آمنت بالذي خلقك) – ثلاثاً – ثم يقول :

(الحمد لله الذي ذهب بشهر كذا وجاء بشهر كذا)[3]

وكان صلى الله عليه وسلم إذا دخل رجب قال : (اللهم بارك لنا في رجب وشعبان ، وبلّغنا رمضان) .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا كانت ليلة الجمعة قال : (هذه ليلة غرّاء ويوم أزهر)[4]

وكان صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح – أي : اشتدّت وهاجت – قال : (اللهم إني أسألك خيرها ، وخير ما فيها ، وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرّها ، وشرّ ما فيها ، وشر ما أرسِلت به)[5]

وكان صلى الله عليه وسلم إذا تضورَ[1] من الليل قال : (لا إله إلا الله الواحد القهّار ، ربُّ السماوات والأرض وما بينهما ، العزيز الغفّار) [2]

---

[1] عزاه في (الجامع الصغير) للطبراني رامزاً لحسنه

[2] رواه الإمام أحمد والطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما .

[3] رواه أبو داود عن قتادة بلاغاً ، وابن السني عن أبي سعيد ، كما في (الجامع الصغير)

[4] عزاه في (الجامع الصغير) للبيهقي وابن عساكر ، وقال النووي في (الأذكار) : إسناده ضعيف

[5] رواه مسلم والترمذي

وكان صلى الله عليه وسلم إذا دخل السوق قال :

(بسم الله ، اللهم إني أسألك من خير هذه السوق ، وخير ما فيها ، وأعوذ بك من شرّها وشرّ ما فيها ، اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها يميناً فاجرة – أي : كاذبة – أو صفقةً خاسرةً)[3]

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أتي بباكورة الثمرة [4]

وضعها على عينيه ، ثم على شفتيه ، وقال :

(اللهم كما أريتنا أوّله فأرنا آخره) ثم يعطيه مَن يكون عنده من الصبيان [5]

وكان صلى الله عليه وسلم إذا قرّب إليه طعامه –

وفي رواية أحمد : طعام – قال صلى الله عليه وسلم : (بسم الله) .

فإذا فرغ قال : (اللهم إنك أطعمتَ وسقيتَ ، وأغنيتَ وأقنيتَ [6] ، وهديتَ واجتبيتَ ، اللهم فلك الحمد على ما أعطيتَ)[7]

وكان صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من طعامه قال :

(الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا ، وجعلنا من المسلمين)[1]

---

[١] أي : تقلب أثناء النوم

[٢] رواه النسائي والحاكم وابن حبان ، كلهم عن عائشة رضي الله عنها ، وقال الحافظ العراقي في (أماليه) : حديث صحيح ، كما في (فيض القدير)

[٣] رواه الطبراني عن بريدة ، قال الحافظ الهيثمي : فيه – أي : في إسناده – محمد بن أبان الجعفي ، وهو ضعيف اهـ ورواه الحاكم أيضاً .

[٤] الباكورة : هي أول ما يدرك من الفاكهة .

[٥] قال الحافظ الهيثمي : رواه الطبراني عن ابن عباس في (الكبير والصغير) ، ورجال (الصغير) رجال الصحيح اهـ ورواه الحاكم عن أنس

[٦] أي ك أعطيتَ ما يقتنى فوق الحاجة

[٧] رواه النسائي وأحمد ، قال الحافظ في (الفتح) : وسنده صحيح اهـ
قال المناوي : لكن قال النووي في (الأذكار) : إسناده حسن اهـ

وكان صلى الله عليه وسلم يقول أيضاً إذا فرغ من طعامه :

(الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا ، وجعلنا من المسلمين)[2]

وكان صلى الله عليه وسلم يقول أيضاً إذا فرغ من طعامه :

(اللهم لك الحمد أطعمتَ وسقيتَ ، وأشبعتَ وأرويتَ ، فلك الحمد غيرَ مكفور ولا مودّع ، ولا مستغنىً عنك)[3]

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أكل أو شرب قال :

(الحمد لله الذي أطعم وسقى ، وسوّغه ، وجعل له مخرجاً) .

رواه أبو داود وغيره .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أفطر – أي : من صومه – قال :

(اللهم لك صُمتُ ، وعلى رزقك أفطرتُ ، فتقبّل مني ، إنك أنت السميع العليم)[4] .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول أيضاً إذا أفطر :

(ذهب الظمأ ، وابتلّت العروق ، وثبت الأجر إن شاء الله تعالى)[5]

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أفطر عند قوم قال – في دعائه لهم - :

(أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار ، وتنزّلت عليكم الملائكة)

---

[١] رواه أحمد والضياء في (المختارة) عت أبي سعيد ، وقد رمز في (الجامع الصغير) لحسنه

[٢] رواه أحمد والضياء في (المختارة) عن أبي سعيد ، وقد رمز في (الجامع الصغير) لحسنه .

[٣] عزاه في (الجامع الصغير) إلى الإمام أحمد رامزاً لحسنه

[٤] رواه ابو داود إلى قوله : (أفطرت) والطبراني وابن السني بالزيادة كما في (الجامع الصغير)

[٥] رواه ابو داود والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنه

أي : بالرحمة والخير الإلهي .

وفي رواية : (وصلّت عليكم الملائكة) بدلاً من (وتنزّلت)[1]

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أكل عند قوم دعا لهم فقال :

(أكل طعامكم الأبرارُ ، وصلّت عليكم الملائكة ، وأفطر عندكم الصائمون)

رواه أحمد والبزار .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا رفّأ الإنسان إذا تزوّج قال له :

(بارك الله لك ، وبارك عليك ، وجمع بينكما في خير)[2]

وقد كانوا في الجاهلية يقولون للرجل إذا تزوّج : بالرفاء والبنين ، فنهاهم صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، لأنه ليس فيه حمد ولا ثناء ، ولا ذكر لله تعالى ، ولما فيه من الإشارة إلى بغض البنات ، لتخصيص البنين بالذكر ، وغير ذلك .

وعلّمهم أن يقولوا لمن تزوّج :

(بارك الله لك) أي : في هذه الزواج (وبارك عليك) بالأولاد والنسل المبارك (وجمع بينكما في خير) وذلك بحسن المعاشرة ، وتمام الموافقة والمودّة بين الزوجين .

وكان صلى الله عليه وسلم يعلّم الرجل إذا تزوّج امرأة أن يقول :

(اللهم إني أسألك خيرها ، وخيرَ ما جبلتَها عليه ، وأعوذ بك من شرّها ، وشرّ ما جبلتَها عليه)[1]

---

[1] عزاه في (الجامع الصغير) للإمام أحمد والبيهقي عن أنس رضي الله عنه رامزاً لحسنه ، قال في (فيض القدير) : رواه أيضاً عنه أبو داود

[2] رواه أصحاب السنن وابن حبان ، وقال الترمذي فيه : حسن صحيح .
انظر (فيض القدير) و(تحفة الذاكرين) وغيرهما .

وفي رواية : (وأن يأخذ بناصيتها ، ويدعو بالبركة في المرأة)[1]

وكان صلى الله عليه وسلم يقول عند الكرب :

(لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم ، لا إله إلا الله ربُّ السموات وربُّ الارض ، وربّ العرش الكريم)[2]

وفي رواية للبخاري : (لا إله إلا الله الحليم الكريم) .

وفي رواية لمسلم : كان صلى الله عليه وسلم إذا حزَبه أمر قال ذلك .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول إذا كرَبه أمر :

(يا حيُّ يا قيومُ ، برحمتك أستغيث) رواه الترمذي .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا خاف قوماً – أي : خاف من شرّهم – قال :

(اللهم إنا نجعلكَ في نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم)[3] **.**

وقال أنس : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوةٍ فلقي العدوّ ، فسمعتُه يقول :

(يا مالكَ يوم الدّين ، إيّاك نعبد وإياك نستعين)

فلقد رأيت الرجال – الأعداء – تُقرَع – تَضربها الملائكة – من بين أيديها ومن خلفها [4] **.**

وكان صلى الله عليه وسلم إذا عاد مريضاً يمسح بيده اليمنى ويقول :

---

[1] رواه أبو داود وأبو يعلى ، كما في (الحصن) وشرحه

[2] متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما

[3] رواه أبو داود والنسائي من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه

[4] رواه ابن السني ، قال النووي : ويستحب أن يقول ما قدمناه في الباب السابق من حديث أبي موسى اهـ

(اللهم ربّ الناس ، أذهب البأس ، اشفِ أنت الشافي ، لا شفاءَ إلا شفاؤك ، شفاءً لا يغادر – أي : لا يترك – سقماً) [1] .

وقال أنس رضي الله عنه لثابت البناني رحمه الله تعالى : ألا أرقيكَ رُقية رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : بلى ، قال : (اللهم ربّ الناس ، مُذهب البأس ، اشفِ أنت الشافي ، لا شافيَ إلا أنتَ ، شفاءً لا يغادر سقماً)[2]

وكان صلى الله عليه وسلم إذا عاد مريضاً جلس عند رأسه ثم قال سبعَ مرات :

(أسأل الله العظيم ، ربّ العرش العظيم ، أن يشفيَك) .

رواه ابن حبان وصححه ، والنسائي بهذا اللفظ .

ورواه أبو داود والترمذي وحسنه ، عن ابن عباس ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(من عادَ مريضاً لم يحضُر أجلُه ، فقال عنده سبع مرات : أسأل الله العظيم ، ربّ العرش العظيم ، أن يشفيك ، إلا عافاه الله تعالى من ذلك المرض)[3]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل على من يعوده قال : (لا بأسَ طهورٌ إن شاء الله) رواه البخاري .

وكان صلى الله عليه وسلم يعلّم الذي يفزع بالليل ، أو يعتريه الأرَق أن يقول :

(أعوذ بكلمات الله التامّات ، من غضبه وعقابه ، وشرّ عباده ، ومن همزَات الشياطين ، وأن يحضُرونِ) .

---

[1] متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .
[2] رواه البخاري
[3] انظر (شرح رياض الصالحين) و (نزل الأبرار)

وكان ابن عمرو يلقّنها من عقَل من ولده ، ومن لم يعقِل كتبها له في صكّ ، ثم علّقها في عنقه [1] .

وعلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم خالدَ بن الوليد حين اعتراه الأرَق أن يقول :

(اللهم ربّ السموات السبع وما أظلّت ، وربّ الأرضينَ وما أقلّت ، وربّ الشياطين وما أضلّت ، كن لي جاراً من شرّ خلقك كلهم جميعاً ، أن يفرط عليّ أحد منهم ، أو أن يطغى ، عزّ جارُك ، وجلّ ثناؤك) .

وفي رواية : (وتبارك اسمك ، ولا إله إلا أنت) .

رواه الترمذي والطبراني كما في (الترغيب) .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يقوم من المجلس يقول :

(سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك)

فقال رجل : يا رسول الله إنك لتقول قولاً ما كنتَ تقوله فيما مضى ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : (ذلك كفارةٌ لما يكون في المجلس)[2]

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : قلّما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم من مجلسٍ حتى يدعو بهؤلاء الدعوات :

(اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تبلّغنا به جنّتك ، ومن اليقين ما تهوّن علينا مصائب الدنيا .

اللهم متّعنا بأسماعنا وأبصارنا ، وقوّتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارثَ منا .

---

[1] رواه أبو داود ، والترمذي واللفظ له ، وقال : حسن غريب . ورواه النسائي والحاكم وليس عنده تخصيصها بالنوم ، كما في (الترغيب) للمنذري ، فهي تستعمل لكل من يعتريه الوحشة والفزع والخوف . ويقول ذلك ثلاث مرات كما جاء في رواية

[2] رواه أبو داود والنسائي في (عمل اليوم والليلة) ، عن أبي برزة رضي الله عنه .

واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبرَ همّنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلّط علينا من لا يرحمنا)[1]

ومن آداب المجلس الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم :

ما رواه الترمذي وحسّنه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ما جلس قوم مجلساً ، لم يذكروا الله تعالى فيه ، ولم يصلّوا على نبيّهم فيه : إلا كان عليهم تِرَة [2] فإن شاء عذّبهم ، وإن شاء غفر لهم) . قال الإمام النووي : وروينا في (حلية الأولياء) عن عليّ كرّم الله وجهه أنه قال : من أحبّ أن يكتال بالمكيال الأوفى ، فليقل في آخر مجلسه أو حين يقوم : (سبحان ربّك ربّ العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين) .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا ودّع رجلاً قال له :

(أستودعُ الله دينَك وأمانتك ، وخواتيم عملك[3] وأقرأ عليك السلام) .

وقال أنس رضي الله عنه : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله إني أريد سفراً فزوّدني .

فقال صلى الله عليه وسلم : (زوّدك الله التقوى) .

قال : زدني ، قال : (وغفر ذنبَك) .

قال : زدني بأبي أنت وأمي .

---

[1] رواه الترمذي وقال : حديث حسن

[2] قال الإمام النووي : الترة بكسر التاء المثناة من فوق وهي النقص ، وقيل : التبعة وهي ما نطلب من ظلامة ونحوها .

[3] رواه أبو داود إلى هنا عن ابن عمر ، والزيادة عند النسائي ، ورواه الترمذي أيضاً ، والأمانة هنا ، كما قال الخطابي : الأهل ومن يخلفه ، وماله الذي عند أمينه ، قال : وذكر الدين هنا لأن السفر مظنة المشقة ، فربما كان سبباً لإهمال بعض أمور الدين .

قال : (ويسّر لك الخيرَ حيثما كنتَ)[1] .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا استوى على بعيره ، خارجاً إلى السفر ، كبّر ثلاثاً ، ثم قال :

(سبحان الذي سخّر لنا هذا ، وما كنا له مقرِنين [2] ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون

اللهم إنا نسألكَ في سفرنا هذا البرّ والتقوى ، ومن العمل ما ترضى .

اللهم هوّن علينا سفرنا هذا ، واطوِ عنا بُعده .

اللهم أنت الصاحب في السفر .

اللهم إني أعوذ بك من وَعثاء[3] السفر ، وكآبة المنظر [4] ، وسوء المنقَلب [5]

في المال والأهل) .

وإذا رجع – من سفره – قالهنّ وزاد فيهنّ :

(آيبون تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون)[6] .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا خرج إلى المقبرة قال :

(السلام عليكم دار قومٍ مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون)[7]

---

[1] رواه الترمذي وقال : حسن غريب ، ورواه النسائي والحاكم .
[2] أي : ما كنا مطيقين له ، ولا قادرين عليه .
[3] الوعثاء : الشدة والمشقة .
[4] الكآبة : تغير النفس بسبب حزن ونحوه
[5] المنقلب : المرجع
[6] رواه مسلم آخر كتاب الحج ، وانظر (رياض الصالحين)
[7] رواه مسلم . والمعنى : وإنا إن شاء الله بكم لاحقون في الوفاة على الإيمان كما في (فيض القدير) قالوا : والتقييد بالمشيئة هنا لقصد التبرك ، وامتثال أمر الله تعالى ، وكثيراً ما يستعمل التقييد بالمشيئة لقصد تأكيد ما تقدمه ، وأنه واقع على كل حال ، ولكن بمشيئته تعالى .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبور المدينة ، فأقبل عليهم بوجهه فقال :

السلام عليكم يا أهل القبور ، يغفر الله لنا ولكم ، أنت سلفُنا ونحن بالأثر)[1]

وقال بُريدة رضي الله عنه : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلّمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم :

(السلام عليكم أهلَ الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، أسأل الله لنا ولكم العافية [2] ، أنتم لنا فرَط ، ونحن لكم تبَع) .

ومن دعائه صلى الله عليه وسلم للحاجّ ، ما رواه البيهقي في (سننه) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(اللهم اغفِر للحاجّ ، ولمن يستغفر له الحاجّ)[3]

وروى ابن السني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : جاء غلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني أريد الحج ، فمشى معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

(يا غلام ، زوّدك الله التقوى ، ووجّهك في الخير ، وكفاكَ الهمّ) .

فلما رجع الغلام سلّم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له :

(يا غلام قبِل الله حجّتك ، وغفر ذنبك ، وأخلف عليك نفقتك) .

حول تسبيحه وتحميده صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى : (فسبّح بحمد ربك وكن من الساجدين) .

---

[1] رواه الترمذي وحسنه . وفي هذا الحديث دليل على أن السلام على الأموات مطلوب من زائرهم ومن المار بهم .

[2] رواه مسلم والنسائي ، والزيادة بعده من رواية ابن ماجه

[3] قال الحاكم : وهو صحيح على شرط مسلم

كان صلى الله عليه وسلم يُكثر من التسبيح والحمد لله تعالى ، على وجه المحبة والشغف الشديد بذلك ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (لأن أقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر : أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس)[1]

فليفكّر المفكّر ، وليتدبّر المتدبّر ، في شغف هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وحبّه التسبيح والتحميد ، والتهليل والتكبير لله تعالى ، وأن مرة واحدةً من هذه الصيغة الجامعة للتسبيح والحمد والتهليل والتكبير يقولها ، هي أحبُّ إليه من جميع ما طلعت عليه الشمس من كائنات علويّة وسفليّة ، وبريّة وبحريّة .

وقد قال صلى الله عليه وسلم لأبي ذرّ رضي الله عنه : (ألا أخبركَ بأحبّ الكلام إلى الله تعالى ؟) قال : قلت : يا رسول الله ، أخبرني بأحبّ الكلام إلى الله تعالى .

فقال : (إنّ أحبّ الكلام إلى الله تعالى : سبحان الله وبحمده)[2] رواه مسلم

وفي رواية له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل : أيُّ الكلام أفضل ؟ قال :

(ما اصطفى الله لملائكته – أو لعباده - : سبحان الله وبحمده) .

وكان صلى الله عليه وسلم يُكثر من التسبيح في الليل والنهار :

روى الطبراني عن ربيعة بن كعب الأسلمي قال : كنت أخدم النبي صلى الله عليه وسلم نهاري ، فإذا كان الليل أويتُ إلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم فبتُّ عنده ، فلا أزال أسمعه يقول : (سبحان الله ، سبحان الله ، سبحان ربي) حتى تغلبني عيني فأنام .

---

[1] رواه مسلم والترمذي من حديث أبي هريرة

[2] يعني : أن ذلك أحب الكلام إلى الله تعالى بعد القرآن ، فإنه كلامه تعالى

فقال صلى الله عليه وسلم : (يا ربيعة ، سلني فأعطيَك ؟) فقلت : أنظرني يا رسول الله حتى أنظُر – وتذكّرتُ أن الدنيا فانية منقطعة .

فقلت : يا رسول الله أسألك أن تدعوَ الله أن يُنجيني من النار ، ويدخلني الجنة .وفي رواية لمسلم قال : أسألك مرافقتك في الجنة .

فقال : (أو غيرَ ذلك)

قال : هو ذاك .

قال صلى الله عليه وسلم : (فأعنّي على نفسك بكثرة السجود) .

وكان صلى الله عليه وسلم يستحبُّ الجوامع من التسبيح والحمد :

ومن ذلك ما ورد في تسبيحه وحمده في الضحى :

روى الإمام مسلم وأصحاب (السنن) عن جُويرية زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من عندها ، ثم رجع بعد أن أضحى النهار – وعند الترمذي : رجع قريباً من نصف النهار – وهي جالسة تسبّح .

فقال صلى الله عليه وسلم : (ما زلتِ على الحال التي فارقتك عليها ؟) .

قالت : نعم .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (لقد قلتُ بعدكِ أربع كلمات ، ثلاث مرات ، لو وُزِنَت بما قلتِ من اليوم – أي : من أول النهار – لوزنتهنّ :

سبحان الله وبحمده ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، عدد خلقه ، ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ومداد كلماته)[1] .

[1] كما في (الترغيب) للمنذري .

وروى الترمذي والحاكم عن صفيّة رضي الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها ، وبين يديها أربعةُ آلاف نواةٍ تسبّح بهنّ – أي : بعددهنّ –

فقال صلى الله عليه وسلم : (ألا أعلّمك بأكثرَ مما سبّحت به ؟) .

فقالت : بلى علّمني .

فقال : (قولي : سبحان الله عددَ خلقه) .

وفي رواية الحاكم : (قولي : سبحان الله عدد ما خلق من شيءٍ)[1]

وكان صلى الله عليه وسلم يعلّم الصحابة جوامع من التسبيح والحمد – ويحثّهم على ذلك .

جاء عن أبي أمامة رضي الله عنه ، أنه قال : رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أحرّك شفتيّ ، فقال : (بأي شيءٍ تحرّك شفتيك يا أبا أمامة ؟) .

فقلت : أذكر الله يا رسول الله .

فقال : (ألا أخبركَ بأكثر وأفضلَ من ذكرك بالليل والنهار ؟) .

قلت : بلى يا رسول الله .

قال : (تقول : سبحان الله عدد ما خلق ، سبحان الله ملء ما خلق ، سبحان الله عدد ما في الأرض والسماء ، سبحان الله ملء ما في الأرض والسماء ، سبحان الله عدد ما أحصى كتابه ، سبحان الله ملء ما أحصى كتابه ، سبحان الله عدد كل شيء ، سبحان الله ملء كل شيء .

الحمد لله عدد ما خلق ، والحمد لله ملء ما خلق ، والحمد لله عدد ما في الأرض والسماء ، والحمد لله ملء ما في الأرض والسماء ، والحمد لله عدد

---

[1] انظر (ترغيب) المنذري

ما أحصى كتابه ، والحمد لله ملء ما أحصى كتابه ، والحمد لله عدد كلّ شيء ، والحمد لله ملء كلّ شيء)[1] .

حول استغفاره صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى : (واستغفرِ الله ، إن الله كان غفوراً رحيماً) .

وقال تعالى : (فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) .

الاستغفار : هو طلب المغفرة من الله تعالى .

فكان صلى الله عليه وسلم يُكثر من الاستغفار في الليل والنهار ، في الصلوات ووراء الصلوات ، وفي سائر مجالسه وأحواله .

وكان مكحول يُكثر من الاستغفار ، ويقول : كان أبو هريرة يكثر من الاستغفار ، ويقول : ما رأيت أحداً أكثر استغفاراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في سجوده .

(اللهم اغفر لي ذنبي كلّه ، دِقّه وجِلّه ، أوّله وآخره ، سرّه وعلانيته) .

رواه مسلم ، وعن ثوبان رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر الله ثلاثاً ، وقال : (اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام) . رواه مسلم .

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه ، في اليوم أكثر من سبعين مرّة) .

---

[1] قال الحافظ المنذري : رواه أحمد وابن أبي الدنيا واللفظ له ، والنسائي وابن خزيمة وابن حبان في (صحيحهما) باختصار ، والحاكم وقال : صحيح على شرطهما اهـ

قال العلماء : وقوله صلى الله عليه وسلم : (أكثر من سبعين مرة) يحتمل الكثرة ، فإن العرب تضع السبع والسبعين والسبعمائة موضع الكثرة .

وقد قال الأعرابي لمن أعطاهُ شيئاً : سبّع الله لك الأجر – أي : كثّره .

ويحتمل أن يراد به العدد بعينه ، ويكون لفظ (أكثر) مبهماً ، فسّرته الرواية الأخرى : (إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة) .

روى مسلم عن الأغرّ المزني رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إنه ليُغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة) .

وأصل الغين في اللغة : الغيم الرقيق الذي يكون في السماء ، والمراد بالغين هنا : غين أنوارٍ لا غين أغيار .

وفي (الصحيحين) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول :

(اللهمّ لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت ، وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدّم ، وأنت المؤخّر ، لا إله إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله) .

وكان صلى الله عليه وسلم يُكثر من الاستغفار في مجالسه مع أصحابه :

فعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : إن كنا – أي : إنا كنا – لنعدُّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد : (ربّ اغفر لي ، وتب عليّ ، إنك أنت التواب الرحيم) مائة مرة .

رواه أبو داود وابن حبان وصححه .

ورواه الترمذي – وقال : حسن صحيح غريب – بلفظ (إنك أنت التواب الغفور) وأخرج النسائي بسند جيد من طريق مجاهد ، عن ابن عمر ، أنه

سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم وأتوب إليه) في المجلس قبل أن يقوم ، مائة مرة [1] .

فإن قيل : لمَ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكثر من الاستغفار ، مع أنه صلى الله عليه وسلم غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر ، بنص قوله تعالى : (ليغفرَ لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ..) الآية ؟

فالجواب عن ذلك من عدة وجوه – كما أوضحها العلماء العرفاء [2] .

أولاً : إن في استغفاره صلى الله عليه وسلم عبادة لله تعالى ، وتحققاً بالعبودية ، وافتقاراً لكرم الربوبية .

ثانياً : إن في ذلك تعليماً لأمته أن يكثروا من الاستغفار ، لشدة حاجتهم .

ثالثاً : إن في ذلك تواضعاً لرب العالمين ، وهضماً للنفس .

وثمة أجوبة أخرى نأتي عليها في موضعها إن شاء الله تعالى .

وكان صلى الله عليه وسلم يبين للصحابة صيغاً من الاستغفار جامعة ، ويرغّبهم فيها ، لعظيم فضلها : روى البخاري وغيره عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (سيّد الاستغفار[3] أن يقول العبد : اللهم أنتَ ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني ، وأنا عبدُك ، وأنا على عهدك ووعدك [4] ما استطعتُ ، أعوذ بك من شرّ ما صنعتُ ، أبوءُ[1] لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

---

[1] انظر (المواهب وشرحه) .

[2] انظر (شرح الزرقاني على المواهب) وغيره

[3] قال العلامة الطيبي : لما كان هذا الدعاء جامعاً لمعاني التوبة كلها ، استعير له اسم السيد ، وهو في الأصل الرئيس الذي يقصد في الحوائج ، ويرجع له في الأمور اهـ

[4] أي : أنا على عهدي الذي عاهدتك عليه منذ أخذت العهد على العباد وأخرجتهم أمثال الذر ، وأشهدتهم على أنفسهم ، وقلت لهم : (ألست بربكم ؟) فأقروا وقالوا : بلى . وأنا على وعدك في الإيمان بك وبرسلك والعمل بطاعتك .

من قالها في النهار موقناً بها ، فمات قبل أن يُمسي : فهو من أهل الجنة

ومن قالها في الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح : فهو من أهل الجنة)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من قال : أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم وأتوب إليه ، غُفرت ذنوبه ، وإن كان قد فرّ من الزحف)[2] .

وقالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكثر أن يقول قبل موته صلى الله عليه وسلم : (سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه) رواه الشيخان .

وكان صلى الله عليه وسلم يرغّب في الإكثار من الاستغفار ، لشدة حاجة العبد إليه في الآخرة :

فعن عبد الله بن بُسر رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

(طوبى لمن وُجد في صحيفته استغفار كثير)[3]
كما بيّن صلى الله عليه وسلم أن في الاستغفار جِلاء للقلوب من الصدأ :

كما روى البيهقي عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(إن للقلوب صدأ كصدأ النحاس ، وجِلاؤها الاستغفار) .

كما بيّن صلى الله عليه وسلم أن كثرة الاستغفار تفرّج الهموم ، وتخرج من المضايق ، وتسهّل الرزق : فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال

---

[1] أي : أقر وأعترف
[2] قال الإمام النووي في (الرياض) : رواه أبو داود والترمذي والحاكم وقال : حديث صحيح على شرطهما
[3] رواه ابن ماجه بإسناد صحيح والبيهقي ، كما في (الترغيب) .

رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من لزم الاستغفار : جعل الله له من كلّ هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيثُ لا يحتسب) رواه أبو داود والنسائي وغيرهما .

نسبه الشريف وأصله المنيف صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى : (الله أعلم حيثُ يجعل رسالته ..) الآية .

وقال تعالى : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ).

وقد ذكر الإمام البخاري في صحيحه عمود نسبِه الرفيع صلى الله عليه وسلم فقال : (هو محمد صلى الله عليه وسلم [1] بنُ عبد الله بن عبد المطّلب [1] بن

---

[1] فهو صلى الله عليه وسلم سيدنا محمد ، وهذا الاسم الكريم – كما قال في (الفتح) – منقول من صفة الحمد ، وفيه المبالغة – أي : الكثرة – والمحمد : الذي حُمد مرة بعد مرة ، والذي تكاملت فيه الخصال المحمودة اهـ
وذلك أن من كثرت فيه الصفات المحمودة ، وكملت له : كثر حمد الناس له ، وثناؤهم عليه ، وإن أعظم خلق الله تعالى كمالاً ، وأكرمهم خصالاً ، وأجملهم فعالاً ، وأعمهم نوالاً ، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .
وفي (الفتح) ، نقلاً عن البيهقي في (الدلائل) بإسناد مرسل أن عبد المطلب لما ولد النبي صلى الله عليه وسلم ، عمل له مأدبة ، فلما أكلوا سألوا : ما سميته ؟ قال : محمداً ، قالوا : فما رغبت به عن أسماء أهل بيته ؟ قال : أردت أن يحمده الله في السماء ، وخلقه في الأرض .
وقال بعض العلماء : بل سمته أمه قبل ذلك محمداً لما رأته ، وقيل لها في شأنه صلى الله عليه وسلم .
كما روى أبو نعيم وغيره من حديث ابن عباس أنه قال : كانت آمنة تحدث وتقول : أتاني آت حين مرّ بي من حملي ستة أشهر – في المنام ، وقال لي : يا آمنة قد حملت بخير العالمين ، فإذا ولدته فسميه محمداً صلى الله عليه وسلم .
ولا منافاة بين ذلك ، كما قال الحافظ الزرقاني ، فإن آمنة لما نقلت ما رأته لعبد المطلب ، سماه محمداً صلى الله عليه وسلم فوقعت التسمية منه بسببها ، وإذا كان بسببها صح

هاشم [2] بن عبد مَناف[3] بن قُصيّ [4] بن كِلاب [5] بن مُرّة [6] بن كعب [7] ابن لؤيّ[8] بن غالب [9] بن فِهر[10] بن مالك[1] بن النّضر[2]

أن يقال إنها سمته محمداً صلى الله عليه وسلم . انظر (شرح المواهب) ١ : ١١١ و ٣ : ١١٤ ، و(الفتح) ١ : ١٢٤

[1] واسمه : شيبة الحمد – سمي بذلك لحمد الناس له ، لأنه كان مفزع قريش في النوائب ، وملجأهم في الأمور ، وشريفهم كمالاً وفعالاً .

[2] واسمه عمرو – وإنما قيل له : هاشم لأنه أول من هشم الثريد بمكة لأهل الموسم ، ولقومه أولاً في سنة المجاعة

[3] واسمه : المغيرة – وهو منقول من الوصف ، والهاء للمبالغة ، سمي بذلك تفاؤلاً أنه يغير على الأعداء ، وكان مطاعاً في قريش ، ويدعى القمر لجماله الفائق .

[4] واسمه : مجمع – وذلك كما قال ثعلب في (أماليه) : أنه كان يجمع قومه يوم العروبة – الجمعة – فيذكرهم ، ويأمرهم بتعظيم الحرم ، ويخبرهم أنه سيبعث فيهم نبي اهـ من (شرح المواهب)

[5] هذا لقب منقول من المصدر الذي في معنى المكالبة ، يقال : كالبت العدو ، مكالبة ، وكلاباً ، بمعنى ضايقته وخانقته ، أما اسمه فهو : حكيم ، وقيل : عروة .

[6] بمعنى القوة ، والهاء للمبالغة

[7] منقول من كعب القناة كما قال ابن دريد وغيره – سمي بذلك لارتفاعه على قومه ، وشرفه فيهم ، فلذلك كانوا يخضعون له ، حتى أرخوا بموته – كما في (الفتح) وكان خطيباً فصيحاً ، وكان يأمر قومه بتعظيم الحرم ، ويجمعهم ويخبرهم أنه سيبعث فيهم نبي ، ويأمر من أدركه باتباعه ، كما كان قصي يفعل ذلك ، كما في (شرح المواهب) و (الفتح)

[8] قال الأصمعي : تصغير لواء ، زيدت فيه الهمزة

[9] اسم فاعل من الغلب

[10] منقول من الفهر ، وهو الحجر الصغير ملء الكف ، وقيل : الحجر الطويل ، وأما اسمه : فهو قريش ، وإليه تنسب بطون قريش ، فما فوقه كناني لا قرشي ، قال الحافظ الزرقاني : وهذا هو الذي صححه الدمياطي والعراقي وغيرهما ، والحجة لهم حديث مسلم والترمذي مرفوعاً : (إن الله تعالى اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ..) الحديث

قال : وذهب آخرون إلى أن أصل قريش : النضر ، وبه قال الشافعي ، وعزاه العراقي للأكثرين ، وقال النووي : هو الصحيح المشهور ،وأيضاً صححه الحافظ الصلاح العلائي وعزاه للمحققين ، واحتجوا بحديث الأشعث بن قيس قال : قدمت على رسول

ابن كِنَانة [3] بن خُزيمة [4] بن مُدرِكة [5] بن إلياس [6] بن مُضَر [7] ابن نزار [8] بن معَدّ [9] بن عدنان [10] .

قال الحافظ ابن كثير وغيره : وهذا النسب بهذه الصفة ، لا خلاف فيه بين العلماء ، وجميع عرب الحجاز ينتهون إلى هذا النسب ، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : (قل : لا أسألكم عليه أجراً إلا المودّة في

الله صلى الله عليه وسلم في وفد كندة ، فقلت : ألستم منا يا رسول الله ؟ قال : (لا ، نحن بنو النضر بن كنانة) رواه ابن ماجه وابن عبد البر وأبو نعيم في (الرياضة) اهـ

[1] اسم فاعل من ملك ، ويكنى أبا الحارث

[2] بفتح النون وإسكان الضاد المعجمة ، فراء ، واسمه قيس ، ولقب بالنضر لنضارة وجهه ، وإشراقه وجماله ، كما في (شرح المواهب)

[3] قال في (الفتح) : هو بلفظ وعاء السهام إذا كانت من جلود ، ونقل عن أبي عامر العدواني أنه قال : رأيت كنانة بن خزيمة شيخاً مسنّاً عظيم القدر ، تحج إليه العرب لعلمه وفضله بينهم اهـ

[4] تصغير خزمة ، وهي المرة الواحدة من الخزم ، وهو شدة الشيء وصلاحه ، كما في (الفتح) وغيره

[5] منقول من اسم فاعل من الإدراك ، والهاء للمبالغة – ولقب بذلك لإدراكه كل عز وفخر كان في آبائه ، وكان فيه نور المصطفى صلى الله عليه وسلم ظاهراً ، واسمه عمرو عند الجمهور ، وهو الصحيح .
وقال ابن إسحاق : عامر ، وضعف ، كما في (شرح المواهب)

[6] والمعروف أن هذا اسمه : وقيل : هذا لقبه ، واسمه : حبيب ، قال الزرقاني : وفي (المنتقى) : كان يسمع من ظهر إلياس أحياناً دوي تلبية النبي صلى الله عليه وسلم بالحج ، ولم تزل العرب تعظمه تعظيم أهل الحكمة ، كلقمان وأشباهه ، وكان يدعى : كبير قومه ، وسيد عشيرته ، ولا يقطع أمر دونه ، ولا يقضي بينهم دونه اهـ

[7] سمي بذلك لأنه كان يمضر القلوب – أي : يؤثر فيها – لحسنه وجماله .

[8] بكسر النون من النزر ، وهو النادر القليل ، سمي بذلك لأنه كان فريد عصره ، وأجملهم ، وأكبرهم عقلاً

[9] مفعل ، من العد

[10] فعلان ، من العدن – اي : الإقامة – قال الزرقاني : وفي (الخميس) : سمي بذلك – أي : عدنان – لأن أعين الجن والإنس كانت إليه ، وأرادوا قتله ، وقالوا : لئن تركنا هذا الغلام حتى يدرك مدرك الرجل ، ليخرجن من ظهره من يسود الناس ، فوكل الله به من يحفظه اهـ فهو من عدن الأمان والحفظ .

القربى ..) الآية ، قال : لم يكن بطنٌ من بطون قريش إلا ولرسول الله صلى الله عليه وسلم نسب يتصل بهم .

كما وأن جميع قبائل العرب العدنانية ، تنتهي إلى هذا النسب بالآباء ، وكثير منهم بالأمهات أيضاً ، ولذلك طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم جميعَ قبائل العرب أن يرعَوا تلك القرابة ، ويناصروه ، ويكفوا عنه الأذى .

كما أنه لا خلاف بين العلماء أن عدنان هو من سُلالة إسماعيل بن سيدنا إبراهيم ، على نبينا وعليهما الصلاة والسلام .

وإنما اختلف العلماء فيمن بين عدنان وإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، على أقوالٍ متعددةٍ ، وفيمن بين إبراهيم وآدم عليهما الصلاة والسلام ، وهذه الأقوال مفصّلة في (السيرة النبوية) للعلامة محمد بن يوسف الشامي ، وفي (فتح الباري) أيضاً .

قال الحافظ في (الفتح) : وأخرج ابن سعد من حديث ابن عباس ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا انتسب لم يجاوز في نسبه معَدّ بن عدنان .

ومن هنا يعلم العاقل أصالة هذا النسب وشرافته ، وعزّته وكرامته .

فضل نسبه الشريف صلى الله عليه وسلم

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بُعثتُ من خير قرون بني آدم ، قرناً فقرناً ، حتى بُعثتُ من القرن الذي كنتُ فيه) .

وزاد ابن سعد من مرسل أبي جعفر الباقر رضي الله عنهما :

(ثم اختار بني هاشم من قريش ، ثم اختار بني عبد المطلب من بني هاشم)

فهو صلى الله عليه وسلم خِيرةُ الله تعالى ، وصفوته من جميع القرون ، أي : الأجيال كلها .

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيلَ ، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من بني قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم) رواه مسلم والترمذي واللفظ له .

وفي (صحيح) البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما :

أن هرقل ملكَ الروم سأل أبا سفيان عن نسب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : كيف نسبُه فيكم ؟

فقال أبو سفيان : هو فينا ذو نسب – يعني أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو ذو نسبٍ شريفٍ ، عالٍ مُنيفٍ ، على كل الأنساب - .

فقال هرقل : كذلك الرسل تبعث في أنساب قومها .

وعن العباس رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغه بعض ما يقول الناس ، فصعِد المنبر فقال : (من أنا ؟) .

قالوا : أنت رسول الله .

فقال : (أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلني من خِيرة خلقه ، وجعلهم فِرقتين ، فجعلني من خيرِ فِرقةٍ ، وخلق القبائل فجعلني من خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً ، فجعلني من خيرهم بيتاً ، فأنا خيرُكم بيتاً ، وخيركم نفساً) رواه الإمام أحمد .

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(قال لي جبريل : قلّبتُ الأرض من مشارقها ومغاربها ، فلم أجد رجلاً أفضلَ من محمد صلى الله عليه وسلم .

وقلّبت الأرض من مشارقها ومغاربها فلم أجد بني أبٍ أفضلَ من بني هاشم)[1]

وإنما ذكر صلى الله عليه وسلم مكارم أصوله ، وشرَافتهم ، ونقاوة أنسابهم ، تحدُّثاً بنعمة الله تعالى ، وشكراً له ، وتعريفاً بمنازلهم ومراتبهم ، وبياناً لكفايتهم – وليس ذلك من باب الاستطالة والكبر .

قال العلامة الحليمي : أراد صلى الله عليه وسلم تعريف منازل المذكورين ومراتبهم .

قال : وقد يكون أراد به الإشارة بنعمة الله عليه في نفسه وآبائه ، على وجه الشكر ، وليس ذلك من الاستطالة والفخر – أي : المصحوب بالكبر – في شيء اهـ .

ولذا قال الحافظ ابن حجر : والنهي عن التفاخر بالآباء موضعه مفاخرة تُفضي – أي : تؤدي – إلى تكبرٍ واحتقارِ مسلم اهـ .

طهارة نسبه الشريف صلى الله عليه وسلم

روى عبد الرزاق بإسناده إلى الإمام جعفر الصادق ، عن محمد الباقر رضي الله عنهما ، في قوله تعالى : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) قال : لم يُصبه شيء من ولادة الجاهلية .

قال محمد – الباقر - : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إني خرجتُ من نكاحٍ ولم أخرج من سِفاحٍ) [2] .

وروى البيهقي بإسناده أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب فقال :

---

[1] رواه البيهقي والحاكم والطبراني وابن عساكر ، وقال الشامي ١ : ٢٧٦ من (سيرته) : قال الحافظ في (أماليه) : لوامح الصحة ظاهرة على صفحات هذا المتن اهـ

[2] قال الحافظ ابن كثير : وهذا مرسل جيد .

(أنا محمد بنُ عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، بن قصيّ ، بن كلاب ، بن مرَّة ، بن كعب ، بن لؤي ، بن غالب ، بن فهر ، بن مالك ، بن النضر ، بن كنانة ، بن خُزيمة ، بن مُدركة ، بن إلياس ، بن مُضر ، بن نزار . وما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرها فرقة ، فأخرجت من بين أبويّ ، فلم يُصبني شيء من عُهر الجاهلية – وخرجتُ من نكاحٍ ، ولم أخرج من سفاحٍ ، من لدن آدم حتى انتهيتُ إلى أبي وأمي ، فأنا خيرُكم نفساً وخيركم أباً)[1] .

وروى الطبراني وابن السّكن وغيرهما ،أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل المدينة مرجِعه من غزوة تبوك ، قال العباس بن عبد المطلب : يا رسول الله أتأذنُ لي أن أمتدحك ؟ فقال له صلى الله عليه وسلم : (قل ، لا يَفضضِ الله فاك)[2]

فقال العباس :

من قبلها طِبتَ في الظلال ، وفي مستودعٍ حيث يُخصَف الورق [3]

ثم هبطتَ البلاد [4] لا بشرُ أنت ولا مضغةٌ ولا علَق

بل نطفةٌ تركب السّفين [5] وقد ألجم نَسراً وأهلَه الغرق[6]

---

[1] قال الحافظ ابن كثير : تفرد به القدامى ، وهو ضعيف ، ولكن له شواهد – أي : تقويّه .

[2] هذا دعاء للعباس بصيانة فمه عن كل خلل وفساد ، حساً ومعنى .

[3] أي : من قبل الهبوط إلى الأرض طبت في ظلال الجنة ، حيث كنت في صلب آدم ، وفي مستودع ، أي : الموضع الذي كان آدم وحواء به في الجنة ، وهو حيث طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة

[4] أي : نزلت إلى الأرض لما هبط إليها آدم ، وأنت في صلبه .

[5] اسم جنس ، والمراد به سفينة نوح عليه السلام – أي : كنت مستقراً في صلب سام بن نوح لما ركب السفينة .

[6] أي : وقد ألجم الغرق بسبب الطوفان نسراً ، وهو أحد أصنام قوم نوح ، كما ألجم وأغرق أهل الصنم الذين عبدوه

تنقّلُ من صالب[1] إلى رحمٍ إذا مضى عالَم بدا طَبَق[2]

وردتَ نار الخليل مكتتما[3] في صلبه أنت كيف يحترق ؟!

حتى احتوى بيتك المهيمن من خندِف علياء تحتها النُطُق[4]

وأنت لما وُلدت أشرقتِ الأرض وضاءت بنورك الأفق

فنحن في ذلك الضياءِ وفي النور وسبل الرشاد نخترق[5]

حول مولده الشريف صلى الله عليه وسلم

كان مولده صلى الله عليه وسلم محفوفاً بالإكرام الإلهي ، ومعنياً بالعنايات الربانية ، وقد أظهر الله تعالى عند ولادته صلى الله عليه وسلم خوارقَ وغرائبَ ، إرهاصاً لنبوته ، وتمهيداً لرسالته ، وإعلاناً بعظيم مرتبته ، وأن له صلى الله عليه وسلم شأناً كبيراً .

فمن ذلك : انتشار النور : وامتداده عند ولادته صلى الله عليه وسلم .

---

[1] أي : من صلب

[2] أي : كلما مضى عالم أنت فيه بواسطة من كنت في صلبه ، ظهر طبق – أي : عالم – آخر تكون فيه بانتقالك من أصل لفرع ، فالطبق هو العالم ، والمراد به : القرن .

[3] أي : مخفياً .

[4] المراد بالبيت : الشرف ، والمهيمن : الشاهد المحفوظ من الشين – والمعنى : احتوى شرفك يا رسول الله الشاهد على فضلك ، أعلى مكان من نسب خندف – بكسر الخاء والدال – وهو في الأصل : المشي بهرولة ، ثم جعل علماً على امرأة إلياس بن مضر ، لما خرجت تهرول بين بنيها الثلاثة ، ثم ضرب مثلاً للنسب العالي ، والنطق : جمع نطاق ، وهي النواحي الواسعة ، والأوساط الشاسعة ، والمراد رفع شرفه صلى الله عليه وسلم فوق كل شرف ، كرفعة قمة الجبل فوق النواحي والأوساط اهـ ملخصاً من (شرح المواهب)

[5] انظر هذه الأبيات في (تاريخ) ابن كثير ، و(المواهب وشرحها) ، و (مجمع الزوائد) و (تاريخ الإسلام) للذهبي ، وغيرها .

روى الإمام أحمد عن العِرباض بن سارية رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إني عند الله لخاتمُ النبيين ، وإنّ آدمَ لمُنجدِلٌ [1] في طينته .

وسأخبركم عن ذلك : إني دعوةُ إبراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمي التي رأت ، وكذلك أمهات النبيين يَرينَ .

- وإن أم رسول الله صلى الله عليه وسلم رأت حين وضعته نوراً أضاءت له قصور الشام)[2]

فهو صلى الله عليه وسلم دعوة إبراهيم عليه السلام التي دعاها في قوله : (ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِك ..) الآية .

وهو بشارة عيسى عليه السلام في قوله تعالى : (ومبشّراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد ..) الآية .

وهذا النور الذي ظهر عند ولادته صلى الله عليه وسلم رأته رؤيةَ عين بصرية ، كما دلت على ذلك بقية الروايات .

وأخرج أبو نعيم عن أم سلمة رضي الله عنها ، عن آمنةَ والدةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : (لقد رأيتُ ليلةَ وضعه نوراً أضاءت له قصُور الشام حتى رأيتُها)

وروى محمد بن سعد من حديث جماعة ، منهم : عطاء وابن عباس ، أن آمنة بنت وهب قالت : (لما فصلَ – أي : وُلد – مني – تعني النبي صلى الله

---

[1] قال القسطلاني : يعني طريحاً ملقى في الأرض قبل نفخ الروح فيه .

[2] ورواه البزار والطبراني ، وقال الحافظ ابن حجر : وصححه ابن حبان والحاكم ، وفي حديث أبي أمامة عند أحمد نحوه ، قال : وأخرج ابن إسحاق عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان ، عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوه ، وقالت : أضاءت له بصرى من أرض الشام اهـ

عليه وسلم – خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب ، ثم وقع على الأرض جاثياً على ركبتيه صلى الله عليه وسلم ..) الحديث .

وعن عثمان بن أبي العاص ، عن أمّه أم عثمان الثقفية الصحابية – واسمها فاطمة بنت عبد الله [1] - أنها قالت : (لما حضرتُ ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيتُ البيت حين وقع – أي : نزل من بطن أمه – قد امتلأ نوراً ، ورأيت النجوم تدنو حتى ظننتُ أنها ستقع عليّ ، فلما وضعته آمنة خرج منها نور أضاء له البيت والدار ، حتى جعلتُ لا أرى إلا نوراً)[2]

ونقل في (السيرة الشامية) عن الشيخ أبي شامة رحمه الله تعالى أنه قال : وقد كان هذا النور الذي ظهر وقت ولادته صلى الله عليه وسلم قد اشتهر في قريش وكثر ذكره فيهم : وإلى ذلك أشار العباس رضي الله عنه في شعره حيث قال :

وأنتَ لما ولدتَ أشرقت الأرض وضاءت بنورك الأفُقُ

وظهور هذا النور عند ولادته صلى الله عليه وسلم إشارةٌ إلى ما يجيئ به من ذلك النور الذي يَهدي به العالَم ، ويُزيل به ظُلماتِ الكفر ، قال الله تعالى : (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ..) الآية .

وبذلك النور الذي جاء به من عند الله تعالى : نوّر البصائر ، وأحيا القلوب الميتة ، وفتح الأعين العمياء ، والآذان الصمّاء .

ومن العجائب التي ظهرت عند ولادته صلى الله عليه وسلم إرهاصاً لنبوّته :

---

[1] قال الزرقاني : ذكرها أبو عمر وغيره في الصحابة .

[2] قال الزرقاني : ورواه البيهقي والطبري وابن عبد البر ، وعزاه في (الفتح) إلى الطبراني ، وقال : شاهده حديث العرباض بن سارية – أي : المتقدم – اهـ ٦/ ٤٢٦

ما أخرجه البيهقي وأبو نعيم ، عن حسان بن ثابت – شاعر المصطفى صلى الله عليه وسلم قال : (إني لغلامٌ ابن سبع سنين أو ثمانٍ [1] أعقِل ما رأيت وسمعت ، إذا يهودي يصرخ ذات غداة : يا معشرَ قريش ! هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ قالوا : لا نعلم ، قال : انظروا ، فإنه ولد في هذه الليلة نبيٌّ هذه الأمّة ..) الحديث . رواه الحاكم ، ورواه يعقوب بن سُفيان بإسنادٍ حسن كما قاله صاحب (الفتح)

ومن عجائب ولادته صلى الله عليه وسلم الدالة على نبوّتِه :

اهتزاز إيوان كسرى وانصداعه وسقوط أربع عشرة من شُرفاته ، وبقاؤه على تلك الحالة إلى يومنا هذا ، كما قال الحافظ الزرقاني .

وانشق الإيوان لا لخللٍ في بنائه ، فقد كان بناؤه بالمدائن من العراق محكماً ، مبنياً بالآجر الكبار والجصّ ، سمكه مائة ذراع في طول مثلها ، وقد أراد الخليفة الرشيد هدمه لما بلغه أن تحته مالاً عظيماً فعجز عن هدمه ، وإنما أراد الله تعالى أن يكون ذلك آية باقية على وجه الدهر لنبيّه صلى الله عليه وسلم اهـ

وقد ذكر الحافظ ابن كثير في (البداية) فصلاً خاصاً فيما وقع من الآيات ، ليلة مولده صلى الله عليه وسلم ، وذكر فيها :

ظهور النور معه صلى الله عليه وسلم ، ونزوله على الأرض جاثياً ، رافعاً رأسه إلى السماء

وما شوهد من النور في المنزل الذي ولد فيه ، ودنوّ النجوم منهم ، وانصداع إيوان كسرى ، وسقوط الشرفات ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان .

---

[1] قال الزرقاني : فقد ذكروا أنه عاش مائة وعشرين سنة كأبيه وجده وأبي جده ، ومات سنة أربع وخمسين اهـ

قال : وغير ذلك من الدلالات – ثم أورد الأخبار الواردة في ذلك من طرق متعددة . كما أن الحافظ ابن حجر ذكر في (الفتح) جُملاً من علامات النبوة قبل المبعث ، ثم قال :

ومما ظهر من علامات نبوته صلى الله عليه وسلم عند مولده صلى الله عليه وسلم ، وذكر الأحاديث الواردة في ظهور النور .

ثم قال : وفي حديث مخزوم بن هانئ المخزومي عن أبيه – قال : وكان قد أتت عليه خمسون ومائة سنة – قال : لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم انكسر إيوان كسرى ، وسقطت منه أربع عشرة شرفة ، وخمدَت نار فارس ، ولم تخمُد قبل ذلك بألف عام ، وغاضت بحيرة ساوة ، ورأى الموبذان إبلاً صعاباً تقود خيلاً عِراباً قد قطعت دجلة ، وانتشرت في بلادها ، فلما أصبح كسرى أفزعه ما وقع – أي : من انصداع الإيوان وغيره – فسأل علماء أهل مملكته عن ذلك ؟ فأرسلوا إلى سطيح .. القصة .

وذكر ذلك أيضاً الحافظ القسطلاني ، وعزاه إلى البيهقي وأبي نعيم ، والخرائطي وابن عساكر وابن جرير – وإنما ذكرنا ذلك عن هؤلاء الحفاظ المحدثين ليكون حجة على أهل القلوب المريضة أو الزائغة ، وليزداد الموقنون يقيناً وقوة .

ومن الارهاصات والمقدّمات لنبوته صلى الله عليه وسلم التي وقعت قبل ولادته :

قصةُ أصحاب الفيل ، وكيف أرسل الله تعالى تلك الطير الأبابيل المتواصلة في إغاراتها ، الصائبة في رميها ، وإحكامها أهدافها ، حتى إنها لم تخطئ واحداً منهم ، وكيف دمّرهم الله تعالى وكبَتهُم – وما ذاك إلا ليحفظ هذا البيت الذي هو قِبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه ، ومصلّاهم ومحجُّهم ، وقياماً لهم إلى يوم القيامة .

قصةُ أصحاب الفيل ، وكيف أرسل الله تعالى تلك الطير الأبابيل المتواصلة في إغاراتها ، الصائبة في رميها ، وإحكامها أهدافها ، حتى إنها لم تخطئ واحداً منهم ، وكيف دمّرهم الله تعالى وكبَتهم – وما ذاك إلاّ ليحفظ هذا البيت الذي هو قِبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه ، ومصلّاهم ومحجّهُم ، وقياماً لهم إلى يوم القيامة .

ومن أجل ذلك ذكر الله تعالى تلك القصة في القرآن الكريم ، النازل على رسول الله صلى الله عليه وسلم مذكّراً له بتلك النعمة الكبرى ، مُمتنّاً عليه بذلك الفضل ، أنه سبحانه تولّى بنفسه الدفاعَ عن هذا البيت ، الذي سيكون مصلّى رسول الله ومحجّه ومعتمَره ، فقال سبحانه : (ألم ترَ كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟)

السورة .

تاريخ مولده صلى الله عليه وسلم : وكان مولده صلى الله عليه وسلم في عام الفيل بعد الواقعة بخمسين يوماً ثاني عشرَ شهر ربيع الأول ، عند جمهور العلماء ، عند طلوع الفجر من يوم الاثنين – كما جاء في صحيح مسلم عن أبي قتادة في حديث طويل وفيه : وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم يوم الاثنين ؟ فقال : (ذاك يوم ولدت فيه ، ويوم بُعثت فيه – أو أنزل عليّ فيه ..) الحديث .

وفي (مسند) أحمد عن ابن عباس قال : ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الاثنين ، واستنبئ يوم الاثنين ، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين ، ودخل المدينة يوم الاثنين ، ورفع صلى الله عليه وسلم الحجر – الأسود ووضعه في موضعه – يوم الاثنين اهـ ، وذلك حين بَنَت قريش الكعبة ، واختصموا فيمن يرفع الحجر الأسود ، كما تقدم .

الابتهاج والاحتفال بيوم مولده صلى الله عليه وسلم

إن حقاً على العاقل أن يفرح بيوم ميلاده صلى الله عليه وسلم ، وأن يُسرّ ويبتهج بذلك اليوم الذي تدفّق فيه النور والهدى والعلم إلى هذا العالم أجمع ، لأنه ولد فيه رسول الرحمة للعالمين ، ونبي الهدى والنور للخلق أجمعين ، وإمامُ الأنبياء والمرسلين ، فأعظِم بذلك اليوم وأكرِم ، وأسعِد به وأنعِم .

وإن الاجتماع على قراءة قصة مولده صلى الله عليه وسلم هو اجتماع على مجموعة رحَمات وبركات ، وخيرات ومبرّات ، وذلك لأن قصة المولد الشريف مشتملة على : تلاوة آيات من القرآن الكريم ، ثم ذكرِ إكرامِ الله تعالى وعنايته برسوله صلى الله عليه وسلم ، وكيف تولاه الله وحفظه ، كما أنها تشتمل على ذكر محاسن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الخلقية والخُلقية ، كما أنها تشتمل على الصلوات والتسليمات على النبي صلى الله عليه وسلم ، كما وأنها تشمل على القصائد والمدائح النبوية المحببة إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما وأنها تشتمل على الدعوات والابتهالات إلى الله تعالى ..

وإن كل واحدةٍ من هذه المشتمَلات ، هي مشروعة مطلوبة ، وقُربة محبوبة ، حثّ الشارع عليها ورغّب في أجرها وفضلها ، وعلى هذا جرى العلماء العاملون ، والأتقياء الصالحون .

كما قال الحافظ السخاوي : ولا زال أهل الإسلام في سائر الأقطار ، والمدن الكبار ، يحتفلون في شهر مولده صلى الله عليه وسلم بعمل الولائم البديعة المشتمِلة على الأمور البهجة الرفيعة ، ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات ، ويُظهرون السرور ، ويزيدون في المبرّات ، ويعتنون بقراءة مولده الكريم ، ويظهر عليهم من بركاته كلّ فضل عميم اهـ من (السيرة النبوية) للإمام محمد بن يوسف الشامي[1] . وقال أيضاً [2] : وقال الإمام الحافظ أبو الخير بن

[1] ١ : ٤٣٩ وقد توفي سنة ٩٤٢ هـ

[2] أي : الشامي صاحب السيرة

الجزري شيخ القراء رحمه الله تعالى : من خواصه [1] أنه أمان في ذلك العام ، وبُشرى عاجلة بنيل البغية والمرام .

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في (تاريخه) : كان الملك المظفّر أبو سعيد يعمل المولد الشريف في ربيع الأول ، ويحتفل به احتفالاً هائلاً ، وكان شهماً شجاعاً ، بطلاً عاقلاً عادلاً رحمه الله تعالى .

وقد صنف الشيخ أبو الخطاب بن دحية رحمه الله تعالى كتاباً له في المولد سمّاه : (التنوير في مولد البشير النذير صلى الله عليه وسلم) فأجازه بألف دينار [2]

وحكى سبط ابن الجوزي رحمه الله تعالى في (مرآة الزمان) عن بعض من حضر سماط المظفّر في بعض الموالد ، بعدما عدّد أصنافاً من اللحوم وأنواع الحلوى على شكل واسع جداً قال بعد ذلك : وكان يصرف على المولد ثلاثمائة ألف دينار اهـ .

ونقل الإمام محمد بن يوسف الشامي في (سيرته) عن الشيخ أبي عبد الله ابن أبي محمد النعمان يقول : سمعت الشيخ أبا موسى الزّر هوني يقول : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فذكرت له ما يقال في عمل الولائم في المولد .

فقال له صلى الله عليه وسلم : (من فرح بنا فرحنا به) اهـ .

وقال شيخ القراء الحافظ أبو الخير ابن الجزري رحمه الله تعالى :

قد رُئي أبو لهب بعد موته في النوم فقيل له : ما حالُك ؟

---

[1] أي : من خواص العناية بقراءة مولده الكريم صلى الله عليه وسلم ، والاحتفال والابتهاج بشهر مولده صلى الله عليه وسلم

[2] انظر (السيرة) للشامي ، وانظر (المواهب وشرحها)

فقال : في النار إلا أنه يخفّف عني كل ليلة اثنين ، وأمصُّ من بين أصبعيّ هاتين ، ماء بقدر هذا – وأشار لرأسي أصبعيه – وإن ذلك بإعتاقي لثُويبة ، عندما بشّرتني بولادة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبإرضاعها له .

فإذا كان أبو لهب الكافر الذي نزل القرآن بذمّه ، جُوزي في النار [1]

لفرحه ليلة مولد محمد صلى الله عليه وسلم به – أي : بالمولد – فما حالُ المسلم الموحّد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ببشره بمولده ، وبذل ما تصل إليه قدرته في محبته ؟ لعمري إنما يكون جزاؤه من الله الكريم ، أن يدخله بفضله جنة النعيم اهـ [2] .

وقصة أبي لهب وإعتاقه ثويبة وما يترتب على ذلك : رواها البخاري والإسماعيلي وعبد الرزاق .

ففي (صحيح) البخاري : قال عروة : وثُويبة مولاة أبي لهب ، وكان أبو لهب أعتقها ، فأرضعت النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلما مات أبو لهب أريه بعض أهله [3]

بشرّ حِيبةٍ [4] ، قال له : ماذا لقيت ؟ قال أبو لهب : ألم ألقَ بعدكم – وفي رواية الإسماعيلي : لم ألق بعدكم رخاءً – وعند عبد الرزاق عن معمر ، عن الزهري : لم القَ بعدكم راحةً – غير أني سُقيت في هذه – وأشار إلى النُقرة التي تحت إبهامه ، كما هو عند عبد الرزاق – وأشار إلى النقرة التي بين

---

[1] أي : جازاه الله تعالى فخفف عنه العذاب ، وهو في النار ، لفرحه بمولد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

[2] انظر (السيرة) للإمام محمد بن يوسف الشامي ١ : ٤٤٤ وانظر (شرح) الزرقاني ١ / ١٣٩

[3] وهو العباس رضي الله عنه ، كما دلت عليه بقية الروايات

[4] قال الزرقاني : حيبة : بحاء مهملة مكسورة ، وتحتية ساكنة ، وموحدة مفتوحة – أي : سوء الحال ، وأصلها : حوبة . قال : وذكر البغوي أنها بفتح الحاء ، وللمستملي بخاء معجمة مفتوحة ، أي : في حالة خائبة ، وقال ابن الجوزي : إنه تصحيف ، وروي بالجيم ، قال السيوطي : وهو تصحيف باتفاق اهـ

الإبهام والتي تليها من الأصابع في رواية الإسماعيلي – بِعتاقتي ثويبة [1] - أي : سقيت ذلك بسبب إعتاقي ثويبة - .

وقال الحافظ في (الفتح) : وذكر السهيلي أن العباس رضي الله عنه قال : لما مات أبو لهب رأيته في منامي بعد حولٍ ، في شرّ حالٍ ، فقال أبو لهب : ما لقيتُ بعدكم راحة ، إلا أن العذاب يخفف عني كل يوم اثنين . قال : - أي : العباس – وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد يوم اثنين ، وكانت ثويبة بشّرت أبا لهب بمولده صلى الله عليه وسلم فأعتقها اهـ .

عناية الله تعالى بالنبي صلى الله عليه وسلم منذ صغره

إن عناية الله تعالى قد حفّت رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع أطواره الخلقية ، وجميع تقلباته وأحواله منذ صغره .

فقد توفي والده عبد الله بعدما تمّ له من حمله الشريف شهران ، على أشهر الأقوال . وقيل : بعدما تمّ له سبعة أشهر من الحمل .

وقيل : توفي والده وهو في المهد .

فقيل : ابن شهرين ، وقيل : ابن سبعة أشهر ، وقيل : ابن تسعة أشهر ، والراجح المشهور هو القول الأول – يعني : أنه صلى الله عليه وسلم توفي والده وهو حمل .

والحجة له ما جاء في (المستدرك) عن قيس بن مَخرمة قال : (توفي أبو النبي صلى الله عليه وسلم وأمُّه حُبلى به) وقال الحاكم : على شرط مسلم وقد أقرّه الذهبي[2]

فكان صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة ، وهيّأ الله تعالى له جده عبد المطلب يكفله ويقوم بحاجته وشأنه ، مع الحفاوة والتكريم .

---

[1] انظر جميع ذلك في (صحيح البخاري) و (شرحه) لابن حجر

[2] نقل ذلك الحافظ ابن كثير ، والإمام العسقلاّني ، والحافظ الزرقاني ، وغيرهم

فنشأ صلى الله عليه وسلم في إيواء الله تعالى وكلاءته وحفظه ورعايته ، يُنبته الله تعالى نباتاً حسناً ، لما يريد به من كرامته ، ورفعة مكانته صلى الله عليه وسلم بالنبوة والرسالة .

ولما بلغ صلى الله عليه وسلم ستّ[1] سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب بالأبواء ، بين مكة والمدينة ، وقيل : بشعب أبي ذئب بالحجون – جبل بمعلاة مكة [2] -

روى ابن سعد عن ابن عباس ، وعن الزهري ، عن عاصم بن عمرو بن قتادة ، دخل حديث بعضهم في حديث بعضهم ، قالوا [3] : لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنين خرجت به أمه إلى أخواله بني عديّ بن النجار بالمدينة تزورهم ، ومعه أم أيمن ، فنزلت به دار التبايعة ، فأقامت به عندهم شهراً –

فكان صلى الله عليه وسلم يذكر أموراً كانت في مُقامه ذلك .

ونظر صلى الله عليه وسلم إلى الدار وهو بالمدينة بعد الهجرة ، فقال : (ها هنا نزلت بي أمي ، وأحسنتُ العَوم – اي : السباحة – في بئر بني عديّ بن النجار ، وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إليّ ، قالت أم أيمن : فسمعت أحدهم يقول : هو نبيّ هذه الأمة ، وهذه – المدينة – دار هجرته ، فوعيتُ ذلك كلّه من كلامهم) ثم رجعت به أمه إلى مكة ، فلما كانت بالأبواء توفيت اهـ .

وفي رواية أبي نعيم ، قال صلى الله عليه وسلم : (فنظر إليّ رجل من اليهود ، فقال : يا غلام ما اسمكَ ؟ قلت : أحمد .

---

[1] على أرجح الأقوال ، وقيل : أربع سنين ، وقيل أكثر
[2] انظر (شرح المواهب)
[3] قال الزرقاني : أرسله الثلاثة إلا أن مرسل ابن عباس في حكم الموصول ، لأنه مرسل صحابي اهـ

ونظر إلى ظهري فأسمعُه يقول : هذا نبيّ هذه الأمّة ، ثم راح إلى إخوانه من اليهود فأخبرهم ، فأخبروا أمي فخافت عليّ ، فخرجنا من المدينة ..)[1]

الحديث . فكانت أم أيمن – واسمها بركة الحبشية – هي حاضنةً للنبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاة أمه ، وهي التي أعتقها أبو المصطفى ، وقيل : بل هو صلى الله عليه وسلم أعتقها ، وقد أسلمت ، وهاجرت الهجرتين ، ومناقبها كثيرة رضي الله عنها .

قال ابن أم حنتمة : وكان صلى الله عليه وسلم يقول : (أمُّ أيمن : أمي بعد أمي) .

وقال الحافظ في (الإصابة) : قال ابن سعد : أخبرنا أبو أمامة ، عن جرير بن حازم ، قال سمعت عثمان بن القاسم يحدّث ، قال : لما هاجرت أم أيمن – إلى المدينة – أمست بالمنصَرَف دون الرّوحاء – اي : أقبل عليها المساء وهي في موضع بين الحرمين – فعطشت وليس معها ماء وهي صائمة ، فأجهدها العطش ، فدُلّي عليها من السماء دلو من ماء بِرِشاء أبيض ، فأخذته فشربته حتى رويت ، فكانت تقول : ما أصابني بعد ذلك عطش ، ولقد تعرّضتُ للصوم في الهواجر ، فما عطشت بعد تلك الشربة .

وفي رواية ابن السكن : خرجت أم أيمن مهاجرةً من مكة إلى المدينة ، وهي ماشية ليس معها زاد ، قالت : فلما غابت الشمس ، إذا إناء معلّق عند رأسي ، قالت : ولقد كنت بعد ذلك أصوم في اليوم الحارّ ، ثم أطوف في الشمس كي أعطش ، فما عطشت بعد اهـ

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده عبد المطلب – بعد وفاة أمه – فكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك ، حتى يخرج إليهم ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي حتى يجلس عليه ،

---

[1] انظر (البداية) ٢ : ٢٧٩ ، و(المواهب وشرحها)

فيأخذه أعمامه ليؤخّروه عنه ، فيقول لهم عبد المطلب : دعوا ابني ، فو الله إن له لشأناً ، ثم يُجلسه معه على فراشه ، ويمسح ظهره بيده ، ويسرُّه ما يراه يصنع صلى الله عليه وسلم [1] اهـ .

فلما حضرت عبدَ المطلب الوفاةُ أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياطته ، وتوفي عبد المطلب وقد بلغ صلى الله عليه وسلم ثمان سنين .

فكان أبو طالب يحوط رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكرمه ، وقد أسند الواقدي وغيره عن ابن عباس قال : كان أبو طالب يُحبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حباً شديداً لا يحبه ولده ، وكان لا ينام إلا إلى جنبه ، ويخرج فيخرج معه ، وصُبّ به أبو طالب صَبابة لم يصب مثلها بشيء قط .

قال : وكان أبو طالب يخصّه بالطعام ، وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شبعوا ، فكان – أبو طالب – إذا أراد أن يغذّيهم قال – أبو طالب - : كما أنتم – أي : لا تأكلوا – حتى يأتي ولدي محمد ، فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهم ، فكانوا يُفضِلون من طعامهم . وإذا كان لبناً شرب أولَهم ثم يشربون فيروون كلُّهم من قعب – إناءٍ – واحد ، فيقول أبو طالب : إنك – يا محمد – لمبارك .

وروى أبو نعيم وابن إسحاق وغيرهما ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان بنو أبي طالب يُصبحون رُمصاً شُعثاً ، ويصبح محمد صلى الله عليه وسلم صَقيلاً ، دهيناً ، كحيلاً ، وكان أبو طالب يحبه حباً شديداً اهـ [2]

وهكذا نشأ صلى الله عليه وسلم في بيت عزٍ وشرفٍ ، عزيزاً مكرماً ، معظّماً ، محفوفاً بعناية الله تعالى ، ومطيّباً بعنايته سبحانه .

---

[1] انظر (البداية) ٢ : ٢٨١

[2] انظر جميع ذلك في (البداية) ٢ : ٢٨٢ و (شرح المواهب) ١ : ١٨٩

وقد ذكر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم نعمته عليه ، وإيواءه ، وعنايته به منذ صغره في جملة صنوف الإفضال والإكرام ، الذي امتنّ الله تعالى به عليه .

فقال سبحانه : (وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ).

فإنه سبحانه ذكر في هذه السورة وجوهاً من عنايته برسوله صلى الله عليه وسلم وتولّيه إياه في جميع أموره ، وتعهّده إياه ، وحسن تربيته ، ومواصلة برّه صلى الله عليه وسلم وإكرامه ، أبدَ الآباد بلا انقطاع ولا نفاد .

فأقسم سبحانه بالضحى الذي يسطع فيه نور الشمس ، وينتشر فيه ضياؤها وبهاؤها ، وبالليل إذا سجى ، أي : إذا أظلم وامتدّ سواده ، وفي ذلك تنبيه لكل ذي بصر إلى الفرق الكبير بينهما ، أي : بين رونق الضحى وضيائه ، وبين ظلام الليل وسواده ، فهذا هو القسَم ، والمقسَمُ عليه : هو عناية الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم وإكرامه إيّاه ، وإفضاله عليه ، وذلك كله يتضمّن تصديقه سبحانه وتأييده ، وشهادته سيدنا محمداً هو رسول الله حقاً .

ووجه المناسبة بين القسَم والمقسَم عليه : هو تنبيه العقلاء إلى الفرق الكبير بين ما كان عليه الناس في الجاهلية الجهلاء ، والضلالة الظلماء ، وبين النور الساطع والضياء اللامع ، الذي جاء به الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وأنّ ذلك لا يخفى على كل ذي عقل ورويّة ، كما لا يخفى على ذوي الأبصار الحسّية الفرقُ بين الضحى وبين الليل إذا سجى .

وكما وأن رحمته سبحانه اقتضت أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً ، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم ، فكذلك اقتضت رحمته وحكمته أن لا يترك عباده في ظلمة الجهل وتِيه الغيّ والضلال ، بل يهديهم

بأنوار النبوة والرسالة المحمدية ، إلى ما فيه صلاح دنياهم وأخراهم ، وإلى ما فيه سعادتهم في الأولى والآخرة .

قال تعالى : (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ثم قال سبحانه : (ما ودّعك ربك وما قلى) فنفى سبحانه أن يكون ودّع نبيه وحبيبه ، أي : تركه ، ونفى أن يكون قلاه ، أي : أبغضه ، فإنه سبحانه كيف يتركه وقد عناه بعنايته الخاصة منذ بدء الأمر ، وكيف يَقليه – أي : كيف يُبغضه – وقد اتخذه حبيبه فهو صلى الله عليه وسلم غيرُ متروك ولا مَقليّ ، بل هو في عناية الله تعالى ، كما قال : (فإنك بأعيُننا) وهو صلى الله عليه وسلم حبيب الله الأكرم ، كما قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه الدارمي وأحمد والترمذي : (ألا وأنا حبيبُ الله ولا فخرَ) .

ثم قال سبحانه : (وللآخرةُ خيرٌ لك من الأولى) وفي هذا تعميم لجميع أحواله صلى الله عليه وسلم ، وأنه في الترقي الدائم ، وأن كل حالة يرقى لها ، هي خير له من الحال التي قبلها أبداً واستمراراً ، كما أن الدار الآخرة خير له صلى الله عليه وسلم مما قبلها

ثم قال سبحانه : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) وفي هذا وعد محتّم من الله تعالى ، بما تقرُّ به عينه صلى الله عليه وسلم ، وتفرح به نفسه ، أن يُعطيَه حتى يرضى ، وفي ذلك من الفضل الكبير ، والخير الكثير ما لا يعلمه إلا الله تعالى .

ويدخل في جملة ذلك العطاءِ الإلهي : كثرةُ أتباعه فوق أتباع كل نبي ، ودخول الناس في دينه أفواجاً ، ورفع ذكره ، وإعلاء كلمته ، والنصر على أعدائه بإلقاء الرعب في قلوبهم ، وإظهار دينه على الأديان ، وظهور سلطانه

وسطوع برهانه ، وإعطاؤه الحوض والكوثر والمقام المحمود ، وما في ذلك من الشفاعة العظمى والشفاعات الخاصة ،ومقام الوسيلة والفضيلة ، إلى ما

هنالك مما أعدّ الله تعالى له في الدار الآخرة من المقامات العالية ، والمرتبة الزلفى ، مما لا يحيط بعلمه إلا الله تعالى .

ثم ذكر سبحانه عنايته بحبيبه صلى الله عليه وسلم منذ صغر سنّه ، وتعهُّده إياه ، ورعايته له – تنبيهاً إلى أن الله تعالى الذي تولّاه بعنايته منذ صغره ، وأتحفه بنعمه سبحانه ، سوف يواصل إليه بِرّه وإكرامه ، ويُديم عليه فضله وإنعامه ، ويُحقّق له ما وعده به ، ويحيطه بعنايته ويكلأه برعايته أبد الأبد ، فقال سبحانه : (ألم يجدك يتيماً فآوى) ؟ وذلك أن أباه عبد الله توفي وهو صلى الله عليه وسلم حمل في بطن أمه ، وقيل بعد ولادته صلى الله عليه وسلم ، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ستُّ سنين ، ثم جعله سبحانه في كفالة جده عبد المطلب ، إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب ، ثم لم يزل صلى الله عليه وسلم يتربّى وينشأ في عناية من الله تعالى ، مُحاطاً محفوفاً محفوظاً موقّراً ، إلى أن أكرمه الله تعالى بالنبوة والرسالة صلى الله عليه وسلم .

(ووجدك ضالاً فهدى) إعلم أن الضلال قد يُراد منه ضلال المعصية ، وهو الضلال عن الحق والخير والصلاح ، وقد يطلق على غير ذلك من المعاني المختلفة ، حسب المناسبة التي جاء فيها ، كما سيتضح معنا قريباً إن شاء الله تعالى ، فأما الضلال عن الحق والصلاح فهو غير مراد في هذه الآية قطعاً ، لأن الله تعالى نفاه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى) فنفى سبحانه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الضلالة التي هي ضدُّ الهدى ، والغواية التي هي ضد الرشاد ، ونزّهه عن ذلك بعد التأكيد بالقسم ، وذلك يتضمن شهادة الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بالهدى والرشاد في علمه وعمله ، وقاله وحاله صلى الله عليه وسلم ، فهو صلى الله عليه وسلم ليس بضالّ ، بل هو على هدى وعلمٍ بالحق ، وليس بغاوٍ بل هو راشد في علمه وقصده ، لم يلتفت لشيء سوى الهدى والحق .

فإنّ الضالّ هو الجاهل الذي يمشي على غير علم ، فلا يهتدي السبيل ، والغاوي هو الذي علم الحق فكتمه وقصد غيره .

فالهدى والرشاد هما أصل الكمال في الإنسان .

ولقد امتنّ الله تعالى على خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأنه أتاه رُشده من قبل النبوة ، قال تعالى : (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين) فإذا كان الخليل كذلك ، فالحبيب الأكرم أولى وأجدر بذلك ، فإن الله تعالى آتاه رشده من قبل النبوة ، ولذا نبه الله تعالى قومه الذين عاندوه فقال لهم : (ما ضلّ صاحبكم) أي : محمد صلى الله عليه وسلم الذي تربى بينكم ، ونشأ فيكم ، فأنتم أعرف به من غيركم ، لم تعثروا له على ضلالة ولا غواية بل أموره كلها سَداد ورَشاد .

فليس الضلال الوارد في قوله تعالى : (ووجدك ضالاً فهدى) ليس هو الضلال عن الحق ، والميل إلى الفساد والشر ، فإنه منفي عنه صلى الله عليه وسلم نصّاً في قوله تعالى : (ما ضلّ صاحبكم وما غوى) – ولذا قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم تكن له ضلالة معصية .

إذاً : فقد يقول القائل : فما المراد بقوله تعالى : (ووجدك ضالاً فهدى) ؟

قلنا في الجواب : قد ذكر علماء السلف وجوهاً من المعاني لقوله تعالى :

(ووجدك ضالاً فهدى) .

الوجه الأول : إن معنى قوله تعالى : (ووجدك ضالاً فهدى) أي : وجدك غير عالم بالنبوة وعلومها ، والكتاب المبين وما حواه ، فهداك لذلك ، وعلّمك جميع ما هنالك ، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى : (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)

فليست هذه الغفلة غفلةً مطلقة ، ولا غفلةَ ضلالة أو غواية ، وإنما هي عدم دراية بتفاصيل الكتاب وعلومه ، قال تعالى : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ) الآية – أي : ما كنت تدري بتفاصيل الإيمان العملي وواجباته ، حتى علمناك يا رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، قال تعالى : (وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) .

الوجه الثاني : ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما [1] من أنه صلى الله عليه وسلم لما كان صغيراً عند جده عبد المطلب ، ضلّ في شِعاب مكة ، فرآه أبو جهل منصرفاً من أغنامه ، فردّه إلى جدّه عبد المطلب ، وهو متعلق بأستار الكعبة يتضرع إلى الله تعالى أن يردّ إليه محمداً صلى الله عليه وسلم [2] .

ولذا قال بعضهم : إن إرجاعه صلى الله عليه وسلم إلى جدّه على يد أبي جهل ، فرعون هذه الأمة ، يُشبه إرجاع موسى إلى أمه على يد فرعون .

وقيل : ضلّ مرة أخرى في شِعاب مكة ، فطلبوه فلم يجدوه ، فطاف عبد المطلب سبعاً ، وتضرّع إلى الله تعالى ، فسمعوا منادياً : يا معشر الناس لا تضِجّوا ، فإن لمحمدٍ ربّاً لا يخذله ولا يضيعه ، وإن محمداً بوادي تهامة ، عند شجرة السّمُر ، فسار عبد المطلب إليه فوجده قائماً تحت الشجرة .

فيكون هذا من باب قولهم : ضلّ فلان في طريقه ، إذا سلك غير طريقه المقصودة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في بيان حقوق الطريق : (وأن تغيثوا الملهوف ،وأن تهدوا الضالّ ..) الحديث .

وهذا القول حول الآية يتناسب مع سياق الآية التي قبلها ، وهي قوله تعالى : (ألم يجدك يتيماً فآوى) حيث إنه سبحانه يعدّد نعمَه على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعنايته به منذ حداثة سنه إلى ما وراء ذلك .

---

[1] رواه عنه البيهقي وابن عساكر وابن إسحاق ، كما في (شرح) الزرقاني وغيره

[2] انظر هذا القول في (تفسير) الرازي ، و (تفسير) ابن كثير ، و(المواهب) للقسطلاني ، وغيرها

الوجه الثالث : أن قوله تعالى : (ووجدك ضالاً فهدى) يشير إلى الحالة التي مرت عليه صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ، وهي همُّه بالسّمر ، كما يسمُر الشباب ، فحفظه الله تعالى من ذلك وألقى عليه النوم [1] .

فعن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كلٌّ ذلك يحول الله بيني وبين ذلك ، ثم ما هممتُ بعدها بشيء حتى أكرمني الله برسالته) .

قال الحافظ الهيثمي : رواه البزار ، ورجاله ثقات . اهـ وسيأتي هذا الحديث قريباً مفصلاً . في بحث : حفظه صلى الله عليه وسلم قبل النبوة من الباطل .

الوجه الرابع : أن معنى قوله تعالى : (ووجدك ضالاً فهدى) أي : وجدك هائماً في محبته تعالى ، فهداك إلى نبوّته ورسالته ، فهو ضلال الهيام والاستغراق في المحبة الإلهية .

وقد أخبر الله تعالى عن أولاد يعقوب على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، حين قالوا لأبيهم : (قالوا : تالله إنك لفي ضلالك القديم) فإنهم أرادوا بضلاله : هُيامه في يوسف ، وشغفه به ، ولم يريدوا بذلك ضلال الإثم والمعصية قطعاً ، لأن السياق ينفي ذلك ، ولأنهم لو أرادوا بذلك ضلال المعصية أو الإثم لكفروا ، لأنه طعن في يعقوب – الذي هو نبيٌّ الله ورسوله – بالفسق والمعصية وذلك يوجب الكفر .

وهناك أجوبة أخرى عن معنى آية : (ووجدك ضالاً فهدى) مذكورة في التفاسير ، و(شرح المواهب) و (شرح الشفا) .

---

[1] وهذا القول عزاه القسطلاني إلى أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه ، وذكره القاضي عياض في (الشفا) وانظره في (شرح) القاري والخفاجي .

وأما قوله تعالى : (ووجدك عائلاً فأغنى) فالمعنى : وجدك ذا عَيلة – أي : إقلال – أو ذا عِيال ، فأغناك ربك عمن سواه ، وفتح عليك أبواب الرزق والخير الكثير .

قال الإمام القسطلاني في (المواهب) : قال الحليمي في (شُعب الإيمان) : من تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يوصَف بما هو عند الناس من أوصاف الضّعَة – أي : النقص – فلا يقال : كان فقيراً اهـ .

لأنه يوهم النقص ، وأنه فقير قهراً لا اختياراً .

قال القسطلاني : وقد ذكر القاضي عياض في (الشفا) ، ونقله عنه الشيخ تقي الدين السبكي في كتاب : (السيف المسلول) ، أن فقهاء الأندلس أفتوا بقتل حاتم المتفقّه الطليطلي وصَلبه ، لاستخفافه بحقّ النبي صلى الله عليه وسلم وتسميته إياه أثناء مناظرته باليتيم ، وزعمه أن زهده صلى الله عليه وسلم لم يكن قصداً ، ولو قدر على الطيبات أكلها اهـ ، قال الشارح الزرقاني : وكلُّ واحدة من – هذه – الثلاث كافية في القتل بلا استتابة عند مالك رحمه الله تعالى اهـ .

ونقل القسطلاني ، عن الشيخ تقي الدين السبكي ، أنه كان يقول : لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فقيراً من المال قطّ ولا حاله حال فقير ، بل كان صلى الله عليه وسلم أغنى الناس ، فقد كفى أمر دنياه في نفسه وعياله .

وكان الشيخ السبكي رحمه الله يقول في الحديث الذي رواه ابن ماجه والترمذي وغيرهما : (اللهم أحيني مسكيناً ، وتوفني مسكيناً ، واحشُرني في زمرة المساكين) : المراد به استكانة القلب .

قال الزرقاني : أي : تواضع القلب وانكساره إلى الله تعالى ، لا المسكنة التي هي أن لا يجد ما يقع موقعاً من كفايته .

وكان يشدّد النكير على من يعتقد خلاف ذلك . اهـ .

قال الزرقاني : وهو حسن نفيس . وحاصله أن المنفي سؤال مسكنة ترجع إلى القلة وعدم الكفاية اهـ .

وقد سبق إلى ذلك الإمام البيهقي حيث قال : إنه صلى الله عليه وسلم لم يسأل مسكنة ترجع إلى القلة ، بل إلى الإخبات والتواضع .

قال العلامة الزرقاني : ونحوه قول الغزالي رضي الله عنه : استعاذته صلى الله عليه وسلم من الفقر ، لا تنافي المسكنة ، لأن الفقر بين معنيين :

الأول : الافتقار إلى الله تعالى ، والاعتراف بالذلّ والمسكنة له .

والثاني : فقر الاضطرار ، وهو فَقد المال المضطّر إليه ، كجائعٍ فقد الخبز ، فهذا الذي استعاذ منه صلى الله عليه وسلم ، والأول – أي : الافتقار إلى الله تعالى – هو الذي سأله صلى الله عليه وسلم [1] اهـ .

قال عبد الله : وكيف يكون صلى الله عليه وسلم فقيراً فقرَ اضطرارٍ وفقدَ مالٍ ، والحال قد عرض الله تعالى عليه أن يجعل له بطحاء مكة ذهباً فأبى ذلك ؟! وقد خيّره بين أن يكون نبياً ملِكاً ، أو نبياً عبداً ، فقال : (بل نبياً عبداً) .

فعن أبي أمامة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (عرَض عليّ ربي ليجعل لي بطحاءَ مكة ذهباً .

قلت : لا يا ربّ ، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً ، فإذا جِعتُ تضرّعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعتُ شكرتك وحمدتك) .

رواه الترمذي وقال حديث حسن ، ورواه الإمام أحمد .

وتقدم في بحث تواضعه صلى الله عليه وسلم حديث الطبراني بإسناد حسن ، عن ابن عباس وفيه : (فأتاه إسرافيل فقال : إن الله قد سمع ما ذكرتَ فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض ، وأمرني أن أعرِض عليك أسيّرُ معك جبال تِهامة زمرّداً وياقوتاً ، وذهباً وفضةً ، فإن رضيتَ فعلتُ – فإن شئتَ نبياً ملكاً

---

[1] انظر جميع تلك النقول في (المواهب وشرحها) للزرقاني .

، وإن شئت نبياً عبداً ، فأومأ إليه جبريل : أن تواضع ، فقال صلى الله عليه وسلم : (بل نبياً عبداً) قالها ثلاثاً) .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أتيتُ بمقاليد الدنيا على فرسٍ أبلق ، جاءني به جبريل) رواه أحمد برجال الصحيح ، وصححه ابن حبان ، فقد ترفع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه عن حُطام الدنيا وأموالها

وذهبها وفضتها ، ولم يكن يركن إلى نعيمها ، ولا إلى ترف عيشها ، مع تيسُّر ذلك له ، بل كانت همّته أشرفَ من ذلك وأسمى ، وأمجدَ وأعلى .

قال عبد الله بن مسعود : نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير ، فقام وقد أثّر في جنبه فقلنا : يا رسول الله لو اتخذنا لك وِطاء – أي : فراشاً وطيئاً ليّناً - .

فقال صلى الله عليه وسلم : (ما لي وللدنيا ؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلّ تحت شجرةٍ ، ثم راح وتركها) .

رواه ابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (دخلت عليّ امرأة من الأنصار ، فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم قطيفة مثنية ، فبعثت إليّ بفراش حشوه صوف ، فدخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (ما هذا يا عائشة) .

قالت : يا رسول الله فلانة الأنصارية ، دخلت فرأت فراشك ، فذهبت فبعثت إليّ بهذا . فقال صلى الله عليه وسلم : (ردّيه يا عائشة ، فوالله لو شئتُ لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة)) رواه البيهقي .

ورواه أبو الشيخ بلفظ : (أن امرأة قالت : دخلتُ على عائشة رضي الله عنها فمسِستُ فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو خشن ، فقلت : يا أم المؤمنين إن عندي فراشاً أحسن من هذا وألين ..) الحديث .

فليس فقره صلى الله عليه وسلم فقر اضطرار ، وإنما هو افتقار واختيار [1] .

وليس غناه غنى جمع ومنع واستئثار ، بل غناه صلى الله عليه وسلم فياض بالعطاء والجود والإيثار ... فكان يأتيه السائلون ، ويقصده المحتاجون ، فيعطيهم ما يعطيهم ، ثم يأتيه السائلون ، فيعطيهم ما يعطيهم ، ثم يسألونه فيعطيهم ، حتى لا يبقى عنده شيء من المال ، بل ولا من الطعام قوت إنسان ، فيطوي هو صلى الله عليه وسلم وأهله وهم جياع ! .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول لهم : (ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم ..) الحديث – كما تقدم في كرمه صلى الله عليه وسلم .

ثم إن الله تعالى علّم نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقابل تلك النعم السابق ذكرها في الآيات ، بما يليق بها من الحقوق والاعترافات والشكر لله تعالى ، فقال الله تعالى : (فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدّث) .

وفي هذه الآيات مع التي قبلها لف ونشر .

فأما اليتيم فلا تذلّه ولا تحقره ، بل أكرمه وبِرّه .

وأما السائل – اي : سائل بغيته وحاجته ، علماً كان أو مالاً ، فلا تزجره ، ولكن أكرمه بما سأله ، أو رُدّه بقول حسن جميل .

(وأما بنعمة ربك فحدّث) لأن في التحدث بها شكراً لله تعالى الذي أنعم بها

[1] يعني أن ذلك افتقار إلى الله تعالى واستكانة له ، واختبار لعظيم الأجر ، ورفعة المقام عند الله تعالى .

ومن ثَم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر نعم الله تعالى عليه ، ويتحدث بما أعطاه من المقامات ، وما خصه به من الخصوصيات ، شكراً غير فخر .

فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر) .

أي : يقول ذلك من باب الشكر لا من باب الكبر .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (ألا وأنا حبيب الله ولا فخر ، آدم فمن دونه تحت لوائي ولا فخر)

وقوله صلى الله عليه وسلم : (إذا كان يوم القيامة كنت أنا إمامَ النبيين ، وخطيبَهم ، وصاحب شفاعتهم غير فخر) .

إلى ما هنالك مما حدث به صلى الله عليه وسلم .

فهذه السورة تدل على وجوهٍ من العنايات الإلهية برسوله صلى الله عليه وسلم ، وأنه سبحانه قد تولى رسوله صلى الله عليه وسلم وتعهّده في جميع أطواره ، وسائر أحواله .

حفظ الله تعالى لرسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من مساوئ الجاهلية منذ حداثة سنه

لقد حفظ الله تعالى رسوله الكريم في منشئه ومرباه ، فشبّ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على أشرف الأحوال ، وأكرم الخصال ، يكلؤه الله تعالى ويحوطه من أدناس الجاهلية ومعايبها ، ومن غلظتها وخشوناتها ، ويُعدُّه الله تعالى ويُمدُّه ، لما يريده سبحانه من إكرامه بالرسالة ، حتى إنه صلى الله عليه وسلم بلغ أن كان رجلاً ذا شأن عظيم ، ومقام كريم ، أفضلَ قومه مروءةً ، وأحسنهم خُلقاً ، وأكرمهم حسباً ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمهم حلماً ، واصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق الدنيئة ، تنزهاً وتكرماً ، حتى سمّاه قومه : الصادق الأمين – وكانوا يقرُّون له بذلك ، ويعترفون له في مواقفهم الخاصة والعامة ، روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما

قال : لما نزلت : (وأنذر عشيرتك الأقربين) صعِد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا ، فجعل ينادي : يا بني فِهر ، يا بني عدي ، لبطون قريش ، حتى اجتمعوا – كلهم – فقال صلى الله عليه وسلم :

(أرأيتَكم لو أخبرتُكم أن خيلاً بالوادي تُريد أن تُغير عليكم ، أكنتم مصدقيّ ؟) قالوا : نعم ، ما جرّبنا عليك إلا صدقاً .. الحديث .

فلقد أعلنوها أنهم ما جربوا عليه صلى الله عليه وسلم إلا الصدق منذ صغره !

ومن ذلك ما رواه ابن إسحاق ، أن النضر بن الحارث قال : يا معشر قريش ! إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعدُ ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدَثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صُدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به .

قلتم : ساحر !! لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونَفثهم ، وعَقدهم .

وقلتم : كاهن !! لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسمعنا سجعهم .

وقلتم : شاعر !! لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشّعر وسمعنا أصنافه كلها ، وهزجَه ورَجَزَه .

وقلتم : مجنون !! لا والله ما هو مجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ولا تخليطه .

يا معشر قريش فانظروا في شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

قال ابن إسحاق : وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، وممن كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] .

---

[1] انظر (سيرة) ابن هشام ١ : ٣٢

ومن ذلك ما رواه ابن إسحاق وغيره ، عن المِسور بن مَخرمة أنه قال : قلت لأبي جهل – وكان خالي - : يا خال هل كنتم تتهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول مقالته ؟ - أي : قبل أن يقول : إني نبي الله تعالى - .

فقال أبو جهل : والله يا ابن أختي ، لقد كان محمد وهو شاب يُدعى فينا : الأمين ، فلما وخَطه الشيب – أي : بلغ الأربعين وقارب المشيب – لم يكن يكذب .

قلت : يا خال ! فلمَ لا تتبعونه ؟

فقال : يا ابن أختي ! تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف ، فأطعموا وأطعمنا ، وسقَوا وسقينا ، وأجاروا وأجرنا ، فلما تجاثينا على الرُّكَب وكنا – في المكارم والمفاخر – كفرسَي رِهان – أي : متساويين – قالوا – أي : بنو هاشم - : منا نبي ! فمتى نأتيهم بهذه ؟ !

أي : من أين نأتي بنبي ، حتى نكون مثل بني هاشم في الفضائل .

ولما جدّدت قريش بناء الكعبة ، وتنازعوا في رفع الحجر الأسود ، فتركوا الحكم لأول داخل من باب بني شيبة ، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل عليهم ، فقالوا كلهم : هذا الأمين وكلّنا نقبله .

وتقدم الحديث في ذلك البحث حول أرجحية عقله الشريف صلى الله عليه وسلم .

فكان صلى الله عليه وسلم متصفاً منذ حداثة سِنه بالصدق والأمانة ، والعفة والحصانة ، بعيداً كل البعد عن الكذب والخيانة ، والمساوئ والأدناس .

وكان يُبعد عن الأصنام والأوثان ، وعن تعظيمها ، وعن الحلف بها ، مجانباً لما عليه المشركون .

روى الإمام أحمد عن عروة بن الزبير قال : حدثني جار لخديجة بنت خويلد قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لخديجة : (أي خديجة ! والله لا أعبد اللاتَ أبداً ، والله لا أعبد العُزّى أبداً)[1] .

وروى البزار وغيره أنه صلى الله عليه وسلم قال : (لستُ من دَدٍ ولا الدّدُ مني) .

وفي رواية : (ولست من الباطل ولا الباطل مني)[2] .

وعن زيد بن حارثة قال : طِفتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاتَ يوم ، فمسِستُ بعض الأصنام ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تمسّها ..) الحديث [3] .

وعن علي بن أبي طالب كرّم الله تعالى وجهه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كلتاهما عصمني الله عز وجلّ منهما .

قلت لفتىً كان معي من قريش ، بأعلى مكة في غنم يرعاها : أبصر لي غنمي ، حتى أسمُر هذه الليلة بمكة ، كما يسمر الفتيان . قال : نعم .

فخرجت ، فلما جئتُ أدنى دار من دور مكة ، سمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير . قلت : ما هذا ؟ قالوا : فُلان يتزوج فلانة .

فجلست أنظر ، وضرب الله على أذني – أي : فنمت – فوالله ما أيقظني إلا مسّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فقال : ما فعلت ؟

فقلت : ما فعلت شيئاً ، ثم أخبرته بالذي رأيت .

---

[1] قال الحافظ الهيثمي : رجاله رجال الصحيح .
[2] وتقدم الكلام على هذا الحديث
[3] قال الحافظ الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ، وأورده الحافظ ابن كثير في (البداية) معزواً للبيهقي

ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لي غنمي ، حتى أسمُر ، ففعل ، فلما جئت مكة ، سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة ، فسألت ؟ فقيل : تزوج فلان فلانة ، فجلست أنظر ، وضرب الله على أذنيّ – أي : فنمت - فما أيقظني إلا مسُّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فقال : ما فعلت ؟ فقلت : لا شيء ، ثم أخبرته عن الخير ، فوالله ما هممتُ ولا عُدتُ بعدهما لشيء من ذلك ، حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته) ، وفي رواية : (برسالته) [1] .

سفره صلى الله عليه وسلم إلى الشام

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرة سنة ، خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام ، حتى بلغ بُصرى - مدينة في حَوران – فرآه بَحيرا الراهب ، وكان عالماً بالنصرانية ، فعرف النبيّ صلى الله عليه وسلم بصفاته التي وافقت ما أخبرت به الكتب السماوية السابقة ، فقال بحيرا : هذا سيد المرسلين ، هذا سيد العالمين .

وقد ذكرنا الحديث الوارد في هذه السفرة ، في بحث خاتم النبوة المتقدم من رواية الترمذي .

وعند ابن إسحاق : أن بحيرا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : يا غلام أسألك بحقّ اللات والعُزّى إلا ما أخبرتني – أي : إلا أخبرتني – عما أسألك عنه .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا تسألني بهما شيئاً ، فو الله ما أبغضتُ شيئاً قط بغضهما)

فقال له بحيرا : فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه .

فقال له صلى الله عليه وسلم : (سلني عما بدا لك) .

---

[1] انظر ص ٥١٥ من (موارد الظمآن) ، تحت عنوان : باب في عصمته صلى الله عليه وسلم . وانظره في (البداية) لابن كثير ٢ : ٣٨٧ معزواً للبيهقي ، وانظره في (تاريخ) الذهبي ١ : ٥٠ وأورده في (مجمع الزوائد) تحت عنوان : باب في عصمته صلى الله عليه وسلم من الباطل وقال : رواه البزار ورجاله ثقات اهـ

فجعل يسأله عن أشياء من حاله ونومه وهيئته وأموره ، ويخبره صلى الله عليه وسلم ، فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته .

قال في (الشفا) : وإنما سأله بحق اللات والعزى اختباراً اهـ .

أي لتتبين له صفاته صلى الله عليه وسلم المذكورة في الكتب السماوية السابقة ، ومن جملتها بغضه للأوثان والأصنام .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم خرج أيضاً إلى الشام مرةً ثانية ، في تجارةٍ للسيدة خديجة ، وله خمس وعشرون سنة .

وذلك – كما قال الواقدي وابن السكن وغيرهما – أن السيدة خديجة كانت تاجرةً ذاتَ شرفٍ ومالٍ كثير ، وتجارةٍ تبعث بها إلى الشام ، فيكون عِيرها – في الكمية والعدد – كعامةِ عير قريش .

وكانت تستأجر الرجال وتدفع إليهم مضاربةً ، وكانت قريش قوماً تجاراً – ومن لم يكن تاجراً فليس عنده شيء .

فقال أبو طالب للنبي صلى الله عليه وسلم : يا ابن أخي ! هذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتّجرون في مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتَها لفضّلتك على غيرك ، لما بلغها عنك من طهارتك ، وإن كنتُ أكره أن تأتي الشام ، وأخاف عليك من يهودها ، ولكن لا نجد من ذلك بدّاً .

فقال صلى الله عليه وسلم : (لعلها تُرسل إليّ في ذلك) – وهذا مظهر من مظاهر عزة نفسه صلى الله عليه وسلم وعلوّ همته وكرامته الأبية .

فقال أبو طالب : إني أخاف أن تولّي غيرك ! .

فبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له ، وكان بلغها قبل ذاك صدق حديثه صلى الله عليه وسلم ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، فقالت : ما علمتُ أنه يريد هذا .

وأرسلت إليه وقالت : دعاني إلى البعثة إليكَ ، ما بلغني من صدق حديثك ، وعظم أمانتك ، وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضِعف ما أعطي رجالاً من قومك فذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذاك لعمه فقال : إن هذا لرزق ساقه الله إليك .

فخرج صلى الله عليه وسلم ومعه ميسرة غلام – أي : مملوك – خديجة ، وسار حتى بلغ بُصرى ، فنزل تحت ظل شجرة في سوق بصرى ، قريباً من صومعة نسطورا الراهب ، فاطلع الراهب إلى ميسرة ، وكان يعرفه .

فقال نسطورا : يا ميسرة من هذا الذي تحت هذه الشجرة ؟

فقال : رجل من قريش من أهل الحرم .

فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبيّ – وفي رواية : بعد عيسى – ثم قال لميسرة : أفي عينيه حمرة ؟

فقال ميسرة : نعم .

فقال : هو هو ، وهو آخر الأنبياء ، ويا ليت أني أدركه حين يؤمر بالخروج – فوعَى ذلك ميسرة .

ثم حضر صلى الله عليه وسلم سوق بُصرى ، فباع سلعته التي خرج بها واشترى ، وكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعته .

فقال الرجل : احلف باللات والعزى .

فقال صلى الله عليه وسلم : (ما حلفتُ بهما قطّ) .

فقال الرجل : القول قولك .

ثم قال لميسرة – وخَلا به - : هذا نبي – إنه لهو الذي تجده أحبارنا منعوتاً في كتبهم – فوعى ذلك ميسرة .

وانصرف أهل العير جميعاً .

وكان ميسرة يرى في الهاجرة – الظهيرة – مَلَكين يُظلّانه في الشمس .

ولما رجعوا إلى مكة في ساعة الظهيرة وخديجة في علّية – غرفة عالية – لها ، رأت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على البعير ، وملكان يظلّان عليه ، فأرته نساءها ، فعجبن لذلك . ودخل عليها صلى الله عليه وسلم فأخبرها بما ربحوا ، فسُرّت .

فلما دخل عليها ميسرة ، أخبرته بما رأت .

فقال ميسرة : قد رأيت هذا منذ خروجنا من الشام ، وأخبرها بقول نسطورا ، وقول الرجل الذي خالفه في البيع .

وقدم صلى الله عليه وسلم بتجارتها فربحت ضِعف ما كانت تربح ، وأضعفت له ما كانت سمّته له [1] .

زواجه صلى الله عليه وسلم بخديجة بنت خويلد بن أسد رضي الله عنها

كانت السيدة خديجة رضي الله عنها تُدعى في الجاهلية والإسلام (الطاهرة) لشدة عفافها وصيانتها ، وكانت برّة نقيّة ذاتَ عقلٍ واسعٍ ، وذكاء لامع ، وجمالٍ وكمالٍ ، وحسَب ومال ، وقد عرَضت السيدة خديجة رضي الله عنها نفسها على رسول الله صلى الله عليه وسلم وله من العمر خمس وعشرون سنة عند أكثر العلماء ، ولها من العمر أربعون سنةً .

فأرسلت إليه نفيسة بنت منية .

كما روى ابن سعد من طريق الواقدي ، عن نفيسة بنت منية قالت : كانت خديجة امرأة حازمة جَلدة شريفة ، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهي يومئذ أوسط قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ، وأكثرهم مالاً ، وكلّ قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك ، وقد طلبوها وبذلوا لها الأموال

---

[1] انظر (المواهب وشرحه) ، معزواً إلى أبي نعيم والواقدي وابن السكن وانظر (سيرة) ابن هشام و(الروض الأُنُف)

قالت نفيسة : فأرسلتني دسيساً – أي : خفيةً – إلى محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن رجع في عيرها من الشام ، بالتجارات الرابحة .

فقلت : يا محمد ما يمنعك أن تتزوج ؟

فقال : (ما بيدي ما أتزوج به) .

قلت : فإن كُفيتَ ذلك ، ودُعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب) قال : (فمن هي ؟) .

قلتُ : خديجة .

قالت نفيسة : فذهبتُ فأخبرتُ خديجة فأرسلت إليه : أنِ ائتِ اهـ .

وهكذا تعرض السيدة خديجة نفسها على رسول الله صلى الله عليه وسلم بواسطة نفيسة لتعلم هل يرضى بها .

فلما علمت منه الرضا عرضت نفسها وكلّمته بلا واسطة .

كما روى ابن إسحاق ، أن خديجة رضي الله عنها عرضت نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا ابن عمّ إني رغبتُ فيك ، لقرابتك ووساطتك في قومك ، وأمانتك وحسن خلقك ، وصدق حديثك .

وسبب عرض نفسها على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو ما حدثها به غلامها ميسرة الذي ذهب معه في سفره للشام ، وما شاهده من الآيات ، وكذلك أيضاً ما شاهدته هي رضي الله عنها من الآيات ، حين أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من السفر ، وهي في غرفة مشرفة .

وأيضاً من الأسباب التي حملتها على أن تعرض نفسها : ما ذكره ابن إسحاق في (المبتدأ) قال : كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه ، فاجتمعن يوماً فيه ، فجاءهنّ يهودي فقال : يا معشر قريش إنه يوشك فيكن نبيّ ، فأيتكنّ استطاعت أن تكون فراشاً له فلتفعل .

فحصبنَه – أي : رمينه بالحصباء والحجارة الصغيرة – وأغلظنَ له بالقول

وأغضت خديجة – أي : سكتت – على قوله ، ولم تعرض فيما عرض فيه النساء – أي : لم تشترك مع أولئك النساء فيما تعرّضنَ له من مقابلة اليهودي بالإغلاظ – ووقر ذلك في نفسها ، فلما أخبرها ميسرة بما رآه من الآيات ، وما رأته هي ، قالت : إن كان ما قال اليهودي حقاً فما ذاك – النبيُّ - إلا هذا . اهـ[1]

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر ذلك لأعمامه ، فأقرّوا له ذلك ، ورضوها زوجة له صلى الله عليه وسلم .

خطبتُها من أهلها : خرج النبي صلى الله عليه وسلم ومعه عمه أبو طالب [2] وعمه حمزة ، حتى دخلوا على أبي خديجة : خويلد بن أسد ، وحضر المجلسَ رؤساءُ مضر ، فخطب فيهم أبو طالب وقال :

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل وضِئضئ[3] معدّ .

وجعلنا حضَنَة بيته [4] ، وسُوّاس حرمه [5]

وجعل لنا بيتاً محجوناً ، وحرماً آمناً ، وجعلنا الحكّام على الناس

ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله ، لا يُوزن برجل إلا رجح به شرفاً ونُبلاً ، وفضلاً وعقلاً ، فإن كان في المال قِل : فإن المال ظل زائل أو حائل ، وعارية مسترجعة ، ومحمد بين من قد عرفتم قرابته ، وقد خطب إليكم راغباً كريمتكم

---

[١] انظر جميع ذلك في (المواهب وشرحها) للزرقاني ١ : ٢٠٠ وانظر بعضه في (سيرة) ابن هشام

[٢] كما نقله السهيلي ، وعند ابن إسحاق أن الذاهب للخطبة هو حمزة .
قال في (النور) : فلعلهما خرجا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، والذي خطب خطبة النكاح هو أبو طالب ، لأنه أسن من حمزة اهـ من (شرح) الزرقاني

[٣] الضئضئ : هو الأصل

[٤] حضنة البيت : الكافلون له ، القائمون بخدمته

[٥] سواس حرمه : هم المتولون أمر الحرم

خديجة ، وقد بذل لها من الصداق ما حكم عاجله وآجله اثنتا عشرة أوقية ذهباً ونشّاً – أي : نصفاً [1] - .

وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم اهـ .

فزوّجها أبوها ، وقيل زوّجها عمها عمرو بن أسد ، وقيل أخوها عمرو بن خويلد ، فولدت له صلى الله عليه وسلم جميع أولاده الكرام ، إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية

أولاده الكرام :

وأولاده الكرام عليه الصلاة والسلام : قد اختُلف في عددهم ، والأصح – كما قال القسطلاني وغيره – أنهم سبعة :

ثلاثة ذكور : القاسم ، وعبد الله ويُلقّب بالطيب والطاهر [2] ، وإبراهيم .

وأربع بنات : السيدة زينب وهي أكبرهنّ ، والسيدة رُقيّة ، والسيدة أم كلثوم ، والسيدة فاطمة الزهراء البتول – على أبيهن وعليهن الصلاة والسلام .

وكلهن أدركن الإسلام ، واجتمعن معه في المدينة بعد الهجرة .

والسيدة زينب أكبر بناته صلى الله عليه وسلم والخلاف فيها وفي القاسم : أيُّهما وُلد أولاً .

والسيدة فاطمة الزهراء أحبُّ أهله إليه .

---

[1] وقال المحب الطبري : إن المصطفى صلى الله عليه وسلم أصدق خديجة عشرين بكرة أي : ناقة فتية ، قال الزرقاني : ولا تضاد بين هذا وبين ما يقال أبو طالب أصدقها – أي بما ذكره في خطبة النكاح – لجواز أنه صلى الله عليه وسلم زاد في صداقها ، فكان الكل صداقاً اهـ

[2] وقيل : إن هناك ولداً له صلى الله عليه وسلم يقال له الطيب والطاهر ، وهو غير ولده عبد الله ، وقيل : بل إن الطيب ولد آخر غير الولد الملقب بالطاهر

فقد روى الترمذي وحسّنه ، والحاكم ، عن أسامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أحبُّ أهلي إليّ فاطمة) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ما رأيت أحداً أشبه سَمتاً ودلّاً ، وهَدياً وحديثاً برسول الله صلى الله عليه وسلم في قيامها وقعودها ، من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قالت عائشة رضي الله عنها : وكانت فاطمة رضي الله عنها إذا دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قام إليها ، فقبّلها وأجلسها في مجلسه .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل عليها قامت له فقبّلته ، وأجلسته في مجلسها .

فلما مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أتت فاطمة فأكبت عليه ، فقبّلته ثم رفعت رأسها فبكت ، ثم أكبت عليه ، ثم رفعت رأسها فضحكت .

فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قلتُ لها : رأيتُ حين أكببتِ على النبي صلى الله عليه وسلم ورفعتِ رأسك فبكيتِ ، ثم أكببتِ عليه فرفعتِ رأسكِ فضحكتِ ، ما حملك على ذلك ؟

فقالت : أخبرني أنه صلى الله عليه وسلم ميّت من وجعه هذا فبكيتُ ، ثم أخبرني أني أسرع أهله لحوقاً به ، فذلك حين ضحكتُ .

أخرجه الترمذي وأبو داود والنسائي وقال الترمذي : حسن غريب [1]

وروى الإمام أحمد عن ثوبان رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر : آخرُ عهده إتيان فاطمة ، وأوّل من يدخل عليه إذا قدم – من سفره – فاطمة رضي الله عنها .

وروى الحافظ أبو عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قدم من غزوٍ أو سفرٍ بدأ بالمسجد فصلّى فيه ركعتين ، ثم أتى فاطمة ، ثم أتى أزواجه .

---

[1] انظر (شرح المرقاة على المشكاة)

وقد بشّرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها سيدة نساء أهل الجنة .

وفي رواية : سيّدة نساء العالمين .

كما جاء في (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها قالت : (أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشيةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (مرحباً بابنتي) ثم أجلسها عن يمينه ، ثم أسرّ إليها حديثاً ، فبكت ، ثم أسرّ إليها حديثاً ، فضحكت .

فقلتُ : ما رأيتُ كاليوم أقربَ فرحاً من حزن ؟

قالت عائشة : فسألتُها عمّا قال صلى الله عليه وسلم ؟

فقالت : ما كنتُ لأفشي على رسول الله صلى الله عليه وسلم سرّه .

فلما قُبض صلى الله عليه وسلم سألتُها ، فأخبرتني أنه قال : (إن جبريل كان يُعارضني بالقرآن كلّ سنةٍ مرةً ، وإنه عارضني العامَ مرتين ، وما أراه إلا قد حضر أجلي ، وإنك أوّلُ أهل بيتي لحوقاً بي ، ونعم السلفُ أنا لكِ) .

قلت : فبكيتُ .

فقال صلى الله عليه وسلم : (ألا ترضينَ أن تكوني سيدةَ نساء العالمين) ؟

وفي رواية لهما : (سيدة نساء أهل الجنة) .

وعند أحمد : (ألا ترضينَ أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة أو نساء المؤمنين)؟

قالت : فضحكتُ لذلك) .

وروى النسائي والحاكم بسند جيد ، عن حذيفة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (هذا ملَك من الملائكة استأذن ربّه ليسلّم عليّ ، وبشّرني أن حسناً وحسيناً سيدا شباب أهل الجنة ، وأمّهما سيّدة نساء أهل الجنة) [1] .

---

[1] انظر (شرح الزرقاني) ٣ : ٢٠٥

بعثته صلى الله عليه وسلم وبدء نبوّته

إن الله تعالى بعث سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً للعالمين ، على تمام أربعين سنة من عمره الشريف ، كما جاء ذلك في (الصحيحين) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاثَ عشرة سنة يوحى إليه ، ثم أمر بالهجرة ، فهاجر عشر سنين ، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة) وعلى ذلك الجمهور .

وقال الإمام السُّهيلي : هو الصحيح عند أهل السّير والعلم بالأثر .

وقال الإمام النووي : هو الصواب اهـ .

وتمام الأربعين إنما هو في شهر ربيع الأول ، وكان ذلك يوم الاثنين ، كما روى مسلم عن أبي قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن صوم يوم الاثنين ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : (ذلك يوم ولدتُ فيه ، ويوم بُعثت فيه) .

وقال بعض العلماء : كان ذلك في شهر رمضان ، وذلك لأن بدء نزول القرآن كان في شهر رمضان ، قال الله تعالى : (شهرُ رمضان الذي أنزل فيه القرآن ..) الآية ، وكان ذلك في ليلة القدر من شهر رمضان ، كما دل عليه قوله تعالى : (إنا أنزلناه في ليلة القدر) فيكون بدء نبوته صلى الله عليه وسلم على تمام أربعين سنة وستةِ أشهر .

وقد جمع المحققون بين القولين – كما ذكره الزرقاني وغيره – بأنه صلى الله عليه وسلم نبّئ بالرؤيا – أي : بدأ الوحي إليه صلى الله عليه وسلم عن طريق الرؤيا – في شهر ربيع الأول على تمام أربعين سنة ، ثم أتاه جبريل عليه السلام في رمضان .

قال الحافظ الزرقاني : وحمل عليه بعضهم – حديث – (الرؤيا جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوة) لأن مدة الوحي كانت ثلاثاً وعشرين سنة ، فيها ستة أشهر منه ، وذلك جزء من ستة وأربعين اهـ .

وقد روى الشيخان – واللفظ للبخاري – عن عائشة رضي الله عنها ، أنها قالت : (أوّل ما بُدئَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي : الرؤيا الصادقة في النوم .

وفي رواية لهما : الرؤيا الصالحة[1] ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلقِ الصبح . ثم حُبّب إليه [2] الخلاء ، وكان يخلو بغار حِراء ، فيتحنّث فيه [3] - وهو التعبُّد – اللياليَ ذواتِ العدد [4] قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزوّد لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها [5] ، حتى جاءهُ الحق [6] وهو في غار حراء .

فجاءه الملك فقال له : اقرأ [1] .

---

[1] قال الحافظ الزرقاني : الرؤيا الصادقة :هي التي لا كذب فيها ، أولا تحتاج لتعبير ، أو هي ما يقع بعينه – أي : كما رؤيت – أو ما يعبر في المنام اهـ
وأما الرؤيا الصالحة : فهي أخص من الصادقة ، وهي ما تأتي بالبشرى – كما في (شرح) القسطلاني على البخاري .

[2] أي : ثم إن الله تعالى حبب إليه الخلاء – أي : الخلوة – قال الخطابي : وذلك لأن الخلوة فراغ القلب ، وهي معينة على التفكر ، وبها ينقطع الإنسان عن مألوفات البشر ، ويجتمع قلبه ، ويجمع همّه اهـ
وفي قولها : (ثم حبب إليه الخلاء) دليل على أن حبه للخلوة إنما هو بتحبيب من الله تعالى ، وليس ذلك عن أمر نفساني ، بل عن وحي إلهامي ، كما نبه على ذلك في (الفتح)

[3] التحنث : هو البعد عن الحنث ، وهو الإثم الذي كان عليه المشركون ، وذلك بالتعبد ، لأن التعبد سبب لإزالة الإثم .

[4] هذا العدد المبهم وضحته رواية (الصحيحين) عن جابر : أنه صلى الله عليه وسلم قال : (جاورت بحراء شهراً) وفي رواية ابن إسحاق عينت ذلك الشهر الذي كان يخلو فيه صلى الله عليه وسلم ، وهو أنه شهر رمضان .
وقد ذكر ابن إسحاق أنه صلى الله عليه وسلم كان يخرج إلى حراء في كل عام شهراً ، وذلك الشهر هو رمضان

[5] قال الزرقاني : فكان صلى الله عليه وسلم يتزود لبعض ليالي الشهر ، فإذا نفد الزاد رجع إلى أهله ، فيتزود قدر ذلك .
قال : وفيه أن الانقطاع الدائم عن الأهل ليس من السنة ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم ينقطع بالغار بالكلية ، بل كان يرجع إلى أهله ، لضروراتهم ، ثم يرجع لتحنثه .

[6] أي : الأمر الحق ، وهو الوحي ، وسمي حقاً : لمجيئه من عند الله

قال : (ما أنا بقارئ [2]) – قال : (فأخذني فغطّني – وفي رواية الطبراني : فضمّني [3] - حتى بلغ مني الجَهد ، ثم أرسلني .

فقال : اقرأ .

قلت : ما أنا بقارئ – فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني .

فقال : (اقرأ باسم ربكَ الذي خلق . خلق الإنسان من علَق . اقرأ وربُّك الأكرم . الذي علّم بالقلم . علّم الإنسان ما لم يعلم)) .

---

[1] فقال له الملك وهو جبريل اتفاقاً : اقرأ
قال الحافظ الزرقاني : هذا الأمر لمجرد التنبيه والتيقظ لما سيلقي عليه – أي : ليتوجه إلى ما سيلقي عليه ثم يقرأ – أو على بابه من الطلب – أي : طلب منه القراءة – قال : فهو دليل على تكليف ما لا يطاق في الحال ، وإن قدر عليه بعد اهـ

[2] جاء في رواية (قلت) وفي رواية (فقلت : ما أنا بقارئ) قال الحافظ في (الفتح) : (ما) فيه – أي : في قوله : (ما أنا بقارئ) – نافية ، إذ لو كانت استفهامية لم يصلح دخولها على الباء ، وإن حكي عن الأخفش جوازه ، فهو شاذ ، والباء – في : بقارئ – زائدة لتأكيد النفي ، أي : ما أحسن القراءة فلما قال ذلك ثلاثاً قيل له : (اقرأ باسم ربك) – أي : لا تقرؤه بقوتك ولا بمعرفتك ، لكن بحول ربك وإعانته ، فهو يعلمك كما خلقك وكما نزع عنك علق الدم ، ومضمر الشيطان في الصغر ، وعلم أمتك حتى صارت تكتب بالقلم بعد أن كانت أمية – ذكره السهيلي اهـ
قال الزرقاني : وقيل : (ما) استفهامية ، وضعفه عياض وابن قرقول بدخول الباء في خبرها ، وهي لا تدخل على ما الاستفهامية
قال : وأجيب بأن رواية أبي الأسود ، عن عروة : (كيف أقرأ) ؟ وابن إسحاق : عن عبيد بن عمير : (ماذا أقرأ) ؟ دلتا على أنها استفهامية ، وقد جوز الأخفش دخول الباء على الخبر المثبت ، وجزم به ابن مالك في – قولك : - بحسبك زيد ، فجعل الخبر حسبك ، والباء زائدة اهـ

[3] ومعنى غطني : ضمني
وهذه الضمات فيها إفاضات وإفراغات أسرار وأنوار إلهية ، وعلوم ومعارف ربانية ، نزل بها جبريل عليه السلام من لدن حكيم عليم ، على وجه يعم النفس والقلب والروح . وقد قال ابن عباس : ضمني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صدره الشريف صلى الله عليه وسلم وقال : (اللهم علمه الكتاب) وبذلك فتح على ابن عباس وأفيض عليه

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجُف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال :

(زمّلوني زمّلوني) فزمّلوه حتى ذهب عنه الرّوع ، فقال لخديجة – وأخبرها الخبر - : (لقد خشيتُ على نفسي) [1] فقالت له خديجة : كلّا – والله – ما يُخزيك الله أبداً ، إنك لتصِلُ الرحم ، وتصدُق الحديثَ ، وتحمِل الكلّ [2] ، وتُقري الضيفَ ، وتُعين على نوائب الحق [3] .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقَة بن نوفل بنِ أسد ، ابن عمّ خديجة ، وكان امرءاً تنصّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب .

- وفي رواية لمسلم : فكان يكتب الكتاب العربي .

وفي رواية : ويكتب من الإنجيل بالعربية [4] - وكان شيخاً كبيراً قد عمي .

فقالت له خديجة : يا ابنَ عم ! اسمع من ابن أخيك .

فقال له ورقة : يا ابن أخي ! ماذا ترى ؟

---

[1] أي : لقد خشيت على نفسي أن لا يتحمل جسمي ثقل الوحي ، وذلك لأن للوحي ثقلاً لا تقدر له الأقوياء ، إلا من أمده الله بمدد النبوة وقوتها ، وخصوصاً الوحي المحمدي ، فإنه من أعلى المراتب – قال الله تعالى : (إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً) وروى البيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت : (إن كان ليوحى إلى برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته فتضرب بجرانها من ثقل ما يوحى إليه ، وقد نزل عليه الوحي يوماً وهو على ناقته ، فقعدت به الناقة) .

[2] أي : الضعيف الذي لا يستقل بأمره

[3] أي : تعين على دفع الحوادث والكوارث الجارية على الخلق ، بتقدير الحق ، وقيل : النوائب جمع نائبة ، وهي الحادثة ، وإنما أضيفت إلى الحق ، لأن النائبة قد تكون في الخير وقد تكون في الشر اهـ (مرقاة) .

[4] قال الحافظ : والجميع صحيح ، لأن ورقة تعلم اللسان العبراني ، والكتابة العبرانية ، فكان يكتب الكتاب العبراني ، كما كان يكتب الكتاب العربي ، لتمكنه من الكتابين واللسانين . اهـ أ

فأخبره صلى الله عليه وسلم خبرَ ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس [1] الذي نزَّل الله على موسى ، يا ليتني فيها جَذَعاً ! ليتني أكونُ حيّاً إذ يخرجك قومك !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أوَ مخرجيّ هم ؟) .

قال : نعم ، لم يأتِ رجل قطٌّ بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يُدركني يومك أنصرك نصراً مؤزّراً .

ثم لن ينشَب – أي : لم يلبث – ورقة أن توفي .

وفتر الوحي : أي انقطع الوحي مدة من الزمن ، مقدرة بسنتين ونصف ، وقيل ثلاث سنوات .

ثم أنزل الله تعالى عليه بعد فترة الوحي أوائل سورة المدثر .

كما جاء في (الصحيحين) عن جابر رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (جاورتُ [2] بحراء شهراً [3] فلما قضيت جواري هبطت ، فنوديت ، فنظرت عن يميني فلم أرَ شيئاً ، ونظرتُ عن شمالي فلم أرَ شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أرَ شيئاً ، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً – أي : جبريل – فلم أثبت له) .

وفي رواية : (فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء ، جالس على كرسيّ بين السماء والأرض ، فرعبت منه – فرجعت) .

---

[1] الناموس : صاحب السر – والمراد به جبريل عليه السلام ، لأنه صاحب سر وحي الله تعالى إلى رسله وأنبيائه ، ويسمى الناموس الأكبر .

[2] أي : أقام فيه – والفرق بين الجوار والاعتكاف – كما قال ابن عبد البر وغيره - : أن الاعتكاف لا يكون إلا داخل المسجد ، وأما الجوار فإنه قد يكون خارجه ، وذلك لم يسمه صلى الله عليه وسلم اعتكافاً ، لأن حراء ليس من المسجد .

أي : في مدة الفترة ، غير الشهر الذي نزل عليه فيه جبريل بأوائل سورة اقرأ ، ففي مرسل عبيد بن عمير عند البيهقي ، أنه كان يجاور في كل سنة شهراً ، وهو رمضان . اهـ

وفي رواية : (فجئت – إلى أهلي ، فقلت : زمّلوني زملوني – فأنزل الله تعالى : (يا أيها المدثّر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهّر . والرُّجز فاهجر))

فقام صلى الله عليه وسلم ينذر الناس ويدعوهم إلى الله تعالى .

وقد جرت عادة الله تعالى مع حبيبه الأكرم صلى الله عليه وسلم أنه يناديه في القرآن الكريم بالصفات الكريمة التي تؤذن بالرتبة العظيمة :

كقوله تعالى : (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ..) الآية .

وقوله تعالى : (يا أيها الرسول لا يحزُنك الذين يسارعون في الكفر ..) الآية

كما أنه سبحانه يناديه بالصفات المشتقة من الحال التي هو عليها ، تلطيفاً وتأنيساً له صلى الله عليه وسلم :

ومن ذلك قوله تعالى : (يا أيها المزمّل) وقوله : (يا أيها المدثر) – وفي ذلك إعلان بفضل هذا الرسول الكريم على سائر العالمين صلى الله عليه وسلم .

ولم يناده باسمه ، كما نادى الأنبياء والرسل بأسمائهم ، حيث قال سبحانه :

(قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ..) الآية .

وقال تعالى : (قلنا يا نوح اهبِط بسلامٍ منا ..) الآية .

وقال تعالى : (يا إبراهيمُ أعرِض عن هذا ..) الآية .

وقال تعالى : (يا موسى لا تَخف ..) الآية .

وقال تعالى : (إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ..) الآية .

حفظ الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم من شر القرين الجني

روى الإمام مسلم وأحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ما منكم من أحد إلا وقد وكّل به قرينه من الجنّ ، وقرينه من الملائكة) .

قالوا : وإيّاك يا رسول الله ؟

قال : (وإيّاي ، إلا أن الله تعالى أعانني عليه فأسلمَ ، فلا يأمرني إلا بخير)

وقوله صلى الله عليه وسلم (فأسلم) روي بضم الميم ، والمعنى : فأسلم أنا من فتنته وكيده – قال الحافظ الزرقاني : وصحّح الخطابي رواية الرفع ، ورجّح عياض والنووي الفتح ، لقوله صلى الله عليه وسلم : (فلا يأمرني إلا بخير) قال : وقال الدّميري : وهو المختار .

والإجماع على عصمته صلى الله عليه وسلم من الشيطان .

وإنما المراد تحذير غيره من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه ، فأعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن القرين – الجني – معنا ، لنحترز منه بحسب الإمكان . اهـ .

فهو صلى الله عليه وسلم معصوم من الوساوس والتزيينات الشيطانية ، فلا يتكلم إلا بالحق ، ولا ينطق إلا بالصواب ، ولا يعمل إلا بما يرضاه الله تعالى .

حفظ الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم من الخطأ والباطل وتسديده بالحق والصواب في جميع أحواله

إن الله تعالى قد أيّد رسوله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق ، وسدّده في أقواله وأفعاله في جميع أحواله ، في حال رضاه وغضبه ، وحال جِدّه ومزاحه ، وحال صحته ومرضه . فكان صلى الله عليه وسلم إذا غضب لا يخرجه غضبه عن الحق والصواب ،بل هو على الحق في حال غضبه ، كما هو على الحق في رضاه ، بخلاف غيره من الأمة ، فإن الغضب قد يخرجهم عن الاعتدال والنطق بالصواب ، ولذلك نبهنا رسول الله إلى أنه لا يعتريه ما يعتري غيرَه في حال الغضب ، بل هو على كمال الاعتدال ، وصواب الأقوال والأفعال ، في سائر الأحوال .

روى أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه ، فنهتني قريش وقالوا : أتكتب كل شيء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشرٌ يتكلم في الغضب والرضا ؟!

فأمسكت عن الكتابة ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم .

فأومأ بإصبعه إلى فيه – أي : فمه – فقال : (اكتب ، فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق) .

وعند الدارمي : (اكتب ، فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق) .

نعم ما خرج من فمه صلى الله عليه وسلم وما يخرج منه إلا حق ! . كما أن مزاحه صلى الله عليه وسلم حق وليس فيه باطل ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : (إني لأمزح ، ولا أقول إلا حقاً) .

وقال : (لستُ من دَدٍ – أي : لستُ من أهل اللهو واللعب – ولا الدّدُ مني ، ولست من الباطل ولا الباطل مني) الحديث كما تقدم في مزاحه صلى الله عليه وسلم . فليس للشيطان عليه تأثير فيخرجه عن الحق والصواب ، بل هو معصوم من ذلك كما تقدم .

وليس للغضب ونحوه عليه تأثير يخرجه عن كمال الاعتدال ، وعن الحق والصواب في الأقوال والأعمال ، ولذا قال : (اكتب كل شيء تسمعه مني ، فوالله ما يخرج منه – أي : من فمه – إلا حق) .

وليس له من نفسه الطيبة الطاهرة الزكية النقية إلا داعيةُ الخير والحق والصواب والصدق ، ولذا قال : (لست من ددٍ ولا الدد مني ، ولست من الباطل ولا الباطل مني) .

فكان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صائبَ الرأي ، سديدَ النظر ، حفظه الله من الخطأ في جميع قضاياه وآرائه ، وكيف لا يكون كذلك وقد أعطاه الله

تعالى العقل الواسع الأكمل ، والعلم الفائض الأفضل ، ودقّة النظر ، وقوّة الفكر ، وكمال التبصُّر في جميع ميادين الأمور ! .

وقد شهدت له بذلك المشاهد ورجالها ، وأثبتت له ذلك الوقائع وقوادها ، حتى إنه صلى الله عليه وسلم كان يرى الرأي في الأمور ، فإذا خالف بعض الصحابة رأيه ، عاد الأمر عليهم بالوبال والشر .

وخذ مثالاً لذلك قضية يوم أحد :

فإنه صلى الله عليه وسلم عيّن خمسين من الرماة ، وأمّر عليهم عبد الله بن جبير ، وأمرهم أن يقيموا في موضع عيّنه لهم ، وقال لهم : (احمُوا ظهورنا ، فإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا نغنم فلا تشرَكونا) .

وفي رواية قال لهم : (إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا) اهـ كما في السّيَر .

وفي (مسند) الإمام أحمد قال لهم صلى الله عليه وسلم : (إن رأيتمونا تخطَفنا الطير فلا تبرحوا ، حتى أرسل إليكم) .

فلما هزم المسلمون المشركين قال أصحاب عبد الله : الغنيمةَ ! ظهر أصحابكم فما تنتظرون ؟

فقال لهم عبد الله : أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فقالوا : إنا والله لنأتينّ فلنصيبنّ من الغنيمة .

فإذا بالمشركين يأتون من الثغرة وراء المسلمين التي كانت محمية بالرماة ، وحملوا على المسلمين فانهزم كثير منهم – وكان ذلك بسبب مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم . وقد تقدم في بحث أرجحية عقله الشريفِ صلى الله عليه وسلم أنواع من الوجوه الدّالة على سداد نظره ، وصواب رأيه في مواقفه الخاصة والعامة ، وفي مواقفه مع أعدائه ، وفي جميع المعارك والحروب .

وقد ذهب الجمهور من العلماء والمحققين إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم عن الخطأ بعصمة الله تعالى له ، واستدلوا على ذلك بوجوه من الأدلة المفصّلة في مطوّلات كتب التفسير وأصول الفقه .

قالوا : وإن نسبة الخطأ إليه صلى الله عليه وسلم في أمرٍ ما ، تحتاج إلى دليل يثبت ذلك ، ولم يرد نص من آية أو حديث تثبت تخطئته صلى الله عليه وسلم في أمر من الأمور ، بل ولم يرد على لسان الصحابة نسبة الخطأ إلى النبي صلى الله عليه وسلم أصلاً .

وذهب جماعة من العلماء إلى أنه يجوز الخطأ عليه صلى الله عليه وسلم دون أن يُقَرّ عليه ، لتنبيه الوحي إيّاه ، واستدلوا على ذلك بقصة أسرى بدر ، وقصة تأبير النخل ، وربما أوردوا قصة نزوله صلى الله عليه وسلم يوم بدر في مكان ثم تحوّله عنه ، عملاً برأي الحُباب بن المنذر .

ولكن لدى التحقيق وتسديد النظر ، يتضح أنه ليس للاستدلال بذلك على ما قالوه من أثر ، بل إن الصواب هو فيما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيما قاله قطعاً ، وإنه لم يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع ذلك أصلاً .

بيان ذلك :

أما قصة أسرى بدر : فهي كما في (المسند) عن أنس رضي الله عنه أنه قال : استشار النبي صلى الله عليه وسلم الناسَ في الأسرى يوم بدر فقال : (إن الله تعالى قد أمكنكم منهم) فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم . ثم عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم ، وإنما هم إخوانكم بالأمس) .

فقام عمر فقال : يا رسول الله اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم – فقال للناس مثل ذلك .

فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال : يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم ، وأن تقبل منهم الفداء .

قال : فذهب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان فيه من الغم ، فعفا عنهم ، وقبل منهم الفداء ، قال : وأنزل الله تعالى : (لولا كتابٌ من الله سَبَق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم) .

وفي رواية أحمد أيضاً :

استشار النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعلياً [1] ، فقال أبو بكر : يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، وإني أرى أن تأخذ منهم الفداء ، فيكون ما أخذناه منهم قوّة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عَضُداً .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (ما ترى يا عمر ؟) .

فقال : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكنّي من فلانٍ – قريبٍ لعمر – فأضربَ عنقه ، وتمكّن علياً من عقيل ، فيضربَ عنقه ، وتمكن حمزة من فلان ، فيضربَ عنقه ، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادةٌ للمشركين ، هؤلاء صناديديهم وأئمتهم وقادتهم .

قال عمر : فهوِي رسول الله صلى الله عليه وسلم – أي : أحبّ – ما قال أبو بكر ، ولم يهوَ ما قلت ، وأخذ منهم الفداء .

فلما كان من الغد قال عمر : فغدوت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وهما يبكيان .

---

[1] قال في (شرح المواهب) : وفي هذا دليل على أنه صلى الله عليه وسلم استشار الناس عامة ، كما تقدم في قوله : (يا أيها الناس) الحديث .
واستشار هؤلاء الثلاثة خاصة كما دل عليه هذا الحديث ، ولم يذكر عن علي كرم الله وجهه جواب مع أنه أحد المستشارين .

فقلت : ما يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدتُ بكاءً بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عُرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة) – لشجرة قريبة من النبي صلى الله عليه وسلم وأنزل الله عز وجل : (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثْخِنَ في الأرض) إلى قوله تعالى : (فكلوا ممّا غنمتم حلالاً طيباً) فأحلّ الله لهم الغنائم . وروى مسلم وأبو داود والترمذي نحواً من هذا .

فهذه قصة الأسرى يوم بدر ، وليس في النصوص الواردة فيها ما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم أخطأ – أي : لم يُصب فيما سلكه مع الأسرى يوم بدر – بل إن من تأمّل في هذه القصة وتدبّر آياتها وأحاديثها يتضح له جلياً أنه صلى الله عليه وسلم كان مصيباً فيما فعله

، وذلك من وجوه متعددة :

الوجه الأول : أن النبي صلى الله عليه وسلم عمل بذلك ، بمقتضى المشاورة التي أمره الله تعالى بها في قوله : (وشاورهم في الأمر فإذا عزمتَ فتوكّل على الله) .

الوجه الثاني : أنه صلى الله عليه وسلم جنحَ إلى رأي من قال بالفداء وهَوِيه – أي : أحبّه – لما فيه من الرحمة والعطف واللين ، بمقتضى المقام الذي أقامه الله تعالى فيه ، وهو قوله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين) حتى إنه صلى الله عليه وسلم لما قيل له يوم أحد – وقد أصيب بجراح – قيل له : ادعُ الله على المشركين ، فقال : (إنما بُعثت رحمة – اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون) .

الوجه الثالث : أن فعله صلى الله عليه وسلم كان موافقاً لما سبق في الكتاب الأول ، الذي قضى الله تعالى فيه حِلّ الغنائم له صلى الله عليه وسلم خاصّة ، ولم تحِلّ لأحد قبله ، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : (

لولا كتاب من الله سبق): يعني في أم الكتاب الأول ، أن المغانم والأسارى حلال لكم (لمسكم فيما أخذتم) من الأسرى (عذاب عظيم) . اهـ .

قال الحافظ ابن كثير : وروي مثله عن أبي هريرة وابن مسعود ، وسعيد بن جبير وعطاء ، والحسن البصري وقتادة والأعمش أيضاً ، أن المراد : لولا كتاب من الله سبق لهذه الأمة ، بإحلال الغنائم ، لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم . وهو اختيار ابن جرير رحمه الله تعالى . اهـ .

فإن قيل : ليس في الآية دليل على حل الفداء ، وإنما هي في حل الغنائم !

أجيب : بأن الفداء في معنى الغنائم ، لأنه مال مأخوذ من الكفرة ، ويشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (وأحلت ليَ الغنائم ، ولم تكن تحِلُّ لأحد قبلي) فإن هذا الحديث بيّن ما دلت عليه الآية من تخصيصه صلى الله عليه وسلم بذلك – كما في (شرح) الزرقاني .

وفي (تفسير) العلامة الآلوسي رحمه الله تعالى : قال محيي السنة :

رُوي أنه لما نزلت الآية الأولى ، كفّ أصحابُ النبي صلى الله عليه وسلم أيديَهم عما أخذوا من الفداء ، فنزلت هذه الآية وهي : (فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ..) الآية .

أي : فعرفوا حِلّ الفداء من هذه الآية .

قال : فالمراد بقوله تعالى : (مما غنمتم) إما الفداء ، وإما مطلق الغنائم ، والمراد – أي : ويكون المراد – بيان حكم ما اندرج فيها من الفدية . اهـ .

الوجه الرابع : وكما أن قبوله صلى الله عليه وسلم الفداء ، وافق قضاء الله تعالى السابق في الكتاب الأول ، فإنه وافق أيضاً الشرع اللاحق النازل في الكتاب الحكيم ، وهو قوله تعالى : (فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ..) الآية .

فكيف يقال في أمرٍ وافقَ الكتابَ الأول ، ووافق الشرعَ النازلَ بعدُ ، كيف يقال : إنه خطأ ؟! – ويتضح ذلك بالوجه الخامس .

الوجه الخامس : أن نزول التشريع بإحلال الغنائم ، وهو قوله تعالى : (فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً) هو إقرار لما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتصويب لما رآه ، إذ لو كان فعله صلى الله عليه وسلم خطأً ، كيف يقره الله تعالى عليه ويجعله شرعاً باقياً ؟

حتى إنه على قول من جوّز الخطأ عليه صلى الله عليه وسلم دون أن يقره الله عليه ، لا يقال :

إنه صلى الله عليه وسلم أخطأ في قضية أسرى بدر ، لأن الله تعالى أقره على ذلك فمن أين يأتي الخطأ ؟! . قال الحافظ ابن كثير في (تفسيره) : وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء ، أن الإمام مخيّر فيهم :

١ – إن شاء قتَل ، كما فُعل ببني قُريظة ، ٢- وإن شاء فادى بمال كما فُعل بأسرى بدر ، أو – فادى – بمن أسر من المسلمين ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سَبي سلمة بن الأكوع ، حيث ردّهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين ، ٣ – وإن شاء استرقّ من أُسر .

هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء ، وفي المسألة خلاف بين الأئمة

مقرّر في موضعه من كتب الفقه . اهـ كلام ابن كثير .

الوجه السادس : لو كان موقفه صلى الله عليه وسلم مع أسرى بدر خطأ ، لأمره الله تعالى أن يردّ الفداء ، وأن يستغفر الله تعالى من الخطأ الذي وقع فيه ، مع أنه سبحانه أقرّه على ذلك وشرع له ذلك فقال : (فكلوا ممّا غنمتم حلالاً طيباً) الآية – فلو كان خطأ لما أقرّه الله تعالى عليه ، ولما شرع له ذلك .

الوجه السابع : لو كان فعله صلى الله عليه وسلم بأسرى بدرٍ خطأ ، لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمتدح ويتحدّث بما خصّه الله تعالى به من الخصائص ، ومن أعظمها وأعمّها وأنفعها : تلك العطايا الخمسة الخاصّة به صلى الله عليه وسلم ، كما ورد في (الصحيحين) وغيرهما ، عن جابر

رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أعطيتُ خمساً لم يعطهنّ أحد قبلي : كان كل نبيّ يُبعثُ إلى قومه خاصّةً ، وبُعثتُ إلى الأحمر والأسود ، وأحلّت ليّ الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي ..) الحديث .

قال العلّامة الخطابي : كان من تقدّم – أي : شرائعهم – على ضربين :

مِنهم مَن لم يُؤذن له في الجهاد ، فلم يكن لهم غنائم .

ومنهم من أذن لهم فيه ، لكن كانوا إذا غنموا شيئاً لم يحلّ لهم أن يأكلوه ، وجاءت نار فأحرقته . اهـ .

الوجه الثامن : أن موافقته صلى الله عليه وسلم على أخذ الفداء من الأسرى ، فيه حكمة رشيدة وخطّة سديدة ، وذلك أن الشرع الذي ينزل بعده :

إمّا : أن يُقرّه على فعله فهو المقصود ، وقد حصل ذلك والحمد لله .

وإما : أن يأمره بردّ الفداء وضرب الرقاب ، فحينذاك يردُّ الفداء على الأسرى ، ويضرب الرقاب .

ولكن لو كان ضرَبَ أعناق الأسرى ، وجاء الشرع بعدُ بقبول الفداء منهم ، فماذا يعمل صلى الله عليه وسلم حينئذ ؟ فكان تريُّثه في القتل هو عينُ الحكمة ، وتبيّن أنه الصواب – ولذا أقرّه سبحانه وشرعه .

وفي (أحكام القرآن) للقاضي أبي بكر بن العربي رحمه الله تعالى :

فإن قيل : فقد اختار النبي صلى الله عليه وسلم الفداء مع الصحابة الذين اختاروا الفداء ، فهل يكون ذنباً منه ؟

قلنا : كذلك توهّم بعض الناس فقال : إنه كان من النبيّ معصية غير معنيّة .

قال القاضي أبو بكر : وحاشا لله من هذا القول ، إنما كان من النبيّ صلى الله عليه وسلم توقُّف وانتظار – أي : لأن يحكم الله تعالى في ذلك – ولم يكن القتل ليفوت ، مع أنهم كانوا قد قتَلوا الصناديد ، وأثخنوا في الأرض – وذلك أنهم

قتلوا من صناديد المشركين يوم بدر سبعين ، ثم أسروا سبعين – فانتظر النبي صلى الله عليه وسلم : هل ذلك كافٍ – أي : في الإثخان – أم لا ؟ وهذا بيّنٌ عند أهل الإنصاف اهـ .

الوجه التاسع : كيف يُحكم بأنه صلى الله عليه وسلم أخطأ في أسرى بدر ، مع أنه صلى الله عليه وسلم أَمِرَ أن يخيّر أصحابه في ذلك ، ثم عمل بمقتضى ذلك :

فقد روى الترمذي والنسائي ، وابن حبان والحاكم ، بإسناد صحيح ، عن عليّ كرم الله تعالى وجهه قال : جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، فقال له : (خيّر أصحابك في الأسارى ، إن شاءوا القتل ، وإن شاءوا الفداء ، على أن يُقتل منهم – أي : الصحابة – في العام المقبل مثلهم) .

فقالوا : نختار الفداء ، ويُقتل منا – أي : يقتل منهم سبعون رغبةً في الشهادة في سبيل الله تعالى .

وعن ابن سعد من مرسل قتادة : فقالوا : بل نُفاديهم ، فنقوى بهم عليهم ، ويدخل العامَ القابلَ منا الجنةَ سبعون – ففادوهم .

قال الحافظ القسطلاني : وهذا دليل على أنهم لم يفعلوا إلا ما أذن لهم فيه اهـ

الوجه العاشر : كيف يُحكم بأنه صلى الله عليه وسلم أخطأ في قبول الفداء من أسرى بدر مع أنه صلى الله عليه وسلم كان قبل غزوة بدر ، فادى سريّة عبد الله بن جحش ، التي قتل فيها عمرو بن الحضرمي ، ولم يعتب الله تعالى عليه في ذلك .

فقد جاء في السّيَر وغيرها أنه صلى الله عليه وسلم بعث عبد الله بن جحش في سرية يعترض بها عِير قريش ، فنزلوا بطن نخلة – موضعاً قريباً من مكة – فقتلوا عمرو بن الحضرمي وأسروا عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان ، وهرب من هرب ، فاستاقوا البعير ..

وبعثت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء الأسيرين ، وهما : عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان .

فقال صلى الله عليه وسلم : (لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا – يعني : سعداً وعتبة [1] - فإنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم) .

فقدم سعد وعتبة بعدهم بأيام – ففداهما رسول الله صلى الله عليه وسلم كل واحد بأربعين أوقية

فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه ، وأقام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً .

وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافراً .

ولقد كانت هذه السريّة في رجب ، وقيل في جمادى الآخرة ، وكانت غزوة بدر في رمضان ، وكلاهما في ثانية الهجرة ، فما عتب الله تعالى على أخذ الفداء في تلك السرية ، فلو كان ممنوعاً لعتب سبحانه [2] .

الوجه الحادي عشر : أن قوله تعالى : (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ) الآية : ليس فيها معاتبة للنبي صلى الله عليه وسلم أصلاً ، وإنما فيها العتاب لمن أشار على النبي صلى الله عليه وسلم بالفداء ،

بُغية عرَض الدنيا ، وهو المال المفدى به ، حين استشار عامّة الناس ، قبل أن يستشير خاصّتهم : أبا بكر وعمر وعلياً رضي الله عنهم ، كما تقدم .

فأراد بقوله سبحانه : (تريدون عرَض الدنيا) أولئك النفر الذين أرادوا المال .

---

[1] أي : لأنهما كانا في السرية ، ولكنهما تأخرا في العودة .
[2] راجع (المواهب وشرحها) و (شرح الشفا) للقاضي عياض

أما سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقصِد بقبول الفداء عرَض الدنيا ، وحاشاه من ذلك ! فإن الدنيا كلها مالها قيمة عنده ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (مالي وللدنيا ! ما أنا والدنيا إلا كراكب استظلّ تحت شجرةٍ ، ثم راح وتركها) ، وقد عرضت عليه جبال تهامة أن تكون له ذهباً فأبى ، فأين هو من عرَض الدنيا ! .

كما أن قوله تعالى : (لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا) فإن هذا إعلانٌ منه سبحانه بنعمته ومنّته على هذه الأمة ، بفضل نبيها صلى الله عليه وسلم وإعلامٌ بأنه سبق منه القضاء ، في الكتاب الأسبق ، بحِلّ الغنائم لهذه الأمة دون غيرها ، فضلاً منه ونعمةً ، بفضل نبيها وكرامته على الله تعالى .

ومن ثمّ كان صلى الله عليه وسلم يُشِيدُ بهذه المنقَبَة ويتحدث بهذه النعمة في جملة من المناقب التي خصه الله تعالى بها فيقول : (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي : كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الأحمر والأسود ، وأحلّت لي الغنائم ، ولم تكن تحل لأحد قبلي ..) الحديث كما تقدم .

فكما أن إرساله إلى الناس عامّةً دون غيره ، وجَعل الأرض له ، مسجداً دون غيره ، كل ذلك كان عن قضاء من الله تعالى سابق ، وحكم شرعي محكم من الله تعالى لاحق ، فكذلك جاء إحلال الغنائم أيضاً ، فهو شرع مبني على حِكَم وإحكام ، فاعتبِر في ذلك وتبصّر ، وأنصف وتدبّر .

ولذلك قال القاضي أبو زيد رحمه الله تعالى :

فإن قيل : أليس الله تعالى عاتب رسوله على الفداء ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لو نزل العذاب ما نجا إلا عمر) فدلّ على أن أبا بكر كان مخطئاً ؟

قلنا : هذا لا يجوز أن يُعتقد ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم عمل برأي أبي بكر ، ولابدّ أن يقع عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقِرَ عليه –

صواباً – والله تعالى قرّره عليه فقال : (فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ..) الآية .

وتأويل الآية : (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ) وكان لك – يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ كرامةً خُصّصتَ بها رخصةً ، لولا كتاب من الله سبق بهذه الخصيصة لمسّكم العذاب ، لحكم العزيمة على ما قال عمر .

ثم قال القاضي أبو زيد رحمه الله تعالى : والوجه الآخر – أي : في تأويل الآية ـ : ما كان لنبي أن يكون له أسرى قبل الإثخان ، وقد أثخنتَ يوم بدر ، فكان لك الأسرى كما كان لسائر الأنبياء عليهم السلام ، ولكن كان الحكم في الأسرى : المنّ أو القتل دون المفاداة ، فلولا الكتاب السابق في إباحة الفداء لك – يا رسول الله صلى الله عليه وسلم لمسّكم العذاب .

ثم قال القاضي رحمه الله تعالى : ولو كان حكمه صلى الله عليه وسلم فيه خطأ ، لكان الأمر بالنقض – أي : بردّ الفداء والأمر بالقتل – مع أنه ليس فيه إلزامُ ذنب للنبي صلى الله عليه وسلم ، بل فيه بيان ما خُصّ به وفُضّل به من بين سائر الأنبياء فكأنه سبحانه قال : ما كان هذا لنبيّ غيرك ، وأما الخطاب بقوله : (تريدون) : فهو لمن أراد منهم ذلك ، وليس المراد بالمريد النبيّ صلى الله عليه وسلم لعصمته [1] اهـ بحروفه .

وقال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) : اختلف السلف في أيّ الرأيين كان أصوب ؟ :

فقال بعضهم : كان رأي أبي بكر ، لأنه وافق ما قدّر الله تعالى في نفس الأمر ، ولما استقرّ عليه الأمر ، ولدخول كثير منهم في الإسلام ، إمّا بنفسه ، وإمّا بذريته التي وُلدت بعد الوقعة ، ولأنه وافق غلبة الرحمة على الغضب ، كما ثبت ذلك عن الله تعالى في حقّ من كتب له الرحمة .

---

[1] وقد نقل هذا عن القاضي أبي زيد في كتاب (التقرير والتحبير) على (تحرير الكمال) ابن الهمام في بحث الاجتهاد ٣ : ٢٩٧ وغيره من كتب الأصول

وأمّا من رجّح الرأي الآخر : فتمسك بما وقع من العتاب على أخذ الفداء .

لكن الجواب عنه : أنه لا يدفع حجة الرجحان عن الأول – أي : بل الرأي الأول له الرجحان على غيره – بل ورد – العتاب – للإشارة إلى ذمّ من آثر شيئاً من الدنيا على الآخرة ولو قلّ . اهـ .

يعني أن العتاب الذي قد يفهم من الآية ، موجّه لمن أراد بالفداء عرَض الدنيا ، وهم بعض الناس الذين أشاروا عليه بالفداء ، حين استشار النبي صلى الله عليه وسلم عامة الناس ، قبل أن يستشير خاصتهم ، كما تقدم .

أما قضيّة تأبير النخل : فقد ورد في (صحيح) مسلم و(المسند) عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بقوم يُلقّحون النخل فقال : (لو لم تفعلوا لصلح) . قال : فخرج شِيصاً .

فمرّ بهم صلى الله عليه وسلم فقال : (ما لنخلكم ؟) .

قالوا : قلتَ كذا وكذا ! .

قال : (أنتم أعلمُ بأمر دنياكم) .

فمن هذا الحديث فهم بعض الناس أن النبي صلى الله عليه وسلم قد يخطئ في أمور الدنيا ، وراح يقول : أخطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في كذا وأخطأ في كذا !! .

ولكن الحق أحقُّ أن يتبع ، وذلك أن أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله يُفسّر بعضها بعضاً ، ويشبه بعضها بعضاً ، وأن الله تعالى حفظه عن الخطأ كما حفظه من الخطيئة ، فنقول وبالله التوفيق :

أولاً : إنه صلى الله عليه وسلم قد نشأ في تلك الأراضي المباركة التي هي منابت النخيل ، وتربى بين قوم يعلمون فنون زرع النخيل ، وما يتطلبه من عنايات ولِقاحات ، وكيف يُتصور في حقه صلى الله عليه وسلم أن تخفى عليه

تلك العادة المطّرِدة في إنتاج النخيل ، ولزوم التلقيح له بموجب الاصول الزراعية ؟

في حين أن ذلك ليس من خفايا معلومات الزراعة لشجر النخيل ، ولا من غوامضها ، إذاً لابد وأنه يعلم ذلك كما يعلمون ، ولكن أراد أن يظهر لهم أمراً لا يستطيعون نيله بأنفسهم .

ثانياً : إن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الذي نال من العلوم ما نال ، وأفاض الله تعالى عليه ما أفاض ، حتى أنه ذكر للصحابة وبحث لهم في كل شيء .

كما روى الطبراني عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال : (تركَنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلُب جناحيه في الهواء ، إلا وهو ذكر لنا منه علماً)

فكيف يتصور أنه يخفى عليه صلى الله عليه وسلم أن النخيل لا يحتاج إلى تلقيح بمقتضى العادة في علم الزراعة ؟ ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أمراً آخر

ثالثاً : إن الذي يدلنا على ذلك الأمر الآخر الذي أراده صلى الله عليه وسلم هو النظر في أشباه هذه الواقعة الصادرة منه صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك حديث : (ناولني الذراع) . ففي (المسند) عن أبي رافع [1] قال : صُنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاةٌ مَصليّة فأتي بها فقال : (يا أبا رافع ناولني الذراع)[2] فناولته .

ثم قال : (ناولني الذراع) فناولته .

---

[1] أبو رافع القبطي مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلم ومات في أول خلافة أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه اهـ من (شرح) الزرقاني

[2] الذراع : هو اليد من كل حيوان ، ولكنه من الإنسان من طرف المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى ، يؤنث ويذكر ، ومن البقر والغنم : ما فوق الكراع ، وهو المراد هنا اهـ من الزرقاني .

ثم قال : (ناولني الذراع) فقال : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل للشاة إلا ذراعان ؟!

فقال صلى الله عليه وسلم : (لو سكتَّ لناولتني منها ذراعاً ما دعوتُ به) .

قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الذراع .

قال في (مجمع الزوائد) : رواه أحمد والطبراني من طرق ، وقال في بعضها : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أصليَ له شاةً فَصَليتُها .

ورواه في (الأوسط) باختصار ، وأحد إسنادي أحمد حسن اهـ .

وعن أبي عبيد [1] أنه : طَبَخ لرسول الله صلى الله عليه وسلم قدراً فيها لحم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ناولني ذراعَها) فناولته .

فقال : (ناولني ذراعَها) فناولته .

فقال صلى الله عليه وسلم : (ناولني ذراعها) .

فقال : يا نبيّ الله كم للشاة من ذراع ؟ !

فقال له صلى الله عليه وسلم : (والذي نفسي بيده لو سكتّ لأعطيتَ ذراعاً ما دعوتُ به) .

وهذه القصة غير التي تقدمت ، كما نبه عليه الحافظ الزرقاني وغيره .

وفي (مجمع الزوائد) عن ابن إسحاق قال : حدثني رجل من بني غِفار ، في مجلس سالم بن عبد الله ، قال : حدثني فلان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

[1] قال في (شرح المواهب) ٤ : ٣٢٨ : أبو عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذكره الحاكم أبو أحمد فيمن لم يعرف اسمه من الصحابة ، هكذا في نسخ (المصنف) : ابي عبيد ، بلا هاء على المعروف ، ولعله الواقع عند الدارمي وإلا فالذي في الترمذي : أبي عبيدة بهاء ، قال الحافظ العراقي : هكذا في أصل سماعنا من كتاب (الشمائل) أبي عبيدة بزيادة تاء التأنيث ، وهكذا ذكره المزي في (الأطراف) اهـ .

أتي بطعامٍ : خبزٍ ولحمٍ ، فقال صلى الله عليه وسلم : (ناولني الذراع) فنُوِول ذراعاً فأكله .

ثم قال : (ناولني الذراع) فنُوِول ذراعاً فأكله .

ثم قال : (ناولني الذراع) فقال : يا رسول الله إنما هما ذراعان !

فقال : (وأبيك لو سكتّ ما زلتُ أناوَل منها ذراعاً ما دعوتُ به) .

قال : ورواه أحمد وفيه راوٍ لم يسمّ .

فقوله صلى الله عليه وسلم : (ناولني الذراع) في المرة الثالثة – مع العلم أن الشاة لها ذراعان – إنما أراد أن يظهر أمراً معجزاً فيه الإكرام ، وفيه البرهان ، وفيه الإشهاد بالعيان ، ولكن لما لم يجد محلاً قابلاً ، لم تظهر تلك المعجزة .

ولذلك قال الحافظ الزرقاني عند قوله صلى الله عليه وسلم : (أما إنك لو سكتّ لناولتني ذراعاً فذراعاً ما سكتّ) – أي : مدة سكوتك ، لأنه سبحانه يخلق فيها ذراعاً فذراعاً ، معجزةً له صلى الله عليه وسلم ، فحملتِ المناوِلَ عجلتُه المركبةُ في الإنسان على قوله : إنما للشاة ذراعان ، فانقطع المدد ، لأنه إنما كان من مدد الكريم سبحانه ، إكراماً لخلاصة خلقه صلى الله عليه وسلم ، فلو تلقاه المناوِلُ بالأدب ، ساكتاً مُصغياً إلى ذاك العجب : لكان شكراً منه مقتضياً لتشريفه بإجراء هذا المدد على يديه ، ولكنّه تلقّاه بصورة الإنكار ، فرجَع الكرم مولّياً ، لما لم يجد قابلاً ، إذ لا يليق لمشاهدة هذه المعجزة العظيمة – إذ في شهودها نوع تشريف للمطلع عليها – إلا لمن كمل تسليمه ولم يبقَ فيه أدنى حظّ ولا إرادة اهـ .

وهكذا في حادثة تأبير النخل ، لما مرّ صلى الله عليه وسلم بقوم يؤبّرون النخل ، أراد أن يُكرمهم ويُتحِفهم ، وأن يظهر لهم معجزة خارقة للعادة المطردة في إصلاح النخيل بالتأبير ، فيكرمهم خاصة بصلاحه دون تأبير ، إذ هو صلى الله عليه وسلم ممن يعلم بموجب العادة حاجة النخيل إلى تأبير كما يعلمون ، لأنه صلى الله عليه وسلم بينهم مطلع على أمورهم .

ولكن لمّا لم تقبل قلوب بعض أولئك النفر ، ولم تستسلم كل الاستسلام إلى قوله صلى الله عليه وسلم : (لو لم تفعلوا – أي : التأبير – لصلح) بل وقفوا عند معلوماتهم الدنيوية المطردة من فنّ زراعة النخيل ، وأن صلاحه موقوف على التأبير ، فلم يلق الكرم محلاً قابلاً فرجع .

ولذلك ردّهم صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إلى الأسباب المعتادة لديهم ، المعلومة عندهم التي وقفوا عندها ولم يجاوزوها فقال لهم : (أنتم أعلم بأمور دنياكم) – أي : فارجعوا إلى العمل بموجب علمكم بأمور دنياكم .

ويشهد لصحة ما قلناه ، وصواب ما فهمناه ، من أنه صلى الله عليه وسلم لم يخطئ في ذلك ، قولُ الشيخ العارف بالله تعالى ، صاحب (الإبريز) نفعنا الله تعالى بمعارفه ، حين سئل عن حديث تأبير النخل ؟

فقال رضي الله عنه : قوله صلى الله عليه وسلم : (لو لم تفعلوا لصلحت)

كلام حق ، وقول صدق ، وقد خرج منه هذا الكلام على ما عنده من الجزم واليقين بأنه تعالى هو الفاعل بالإطلاق ، وذلك الجزم مبني على مشاهدة سَريان فعله تعالى في سائر الممكنات مباشرة بلا واسطة ولا سبب ، بحيث إنه لا تسكن ذرة ، ولا تتحرك شعرة ،ولا يخفق قلب ، ولا يضرب عرق ، ولا تطرف عين ، ولا يومئ حاجب ، إلا وهو تعالى فاعله مباشرة من غير واسطة وهذا أمر يشاهده النبي صلى الله عليه وسلم كما يشاهد غيره وسائر المحسوسات ، ولا يغيب ذلك عن نظره لا في اليقظة ولا في المنام ، لأنه صلى الله عليه وسلم لا ينام قلبه الذي فيه هذه المشاهدة ، ولا شكّ أن صاحب هذه المشاهدة تطيح الأسباب من نظره ، ويترقّى عن الإيمان بالغيب إلى الشهود والعيان ، فعنده من قوله تعالى : (والله خلقكم وما تعملون) مشاهدة دائمة لا تغيب ، ويقين يناسب هذه المشاهدة وهو أن يجزم بمعنى الآية جزماً لا يخطر معه بالبال نسبة الفعل إلى غيره تعالى ، ولو كان هذا الخاطر قدر رأس النملة .

قال : ولا شك أن هذا الجزم الذي يكون على هذه الصفة ، تُخرق به العوائد ، وتنفعل به الأشياء ، وهو سرّ الله تعالى الذي لا يبقى معه سبب ولا واسطة .

فصاحب هذا المقام إذا أشار إلى سقوط الأسباب ، ونسبةِ الفعل إلى ربّ الأرباب كان قوله حقاً ، وكلامه صدقاً .

قال : وأما صاحب الإيمان بالغيب فليس عنده في قوله تعالى : (والله خلقكم وما تعملون) مشاهدة ، بل إنما يشاهد نسبة الأفعال إلى من ظهرت على يده ، ولا يجذبه إلى معنى الآية ونسبة الفعل إليه تعالى إلا الإيمان الذي وهبه الله تعالى ، فعنده جاذبان :

أحدهما : من ربه وهو الإيمان الذي يجذبه إلى الحق .

وثانيهما : من طبعه وهو مشاهدة الفعل من الغير الذي يجذبه إلى الباطل .

فهو بين هذين الأمرين دائماً ، لكن تارة يقوى الجاذب الإيماني ، فتجده يستحضر معنى الآية السابقة ساعة وساعتين ، وتارة يقوى الجاذب الطبيعي فتجده يغفل عن معناه اليوم واليومين ، وفي أوقات الغفلة ينتفي اليقين الخارق للعادة ، فلهذا لم يقع ما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم لأن – أولئك النفر – من الصحابة رضي الله عنهم فاتهم اليقين الخارق وقتئذٍ ، الذي اشتمل عليه باطنه صلى الله عليه وسلم ، وبحسبه خرج كلامه الحق ، وقوله الصدق صلى الله عليه وسلم .

ولمّا علم صلى الله عليه وسلم العلّة في عدم وقوع ما ذكره – لهم – وعلم أن زوال تلك العلّة ليس من طوقهم رضي الله عنهم – وقتئذٍ – أبقاهم على حالتهم ، وقال : (أنتم أعلم بأمور دنياكم) اهـ كلام (الإبريز) .

وعلى كل حال فإنه لا يقال : أخطأ صلى الله عليه وسلم في قصة تأبير النخل ، كما لا يقال : إنه صلى الله عليه وسلم أخطأ في قوله لأبي عبيد : (ناولني الذراع) في المرة الثالثة ، فإن ذلك ليس من باب الخطأ ، بل من باب الصواب

، وإرادة الإكرام والإتحاف لأولئك النفر ، بأمر فيه اليمن والبركة على وجه خارق للعادة ، ولكن تخلّف ذلك لوجود المانع والعارض .

ونظير هذا : انقطاع مدد الإكرام والبركة من ظرف السمن ، الذي بارك فيه النبي صلى الله عليه وسلم لما عصرته أم مالك ، كما جاء في (صحيح) مسلم وغيره ، عن جابر رضي الله عنه ، أن أم مالك الأنصارية كانت تُهدي النبي صلى الله عليه وسلم من عكّةٍ لها سمناً ، فيأتيها بنوها فيسألونها الأدُم – وفي رواية : فيسألون السمن – وليس عندهم شيء ، فتعمد – أي : تقصد – إلى الظرف الذي كانت تُهدي فيه ، فتجد فيه سمناً ، فما زال يُقيم لها أدُم بيتها حتى عصرته – أي : عصرت الظرف فنفد السمن – فأتت النبي صلى الله عليه وسلم - أي : ذكرت له ذلك - .

فقال صلى الله عليه وسلم : (عصرتيها ؟) ، قالت : نعم .

فقال صلى الله عليه وسلم : (لو تركتيها ما زال – أي : السمن – قائماً) .

وروى مسلم عن جابر رضي الله عنه ، أن رجلاً من أهل البادية ، أتى النبي صلى الله عليه وسلم يَستطعمه ، فأطعمهُ شطرَ وسقٍ من شعير ، فما زال يأكل منه وامرأتُه وضيفُهما – أي : أضيافهما الذين ينزلون عندهما – حتى كاله – أي : فنقص – فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره .

فقال له : (لو لم تكله لأكلتم منه – أي : دائماً يكفيكم – وأقام لكم) أي : مدة الحياة من غير نقص . فالكيل العارض منع المدد الفائض .

وقد بيّن الإمام النووي حكمة ذلك كله حيث قال : قال العلماء : الحكمة في ذلك أن عصرها وكيلَه ، مضادّة للتسليم والتوكل على رزق الله تعالى ، ويتضمن التدبير والأخذ بالحول والقوة ، وتكلّف الإحاطة بأسرار حكم الله تعالى وفضله فعوقب فاعله بزواله . اهـ .[1]

---

[1] انظر (شرح) مسلم ١٥ : ٤١

قال الحافظ الزرقاني : ولا يعارض هذا قوله صلى الله عليه وسلم : (كِيلوا طعامكم يبارك لكم فيه) لأنه فيمن يخشى الخيانة ، أو كيلوا ما تخرجونه للنفقة لئلا يخرج أكثر من الحاجة أو أقل ، بشرط بقاء الباقي مجهولاً ، أو كيلوا عند الشراء ، أو عند إدخاله المنزل اهـ .

أما قضيةُ الحُباب بن المنذر يوم بدر : فهي كما روى ابن إسحاق [1] أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج يُبادرهم إلى الماء ، حتى جاء إلى ماءٍ في بدر ، فنزل به .

فقال الحُباب بن المنذر : يا رسول الله هذا منزلٌ أنزلكه الله ، لا نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ .

فقال صلى الله عليه وسلم : (بل هو الرأي والحرب والمكيدة) .

فقال الحباب : فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس ، حتى تأتي أدنى ماءٍ من القوم فننزل ، ثم نغوّر [2] ما وراءه من الطلب ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤها ماءً ، فنشرب ولا يشربون – أي : المشركون - .

فقال صلى الله عليه وسلم : (أشرتَ بالرأي) .

وعند ابن سعد : فنزل جبريل فقال : (الرأي ما أشار به الحباب) .

فليس في هذا الحديث ما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان مخطئاً في رأيه ، لأن هذه الواقعة ليست من باب إلزام القضية أو التزامها ، إنما هي من باب عرض القضية ، لإبداء رأي أهل الرأي والخبرة في ذلك ، على عادته صلى الله عليه وسلم من عرضه أمثال هذه الأمور على أهل الرأي من الصحابة ، ومشاورتهم فيها .

---

[1] انظر (سيرة) ابن هشام وغيرها .

[2] بالغين المعجمة وشد الواو أي : ندفنها ونذهبها – كما في (شرح المواهب)

وليس ذلك من باب أنه رأي رآه صلى الله عليه وسلم واستحسنه والتزمه ، ورواح يحمل الناسَ عليه ويُلزمهم به ! بل من باب عرض القضية للرأي والمشاورة فيها .

ويدل على ذلك صريح قوله صلى الله عليه وسلم للحباب : (أشرتَ بالرأي) فكان موقفه صلى الله عليه وسلم موقفَ المستشير الذي عرض القضية ولم يلتزمها ، ولو أنه صلى الله عليه وسلم رأى ذلك أو التزم ذلك لحمل الصحابة على ذلك ولاستمرّ على ذلك صلى الله عليه وسلم .

إفاضته صلى الله عليه وسلم بالبركات والخيرات

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فياضاً بالخيرات والبركات ، والأسرار والأنوار ، على القوابل المستعدة ، والمتوجّهة المستمدة .

روى البخاري ، وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ضمّني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صدره وقال : (اللهم علّمه الكتاب) .

فقد نال ابن عباس بهذه الضمّة والدعوة فهماً عظيماً في كتاب الله تعالى .

وروى البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله إني لأسمعُ منك حديثاً كثيراً أنساه ! .

فقال : (ابسُط رداءك) .

فبسطتُه ، فغرف بيديه ثم قال : (ضُمّه) فضممته فما نسيت شيئاً بعدُ .

هذا لفظ البخاري .

وعند غيره : ثم قال : (ضُمّه إلى صدرك) فضممتُه ، فما نسيتُ حديثاً بعدُ .

وروى أبو نعيم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : (ألا تسألني من هذه الغنائم ؟) .

قلت : أسألك أن تعلّمني مما علّمك الله .

قال : فنزع نمِرةً على ظهري ووسّطها بيني وبينه ، فحدّثني ، حتى إذا استوعبتُ حديثه قال : (اجمعها فصُرها إليك) .

قال أبو هريرة : فأصبحتُ لا أسقِط حرفاً مما حدثني [1] .

وفي هذا إفاضةُ الحفظِ على أبي هريرة رضي الله عنه ، حتى إنه ما نسي حديثاً بعدُ .

ومن ذلك إفاضته صلى الله عليه وسلم العلمَ بالقضاء على سيدنا علي كرم الله تعالى وجهه

حين أرسله إلى اليمن :

ففي (المسند) و (السنن) وكذلك روى البيهقي والحاكم وصححه عن علي

رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فقلت : (يا رسول الله تبعثني وأنا شابٌ أقضي بينهم ولا أدري ما القضاء ؟

فضرب صلى الله عليه وسلم بيده في صدري وقال : (اللهم اهد قلبه وثبّت لسانه) .

فو الذي فلق الحبّة ، ما شككتُ في قضاءٍ بين اثنين بعدُ) .

وأورده الحافظ ابن كثير في (البداية) من طريق أبي يعلى .

وقال جرير بن عبد الله : (يا رسول الله إني لا أثبُتُ على الخيل ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدري حتى رأيتُ أثر أصابعه في صدري وقال : (اللهم ثبّته ، واجعله هادياً مَهدياً) كما في (المسند) .

ومن ذلك إفاضته صلى الله عليه وسلم القوة على سفينة وسمّاه سفينة حيث قال له : (احمل فإنما أنت سفينة) .

---

[1] انظر (الإصابة) ، وما فيها من أنواع الروايات في ذلك

قال : (فلو حملت يومئذٍ وقر بعير أو بعيرين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة أو سبعة ما ثقل عليّ) .

كما في (مسند) أحمد وغيره .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يغمسُ يده في الماء ، لتحلّ فيه البركة والشفاء :

روى الإمام مسلم وغيره عن أنس رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الغداة جاء خَدَم المدينة بآنيتهم ، فيها ماء ، فلا يأتونه بإناء إلا غمس فيه يدَه ، وربما جاؤوه بالغداة الباردة فيغمس يدَه فيها) .

فكانوا يتبركون بذلك الماء ويستشفون به .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يغسل يديه ووجهه ، ويمجُّ في الماء ، ويأمر بالشرب منه والإفراغ على الوجه :

روى الشيخان – واللفظ لمسلم – عن أبي موسى الأشعري قال :

(كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالجِعرانة ، بين مكة والمدينة ، ومعه بلال ، فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أعرابي فقال : ألا تنجزني يا محمد ما وعدتني ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أبشر) .

فقال الأعرابي : أكثرتَ عليّ من : أبشِر ! .

فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان فقال لهما : (إنّ هذا قد ردّ البشرى فاقبلا أنتما) .

فقالا : قبلنا يا رسول الله .

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فيه ماء ، فغسل يديه ووجهه ومجّ فيه ، ثم قال :

(اشربا منه ، وأفرِغا على وجوهكما ونحوركما ، وأبشِرا) .

فأخذا القدح ، ففعلا ما أمرهما به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنادتهما أمّ سلمة من وراء السّتر : أفضِلا لأمّكما في إنائكما – فأفضَلا منه طائفةً) .

وفي هذا تكريم لأبي موسى وبلال رضي الله عنهما ، لأن في غُسالة أطرافه أسراراً وأنواراً ، وبركات ورحَمات .

وروى البخاري عن جابر رضي الله عنه قال : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودني وأنا مريض لا أعقل – وفي رواية : فوجدني قد أغمي عليّ – فتوضأ وصبّ عليّ من وَضوئه ، فعقلتُ – أي : أفقتُ من الإغماء – فقلت : يا رسول الله لمن الميراثُ ؟ إنما يرثني كلالة ! فنزلت آية الفرائض .

وفي (الصحيحين) عن أبي جُحَيفة رضي الله عنه أنه قال : (خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة – أي : الظهيرة – فأتي بوَضوءٍ ، فتوضأ ، فجعل الناسُ يأخذون من فضل وضوئه فيتمسّحون به ، وصلّى النبي صلى الله عليه وسلم الظهر) الحديث . وروى الإمام أحمد عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال : (رأيتُ قُبّةً حمراء من أدَم – أي : جلد – لرسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيتُ بلالاً خرج بوَضوئه صلى الله عليه وسلم ليصبّه – أي : ليُريقه – فابتدره الناس ، فمن أخذ منه شيئاً تمسّح به ، ومن لم يجد منه شيئاً أخذ من بلل يد صاحبه) .

وروى الطبراني عن عبد الرحمن بن الحارث بن أبي مرداس السلمي قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فدعا بطَهور ، فغمس يده فتوضأ فتتبّعناه – أي : ماء الوضوء – فحسوناه – أي : شربناه - .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (ما حملكم على ما فعلتم به ؟) .

قلنا : حبُّ الله ورسوله ! .

قال : (فإن أحببتم أن يُحبّكم الله ورسوله : فأدّوا إذا ائتُمنتُم ، واصدُقوا إذ حدّثتُم ، وأحسِنوا جِوار من جاورَكم) .

فكانت الصحابة يحرصون على غُسالة أطرافه صلى الله عليه وسلم ، وعلى ماء وضوئه ، حباً في الله ورسوله ، وإيماناً منهم بما يعلمون من خصائصه صلى الله عليه وسلم التي خصّه الله تعالى بها ، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُقرُّهم على ذلك دون إنكار .

مسحاته الشريفة صلى الله عليه وسلم وآثاره الطيبة

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مسح على وجِع ذهب وجَعه بإذن الله تعالى .

وإذا مسح على مريض أو جريح برئ بإذن الله تعالى .

وإذا مسح على صدر ضعيف أو خائف قَوِيَ وأمِنَ بإذن الله تعالى .

وإذا مسح على وجه مسلم بقيت نَضارة الشباب في وجهه مهما كبِرت سِنُّه .

روى البخاري عن السائب بن يزيد قال : (ذهبت بي خالتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن ابن أختي وَجِعٌ – فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسي ودعا لي بالبركة وتوضأ ، فشربتُ من وَضوئه صلى الله عليه وسلم) .

وروى الطبراني عن أبيض بن حمّال : (أنه كان بوجهه حزازة – يعني القُوباء – فالتقمت أنفه ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح على وجهه فلم يُمس

ذلك اليوم وفي أنفه أثر)[1] .

وعن عطاء مولى السائب بن يزيد قال : (رأيتُ مولاي السائب بن يزيد لحيته بيضاء ورأسه أسود .

فقلت : يا مولاي ما لرأسكَ لا يبيضُّ ؟! .

---

[1] قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني ورجاله ثقات ، وثقهم ابن حبان اهـ .

فقال له : لا يبيضّ رأسي أبداً ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مضى – أي : مرّ – وأنا غلام ألعب مع الغلمان ، فسلّم وأنا فيهم ، فرددتُ عليه السلام ، فدعاني فقال لي : (ما اسمُكَ ؟) فقلت : السائب بن يزيد ابن أخت النّمِر .

فوضع يده صلى الله عليه وسلم على رأسي وقال : (بارك الله فيك) .

قال السائب : فلا يبيضُّ موضع يد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبداً)[1] .

وعن حنظلة بن حِذيَم قال : (وفدتُ مع جدي حِذيَم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأدناني رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسح رأسي وقال : (بارك الله فيك)) .

قال الراوي عن حنظلة : فلقد رأيت حنظلة يؤتى بالرجل الوارمِ وجههُ ، أو الشاةِ الوارمِ ضرعُها فيقول : (بسم الله ، على موضع كفّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيمسحه ، ثم يمسح الوارم فيذهب الورم [2]) .

وعن عائذ بن عمرو رضي الله عنه قال : (أصابتني رمية – وأنا أقاتل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين – في وجهي ، فلما سالت الدماء على وجهي وصدري إلى ثُندوَتي ، وضع النبي صلى الله عليه وسلم يده ثم دعا لي) .

قال حَشرج : فكان عائذ يخبرنا بذلك كلّه في حياته ، فلما مات وغسلناه ، نظرنا إلى ما كان يصف لنا من أثر يد رسول الله صلى الله عليه وسلم التي مسّها ما كان يقول

---

[1] قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني في الثلاثة ثم قال : ورجال (الصغير) و (الأوسط) ثقات .

[2] قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني في (الأوسط) وأحمد ورجاله ثقات وقال الزرقاني : ورواه البخاري في (تاريخه) وأبو يعلى وغيرهم .

لنا من صدره ، فإذا غرّةٌ – أي : بياض – سائلة كغُرة الفرس . رواه الطبراني والحاكم وغيرهما .

وعن عمرو بن ثعلبة الجهني قال : (لقيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمتُ ، فمسَحَ رأسي) . قال الراوي : فأتَت على عمرو مائة سنة وما شاب موضعُ يد رسول الله صلى الله عليه وسلم من رأسه [1] .

وعن عبد الله بن هلال الأنصاري رضي الله عنه قال : (ذهب بي أبي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله اُدع الله له .

قال عبد الله : فما أنسى وَضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على رأسي ، حتى وجدتُ بَردها ، فدعا لي وبارك عليّ) .

قال الراوي عنه : فرأيت عبد الله بن هلال يصوم النهار ويقوم الليل وقد كبِرت سنُّه [2] أي : بقيت فيه قوة الشباب وعزيمتهم .

وعن عمرو بن أخطب الأنصاري قال : (مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسي ولحيتي ثم قال : (اللهم جَمّله) قال الراوي عنه : فبلغ عمرو بضعاً ومائة سنة وما في لحيته بياض – ولقد كان منبسطَ الوجه ولم ينقبض وجهه حتى مات [3]

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (مسح النبي صلى الله عليه وسلم رأسي ودعا لي بالحكمة) .

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه كما في (المسند) أيضاً أنه قال :

(قلت : يا رسول الله علمني من هذا القول .

---

[1] قال الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله إلى أبي نعيم ثقات

[2] رواه الطبراني وإسناده حسن

[3] رواه الترمذي وحسنه ، والحاكم وابن حبان ، كما في (شرح المواهب) و (مجمع الزوائد) .

قال : فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسي وقال : يرحمك الله فإنك غُلَيّم معلَّم ..))

الحديث . فلقد نال ابن عباس وابن مسعود بتلك المسحة المحمدية على رؤوسهما خيراً كبيراً وعلماً كثيراً .

وعن أبي عطية البكري رضي الله عنه قال : (انطلق بي أهلي إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأنا غلام شاب فمسح على رأسي) .

قال الراوي عنه : فلقد رأيت أبا عطية أسود الرأس واللحيةِ وقد أتت عليه مائة سنة – أي : فلم يشب شعره ببركة تلك المسحة المحمدية صلى الله عليه وسلم .

وعن الحارث بن عمرو السهمي : (أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وهو على ناقته العَضباء ، وكان الحارث رجلاً جسيماً ، فدنا من النبي صلى الله عليه وسلم حتى حاذَى وجهَه بركبة النبي صلى الله عليه وسلم فأهوى نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم فمسح وجهَ الحارث) . فما زالت النضرة على وجه الحارث حتى هلك – أي : مات

رواه الطبراني ورجاله ثقات ، كما في (الإصابة) .

وعن عبد الله بن بُسر رضي الله عنه قال : (وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً – يده على رأسي وقال : (يعيش هذا الغلام قرناً) فعاش مائة سنة) .

وكان في وجهه ثُؤلول فقال صلى الله عليه وسلم : (لا يموت حتى يذهب الثُؤلول من وجهه)

قال الراوي : فلم يمت حتى ذهب الثؤلول من وجهه [1] .

---

[1] قال الحافظ الهيثمي : رواه الطبراني ، والبزار باختصار الثؤلول ، ورجال أحد إسنادي البزار رجال الصحيح غير الحسن بن أيوب الحضرمي وهو ثقة اهـ .

وعن يحيى بن أبي الهيثم قال : سمعتُ يوسف بن عبد الله بن سلام يقول : (أجلسني رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجره ومسح على رأسي وسمّاني : يوسف)

رواه أحمد ورواته ثقات .

وأخرج البغوي من طريق ابن وهب قال : حدثني يعقوب بن عبد الرحمن القارّي قال : (أتى أبي بعبد الرحمن وعبد الله ابني عبدٍ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبرّك عليهما ومسح برؤوسهما ، وقال لعبد الله (هذا عائذ) فكانا إذا حلقا رؤوسهما نبتَ موضعُ يد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الباقي) .

كما في (الإصابة) .

وروى الطبراني وابن السكن عن مالك ابن عمير : (أن النبي صلى الله عليه وسلم وضع يده على رأسه ووجهه ، فعُمّر – أي : طال عمره – حتى شاب رأسه ولحيته وما شاب موضع يد النبي صلى الله عليه وسلم من رأسه ولحيته) .

وروى الزبير بن بكار في (أخبار المدينة) عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد : (أن النبي صلى الله عليه وسلم مسح رأس عبادة بن سعد بن عثمان الزُّرقي ودعا له فمات وهو ابن ثمانين سنة وما شاب) .

ولو تتبعنا ما ورد في ذلك لعجز القلم عن إحصاء ذلك ، وإن هذه الأحاديث التي أوردناها عن عدة من الصحابة رضي الله عنهم – لهي أكبر دليل قاطع على إيمان الصحابة رضي الله عنهم كبارهم وصغارهم وقوة اعتقادهم بأن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم هو فيّاض بالخيرات والبركات ، والأسرار والأنوار ، ولذا كانوا يحرصون كل الحرص على أن يمنحهم رسول الله مسحةً على وجوههم أو رؤوسهم أو صدورهم ، أو يكرمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بتفلة من تفلاته الشريفة الفيّاضة بالبركات من الله تعالى ،

أو يكرمهم بسؤره الشريف ، أو ماء وضوئه المبارك ، أو مجّةٍ يمجُّها في فمهم ، وذلك لتسري بركاتها في ذواتهم وذراتهم . وهم يعلمون كلّ العلم أن ذلك كلّه من فضل الله تعالى على حبيبه الأكرم صلى الله عليه وسلم ومن إكرامه تعالى وإنعامه عليه صلى الله عليه وسلم .

قال الله تعالى : (وكان فضل الله عليك عظيماً) .

وقال : (وأما بنعمة ربك فحدّث) .

وقال له : (إنا أعطيناك الكوثر) .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي : أعطيناك الخير الكثير ، ومن ذلك الخير الكثير : نهرُ الكوثر في الجنة ، والحوض في الموقف – إلى ما وراء ذلك .

مسحاته الشريفة صلى الله عليه وسلم على الصدور

ليثبت الإيمان في قلوب أصحابها

فمن ذلك قصةُ شيبةَ بن عثمان الأوقصي الذي أسلم يوم الفتح :

قال في (الإصابة) : وكان شيبة ممن ثبت يوم حنين بعد أن كان أراد أن يغتال النبي صلى الله عليه وسلم فقذف الله في قلبه الرعب ، فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده على صدره ، فثبت الإيمان في قلبه ، وقاتل بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم . رواه ابن أبي خيثمة .

قال في (الإصابة) وذكره ابن إسحاق في (المغازي) بمعناه ، وأخرجه ابن سعد عن الواقدي ، وكذا ساق البغوي بإسناد آخر عن شيبة ، وفيه : قال شيبة : فجئتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم من خلفه ، فدنوتُ ثم دنوت حتى إذا لم يبق إلا

أن أتِرَه – أقتُله – بالسيف وقع لي شهاب من نارٍ كالبرق ، فرجعتُ القهقرى – أي : إلى الوراء فَزعاً – فالتفتَ إليّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال : (تعالَ يا شيبة) فوضع يده صلى الله عليه وسلم على صدري ، فرفعتُ إليه بصري وهو أحبُّ إليّ من سمعي وبصري .. الحديث .

أي : فصار النبي صلى الله عليه وسلم أحبُّ من سمعه وبصره بعدما وضع يده الشريفة على صدره ، وقد كان قبلُ شديد البغض يحاول أن يغتال النبي صلى الله عليه وسلم ! .

فانظر في أثر هذه المسحة المحمدية كيف حوّلته من حَال إلى حال ! .

ومن ذلك : قصة أبي محذورة التي جاءت في (السنن) و (مسند) أحمد وفيه : أنا أبا محذورة قال : خرجتُ في نفرٍ فكنا ببعض طريق حنين ، فقَفَل رسول الله صلى الله عليه وسلم – أي : رجع – من حنين ، فلقينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فأذّن مؤذنُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعتُ صوت المؤذّن ونحن متنكّبون – فصرخنا نحكيه ونستهزئ به .

فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الصوت ، فأرسل إلينا ، إلى أن وقفنا بين يديه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أيُّكم الذي سمعتُ صوته قد ارتفع ؟) .

فأشار القوم كلُّهم إليّ – وصدقوا – فأرسلهم كلّهم وحبسني ، فقال : (قم فأذّن بالصلاة) . فقمتُ ولا شيء أكره إليّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا مما يأمرني به ، فقمتُ بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فألقى إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم التأذينَ هو نفسُه فقال :

(الله أكبر الله أكبر ..) إلى آخر الأذان .

ثم دعاني حين قضيتُ التأذين فأعطاني صرّةً فيها شيء من فضّة ، ثم وضع صلى الله عليه وسلم يده على ناصية أبي محذورة ، ثم أمرّ على وجهه مرتين ،

ثم مرتين على يديه ثم بلغت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم سُرّة أبي محذورة ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(بارك الله فيك).

قال أبو محذورة : فقلت : يا رسول الله مُرني بالتأذين بمكة !

فقال : (قد أمرتك به) .

قال أبو محذورة : فذهب كل شيء كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من كراهية ، وعاد ذلك محبةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. الحديث .

وجاء في رواية أخرى : وكان أبو محذورة لا يجزُّ ناصيته ولا يفرِقُها ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مسح عليها .

أي : فهو يريد بقاء بركتها .

فانظر في أثر هذه المسحة المحمدية كيف حَولت المبغض اللدود إلى عاشق ودود .

ومن ذلك : قصة حرملة بن زيد رضي الله عنه - يأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بطرف لسانه ويدعو له ، فيذهب النفاق من صدره :

روى الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاء حرملة بن زيد فجلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

يا رسول الله الإيمان ها هنا – وأشار إلى لسانه – والنفاقُ ها هنا – وأشار

إلى صدره – ولا يذكر الله إلا قليلاً .

فسكتَ عنه النبي صلى الله عليه وسلم فردّد ذلك عليه حرملة – أي : يشكو أمره إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بطرف لسان حرملة فقال : (اللهم اجعل له لساناً صادقاً ، وقلباً شاكراً ، وارزقه حبّي وحبّ من يحبُّني ، وصَيّر أمره إلى الخير) .

فقال حرملة : يا رسول الله إن لي إخواناً منافقين كنت فيهم رأساً ألا أدلُّك عليهم ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (مَن جاءنا كما جئتنا استغفرنا له كما استغفرنا لك ، ومن أصرّ على ذنبه فالله أولى به ، ولا نخرق على أحدٍ سِتراً)[1] .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح وجه قتادة بن ملحان فيصير كالمرآة

عن أبي العلاء بن عمير قال : (كنت عند قتادة بن ملحان حيث حضر فمرّ الرجل في أقصى الدار قال : فأبصرته في وجه قتادة ! .

قال : وكنت إذا رأيته كأن على وجهه الدهان – كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مسح وجهه) رواه الإمام أحمد ، وقال في (مجمع الزوائد) : ورجاله رجال الصحيح .

قال في (الإصابة) : وأخرج ابن شاهين عن حيان بن عمير قال :

(مسح النبي صلى الله عليه وسلم وجه قتادة بن ملحان ثم كبّر فبليَ منه كل شيء غير وجهه)

قال : (فحضرته عند الوفاة فمرّت امرأة فرأيتُها في وجهه كما أراها في المرآة) اهـ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيد عين قتادة بن النعمان بعد سقوطها

روى الطبراني والبيهقي في (الدلائل) عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أن عينه ذهبت يوم أحد ، فجاء النبيّ صلى الله عليه وسلم فردّها فاستقامت .

---

[1] قال في (مجمع الزوائد) : ورجاله رجال الصحيح اهـ وأورده في (الإصابة) وعزاه أيضاً إلى ابن منده وغيره .

وروى الطبراني وابن شاهين عن (قتادة بن النعمان رضي الله عنه أنه أصيبت عينه يوم أحد ، فجاء النبيّ صلى الله عليه وسلم فردّها فاستقامت .

وروى الطبراني وابن شاهين عن (قتادة بن النعمان رضي الله عنه أنه أصيبت عينه يوم أحد ، فوقعت على وجنته ، فردّها النبي صلى الله عليه وسلم فكانت أصحّ عينيه [1] .

وجاء في رواية الطبراني وأبي نعيم عن قتادة قال : كنت أتّقي السّهام بوجهي دون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان آخرها سهماً ندرت – أي : سقطت – منه حدقتي ، فأخذتها بيدي وسعيتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما رآها في كفّي دمعت عيناه فقال : (اللهمّ قِ قتادةَ كما وقى وجه نبيك ، فاجعلها أحسنَ عينيه وأحدّهما نظراً) .

فكانت أحسنَ عينيه وأحدّهما نظراً .

وفي رواية : وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى [2] .

وكان صلى الله عليه وسلم يمسح ضرعَ الشاة فيدرّ اللبن منها :

فمن ذلك : حديث أبي قِرصافة قال : كان بدءُ إسلامي أني كنتُ يتيماً بين أمي وخالتي ، وكان أكثر ميلي إلى خالتي ، وكنت أرعى شُويهاتٍ لي .

فكانت خالتي كثيراً ما تقول لي : يا بني لا تمُرّ إلى هذا الرجل – تعني النبي صلى الله عليه وسلم – فيُغويَك ويُضلّك .

فكنت أخرج حتى آتي المرعى ، وأترك شويهاتي وآتي النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا أزالُ أسمع منه ، ثم أروّح غنمي ضُمراً يابساتِ الضروع .

---

[1] انظر (الإصابة)
[2] كما في (شرح المواهب)

وقالت لي خالتي : ما لغنمكَ يابسات الضروع ؟ .

قلت : ما أدري .

ثم عدت إليه اليوم الثاني ، ففعل كما فعل في اليوم الأول ، غير أني سمعته يقول : (يا أيها الناس ! هاجروا ، وتمسّكوا بالإسلام ، فإن الهجرة لا تنقطع ما دام الجهاد) .

ثم إني رحتُ بغنمي كما رحت في اليوم الأول ، ثم عدت إليه في اليوم الثالث ، فلم أزل عنده أسمع منه ، حتى أسلمت وبايعته ، وصافحتُه وشكوت إليه أمر خالتي وأمر غنمي .

فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : (جئني بالشياه) .

فجئته بهنّ ، فمسح ظهورهنّ وضروعهنّ ، ودعا فيهن بالبركة ، فامتلأن شحماً ولبناً .

فلما دخلتُ على خالتي بهنّ – أي : بالشياه – قالت : يا بنيّ هكذا فارعَ !

قلت : يا خالة ما رعيتُ إلا حيث أرعى كل يوم ، ولكن أخبركِ بقصتي – وأخبرتها بالقصة ، وإتياني النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأخبرتها بسيرته وبكلامه .

فقالت أمي وخالتي : إذهب بنا إليه .

فذهبت أنا وأمي وخالتي ، فأسلمن وبايعن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم [1] .

وقد تقدم حديث أم معبد الخزاعية في أول الكتاب لما مرّ عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ذلك مسحه صلى الله عليه وسلم على شاة لم يَنزُ عليها الفحل ، لمّا مرّ على ابن مسعود وهو يرعى غنماً لعقبة .

---

[1] قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني ورجاله ثقات اهـ وتقدم آخر هذا الحديث في بحث كلامه صلى الله عليه وسلم وحلاوة منطقه .

كما جاء في (مسند) الإمام أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (كنتُ أرعى غنماً لعقبة بن أبي مُعيط ، فمرّ بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر .

فقال صلى الله عليه وسلم : (يا غلام هل من لبن) ؟ .

قال ابن مسعود فقلت : نعم ، ولكني مؤتمن .

قال : (فهل من شاة لم ينزُ عليها الفحل ؟) .

فأتيته بشاةٍ ، فمسح صلى الله عليه وسلم ضرعها فنزل لبن ، فحلبه في إناء فشرب وسقى أبا بكر

وفي رواية : (فشرب وشرب أبو بكر ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : للضرع : (أقلص) – أي : أمسك – فقلص) .

قال ابن مسعود : ثم أتيته بعد هذا فقلت : يا رسول الله علّمني من هذا القول)

وفي رواية : (علمني من هذا القرآن) .

فمسح رأسي وقال : (يرحمك الله فإنّك غُليّم معلَّم) .

قال : (فأخذتُ من فيه صلى الله عليه وسلم سبعين سورة) .

تقبيل الصحابة يد النبي صلى الله عليه وسلم وأطرافه

تعظيماً وتبركاً به واقتباساً من أنواره صلى الله عليه وسلم

عن أسامة بن شَريك قال : (أتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابُه كأنهم على رؤوسهم الطير ، فسَلّمتُ ثم قعدتُ ، فلما قاموا من عنده جعلوا يقبّلون يده

قال شريك : فضممتُ يده إليّ ، فإذا هي أطيبُ من ريح المسك) رواه ابن خزيمة والحاكم .

وعن كعب بن مالك : (أنه لما نزل عذرُه أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخذ بيده فقبّلها)

رواه الطبراني .

تقبيل الصحابة يد النبي صلى الله عليه وسلم وقدميه الشريفتين

عن حصن بن وَحوح الأنصاري ، أن طلحة بن البراء رضي الله عنه ، لما لقي النبيّ صلى الله عليه وسلم جعل يدنو منه ويَلصَق برسول الله صلى الله عليه وسلم ويقبل قدميه .

وقال : يا رسول الله مُرني بما أحببتَ ، ولا أعصي لك أمراً .

فعجب لذلك النبي صلى الله عليه وسلم وهو غلام – أي : شاب حدَث – فقال له عند ذلك : (اذهب فاقتل أباك) .

فخرج مولّياً ليفعل فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : (أقبِل ، فإني لم أبعث بقطيعةِ رحم) الحديث [1] .

وروى البيهقي والطبراني وأبو يعلى بسند جيد عن مزيدة بن مالك قال : بينما النبي صلى الله عليه وسلم يحدّث أصحابه قال لهم : (سيطلع عليكم من ها هنا ركبٌ هم من خير أهل المشرق) .

فقام عمر بن الخطاب نحوهم ، فلقي ثلاثةَ عشرَ راكباً فقال لهم : مَن القوم ؟ .

قالوا : من بني عبد القيس .

قال : مَن أقدمَكم هذه البلاد ؟ التجارة ؟ .

قالوا : لا .

قال : أما إنّ النبي صلى الله عليه وسلم قد ذكركم آنفاً – أي : الآن - .

---

[1] عزاه في (الإصابة) بهذا اللفظ إلى البغوي وابن أبي خيثمة ، وابن أبي عاصم ، والطبراني ، وابن شاهين ، وابن السكن – ثم قال : وغيرهم .

ثم مشى معهم حتى أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقال عمر للقوم : هذا صاحبكم الذي تريدون

فرموا بأنفسهم عن ركائبهم ، فمنهم من مشى إليه ، ومنهم من هرول ، ومنهم من سعى ، حتى أتوا النبي صلى الله عليه وسلم .

وفي حديث الزراع بن عامر ، عند أبي داود والبيهقي ، وكان من وفد عبد القيس ، قال : لما قدمنا المدينة فجعلنا نتبادر من رواحلنا ، نقبّل يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجله [1] .

وانتظر الأشجُّ حتى أتى عيبَته – صندوق صغير – فلبس ثوبيه – الأبيضين – ثم جاء يمشي حتى أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبّلها .

فقال له صلى الله عليه وسلم : (إن فيك خَصلتين – وفي رواية : خلّتين – يُحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة) .

فقال : يا رسول الله أخلتين تخلّقتُ بهما أم جبلني الله عليهما ؟

قال : (بل جَبَلَك الله عليهما) .

فقال : الحمد لله الذي جبلني على خصلتين يحبهما الله ورسوله .

وعند أبي يعلى [2] : قديماً كانا فيّ أم حديثاً ؟ .

فقال صلى الله عليه وسلم : (بل قديماً) .

فقال : الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله .

ومن ذلك : تبرُّك عمرو بن أبي عمرو المزني بقَدَم النبي صلى الله عليه وسلم .

---

[1] انظر (سنن) أبي داود : باب في قبلة الرجل ٤ : ٤٨٣

[2] انظر (شرح) الزرقاني على (المواهب) ٤ : ١٦ ، وانظر (مجمع الزوائد) ٨ : ٤٢

قال في (الإصابة) : أخرج حديثه النسائي والبغوي وابن السكن وابن منده بعلّوٍ من طريق هلال بن عامر عن رافع بن عمرو المزني قال : إني لفي حجة الوداع خماسٍ أو سداسٍ ، فأخذ أبي بيدي حتى انتهينا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بمنى يوم النحر ، فرأيته صلى الله عليه وسلم يخطب على بغلة شهباء .

فقلت لأبي : من هذا ؟ .

فقالَ : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : فدنوتُ حتى أخذتُ بساقه ثم مسحتُها حتى أدخلتُ كفّي فيما بين أخمص قدمه والنعل – فكأني أجِدُ بَردها على كفّي .

فهو يتمسّح متبرّكاً بقدم النبي صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك : تقبيل عبد الله بن أبي سبقة – ويقال سبقه – ساق النبي صلى الله عليه وسلم ورجله :

روى الإمام البغوي عن عبد الله بن أبي سبقة رضي الله عنه قال : (أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو واقف على بعيره – زاد ابن منده في روايته : في حجة الوداع – وكأن رجله في غرزةٍ لحماره ، فاحتضنتها ، ففزَعني بالسوط .

فقلت : يا رسول الله القصاصَ .

قال : فناولني النبي صلى الله عليه وسلم السوط ، فقبّلتُ ساقه ورجله صلى الله عليه وسلم) . كما في الإصابة .

تقبيل الصحابة مواضع من جسده الشريف صلى الله عليه وسلم

قال أبو داود في (سننه) : باب في قُبلة الجسد .

ثم أسند إلى عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن أسيد بن حُضير ، بينما هو يحدث القوم – وكان فيه مزاح – بينا يُضحكهم ، فطعنه النبي صلى الله عليه وسلم في خاصرته بعود .

فقال : اصبِرني – أي : أقدنِي - .

فقال : (اصطَبِر) .

فقال أسيد : إن عليك قميصاً وليس عليّ قميص .

فرفع النبي صلى الله عليه وسلم عن قميصه ، فاحتضنه وأخذ يقبّل كَشحه وقال : إنما أردتُ هذا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى البيهقي في (سننه) بإسناد قوي – كما قال الذهبي – عن ابن أبي ليلى قال : كان أسيد بن حضير رجلاً صالحاً ضاحكاً مليحاً ، فبينا هو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدّث القومَ ويُضحكهم ، فطعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصبعه في خاصرته .

فقال أسيد : أوجعتني يا رسول الله ! .

فقال له صلى الله عليه وسلم : (فاقتصّ) .

قال : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم إن عليك قميصاً ، ولم يكن عليّ – لما طعنتني – قميص ؟ قال : فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم قميصه ، قال : فاحتضنه أسيد ، ثم جعل يقبّل كشحه – وقال : بأبي وأمي يا رسول الله أردتُ هذا [1] .

وروى ابن إسحاق عن حَبان بن واسع ، عن أشياخ من قومه : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عدّل الصفوف يوم بدر ، وفي يده قِدح – سهم – يعدّل به القوم ، فمرّ بسَواد بن غزية رضي الله عنه ، فطعن في بطنه .

فقال : أوجعتني فأقِدني .

فكشف له صلى الله عليه وسلم عن بطنه ، فاعتنقه سواد وقبّل بطنه .

فقال له صلى الله عليه وسلم : (ما حملَكَ على هذا يا سواد ؟) .

---

[1] انظر (كشف الخفاء) ٢ : ٤١

فقال : يا رسول الله حضر ما ترى – يعني : القتال – فأردتُ أن يكون آخر العهد بك أن يمسّ جلدي جلدَك .

فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير)[1] .

وقال الحافظ في (الإصابة) : قال ابن عبد البر : وهذه القصة لسواد بن عمرو ، قال ابن حجر : قلت : لا يمتنع التعدد لاسيما مع اختلاف السبب ، ثم قال الحافظ ابن حجر : وأخرج البغوي من طريق عمرو بن سليط ، عن الحسن ، عن سواد بن عمرو وكان يصيب في الخَلوق [2] فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم .

وفيها : (فلقيه ذات يوم ومعه جريدة ، فطعنه في بطنه .

فقال : أقِدني يا رسول الله ! فكشف له عن بطنه فقال : (اقتصّ) فألقى الجريدة وطفق يقبّله) – أي : يقبّل بطن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

تبرك الصحابة بأجزاء النبي صلى الله عليه وسلم وآثاره في حياته وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم

كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتبرّكون بأجزاء النبي صلى الله عليه وسلم وآثاره ، وثيابه وطعامه وشرابه ، وذلك لإيمانهم بأن أجزاءه الشريفة ، وآثاره الكريمة ، هي مليئة بالخيرات والبركات ، لأنها أجزاؤه وآثاره صلى الله عليه وسلم .

تبرّك الصحابة بشَعر النبي صلى الله عليه وسلم وتكريمهم له وحرصهم عليه :

---

[1] انظر (البداية) لابن كثير و (الإصابة) ٤ : ٩٤

[2] الخلوق : طيب مركب من الزعفران أو غيره ، وتغلب عليه الحمرة والصفرة ، وإنما نهي عنه لأنه من طيب النساء اهـ (نهاية)

روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والحلّاق يحلقه ، وأطاف به أصحابه ، فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل) .

أي : تعظيماً لها وتبركاً بها .

وفي (الإصابة) جُعشُم الخير بايَع تحت الشجرة وكساه النبي صلى الله عليه وسلم قميصه ونعليه وأعطاه من شعره صلى الله عليه وسلم .

وفي (الصحيحين) وغيرهما ، عن أنس رضي الله عنه : (أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى الجمرة فرماها ، ثم أتى منزله بمنىً ، ونحر ، ثم قال للحلاق : (خذ) وأشار إلى جانبه الأيمن ، ثم الأيسر ، ثم جعل صلى الله عليه وسلم يعطيه – أي : يعطي شعره – الناس) . وذلك – كما قال الحافظ الزرقاني – للتبرك به ، واستشفاعاً إلى الله تعالى بما هو منه صلى الله عليه وسلم وتقرباً بذلك إليه اهـ .

وفي رواية : (أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للحلاق : (ها) وأشار بيده إلى الجانب الأيمن ، فحلق ، فقسم شعره صلى الله عليه وسلم بين من يَديه – من الصحابة – ثم أشار إلى الحلاق إلى الجانب الأيسر ، فحلق ، فأعطاه لأم سُليم بنت مِلحان والدة أنس) .

وعند الإمام أحمد زيادة : (وقلّم صلى الله عليه وسلم أظفاره ، وقسمها بين الناس) .

وفي رواية لهما : (أنه صلى الله عليه وسلم دفع الأيسر إلى أبي طلحة وقال له : (اقسمه بين الناس) . وفي رواية : (أنه صلى الله عليه وسلم أعطى شعر الجانب الأيمن ، ثم أعطى الجانب الأيسر ، وقال : (اقسمه بين الناس)) .

قال الإمام النووي : وفيه التبرك – اي : دليل التبرك – بشعر النبي صلى الله عليه وسلم وجواز اقتنائه اهـ .

وقال أبو عبد الله الأبّيّ : إعطاؤه صلى الله عليه وسلم لأبي طلحة ليس بمخالف لقوله : (اقسمه بين الناس) لاحتمال أن يكون أعطاه لأبي طلحة ليفرقه .

ويبقى النظر في اختلاف الروايات في شعر الجانب الأيسر :

ففي الرواية الأولى أنه صلى الله عليه وسلم فرقه كالأيمن .

وفي الرواية الثانية أنه أعطاه أم سليم .

وفي الثالثة أنه أعطاه أبا طلحة .

وفي الرواية الرابعة أنه صلى الله عليه وسلم أعطى الشقين لأبي طلحة .

قال : فيحتمل أنه صلى الله عليه وسلم أعطاه أم سليم لتعطيه لزوجها أبي طلحة ليفرقه ، ويحتمل أنه صلى الله عليه وسلم أعطى الشعر لأبي طلحة على أن يعطيه أبو طلحة لأم سليم زوجته ، لتفرقه على النساء اهـ .

أي : فيكون شعر الأيمن للرجال ، وشعر الأيسر للنساء .

قال الحافظ الزرقاني : إنما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم شعره في أصحابه ، ليكون بركةً باقية بينهم ، وتذكرةً لهم ، وكأنه صلى الله عليه وسلم أشار بذلك إلى اقتراب الأجل ، وخَصّ أبا طلحة بالقسمة ، التفاتاً إلى هذا المعنى ، لأنه هو الذي حفر القبر الشريف ولَحَد له وبنى فيه اللّبِن اهـ .

وروى البخاري عن محمد بن سيرين قال : قلتُ لعَبيدة السلماني : عندنا من شعر النبي صلى الله عليه وسلم أصبناه – أي : حصل لنا – من قِبَل – أي : من جهة – أنس ، أو من قِبل أهل أنس .

فقال عبيدة : لأن تكون عندي شعرة منه ، أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها .

وفي رواية الإسماعيلي : أحبُّ إليّ من كل صفراء وبيضاء – يعني : الذهب والفضة .

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : (لما حلق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه – أي : يوم حجة الوداع – كان أبو طلحة أوّل من أخذ من شعره صلى الله عليه وسلم) .

وفي تقسيمه صلى الله عليه وسلم شعره الشريف يوم حجة الوداع ، بيانٌ منه وإعلام بما أودع الله تعالى في جسمه وأجزائه الشريفة ، من الخيرات والبركات ، وبما خصّه به من الأسرار والأنوار ، وأن ذلك من باب الحقيقة والواقع وليس من باب الظنّ أو التخيُّل .

انتصار خالد بن الوليد واستفتاحه في حروبه بشعر النبي صلى الله عليه وسلم :

عن جعفر بن عبد الله بن الحكم أن خالد بن الوليد فقدَ قلنسوةً له يوم اليرموك

فقال : اطلبوها – فلم يجدوها .

فقال : اطلبوها – فوجدوها ، فإذا هي قلنسوة خَلِقة – أي : ليست بجديدة .

فقال خالد : اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلق رأسه ، فابتدر الناس جوانب شعره ، فسبقتهم إلى ناصيته ، فجعلتها في هذه القلنسوة ، فلم أشهد قتالاً وهي معي إلا رزقتُ النصر .

قال الحافظ الهيثمي : رواه الطبراني وأبو يعلى بنحوه ، ورجالهما رجال الصحيح ، وجعفر سمع من جماعة من الصحابة ، فلا أدري سمع من خالد أم لا ، وروى الإمام أحمد عن محمد بن عبد الله بن زيد ، أن أباه حدّثه أنه شهد النبي صلى الله عليه وسلم على المنحر ، هو ورجل من الأنصار ، وهو يقسم الأضاحي ، فلم يُصبه شيء منها ولا صاحبه ، فحلق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه في ثوبه ، فأعطاه – اي : بعضاً – لعبد الله بن زيد .

وقلّم أظفاره ، فأعطاه صاحبه .

قال : فإنه لعندنا – يعني : أن الشعر الشريف عند عبد الله ، وقُلامة أظفاره عند صاحبه .

تبرّك الصحابة بموضع أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم :

روى الإمام أحمد عن جابر بن سَمُرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتي بطعام فأكل منه ، بعث بفضله إلى أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، وكان أبو أيوب يضع أصابعه حيث يرى أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتي النبي صلى الله عليه وسلم بقصعة – أي : إناء فيه طعام – فوجد صلى الله عليه وسلم فيها ريحَ ثوم ، فلم يذقها النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعث بها إلى أبي أيوب ، فنظر أبو أيوب فيها فلم يرَ فيها أثر أصابع النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يذقها .

فأتاه فقال : يا رسول الله لم أرَ فيها أثر أصابعك ؟ ! .

فقال صلى الله عليه وسلم : (إني وجدتُ فيها ريح ثوم) .

فقال أبو أيوب : تبعث إليّ ما لم تأكل ؟ .

فقال صلى الله عليه وسلم : (إني يأتيني الملك) .

قال الحافظ الهيثمي : رجاله رجال الصحيح اهـ ورواه مسلم في (الصحيح)

تبرك الصحابة بسؤر النبي صلى الله عليه وسلم

روى الشيخان عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : (أتي النبي صلى الله عليه وسلم بشراب ، فشرب ، وعن يمينه غلام ، وعن يساره الأشياخ .

فقال صلى الله عليه وسلم للغلام : (أتأذنُ لي أن أعطي هؤلاء ؟) .

فقال الغلام : والله يا رسول الله لا أوثِرُ بنصيبي منك أحداً ، فتلّه – أعطاه – رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في يده – أي : فشرب الغلام – وهو عبد الله بن عباس رضي الله عنه .

تبرك الصحابة بإناء مسه فم النبي صلى الله عليه وسلم

روى الإمام أحمد وغيره ، عن أنس رضي الله عنه : (أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على أمّ سُليم وفي البيت قِربة معلّقة ، فشرب من فيها – أي من فم القربة – وهو قائم ، قال أنس : فقَطَعَت أمُّ سليم فمَ القِربة ، فهو عندنا) .

والمعنى : أن أم سليم قطعت فم القربة الذي هو موضع شربه صلى الله عليه وسلم واحتفظت به في بيتها ، للتبرك بأثر النبي صلى الله عليه وسلم .

وتقدم الكلام على تطيُّب الصحابة بعرق النبي صلى الله عليه وسلم وتبركهم به ، واستشفاؤهم بريقه الشريف صلى الله عليه وسلم .

تبرك الصحابة بثياب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستشفاؤهم بها

روة مسلم عن عبد الله مولى أسماء ، عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، أنها أخرجت إلينا جُبةً طيالسة كسروانية [1] ، لها لِبنةُ [2] ديباجٍ ، وفرجاها مكفوفان بالديباج [3] وقالت : هذه جبة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت عند عائشة ، فلما قُبضت رضي الله عنها قبضتُها – أي : أخذت الجبة – وكان النبي صلى الله عليه و سلم يلبسها ، فنحن نغسلها للمرضى .

وفي رواية : نغسلها للمريض منا إذا اشتكى ، نستشفي بها .

أي : لمخالطتها لعرقه الشريف وملابستها لبدنه الطيّب المبارك صلى الله عليه وسلم .

وروى البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : أتت امرأة ببردة منسوجة فيها حاشيتها ، فقالت : يا رسول الله أكسوك هذه .

---

[1] نوع من الثياب لها علم وحاشية

[2] بكسر اللام وسكون الباء : رقعة – أي : قطعة – في جيب القميص

[3] قال الزرقاني : أي : عمل على جيبها وكمها كفاف من حرير ، وكفة كل شيء : طرفه وحاشيته

فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم محتاجاً إليها فلبسها – وفي رواية ابن ماجه : فخرج إلينا فيها – فرآها عليه رجل من الصحابة ، فقال : يا رسول الله ما أحسن هذه البردة فأكسُنيها ! فقال له صلى الله عليه وسلم : (نعم) .

وفي رواية للبخاري : فجلس ما شاء الله في المجلس ، ثم رجع فطواها ، وأرسل بها إليه .

فلما قام صلى الله عليه وسلم لامه – أي : لام السائلَ – أصحابُه وقالوا للسائل : ما أحسنتَ حين رأيت النبي صلى الله عليه وسلم لبسها محتاجاً إليها ، ثم سألته إياها ، وقد عرفت أنه لا يُسأل شيئاً فيمنعه ؟! – وفي رواية : لا يرد سائلاً .

فقال الرجل : رجوت بركتها حين لبسها النبي صلى الله عليه وسلم لعلّي أكفّن فيها .

تبرك الصحابة بنخامة النبي صلى الله عليه وسلم وبماء وضوئه

جاء في (الصحيحين) – واللفظ للبخاري – من حديث صلح الحديبية قال : ثم إن عروة بن مسعود – الذي جاء وقتئذ وسيطاً عن المشركين في مكة – جعل يرمقُ النبي صلى الله عليه وسلم بعينيه ، قال : فو الله ما تنخّم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم – اي : من الصحابة – فدلك بها وجهه وجلده .

وإذا أمرهم – رسول الله صلى الله عليه وسلم – بأمر ابتدروا أمره .

وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه .

وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحدّون النظر إليه تعظيماً له صلى الله عليه وسلم .

فرجع عروة بن مسعود إلى أصحابه – في مكة – فقال : أي قوم ! والله لقد وفدتُ على الملوك ، ووفدتُ على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله إن رأيت – أي : ما رأيت – ملِكاً قطُّ يعظمه أصحابه مثلَ ما يعظم أصحابُ محمدٍ محمداً !

والله إن تنخّم – أي : ما تنخم – نخامةً إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ! ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وَضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ! وما يحدّون النظر إليه تعظيماً له ! وإنه قد عرض عليكم خطةَ رشدٍ فاقبلوها . الحديث .

مداواة النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ببصاقه الشريف واستشفاؤهم بذلك

كان صلى الله عليه وسلم إذا بصق على مريض أو نفث أو تفل على موضع مرضه برئ المريض وشفي بإذن الله تعالى ، وقد وقع من ذلك أمور كثيرة شهيرة ، ولذا كان الصحابة رضي الله عنهم يحرصون كلّ الحرص على الاستشفاء بريقه صلى الله عليه وسلم فمن ذلك : تفله صلى الله عليه وسلم في عينيّ علي كرم الله تعالى وجهه وقد أصابه الرمد الشديد ، حتى إنه لا يستطيع أن يمشي وحده إلا مع رجل يأخذ بيده ، فيبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه فيبرأ من ساعته :

روى الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : (قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر : (لأعطينّ الرايةَ غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يحبُّ الله ورسولَه ، ويحبُّه الله ورسولُه) .

فلما أصبح الناس غدَوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلُّهم يرجو أن يُعطاها .

فقال صلى الله عليه وسلم : (أين عليُّ بن أبي طالب ؟) .

فقالوا : هو يا رسول الله يشتكي عينيه .

قال : (فأرسلوا إليه) فأُتي به .

وفي رواية لمسلم : قال سلمة : فأرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عليّ ، فجئتُ به أقوده أرمد .

فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه ، فبرئ كأنه لم يكن به وجع ..) الحديث ، كما تقدم .

ومن ذلك : نفثاته صلى الله عليه وسلم على ساق سلمة وقد أصيبت يوم خيبر فيبرأ من ساعته :

روى أبو داود وغيره عن يزيد بن عبد الرحمن قال : (رأيت أثر ضربة في ساق سلمة فقلتُ : ما هذه ؟

فقال أصابتني يوم خيبر ضربة – فقال الناس : أصيبَ سلمة ، فأتى بي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنفثَ فيّ ثلاث نفثات فما اشتكيتها حتى الساعة) .

وفي (الإصابة) : أخرج ابن حبان في (صحيحه) والضياء في (المختارة) وقال : قال ابن منده : عمرو بن معاذ الأنصاري كان تفل النبي صلى الله عليه وسلم على رجله حين قُطِعت حتى برأت .

ومن ذلك : نفثه صلى الله عليه وسلم في فم بشير بن عقربة الجهني فتنحلُّ عقدة لسانه : روى إسحاق بن إبراهيم الرملي في (فوائده) عن بشير بن عقربة الجهني : (أن أباه أتى به النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم : (من هذا معك يا عقربة ؟) .

فقال : ابني بحير .

فقال صلى الله عليه وسلم له : (ادنُ) .

فدنوتُ حتى قعدتُ على يمينه ، فمسح صلى الله عليه وسلم على رأسي بيده فقال : (ما اسمك ؟)

قلتُ : بحير يا رسول الله .

فقال صلى الله عليه وسلم : (لا – ولكن اسمك بشير) .

وكانت في لساني عقدة فنفث النبي صلى الله عليه وسلم في فيّ ، فانحلّت العقدة من لساني وابيضّ كل شيء في رأسي – أي : بعد كبر سنه – ما خلا ما وضع صلى الله عليه وسلم يده عليه ، فكان أسود) كما في (الإصابة) .

وروى الطبراني عن محمد بن حاطب قال : (لما قدمت بي أمي من أرض الحبشة حين مات أبي حاطبٌ ، فجاءت أمي إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد أصاب إحدى يديّ حريق من نار .

فقالت : يا رسول الله هذا محمد بن حاطب ابن أخيك ، وقد أصابه هذا الحريق من النار .

قال محمد بن حاطب : فلا أكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا أدري أنفثَ أم مسح على رأسي ، ودعا لي بالبركة وفي ذريتي) ، كما في (مجمع الزوائد) .

قال في (الإصابة) بعد نقله صدرَ هذا الحديث : ورواه أيضاً عبد الرحمن بن عثمان بن محمد الحاطبي عن أبيه عن جده ، أخرجه أحمد وابن أبي خيثمة والبغوي وفيه :

(أن أمه قالت : يا رسول الله هذا محمد بن حاطب وهو أول من سُمّي بك – أي : في الحبشة – قالت : فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسك وتفل في فيك ودعا لك بالبركة) .

ومن ذلك : ذهاب بذاءة اللسان ببركة ريقه الشريف صلى الله عليه وسلم :

أخرج الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه : (أن امرأة بذيّة اللسان ، جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يأكل قديداً فقالت : ألا تطعمني ؟

فناولها مما بين يديه .

قالت : لا إلا الذي في فيك .

فأخرجه صلى الله عليه وسلم فأعطاها ، فألقته في فمها ، فأكلته فلم يُعلَم من تلك المرأة بعد ذلك الأمرُ الذي كانت عليه من البذاءة والذّرابة) .

الماء يطيب ويحلو بريقه الشريف صلى الله عليه وسلم :

أخرج الإمام أحمد وابن ماجه والبيهقي وأبو نعيم عن وائل بن حُجر قال :

(أتي النبي صلى الله عليه وسلم بدلوِ ماء فشرب من الدلو ، ثم صُبّ في البئر – أو قال : ثم مجّ في البئر – ففاح منها مثل رائحة المسك) .

وروى أبو نعيم عن أنس رضي الله عنه : (أن النبي صلى الله عليه وسلم بزق في بئرٍ في دار أنس فلم يكن بالمدينة بئر أعذب منها) .

وروى البيهقي عن أنس رضي الله عنه أنه سئل عن بئر قباء فقال :

(لقد كانت هذه البئر وإن الرجل لينضح على حماره فتنزح .

فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بذَنوب – أي : دلو عظيمة – فسُقي ، فإما أن يكون توضأ منه أو تفل فيه ، ثم أمر به فأعيد في البئر ، فما نزحت بعدُ) .

وقد أخرج ابن سعد عن أنس أيضاً نحو ذلك .

وأخرج ابن السكن عن همام بن نفيل السعدي قال : (قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله حفر لنا بئر فخرجت مالحة فدفع إليّ إداوةً فيها ماء فقال : (صُبّه فيها) فصبّه فيها فعذبت فهي أعذب ماءٍ باليمن) .

الصحابة يتبركون بريقه الشريف صلى الله عليه وسلم

روى البغوي في (معجمه) بإسناده عن ابن عمر رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب كان يقرّب ابن عباس ويقول له : إني رأيتُ رسول الله صلى الله عليه

وسلم دعاك فمسح رأسك وتفل في فيك ، وقال : (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) .

أورد ذلك في (الإصابة) ثم قال : ورواه ابن خيثم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بالمرفوع نحوه اهـ .

وكان الصحابة رضي الله عنهم يأتون بأولادهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليُحنّكهم فيمصُّون ريقه الشريف صلى الله عليه وسلم - وهذا باب واسع جداً .

ومن ذلك : ما جاء في (الصحيحين) عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها وعن أبيها أنها حَملت بعبد الله بن الزبير بمكة .

قالت : فخرجتُ وأنا مُتم – أي : قد دنا وِلادُها – فقدمت المدينة فنزلت بقباء فولدته ، ثم أتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه في حِجره ، ثم دعا بتمرةٍ فمضغها ثم تفَل في فيه – فكان أوّلَ شيءٍ دخل جوفه ريقُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم حنّكه بالتمرة ، ثم دعا له وبرّك عليه فكان أوّل مولودٍ وُلِد في الإسلام) – أي : أول مولود بالمدينة من المهاجرين .

وفي (الصحيحين) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال :

(وُلِد لي غلام فأتيتُ به رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمّاه إبراهيم ، وحنّكه بتمرةٍ ،

ودعا له بالبركة ، ودفعه إليّ) – وكان أكبرَ ولد أبي موسى .

وفي (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه أنه انطلق بابن لأبي طلحة رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال أنس : فلما رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لعلّ أم سُليم وَلَدت ؟) .

قلت : نعم .

قال : فوضعته في حِجره صلى الله عليه وسلم ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعجوةٍ من عجو المدينة – أي : تمرها – فلاكها في فيه صلى الله عليه وسلم حتى ذابت ثم قذفها في فيّ الصبيّ – فجعل الصبيُّ يتلمّظُها – أي : يتطعّمُها –

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (انظروا حبّ الأنصار التمر) فمسح وجهه وسمّاه عبد الله ..) الحديث .

وروى الزبير بن بكار قال : حدثني إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز قال : (وُلد عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، فكان ألطف من وُلد ، فأخذه جده أبو لبابة في خرقة فأحضره عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ما رأيتُ مولوداً أصغر خِلقةً منه

فحنّكه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسح رأسه ودعا له البركة .

قال : فما رؤي عبد الرحمن في قوم إلا فرعهم طولاً ، وزوّجه عمر بنته فاطمة) . كما جاء في (الإصابة) وغيرها .

تبرك الصحابة بدم النبي صلى الله عليه وسلم

أخرج الطبراني والبزار والحاكم والبيهقي وأبو نعيم في (الحلية) من حديث عامر بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه عبد الله بن الزبير قال : (احتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني الدم بعد فراغه من الحجامة وقال : (اذهب يا عبد الله فغيّبه)

وفي رواية : (اذهب بهذا الدم فوارِهِ – أي : أخفه – حيث لا يراه أحد)

قال عبد الله : فذهبت به فشربته ، ثم أتيته صلى الله عليه وسلم .

فقال : ما صنعتَ ؟) – أي : بالدم - .

قلتُ : غيبتُه .

قال : (لعلك شربتَه ؟) قال : نعم .

قال : (ويل لك من الناس ، وويل للناس منك)) .

وفي رواية : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فما حملكَ على ذلك ؟) .

فقال : علمتُ أن دمَكَ لا تُصيبه نارُ جهنم ، فشربته لذلك .

فقال صلى الله عليه وسلم : (ويل لك من الناس ، وويل للناس منك) .

وروى الدارقطني في (سننه) عن أسماء قالت : (احتجم صلى الله عليه وسلم فدفع دمَه لابني عبد الله ، فشربه ، فأتاه جبريلُ فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : (ما صنعتَ ؟) .

قال : كرهتُ أن أصبّ دمك ! .

فقال صلى الله عليه وسلم : (لا تمسُّه النار) ومسح على رأسه وقال : (ويل للناس منك ، وويل لك من الناس)) .

وفي (سنن) سعيد بن منصور من طريق عمرو بن السائب ، أنه بلغه أن مالكَ بن سنان والدَ أبي سعيد الخدري : (لما جُرح النبي صلى الله عليه وسلم في وجهه الشريف يوم أحد ، مصّ جرحه حتى أنقاه ، ولاح – أي : ظهر محل الجرح بعد المصّ – أبيض . فقال له صلى الله عليه وسلم : (مُجّه) .

فقال : والله لا أمجّه أبداً ! ثم ازدرده – أي : ابتلعه - .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (من أرادَ أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا)

فاستشهد – أي : بأحد - .

ورواه الطبراني أيضاً ، وفيه : قال صلى الله عليه وسلم : (من خالط دمي دمَه لا تمسُّه النار)

قال الهيثمي : لم أرَ في إسناده من أجمع على ضعفه . اهـ .

وروى سعيد بن منصور أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم قال : (من سرّه أن ينظر إلى رجل خالط دمي دمه فلينظر إلى مالك بن سنان)[1] .

قال العلامة القسطلاني : وفي كتاب (الجوهر المكنون في ذكر القبائل والبطون) أن ابن الزبير لما شرب دم حجامة النبي صلى الله عليه وسلم تضوّع – أي : فاح – فمه مسكاً ، وبقيت رائحته موجودة في فمه ، إلى ان قتل رضي الله عنه .

وأخرج الطبراني عن سفينة رضي الله عنه قال : (احتجم النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

(خذ هذا الدمَ فادفِنه) حفظاً من الدواب والطير والناس .

قال : فتغيّبتُ فشربته ، ثم ذكرت ذلك له صلى الله عليه وسلم فضحك) .

قال الهيثمي بعدما أورده : رجال الطبراني ثقات اهـ .

تبرك الصحابة بدراهم مسّتها يد النبي صلى الله عليه وسلم

قال الحافظ ابن حجر في (الجزء الثالث من المطالب العالية) :

باب التبرك بآثار الصالحين :

ثم أورد الأحاديث التالية : عن محمد بن سوقة عن أبيه قال : أتيت عمرو بن حُريث أتكارى منه بيتاً في داره .

فقال : تكارَ – أي : استأجِر – فإنها مباركة على من هي له ، مباركة على من سكنَها .

فقلت : من أيّ شيء ذلك ؟

---

[1] انظر (المواهب وشرحه) للزرقاني ٤ : ٢٢٨

قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نُحِرت جَزور ، وقد أمر صلى الله عليه وسلم بقسمتها .

فقال للذي يقسِمها : (أعطِ عَمراً منها قسماً) .

قال عمرو : فلم يعطني وأغفلني .

فلما كان الغد أتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يديه دراهم .

فقال صلى الله عليه وسلم : (أخذت القسم الذي أمرت لك به ؟) – أي : من لحم الجزور - .

قلت : يا رسول الله ما أعطاني شيئاً .

قال عمرو : فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدراهم فأعطاني ، فجئت بها إلى أمي فقلت : خذي هذه الدراهم التي أخذها رسول الله بيده ثم أعطانيها ، أمسكيها حتى ننظر في أي شيء نضعها ، ثم ضرب الدهر ضرباته – أي : مضى زمن طويل – حتى اشتريتُ هذه الدار – أي : بتلك الدراهم المباركة . ثم أورد حديث خالد بن الوليد المتقدم وقوله فيه : (فحلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستبق الناس إلى شعره ، فاستبقتُ إلى الناصية فأخذتها ، فاتخذت قلنسوة فجعلتها في مقدّم القلنسوة ، فما وجهتها في وجهٍ إلا فتح عليّ) .

ثم أورد الحديث عن ابن سيرين قال : (استوهبتُ من أم سُليم من المسك الذي كانت تعجنه بعرَق النبي صلى الله عليه وسلم ، فوهَبت لي منه – فلما مات ابن سيرين حُنّط بذلك المسك) .

تبرك الصحابة بعصا النبي صلى الله عليه وسلم

عن محمد بن سيرين ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أنه كان عنده عُصيّة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فمات – أنس – فدُفنت معه بين جنبيه وقميصه .

ذكر ذلك صاحب (التراتيب الإدارية) نقلاً عن (جمع الجوامع) معزوّاً للبيهقي ، وابن عساكر ، ونقلاً عن (كنز العمال) .

روى الإمام أحمد في (مسنده) عن ابن عبد الله بن أنيس عن أبيه عبد الله بن أنيس رضي الله عنه قال : (دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نُبيح يجمع ليَ الناس ليغزوني وهو بعُرنة – موضع قريب من مكة – فأتِه فاقتله) .

قال : قلت : يا رسول الله انعته لي حتى أعرفه .

قال : (إذا رأيته وجدتَ له إقشعريرة)[1] .

قال : فخرجتُ متوشّحاً سيفي حتى وقفتُ عليه وهو بعُرنة مع ظعن يرتاد لهنّ منزلاً ، وحين كان وقت العصر ، فلما رأيتُه وجدتُ ما وصف لي رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإقشعريرة .

قال عبد الله : فأقبلتُ نحوه وخشيتُ أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة فصليت وأنا أمشي نحوه : أومئ برأسي للركوع والسجود ، فلما انتهيتُ إليه قال : من الرجل ؟

قلتُ : من العرب سمع بك ، وبجمعك لهذا الرجل فجاءك لهذا .

قال : أجل أنا في ذلك .

قال عبد الله : فمشيتُ معه شيئاً حتى إذا أمكنني حملتُ عليه السيف حتى قتلته – ثم خرجت وتركتُ ظعائنه مكبّاتٍ عليه .

فلما قدمتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآني قال : (أفلح الوجه) .

قال عبد الله : قلت قتلته يا رسول الله .

---

[1] في (مجمع الزوائد) نقلاً عن (المسند) بلفظ : (قُشعريرة) ، وهي : تقبض في الجلد وتجمع وتخشن كالأرض المقشعرة من القحط

قال : (صدقت) .

قال : ثم قام معي رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل بيته فأعطاني عصاً فقال صلى الله عليه وسلم : (أمسِك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس) .

قال : فخرجتُ بها على الناس .

فقالوا : ما هذه العصا ؟

قلتُ : أعطانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرني أن أمسكها .

قالوا : أولا ترجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتسأله عن ذلك ؟

قال : فرجعتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلتُ يا رسول الله لِمَ أعطيتني هذه العصا ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : (آيةٌ – أي : هي علامة – بيني وبينك يوم القيامة ، إن أقل الناس المتخصّرون يومئذٍ) .

قال : فقرنها عبد الله بن أنيس بسيفه ، فلم تزل معه ، حتى إذا مات أمر بها فضُمّت معه في كفنه ، ثم دُفنا جميعاً) .ورواه أبو يعلى والبيهقي .

ورواه الطبراني من طريق محمد بن كعب القرظي وفيه : (فأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم مِخصَرة – أي : عصاً – كان يتخصّر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال لعبد الله :

(تخصّر بها حتى تلقاني بها يوم القيامة) فوضعت على بطنه وكُفّن عليها ودفنت معه) ورجاله ثقات .

الصحابة يستضيئون بعصا أعطاها لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال : (خرجتُ ليلةً من الليالي مظلمةً فقلتُ : لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهدتُ معه الصلاة وآنسته

بنفسي ، ففعلتُ ، فلما دخلتُ المسجد برقت السماء ، فرآني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (يا قتادة ما هاج عليك ؟) .

قلت : أردت – بأبي وأمي – أن أؤنسك يا رسول الله .

فقال : (خذ هذا العُرجون – عصاً – فتحصّن له ، فإنك إذا خرجتَ أضاء لك عشراً أمامك وعشراً خلفك) .

ثم قال لي : (إذا دخلت بيتك رأيت مثل الحجر الأخشن) .

قال : فضربتهُ حتى خرج من بيتي) .

رواه الإمام أحمد والطبراني ، كما في (مجمع الزوائد) .

وفي رواية : (فاضربه قبل أن يتكلم فإنه شيطان) .

تبرك الصحابة بنعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

روى البخاري والترمذي في (الشمائل) عن عيسى بن طَهمان قال : أخرج إلينا أنس بن مالك نعلين جَرداوين – أي : صقيلتين لا شعر عليهما – لهما قِبالان – تثنية قِبال ، وهو زمام النعل - .

قال ابن طهمان : فحدثني ثابت البُناني بعدُ عن أنس ، أنهما كانتا نعلَي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنس بن مالك يحتفظ بنعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنده للبركة ، ويعرضها على زواره ، ليكرمهم ببركتها .

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه خادمَ نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وخادم السواك والوِساد .

وقد روى الحارث وابن أبي عمر ، من مرسل القاسم بن عبد الرحمن ، أن عبد الله بن مسعود كان إذا قام النبي صلى الله عليه وسلم ألبسه نعليه ، وإذا جلس صلى الله عليه وسلم جعلهما – ابن مسعود – في ذراعيه – أي : كل فردة في ذراع – حتى يقوم صلى الله عليه وسلم ، فإذا قام ألبسه نعليه في رجليه .

وفي حمل ابن مسعود نعلي رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يجلس ، في ذراعيه ، معنى التكريم والتبرك .

تبرك الصحابة بموضع جلوس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر

أخرج ابن سعد في (الجزء الأول من الطبقات) عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبدٍ المعروف بالقاري ، أنه نظر إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وضع يده على موضع قعود النبي صلى الله عليه وسلم من المنبر ، ثم وضعها على وجهه .

وروى ابن سعد أيضاً بإسناده ، عن يزيد بن عبد الله بن قُسيط قال : (رأيت ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا خلا المسجدُ أخذوا برمانة المنبر الصلعاء التي تلي القبر ، بميامنهم ، ثم استقبلوا القبلة يَدعون) .

وقد أورد ابن سعد ذلك تحت عنوان : ذكر منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم

تبرك التابعين بأيدي الصحابة رضوان الله عليهم لأنها مست يد النبي صلى الله عليه وسلم

روى الإمام أحمد في (مسنده) عن ثابت البُناني أنه قال لأنس بن مالك رضي الله عنه : (يا أنس مسستَ يد رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدك ؟

فقال أنس : نعم .

قال ثابت : أرني أقبّلها – أي : لأنها مسّت يد النبي صلى الله عليه وسلم -) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن رزين : (أنه نزل الرّبذَة – بلدة قريبة من الشام – هو وأصحابه يريدون الحج .

قيل لهم : ها هنا سلمة بن الأكوع صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : فأتيناه ، فسلّمنا عليه ، ثم سألناه .

فقال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي هذه ، وأخرج لنا كفّه – كفّه ضخمة .

قال : فقمنا إليه ، فقبّلنا كفّيه جميعاً – أي : تبركاً بأثر يد النبي صلى الله عليه وسلم) .

ورواه البخاري في (الأدب المفرد) بلفظ : (فأخرج سلمة يديه وقال : بايعت بهاتين النبي صلى الله عليه وسلم ..) الحديث .

وروى أبو نعيم في (الحلية) عن يونس بن ميسرة أنه قال : دخلنا على يزيد بن الأسود عائدين ، فدخل عليه واثلة بن الأسقع الصحابي رضي الله عنه ، فلما نظر إليه مدّ يده فأخذ يده فمسح – ابن الأسود – بها – أي : بيد واثلة – وجهه وصدره ، لأنه بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال له واثلة بن الأسقع : يا يزيد بن الأسود كيف ظنُّك بربك ؟

فقال : حسن .

فقال واثلة : أبشر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن

الله تعالى يقول : أنا عند ظن عبدي بي ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر)

يعني أنه إن ظن بالله خيراً عامله بظنه ، وإن ظن بالله شراً عاد سوء ظنه عليه

اللهم إنا نسألك حسن الظن بك .

كما أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يكرمون أياديهم التي صافحوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد روى الطبراني عن الحكم بن الأعرج أن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : (ما مسستُ ذكري بيميني منذ بايعتُ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

محبة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى : (قُلْ : إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) .

فقد توعّد الله عباده بالعقاب ، وحكم عليهم بالفسق ، فيما إذا كان أحدُ هذه الأصناف المرغوبةِ المحبوبةِ ، أحبُّ إليهم من الله ورسوله ، وجهادٍ في سبيله !

بل الواجب عليهم أن يكون الله ورسوله أحبُّ إليهم من جميع ذلك كله !

وأعظمُ صورة واقعية لمن كان الله ورسوله أحبُّ إليهم مما سواهما ، وأجلى مظهر ظهرت فيه تلك الحقيقة الأحبّية لله تعالى ولرسوله : هم أصحابُ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قال أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه ، وقد سئل : كيف كان حبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فقال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبَّ إلينا من أموالنا وأولادنا ، وآبائنا وأمهاتنا ، وأحبّ إلينا من الماء البارد على الظمأ) .

وتحققوا بقوله صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبّ إليه من والده وولده ، والناس أجمعين) .

وبقوله صلى الله عليه وسلم : (ثلاث من كنّ فيه وجد بهنّ حلاوةَ الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما ..) الحديث .

وقد بذلوا نفوسهم إيماناً به صلى الله عليه وسلم وحبّاً فيه ، وقدّموه على نفوسهم ، فهم كما أمر الله تعالى وشرع لهم بقوله : (ولا يرغبون بأنفسهم عن نفسه ..) الآية .

بل رغبتهم بنفسه هي المقدّمة على رغبتهم بأنفسهم ، وحبّهم لنفسه صلى الله عليه وسلم أعظم من حبهم لأنفسهم ، كما دلت على ذلك الوقائع ، وشهدت لهم الشواهد .

ونذكر من ذلك أطرافاً موجزة :

أولاً – إيثارهم محبةَ النبي صلى الله عليه وسلم على محبتهم لأنفسهم ، وتقديمهم له على نفوسهم : ومن ذلك : قصة زيد بن الدّثنة ، كما رواه أصحاب (السير)، ورواها البيهقي عن عروة قال : (لما أخرج المشركون في مكة زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه بالتنعيم – لأنهم كانوا لا يقتلون في الحرم تعظيماً له – وقد اجتمع في الطريق خُبيب وزيد بن الدثنة ، فتواصيا بالصبر والثبات على ما يلحقهما من المكاره .

قال أبو سفيان بن حرب – وهو يومئذ مشرك – قال لزيد بن الدّثِنة : أنشدك بالله – أي : أسألك بالله – يا زيد : أتحبُّ أن محمداً الآن عندنا مكانك ، تُضرب عنقه ، وأنك في أهلك – أي : آمناً من القتل - .

فقال له زيد : والله ما أحبُّ أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة ، وأني جالس في أهلي ! .

فقال أبو سفيان : ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحبّ أصحاب محمدٍ محمداً !) . فقد آثر زيد أن يقتل ، ولا يصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأقلّ شيء من الأذى .

قال الحافظ الزرقاني : وفي رواية : أنهم ناشدوا بذلك خُبيباً .

فقال : والله ما أحب أن يفديني رسول الله صلى الله عليه وسلم بشوكة في قدمه ! .

ولا تنافي بين ذلك ، كأنهم قالوا ذلك لكل من خُبيب وزيد بن الدثنة .

وفي (المسند) عن أنس رضي الله عنه : (أن أبا طلحة كان يرمي بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، والنبي صلى الله عليه وسلم خلفه يتترّسُ به ، وكان رامياً ، وكان إذا رمى رفع صلى الله عليه وسلم شخصه ينظر أين

يقع سهمه ، ويرفع أبو طلحة صدرَه ويقول : هكذا بأمي أنت وأبي يا رسول الله لا يصيبك سهم !

نحري دون نحرك ! وكان أبو طلحة يسوّر نفسه – أي : يجعل نفسه سوراً – بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول : إني جَلد – أي : شديد – يا رسول الله ، فوجّهني في حوائجك ، ومُرني بما شئت) .

ومن ذلك : ما رواه البيهقي وابن إسحاق – كما حكاه في (الشفا) وغيره – أن امرأة من الأنصار قد قتل أبوها وأخوها وزوجها ، شهداءَ يوم أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت : لما أخبرت بذلك : ما فعلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأرادت بذلك السؤال عن سلامته وبقائه ، وعبّرت بذلك تأدباً ، لأن الفعل يستلزم الحياة – وفي بعض النسخ : قالت : ما فُعل برسول الله صلى الله عليه وسلم -

قالوا : خيراً هو بحمد الله كما تحبّين .

أي : هو سالم منصور مظفّر .

فقالت : أرونيه حتى أنظر إليه .

فلما رأته صلى الله عليه وسلم قالت : كل مصيبة بعدك – أي : بعد سلامتك ورؤيتك - جَلَل – أي : هيّن حقير ، كما في (النهاية) .

ثانياً – شغَفُهم به صلى الله عليه وسلم وتعشُّقهم إيّاه ، فلا صبر لهم ، إذا لم يشهدوا محيّاه ، فإذا شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قرّت أعينهم ، وطابت نفوسهم ، وانشرحت صدورهم

روى الطبراني عن عائشة رضي الله عنها ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رجلاً – هو ثوبان أو عبد الله بن زيد صاحب قصة الأذان – أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله لأنت – أي : والله لأنت – أحبُّ إليّ من أهلي ومالي ، وإني لأذكرك فما أصبر حتى أجيء إليك

– أي : فيطمئن قلبي وتقرّ عيني – وإني ذكرت موتي وموتك فعرفتُ أنك إذا دخلت الجنة رُفعت مع النبيين ، وإن دخلتُها لا أراك – أي : لأنك في مقام لا يصل إليه غيرك - .

فأنزل الله تعالى : (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) فدعا به النبيُّ صلى الله عليه وسلم – أي : طلب حضوره – فقرأ الآية عليه .

قال الحافظ الزرقاني : والمراد بالمعيّة والمرافقة : كونُه في الجنة يستمتع فيها برؤيتهم وزيارتهم ، والحضور معهم متى شاء ، وليس المراد التسوية في المنزلة اهـ .

وروى الإمام البغوي عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم - أي : اشتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعتقه – وكان شديد الحبّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قليلَ الصبر عنه ، فأتاه ذات يوم وقد تغيّر لونه .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما غيّر لونك ؟) .

فقال : يا رسول الله ما بي مرض ولا وَجَع ، غير أني إذا لم أرَكَ استوحشتُ وحشةً شديدة حتى ألقاك ، ثم ذكرت الآخرة فأخاف أن لا أراك ، لأنك ترفع مع النبيين ، وإني إن دخلتُ الجنة فأنا في منزلة أدنى من منزلتك – أي : فتقل رؤيتي لك ولا أطيق ذلك – وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبداً – فالأمر أهمُّ وأعظم - . فنزلت : (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ..) الآية .

فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لا تطيب نفوسهم ولا تقر أعينهم إلا بمشاهدته صلى الله عليه وسلم حباً فيه وإيماناً به !

وفي ذلك يقول أبو هريرة رضي الله عنه ، كما رواه عنه الإمام أحمد ، أنه قال : قلت : يا رسول الله إذا رأيتك طابت نفسي وقرّت عيني – فأنبئني عن كل

شيء ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : (كلُّ شيء خُلق من ماء) أي : ماء الحياة المذكور في

الآية : (وكان عرشه على الماء) وهو الماء المشتمل على جميع عناصر الحياة – غير الماء المعروف ، فإنه أحد العناصر .

فقال أبو هريرة : قلت : يا رسول الله أنبئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة ؟ فقال : (أفشِ السلام ، وأطعم الطعام ، وصِل الأرحام ، وقم بالليل والناس نيام ، ثم ادخل الجنةَ بسلام) .

ثالثاً – رضاهم بمعيّتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومرافقتِه ، فإذا حصل ذلك لهم فسلامهم على الدنيا وما فيها من ذهبها وفضتها وسائر أموالها ! .

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه ، أن أناساً من الأنصار قالوا حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء – أي : أعطاه الله تعالى غنائم كثيرة – فطفِق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالجعرانة ، يعطي رجالاً من قريش المائَة من الإبل . فقالوا : يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ! يعطي قريشاً ويدَعُنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ؟! أي : تقطر من دماء كفار قريش بمحاربتنا إياهم حتى يدخلوا في الإسلام .

فحُدّث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقالتهم ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدَم – أي : جلد – ولم يدعُ معهم أحداً غيرهم .

فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (ما حديثٌ بلغني عنكم ؟) .

فقال فقهاؤهم – أي : علماؤهم وعقلاهم – أمّا ذَووا رأينا – أي : أصحاب العقول والفهم منا – يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً ، وأما ناس منا حديثةٌ أسنانهم قالوا : يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم يُعطي قريشاً ويدعُ الأنصار ، وسيوفُنا تقطر من دمائهم ؟! .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألّفهم ، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال ، وترجعون إلى رحالكم – أي : منازلكم في المدينة – برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فوالله لما تنقلبون به – أي : أي : ترجعون به – خير

مما ينقلبون به) .

قالوا : يا رسول الله قد رضينا .

فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : (فستجدون أَثَرةً شديدة ، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ، فإني على الحوض) .

وفي رواية لهما أيضاً : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن قريشاً حديثو عهدٍ بجاهلية ومصيبة ، وإني أردت أن أجبرهم وأتألّفهم ، أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا ، وترجعون برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيوتكم ؟) .

قالوا : بلى – أي : رضينا - .

فقال صلى الله عليه وسلم : (لو سلك الناس وادياً ، وسلكتِ الأنصار شِعباً ، لسلكتُ واديَ الأنصار أو شعب الأنصار) .

وفي رواية (مسند) أحمد : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (يا معشر الأنصار أَلَم آتكم ضُلالاً فهداكم الله ؟! وعالةً فأغناكم الله ؟! وأعداءً فألف الله بين قلوبكم ؟ !)

قالوا : بلى يا رسول الله .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ألا تجيبون يا معشر الأنصار ؟) .

قالوا : وما نقول يا رسول الله وبماذا نجيبك ؟ المنُّ لله ولرسوله ! .

قال : (والله لو شئتم لقلتم فصَدقتم وصدّقتكم:

جئتنا طريداً فآويناك ، وعائلاً فأغنيناك ، وخائفاً فأمّناك) .

فقالوا : الحق لله ولرسوله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لُعاعة [1] من الدنيا تألّفت بها قوماً أسلموا ، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام ؟ .

من الدنيا تألفت بها قوماً أسلموا ، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام ؟

أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير ، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ؟! .

فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شِعباً ، وسلكتِ الأنصار شعباً ، لسلكتُ شعب الأنصار .

ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار .

اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار) .

قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم – من الدموع - .

وقالوا : رضينا بالله رباً ، ورسوله قَسماً – ثم انصرف وتفرّقوا .

رابعاً – حرصهم الشديد على مرافقة النبي صلى الله عليه وسلم في جميع العوالم ، واهتمامُهم بذلك في دعائهم أوقات الإجابة .

روى ابن جرير بإسناده عن الربيع ، أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : قد علمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم له فضل على من آمن به في درجات الجنة ممن اتبعه فصدّقه ، وكيف لهم إذا اجتمعوا في الجنة أن يرى بعضهم بعضاً – أي : يروا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم - .

---

[1] اللعاعة : بضم اللام ، معناها هنا الشيء اليسير

فأنزل الله تعالى هذه الآية : (ومن يطعِ الله والرسولَ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم ..) الآية .

وهذا السبب الوارد في نزول الآية لا يتنافى مع ما تقدم من الأسباب ، فإن الآية الواحدة قد تنزل في عدة أسباب ، على أن هذه الأسباب كلها من باب واحد ، وهو سؤال الصحابة عامة وخاصة ، عمّا يجمعهم برسول الله صلى الله عليه وسلم في عوالم الآخرة ، بحيث يكونون معه لا ينقطعون عنه أبداً .

ومن ذلك : ما رواه مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه ، أنه قال : كنتُ أبيتُ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيتُه بوَضوئه وحاجته .

فقال لي : (سَل) .

فقلت : يا رسول الله أسألك مرافقتَك في الجنة .

فقال صلى الله عليه وسلم : (أو غير ذلك) .

قلت : هو ذاك .

قال صلى الله عليه وسلم : (فأعني على نفسك بكثرة السجود) .

ومن ذلك : ما رواه ابن أبي شيبة عن أبي عبيدة قال : سئل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : ما الدعاءُ الذي دعوتَ به ليلةَ قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم : (سَل تُعطَه ؟) .

قال ابن مسعود : قلت : (اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتدُّ ، ونعيماً لا ينفد ، ومرافقة نبيّك صلى الله عليه وسلم في أعلى درجة الجنةِ جنةِ الخلد) .

وروى أبو نعيم عن أبي عبيدة عن أبيه عبد الله بن مسعود قال :

(بينما أنا أصلي ذاتَ ليلةٍ ، إذ مرّ بي النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (سَل تعطه) .

قال عمر : ثم انطلقت إليه – إلى ابن مسعود – فسألته : ما دعوتَ به ؟

فقال : إن لي دعاءً ما أكاد أن أدعه – أي : لا أكاد أتركه - .

اللهم إني أسألك إيماناً لا يبيد ، ونعيماً لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، ومرافقة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم في أعلى الجنة جنة الخلد) .

ولما احتُضر بلال رضي الله عنه نادت امرأته : (واحزناه ! فقال لها : واطرباه ! غداً ألقى الأحبة : محمداً وصحبه) .

خامساً – بكاء الصحابة رضي الله عنهم لألم فراقه صلى الله عليه وسلم ، وبكاؤهم لتذكُّر مجالسه ، وبكاؤهم عند ذكره صلى الله عليه وسلم وتذكُّره والوحيُ ينزل عليه ، وما ينعكس عليهم من أسراره وأنواره ، وبكاؤهم لتذكُّر عهودهم معه صلى الله عليه وسلم ، وبكاؤهم الشديد لوفاته صلى الله عليه وسلم ، وبكاؤهم عند قبره الشريف صلى الله عليه وسلم - وذلك كله دليل على شدة محبتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وشغفهم به .

ونحن نذكر من ذلك أطرافاً موجزة :

أ – بكاؤهم لألم مفارقته صلى الله عليه وسلم :

فمن ذلك ما جاء عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ، خرج يوصيه ومعاذ راكب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي في ظل راحلته ، فلما فرغ من وصيته قال : (يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري) .

فبكى معاذ جَشَعاً – اي : جزعاً – لفراق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم التفت صلى الله عليه وسلم فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال : (إن أولى الناس بي المتقون ، من كانوا وحيث كانوا) .

قال الزرقاني : رواه أحمد وأبو يعلى برجال ثقات .

وقال الهيثمي : رواه أحمد بإسنادين ، ورجال الإسنادين رجال الصحيح ، غير راشد بن سعد وعاصم بن حميد ، وهما ثقتان اهـ .

ب – بكاؤهم لتذكرهم مجالسه صلى الله عليه وسلم :

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : (مرّ أبو بكر والعباس بمجلسٍ من مجالس الأنصار ، وهم يبكون – أي : وذلك في حال مرضه صلى الله عليه وسلم - .

فقال – أحدهما - : ما يبكيكم ؟

فقالوا : ذكرنا مجلس النبي صلى الله عليه وسلم منا .

فدخل أحدهما على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك .

فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وقد عصب على رأسه حاشية بُرد ، فصعِد المنبر – ولم يصعده بعد ذلك اليوم .

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : (أوصيكم بالأنصار ، فإنهم كرِشي وعيبتي – أي : هم موضع سرّي وهم بطانتي – وقد قضَوا الذي عليهم ، وبقي الذي لهم ، فاقبلوا من محسنهم ، وتجاوزا عن مسيئهم)) .

جـ - بكاؤهم عند ذكره صلى الله عليه وسلم وتذكره صلى الله عليه وسلم والوحيُ ينزل عليه :

روى الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه قال :

(قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم : انطلق بنا إلى أم أيمن رضي الله عنها نزورها ، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها .

فلما انتهيا إليها بكت .

فقالا لها : ما يُبكيك ؟ أما تعلمين أن ما عند الله خيرٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! .

فقالت : إني لأعلم أن ما عند الله تعالى خير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء ، فهيّجتهُما على البكاء ، فجعلا يبكيان معها – أي : لتذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزول الوحي عليه ، وتوارد تلك الأسرار والأنوار.

وأخرج ابن سعد عن عاصم بن محمد ، عن أبيه ، قال : ما سمعت ابن عمر ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ابتدرات عيناه تبكيان .

وروى ابن سعد أيضاً عن أنس رضي الله عنه قال : ما من ليلة إلا وأنا أرى فيها حبيبي صلى الله عليه وسلم – ثم يبكي .

ومن ذلك : ما رواه ابن عساكر بسند جيد – كما نص عليه الحافظ الزرقاني – عن بلال رضي الله عنه ، أنه لما نزل بدارَيّا – اسم مكان قريب من الشام – رأى النبي صلى الله عليه وسلم - أي : بعد وفاته صلى الله عليه وسلم - وهو يقول : (ما هذه الجفوة يا بلال ؟ أما آن لك أن تزورني) ؟

فانتبه بلال حزيناً خائفاً ، فركب راحلته وقصد المدينة ، فأتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يبكي ويمرغ وجهه عليه .

فأقبل الحسن والحسين رضي الله عنهما ، فجعل بلال يضُمُّهما ويقبّلُهما .

فقالا له : نتمنى نسمعُ أذانك الذي تؤذن به لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد .

فعَلا سطح المسجد ووقف موقفه الذي كان يقف فيه ، فلما قال : الله أكبر الله أكبر : ارتجّت المدينة .

فلما قال : أشهد أن لا إله إلا الله : ازدادت رجّتها .

فلما قال : أشهد أن محمداً رسول الله : خرَجت العواتق – النساء – من خدورهنّ وقالوا : أبُعثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ! .

فما رؤي يوم أكثر باكياً ولا باكية بالمدينة بعده صلى الله عليه وسلم أكثر من ذلك اليوم .

وذلك لتذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب سماع الأذان من مؤذنه صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن عساكر عن زيد بن أسلم قال :

خرج عمر بن الخطاب ليلة يحرس ، فرأى مصباحاً في بيت ، فدنا ، فإذا عجوز تطرق شعراً لها – أي : تنفشه – لتغزله وهي تقول :

على محمد صلاة الأبرار   صلى عليك المصطفون الأخيار

قد كنتَ قوّاماً بكى الأسحار   يا ليت شعري والمنايا أطوار

هل تجمعني وحبيبي الدار .

تعني : النبي صلى الله عليه وسلم .

فجلس عمر يبكي ، فما زال يبكي حتى قرع الباب عليها .

فقالت : من هذا ؟

فقال : عمرُ بن الخطاب .

قالت : مالي ولعمر ؟ وما يأتي بعمر في هذه الساعة ؟

فقال : افتحي رحمكِ الله فلا بأس عليك .

ففتحت له فدخل .

فقال لها : ردّدي عليّ الكلمات التي قلت آنفاً ، فرددت عليه فلما بلغت آخرها قال : أسألك أن تُدخليني معكما – أي : في الدعاء –

قالت : وعمر فاغفر له يا غفار .

فرضي ورجع – كما في (المواهب وشرحها) .

وعلى هذا جرى خيار التابعين وأتباعهم رضي الله عنهم .

قال مصعب بن عبد الله : كان الإمام مالك إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم يتغير لونه حتى يصعب على جلسائه .

فقيل له في ذلك ؟

فقال – مالك - : لو رأيتم ما رأيتُ لما أنكرتم عليّ ما ترون !

لقد رأيت محمد بن المنذر – وهو سيّد القرّاء – لا نكاد نسأله عن حديث إلا يبكي حتى نرحمه !

ولقد كنت أرى السيد جعفراً الصادق بن السيد محمد الباقر كثير التبسم ، ولكن إذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم اصفرّ لونه ، مهابةً وإجلالاً ! .

قال مالك : وما رأيت جعفراً الصادق يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على طهارة

قال مالك : ولقد اختلفتُ زماناً – أي : ترددت إليه كثيراً – وما كنت أراه إلا على ثلاثِ خصال : إما مصلياً ، وإما صامتاً – أي : مستغرقاً بالتفكير في آيات الله تعالى – وإما يقرأ القرآن .

قال : وكان السيد جعفر من العبّاد الذين يخشون الله تعالى اهـ .

وقال مالك : ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله بن الزبير ، فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع اهـ .

وكان الزهري من أهنأ الناس – أي : أشدهم هناءة وسهولة وليناً – فإذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فكأنك ما عرفته ولا عرفك .

أي : من إجلاله ومهابته النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان قتادة المفسر إذا سمع الحديث يُقرأ عنده ، أخذه العويل – أي : البكاء – والزويل – أي : القلق – والانزعاج من سلطان المحبة والمهابة .

كما ذكر ذلك كلّه القاضي عياض في (الشفا) ونقله القسطلاني في (المواهب) وكان عبد الرحمن بن القاسم إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم يُنظر إلى لونه كأنه قد نزف منه الدم وقد جفّ لسانه في فمه .

د – بكاؤهم لتذكُّرهم عهودَهم معه صلى الله عليه وسلم :

ومن ذلك : ما جاء عن يحيى بن جعدة قال :

عاد خبّاباً ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أبشر يا أبا عبد الله تَرِد على محمد صلى الله عليه وسلم الحوضَ !

فقال : كيف بهذا ؟ وأشار إلى أعلى البيت وأسفله – وفي البيت قليل من الأمتعة والوسائد – وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنما يكفي أحدَكم كزاد الراكب)

يعني : أنه بكى خوفاً من أن يكون قد توسّع في حطام الدنيا ومتاعها ، فوق زاد الراكب ، كما عهد إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الحافظ المنذري : رواه أبو يعلى والطبراني بإسناد جيد .

وعن عامر بن عبد الله أن سلمان الخير رضي الله عنه حين حضرته الوفاة عرفوا منه بعض الجزع .

فقالوا : ما يجزعك – أي : ما يخيفك – يا أبا عبد الله وقد كانت لك سابقة في الخير ؟ شهدتَ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مغازي حسنة ، وفتوحاً عظاماً !

فقال : يُجزعني أن حبيبنا صلى الله عليه وسلم حين فارقنا عَهِد إلينا : (ليكفِ المرءَ منكم كزاد الراكب) فهذا الذي أجزعني – جعلني في خوف - .

قال : فجمع مال سلمان فكان قيمته خمسة عشر درهماً .

رواه ابن حبان في (صحيحه) كما في (الترغيب) .

فخاف سلمان أن يكون خالفَ عهد حبيبه صلى الله عليه وسلم بأن جمع من المال فوق زاد الراكب .

هـ - ضجيج بكاء الصحابة لوفاة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

قال في (المواهب وشرحها) : أخرج ابن منده وابن عساكر – واللفظ له – عن أبي ذؤيب الهذلي أنه قال :

بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم مريض ، فأوجس أهل الحيّ خيفة على النبي صلى الله عليه وسلم وبتُّ بليلة طويلة ، حتى إذا كان قرب السحر نمت ، فهتف بي هاتف يقول :

خطبٌ أجلُّ أناخ بالإسلام بين النخيل ومقعد الآطام

قُبِض النبي محمدٌ فقلوبنا تذري الدموعَ عليه بالتّجسام

قال : فانتبهت من نومي فزِعاً ، وعلمت أن النبي صلى الله عليه وسلم قبض ، فقدمت المدينة ولأهلها ضجيجٌ بالبكاء كضجيج الحجيج أهلُّوا جميعاً بالإحرام .

فقلت : مَه – أي : ما السببُ في هذا البكاء ؟ - .

فقالوا : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم !

قال القسطلاني رحمه الله : وقد كانت وفاته صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين بلا خلاف ، وقتَ دخوله المدينة في هجرته ، حين اشتدّ الضّحاء .

ودفن صلى الله عليه وسلم يوم الثلاثاء ، وقيل : ليلة الأربعاء ، وقيل : يوم الأربعاء اهـ .

وقال في (لطائف المعارف) : وكانت وفاته صلى الله عليه وسلم في يوم الاثنين في شهر ربيع الأول بلا خلاف .

واختلفوا في تعيين ذلك اليوم من الشهر ، فقيل : كانت وفاته صلى الله عليه وسلم أول الشهر ، وقيل ثانيه ، وقيل ثاني عشره ، وقيل ثالثَ عشره ، وقيل خامسَ عشره ، والمشهور أنه كان ثاني عشر ربيع الأول اهـ .

وقد روى ابن إسحاق وغيره أن وفاته صلى الله عليه وسلم كانت ثاني عشر ربيع الأول – وعليه الجمهور . وأخرج الواقدي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : بينا نحن مجتمعون نبكي لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ننم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيوتنا ، ونحن نتسلّى برؤيته على السرير ، إذ سمعنا صوت الكرازين – أي : صوت الفؤوس يُحفر بها – في السحر .

قالت أم سلمة : فصحنا وصاح أهل المدينة ، فارتجت المدينة صيحة واحدة وأذن بلال بالفجر ، فلما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم - بقوله : أشهد أن محمداً رسول الله – بكى بلال وانتحب ، فزادنا حزناً وعالج الناس الدخول – أي : الوصول إلى قبره صلى الله عليه وسلم - فغلق دونهم – أي : منعوا من الهجوم إلى القبر الشريف وقت الدفن الشريف –

قالت : فيا لها من مصيبة ما أصبنا بعدها بمصيبة إلا هانت ، إذا ذكرنا مصيبتنا به صلى الله عليه وسلم .

وجاء بعض هذا الحديث في (طبقات) ابن سعد .

ولاشك أن المصيبة بوفاته صلى الله عليه وسلم هي أعظم المصائب .

وقد روى مالك في (الموطأ) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ليُعَزّ المسلمين في مصائبهم المصيبةُ بي) .

وروى ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في مرضه الذي توفي فيه : (يا أيها الناس أيُّما أحدٍ من المؤمنين أصيب

بمصيبة ، فليتعزّ بمصيبته بي ، عن المصيبة التي تصيبه بغيري ، فإن أحداً من أمتي لن يُصاب بمصيبة : بعد أشدّ عليه من مصيبتي) أي : المصيبة بوفاته صلى الله عليه وسلم .

وأخرج مالك عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : (بكى الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مات ، وقالوا : والله ودِدنا أنا متنا قبله ، ونخشى أن نفتن بعده)

انظر ذلك في (البداية) .

وأخرج الطبراني عن عائشة رضي الله عنها قالت :

قالت صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها ، ترثي رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ألا يا رسولَ الله كنتَ رجاءنا وكنت بنا برّاً ولم تكُ جافيا

وكنت رحيماً هادياً ومعلّماً ليبكِ عليكَ اليوم من كان باكياً

لعَمري ما أبكي النبيّ لموته ولكن لهرجٍ كان بعدك آتيا

كأن على قلبي لفقد محمدٍ ومن حبّه من بعد ذلك المكاويا

أفاطمُ صلى الله ربُ محمدٍ على جدثٍ أمسى بيثرب ثاوياً

أرى حسناً أيتمتَه وتركتَه يبكي ويدعو جدّه اليوم نائياً

فِدى لرسول الله أمي وخالتي وعمي وخالي ثم نفسي وماليا

صبرتَ وبلغتَ الرسالة صادقاً ومتّ قويّ الدين أبلجَ صافيا

فلو أن ربّ العرش أبقاك بيننا سعِدنا ، ولكن أمره كان ماضيا

عليك من الله السلام تحيةً وأدخلتَ جناتٍ من العدن راضياً

قال الحافظ الهيثمي : رواه الطبراني وإسناده حسن اهـ وانظره في (المواهب وشرحها) .

و – بكاء الصحابة عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم متذكرين مواعظه ووصاياه :

ومن ذلك : ما جاء عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، أن عمر رضي الله عنه خرج إلى المسجد ، فوجد معاذاً عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم يبكي .

فقال له عمر : ما يبكيك ؟

فقال معاذ : حديث سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم قال : (اليسير من الرياء شرك ، ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة .

إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء ، الذين إن غابوا لم يُفتَقدوا ، وإن حضروا لم يُعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل غبراءَ مظلمة)

قال في (الترغيب) : رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي في (الزهد) وقال الحاكم صحيح ولا علة له اهـ .

وروى البيهقي عن ابن أبي فُديك قال : سمعت بعض من أدركت من العلماء يقول : بلغنا أنه من وقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فتلا هذه الآية :

(إن الله وملائكته يصلون على النبي) إلى (تسليماً) ثم قال :

صلى الله عليك يا رسول الله سبعين مرةً ناداه ملك : صلى الله عليك يا فلان ، ولم تسقط له حاجة – اي : لا ترد حاجته ، ولا يخيب دعاؤه بوجاهة الحبيب صلى الله عليه وسلم القريب المجيب .

إفاضة القبر الشريف بالأسرار والأنوار ، والخيرات والبركات على صاحبه أفضل الصلوات والتسليمات

قال الإمام الدارمي في (سننه) باب ما أكرم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بعد موته .

ثم روى بإسناد عن أبي الجوزاء أوس بن عبد الله قال :

قحط أهل المدينة قحطاً شديداً ، فشكوا إلى عائشة رضي الله عنها .

فقالت : انظروا قبر النبي صلى الله عليه وسلم فاجعلوا منه كِوىً – أي : نوافذ مفتّحة – إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف .

قال : ففعلوا ، فمطرنا مطراً – أي : كثيراً – حتى نبت العشب وسمنت الإبل ، حتى تفتّقت من الشحم ، فسمّي : عام الفتق .

ومن ذلك : سماع الأذان من القبر الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام فقد روى الدارمي أيضاً تحت عنوان ذلك الباب – روى بإسناده عن سعيد بن عبد العزيز قال : لما كان أيام الحرّة لم يؤذّن في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً ولم يُقَم

قال : ولم يبرَح سعيد بن المسيّب من المسجد ، وكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهمهمة يسمعها من قبر النبي صلى الله عليه وسلم .

ورواه ابن النجار بلفظ : إنّ الأذان تُركَ في أيام الحرّة ثلاثة أيام ، وخرج الناس ، وبقي سعيد بن المسيب في المسجد .

قال : فلما حضرت الصلاة سمعت الأذان في القبر – الشريف – فصليتُ ركعتين ، ثم الإقامة فصليتُ الظهر ، ثم مضى – أي : استمرّ – ذلك الأذان والإقامة في القبر المقدس لكل صلاة حتى مضت الثلاث ليال – يعني : ليالي أيام الحرَّة .

وفي ذلك إكرام من الله تعالى لسعيد بن المسيّب حيث أسمعه ذلك ومؤانسة له

وقد روى البيهقي وصححه وروى أبو يعلى والبزار وابن عدي من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (الأنبياء أحياءٌ في قبورهم يصلون) .

ويشهد لذلك ما جاء في (صحيح) مسلم والنسائي عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أتيت ليلة أسريَ بي على موسى قائماً يصلّي في قبره عند الكثيب الأحمر) .

تمسح الملائكة بالقبر الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام تبركاً وتشرفاً به

روى الدارمي بإسناده أن كعباً – أي : كعب الأحبار – دخل على عائشة رضي الله عنها ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال كعب : (ما من يوم يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفّوا بقبر النبي صلى الله عليه وسلم يضربون بأجنحتهم) .

وفي رواية ابن النجار وغيره (يضربون قبر النبي صلى الله عليه وسلم - أي : يمسحون القبر الشريف بأجنحتهم تبركاً وتشرفاً به – ويصلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثل ذلك حتى إذا انشقّت عنه الأرض خرج صلى الله عليه وسلم في سبعين ألفاً من الملائكة يزفُّونه) .

وفي روايات غير الدارمي : (يوقرونه) .

قال الحافظ الزرقاني : أي : يعظمونه صلى الله عليه وسلم إكراماً .

قال : ولعلّ كعباً علم هذا من الكتب القديمة لأنه حبرها اهـ .

ورواه ابن النجار وابن أبي الدنيا وأبو الشيخ والقرطبي في (التذكرة) كما في (المواهب) .

هذا وقد تمّ بفضل الله تعالى وعونه ، جمع هذا الكتاب ، وتصنيفه في يوم الاثنين الموافق ١٠ من شهر رجب سنة ١٣٩٤ هجرية ، وسوف يعقبه إن شاء الله تعالى كتاب : (سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم معجزاته وآيات نبوته) .

فنسأل الله تعالى أن يمنّ علينا بالعافية والتوفيق ، وأن يبارك لنا في عمرنا وعملنا ، وأن يجعل ذلك خالصاً لوجهه الكريم .

كما وأنني أسأل الله تعالى أن يتقبل مني – بل : يتقبل عني – عملي ، وأن يتجاوز عن تقصيري في هذا الكتاب تُجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يعفو عن ذنبي وزللي ، فإنه وإن كانت بضاعتي مُزجاة ولكن رحمته سبحانه مُرجاة .

وإنني أسأل الله العظيم بجاه رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم أن يرفع مقام والدي وسيدي وشيخي العالم العارف المحدّث المفسّر محمد نجيب سراج الدين رحمه الله تعالى في أعلى مراتب المقرّبين ، وأن يجزيه عني خير الجزاء ، وأن يُغدِق عليه كريم العطاء ، وعلينا وعلى إخواننا وأحبابنا والمسلمين أجمعين .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد إمام الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وأصحابه والتابعين ، إلى يوم الدين ، كلّما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون .

والحمد لله رب العالمين .

فهرس كتاب :

سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

شمائله الحميدة خصاله المجيدة

بقلم فضيلة الشيخ الإمام المحدث المفسر سيدي عبد الله سراج الدين الحسيني رضي الله تعالى عنه

مقدمة الكتاب	٥
وجوب التعرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى شمائله الكريمة	٧

حول محاسن صورته صلى الله عليه وسلم ، وفيه حديث أم معبد	١٣
تلألؤ وجهه المنير صلى الله عليه وسلم	١٩
عرقه الشريف وطيب رائحته وتطيب الصحابة وتبركهم بعرقه صلى الله عليه وسلم	٢٤
تطيب الصحابة بعرقه صلى الله عليه وسلم وتبركهم به	٢٦
طيبه العبق صلى الله عليه وسلم	٢٩
حول خصائص ريقه صلى الله عليه وسلم	٣١
نظافته صلى الله عليه وسلم	٣٣
أمره صلى الله عليه وسلم بالنظافة ، وبيان ذلك من عشرة وجوه	٣٤
جماله صلى الله عليه وسلم وتجمله وأمره بذلك	٤٤
قوة بصره الشريف صلى الله عليه وسلم	٤٨
حول قوة سمعه الشريف صلى الله عليه وسلم	٥١
حول صوته الشريف صلى الله عليه وسلم	٥٥
حلاوة منطقه صلى الله عليه وسلم	٥٧
فصاحة لسانه وبلاغة كلامه صلى الله عليه وسلم	٥٨
آدابه في الكلام صلى الله عليه وسلم ، وفيه من آدابه في الخطبة	٦٠
مدحه صلى الله عليه وسلم الفصاحة وكراهيته اللحن	٦٥
أربعون حديثاً من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم	٦٦
١ : وصيته لابن عباس : يا غلام	٦٧
٢ : وصيته لابن عمر : كن في الدنيا كأنك غريب	٦٧
٣ : وصيته لسهل بن سعد : ازهد في الدنيا	٦٨
٤ : وصيته لسعد : عليك بالإياس	٦٩
٥ : بادروا بالأعمال سبعاً	٦٩
٦ : لا تكونوا إمعة	٧٠

٧ : عليكم بالصدق	٧١
٨ : المرء مع من أحب	٧٢
٩ : إياكم والظن	٧٣
١٠ : المؤمن القوي خير وأحب إلى الله	٧٤
١١ : اتق الله حيثما كنت	٧٤
١٢ : بروا آباءكم	٧٥
١٣ : سبعة يظلهم الله في ظله	٧٥
١٤ : إن العبد يتكلم بالكلمة .. ورواياته ..	٧٦
١٥ : ثلاث أقسم عليهن .. وهو من الخطب النبوية	٧٧
١٦ : صنائع المعروف تقي ميتة السوء	٧٨
١٧ : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه	٧٩
١٨ : ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان	٧٩
١٩ : حق المسلم على المسلم ست	٨٠
٢٠ : دب إليكم داء الأمم قبلكم	٨٠
٢١ : إياكم والجلوس في الطرقات	٨١

٢٢ : من خاف أدلج	٨٢
٢٣ : من نفس عن مؤمن كربة	٨٢
٢٤ : لا تزول قدما عبد يوم القيامة	٨٣
٢٥ : أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله	٨٤
٢٦ : أول خطبة جمعة صلاها صلى الله عليه وسلم في المدينة	٨٤
٢٧ : من خطبه صلى الله عليه وسلم : يا أيها الناس توبوا إلى الله	٨٨
٢٨ : ومنها : إن الدنيا حلوة خضرة	٨٩
٢٩ : ومنها : إن الله لا ينام	٩٠
٣٠ : ومنها : استحيوا من الله حق الحياء	٩١
٣١ : ومنها : إن أولياء الله المصلون	٩٢
٣٢ : ومنها : إياكم والظلم	٩٢
٣٣ : ومنها : يا معشر من أسلم بلسانه	٩٣
٣٤ : ومنها : إني فرط لكم	٩٤
٣٥ : ومنها : ألا وإن الدنيا عرض حاضر	٩٥
٣٦ : ومنها : احضروا المنبر . قال آمين آمين آمين	٩٦

٣٧ : ومنها : ليظهرن الإيمان حتى يرد الكفر	٩٧
٣٨ : ومنها : يا أيها الناس إنكم محشورون	٩٩
٣٩ : ومنها : نضر الله عبداً سمع مقالتي	١٠٠
٤٠ : من وصاياه صلى الله عليه وسلم : أوصيك بتقوى الله	١٠١
٤١ : من خصائصه : فضلت على الأنبياء بست	١٠٣
أرجحية عقله صلى الله عليه وسلم على سائر العقول ، وبيان ذلك من وجوه ، وإقامة الشواهد من السيرة النبوية على ذلك بإسهاب	١٠٤
سعة علمه وكثرة علومه صلى الله عليه وسلم التي لا يحصيها إلا الله تعالى	١٣٠
من أدلة سعة علمه : جمع الله تعالى له القرآن في صدره صلى الله عليه وسلم	١٣٣
من أدلة سعة علمه : الحكمة النبوية المنزلة عليه وهي [الميزان]	١٤٣
من أدلة سعة علمه : إظهاره على المغيبات ، وذلك من تسعة وجوه	١٤٧
كلمة حول آية :{ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا ..}	١٥٨
من أدلة سعة علمه : علمه بأصناف المخلوقات وأنواع أمم الحيوانات	١٦٢
قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم ، وأوصافه العظيمة ، وكم مرة شق قلبه	١٦٦
خاتم النبوة ، وأوصافه ، وحكمة موضعه ، و ..	١٧٦
حول خلقه العظيم صلى الله عليه وسلم	١٨٥

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المثل الأكمل في الخلق والخلق	١٨٨
كمال لطفه ولين عريكته صلى الله عليه وسلم	١٩١
انبساطه مع الأهل صلى الله عليه وسلم	١٩٢
كريم عشرته مع زوجاته وسائر أهله صلى الله عليه وسلم	١٩٣
استماعه صلى الله عليه وسلم إلى حديث الزوجات بالملح ، وفيه : حديث أم زرع وشرح غريبه	١٩٦
كريم عشرته مع الناس كلهم	٢٠٣
أدبه الرفيع مع من يحدثه صلى الله عليه وسلم	٢٠٣
حسن لقائه صلى الله عليه وسلم وإقباله على جلسائه	٢٠٤
بسامته وطلاقة وجهه صلى الله عليه وسلم	٢٠٥
رده صلى الله عليه وسلم التحية بأحسن منها	٢٠٦
ترحيبه صلى الله عليه وسلم بالقادم عليه	٢٠٦
سؤاله صلى الله عليه وسلم عن أصحابه : كيف أنت ؟	٢٠٧
إكرامه صلى الله عليه وسلم كرام القوم	٢٠٨
مباسطته صلى الله عليه وسلم لجلسائه واتساعه لهم	٢١٢
مزاحه صلى الله عليه وسلم وحكم المزاح	٢١٣
تبسمه صلى الله عليه وسلم حين يلقى أصحابه وحين يحدثهم	٢٢٠
حول ضحكه صلى الله عليه وسلم ومم كان يضحك ، وحكم الضحك	٢٢١
ملاطفته صلى الله عليه وسلم للصبيان وملاعبته لهم	٢٢٦
كمال لطفه وشدة اهتمامه صلى الله عليه وسلم بمن يسأله عن أمور الدين	٢٢٨
مكافأته صلى الله عليه وسلم الإكرام بأفضل إكرام	٢٣٢
مقابلته صلى الله عليه وسلم الإحسان بأجمل إحسان	٢٣٢
تفقده صلى الله عليه وسلم أصحابه	٢٣٤
حفظه صلى الله عليه وسلم للود	٢٣٥
صدقه صلى الله عليه وسلم في الوعد	٢٣٧
زياراته الكريمة صلى الله عليه وسلم لأصحابه	٢٣٧
زياراته صلى الله عليه وسلم لضعفاء المسلمين وأهل الصفة	٢٤٠
تفقده صلى الله عليه وسلم أصحابه في الليل ، واستماعه إلى	٢٤١

قراءتهم	
ملاطفته صلى الله عليه وسلم لجفاة الأعراب	٢٤٢
عظيم تواضعه صلى الله عليه وسلم	٢٤٤
أمره صلى الله عليه وسلم بالتواضع	٢٤٩
اختياره صلى الله عليه وسلم أن يكون نبياً عبداً لا ملكاً	٢٤٩
في عظيم حلمه وعفوه صلى الله عليه وسلم	٢٥٣
غضبه صلى الله عليه وسلم لله تعالى وشدته لأمره	٢٥٨
غضبه صلى الله عليه وسلم لا يخرجه عن الحق وصواب القول والعمل	٢٦٠
في عظيم كرمه صلى الله عليه وسلم	٢٦١
في عظيم شجاعته صلى الله عليه وسلم	٢٦٥
صبره على أذى المشركين وتحمله الشدائد في سبيل الله تعالى	٢٦٨
عدله صلى الله عليه وسلم	٢٧٥
رحمته صلى الله عليه وسلم للعالم	٢٧٨
رحمته صلى الله عليه وسلم بالأهل والعيال	٢٨٢
رحمته صلى الله عليه وسلم بالصبيان	٢٨٣
رحمته صلى الله عليه وسلم باليتيم	٢٨٧
رحمته صلى الله عليه وسلم بالحيوان	٢٨٨
رحمته صلى الله عليه وسلم بالطيور	٢٩١
التدبر في قوله تعالى :{ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين }	٢٩٣
في عظيم حيائه صلى الله عليه وسلم . وفيه : أنواع الحياء	٢٩٧
مهابته العظيمة صلى الله عليه وسلم	٣٠٣
خشيته صلى الله عليه وسلم من الله تعالى	٣٠٦
خشوعه صلى الله عليه وسلم لله تعالى وبكاؤه من خشيته	٣٠٩
جوامع من أوصافه الكريمة المشتملة على محاسن خلقه وخلقه وآدابه الخاصة والعامة ، وفيه حديث هند بن أبي هالة بطوله وتفسير غريبه	٣١١
صفات آدابه صلى الله عليه وسلم في منطقه وسكوته	٣١٨
آدابه صلى الله عليه وسلم إذا دخل منزله	٣٢١
سيرته وآدابه صلى الله عليه وسلم إذا خرج من منزله وبرز	٣٢٤

للناس	
آدابه صلى الله عليه وسلم في مجالسه	٣٢٨
سيرته صلى الله عليه وسلم مع جلسائه وآدابه معهم	٣٣٢
سيرته صلى الله عليه وسلم في سكوته	٣٣٧
من آدابه العامة : وقاره العظيم صلى الله عليه وسلم	٣٣٩
تقديمه صلى الله عليه وسلم كبير القوم في الكلام	٣٤٠
تكريمه صلى الله عليه وسلم أهل الفضل	٣٤١
تحسينه صلى الله عليه وسلم الحسن وتنشيطه على إتقان العمل	٣٤٤
مشاورته صلى الله عليه وسلم لأصحابه ، والحكم في ذلك	٣٤٦
حثه صلى الله عليه وسلم على الاستشارة	٣٤٨
تصويبه صلى الله عليه وسلم الرأي الحسن وعمله بمقتضاه	٣٤٩
حبه صلى الله عليه وسلم حسن الأسماء وكراهته قبيحها	٣٥٠
حبه صلى الله عليه وسلم الفأل الصالح وكراهته التطير	٣٥٣
حبه صلى الله عليه وسلم التيمن في شأنه كله	٣٥٧
كراهته صلى الله عليه وسلم إطلاق بعض الكلمات مخافة إيهامها	٣٦٠
حول عباداته صلى الله عليه وسلم	٣٦٥
حقيقة العبادة ومالها من آثار	٣٦٨
المنهاج الذي رسمه صلى الله عليه وسلم للعابدين ، وفيه : التنبيه إلى دقائق تعرض للعابد	٣٧٣
حول تهجده صلى الله عليه وسلم	٣٨٥
وقت قيامه صلى الله عليه وسلم للتهجد	٣٨٨
أذكاره صلى الله عليه وسلم حين يستيقظ لصلاة الليل	٣٩١
إطالته صلى الله عليه وسلم في صلاة الليل	٣٩٤
استفتاحه صلى الله عليه وسلم صلاة الليل	٣٩٦
هيئات صلاته صلى الله عليه وسلم النافلة في الليل	٤٠٢
صلاته صلى الله عليه وسلم في الضحى	٤٠٤
ذكره صلى الله عليه وسلم الله تعالى قبل الضحى	٤٠٦
نوافله صلى الله عليه وسلم بين المغرب والعشاء	٤٠٧
في دعائه صلى الله عليه وسلم	٤٠٨
آدابه صلى الله عليه وسلم في الدعاء	٤١٠

من جوامع أدعيته العامة صلى الله عليه وسلم	٤١٩
أدعيته صلى الله عليه وسلم في مناسبات متعددة	٤٢٧
حول تسبيحه وتحميده صلى الله عليه وسلم	٤٤٦
حول استغفاره صلى الله عليه وسلم	٤٥٠
نسبه الشريف صلى الله عليه وسلم ، وشرح أسماء رجال النسب	٤٥٦
فضل نسبه الشريف صلى الله عليه وسلم	٤٦١
طهارة نسبه الشريف صلى الله عليه وسلم	٤٦٣
حول مولده الشريف صلى الله عليه وسلم وآياته	٤٦٦
الابتهاج والاحتفال بيوم مولده صلى الله عليه وسلم	٤٧٢
عناية الله تعالى به صلى الله عليه وسلم منذ صغره	٤٧٦
تفسير سورة الضحى ، وإزالة الالتباس في { ووجدك ضالاً فهدى }	٤٨١
حفظ الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم من مساوئ الجاهلية منذ صغره	٤٩٤
سفره صلى الله عليه وسلم إلى الشام للمرة الأولى والثانية	٤٩٩
زواجه صلى الله عليه وسلم بخديجة رضي الله عنها	٥٠٢
أولاده صلى الله عليه وسلم الكرام وفضل فاطمة عليهم جميعاً	٥٠٦
بعثته صلى الله عليه وسلم وبدء نبوته	٥٠٩
حفظ الله تعالى له صلى الله عليه وسلم من شر القرين الجني	٥١٧
حفظ الله تعالى له صلى الله عليه وسلم من الخطأ والباطل في جميع أحواله	٥١٨
عصمته صلى الله عليه وسلم من الخطأ ، وفيه بحث نفيس في أسرى بدر ، وبيان صواب فعله صلى الله عليه وسلم من أحد عشر وجهاً	٥٢١
البحث في صوابه صلى الله عليه وسلم في قضية تأبير النخل على وجه دقيق	٥٣٤
الجواب عن قضية الحباب يوم نزولهم قرب ماء في بدر	٥٤٢
إفاضته صلى الله عليه وسلم بالبركات والخيرات	٥٤٣
مسحاته الشريفة صلى الله عليه وسلم وآثارها الطيبة الإيمانية والجسمانية وفيه تتبع نفيس	٥٤٨

مسحاته الشريفة صلى الله عليه وسلم على الصدور ليثبت الإيمان في قلوب أصحابها	٥٥٤
رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح وجه قتادة بن ملحان فيصير كالمرآة	٥٥٧
رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيد عين قتادة بن النعمان بعد سقوطها	٥٥٨
تقبيل الصحابة يد النبي صلى الله عليه وسلم وأطرافه تعظيماً وتبركاً به واقتباساً من أنواره صلى الله عليه وسلم	٥٦١
تقبيل الصحابة يده وقدميه وأطرافه صلى الله عليه وسلم	٥٦٢
تقبيل الصحابة مواضع من جسده الشريف صلى الله عليه وسلم	٥٦٥
تبركهم بأجزائه وآثاره في حياته وبعدها صلى الله عليه وسلم وفيه أخبار لا توجد مجموعة في غير هذا الكتاب	٥٦٧
تبرك الصحابة بسؤر النبي صلى الله عليه وسلم	٥٧٢
تبرك الصحابة بإناء مسه فم النبي صلى الله عليه وسلم	٥٧٢
تبرك الصحابة بثياب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستشفاؤهم بها	٥٧٣
تبرك الصحابة بنخامة النبي صلى الله عليه وسلم وبماء وضوئه	٥٧٤
مداواة النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ببصاقه الشريف واستشفاؤهم بذلك	٥٧٥
تبركهم بريقه الشريف صلى الله عليه وسلم	٥٧٩
تبركهم بدمه صلى الله عليه وسلم	٥٨١
تبركهم بدراهم مستها يد النبي صلى الله عليه وسلم	٥٨٤
تبركهم بعصا النبي صلى الله عليه وسلم	٥٨٥
الصحابة يستضيئون بعصا أعطاها لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم	٥٨٧
تبركهم بنعل رسول الله صلى الله عليه وسلم	٥٨٨
تبركهم بموضع جلوس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر	٥٨٩
تبرك التابعين بأيدي الصحابة لأنها مست يده صلى الله عليه وسلم	٥٨٩

محبة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وبيانها من وجوه	٥٩١
الوجه الأول : إيثارهم محبته صلى الله عليه وسلم على محبة أنفسهم	٥٩٣
الوجه الثاني : شغفهم به صلى الله عليه وسلم وعدم صبرهم عن رؤيته	٥٩٥
الوجه الثالث : رضاهم بمعيته صلى الله عليه وسلم ومرافقته	٥٩٧
الوجه الرابع : حرصهم الشديد على مرافقته صلى الله عليه وسلم في جميع العوالم	٥٩٩
الوجه الخامس : بكاؤهم على فقد كل ما كان يصلهم بالنبي صلى الله عليه وسلم	٦٠١
نماذج من سيرة التابعين في بكائهم وتغير حالهم إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم	٦٠٦
بكاء الصحابة لوفاته صلى الله عليه وسلم وعند قبره الشريف	٦١٢
إفاضة القبر الشريف بالأسرار والأنوار	٦١٣
تمسح الملائكة بالقبر الشريف على صاحبه الصلاة والسلام	٦١٥
خاتمة الكتاب	٦١٦